أبناء الجن

مذكرات عن الاكراد ووطنهم



ترجمة
سوزا شيخ بكر

تأليف
الدكتورة مارغريت كان

أبناء الجنّ

الغلاف : سَعيد الحسيني
الخطوط : د لبريـــــن
مَطبعَة الخلود ٢٢٤٢٧١
دمشق

أبناء الجن

مذكرات عن الاكراد ووطنهم

تأليف

الدكتورة مارغريت كان

ترجمة

نورا شيخ بكر

التدقيق اللغوي

الاستاذ دحام عبد الفتاح

DL

إهداء

- إلى احمد من أجل كل شيء
- إلى أمير لنبضه الاخوي الجارف
- إلى ابناء الجن

اهدي هذه المساهمة المتواضعة

نورا

استهلال

ان كردستان التي تمتد ضمن حدود ايران، العراق ،تركيا والاتحاد السوفياتي ،تشكل أمة بدون لغة رسمية وبدون حدود أو علم ،ولكن كردستان قد وجدت منذ قرون كوطن روحي وجغرافي للملايين.

يشكل الشعب الكردى قومية عرقية ،حيث بقيت لغته المتميزة وثقافته حية على الرغم من الاضطهاد الوحشي الذى كانت تمارسه الدول المعتدية . وعلى نحو مغاير عن شعوب أخرى في الشرق الاوسط ،الاكراد هم مسلمون سنيون مخلصون ،ترتدى نساؤهم الالبسة ذات الالوان البراقة ويظهرن سافرات الوجوه . انهم مدافعون جبارون عن الاستقلال الكردي،وهم مضيفون يحسنون الضيافة وجيران لطفاء.

عندما سافرت مارغريت كان الى كردستان سنة ١٩٧٤ لدراسة اللغة الكردية ،اتخذت هي وزوجها من تعليم الانكليزية عملا لهما في ريزاى . وهي مدينة تقع في الشمال الغربي من البلاد. وبما ان الكردية كانت محرمة قانونيا في ايران ،فان مهمة م. كان تحولت الى متاهة محيطة من المبادرات المزيفة والصمت المربك عندما حاولت أن تقيم علاقة مع الاكراد . وببطء وهي تحطم حواجز اللغة والعادات والسياسة ،اكتشفت م.ك كردستان وشعبها المتشبث بقوة بتراثه وكذلك بحلمه الحي أبدا في الاستقلال.

وخلافا للنساء التركيات والفارسيات في مدينة ريزاى رحبت نساء كردستان بحماس بالمؤلفة . ان ألبستهن ذات الالوان القوس قزحية الصاخبة بالمقارنة مع العباءات السود الخشنة لنساء مسلمات آخريات وطبعهن العملي يتناقض مع تكلف النساء الايرانيات المتمدنات .

ان م . كان ، وهي واحدة من النساء الغربيات القليلات اللواتي كتبن عن الاكراد ، تزودنا بنظرة رائعة عن دور النساء كعضوات في مجالس الحريم وكممونات بالغذاء في قرى ذات أصالة. ترسم مارغريت كان لوحة حية للاكراد من أصولهم التاريخية، حتى الصراعات المعاصرة الموروثة في العلم التطبيقي ونزعات مساواة تحرر المرأة ، والحياة المدنية .

والكتاب المعنون بأبناء الجن الذي أتى في زمانه ومكانه المناسبين يوضح كيف يعيش شعب مضطهد ، لايقهر في احدى أكثر المناطق المتفجرة في العالم .

منحت مارغريت كان شهادة دكتوراه سنة ١٩٧٦ ، بعد أن كتبت اطروحتها عن اللغة الكردية . علمت الانكليزية واللغويات في جامعات عدة في الولايات المتحدة وكذلك في ايران ومصر، وهي موءلفة " مدخل عن الاكراد " في موسوعة هافرد للمجموعات العرقية الامريكية . وتقطن السيدة م. كان في كاليفورنيا مع زوجها وابنها .

مقدمة المؤلفة

منذ قرون خلت ، ألقى النبي سليمان خمسمائة . من الارواح السحرية التي تدعى الجن خارج مملكته ونفاهم الى جبال زاغروس . انطلق هوءلاء الجن في البداية الى اوربا لاختيار خمسمائه من العذراوات الجميلات كعرائس لهم ، ومن ثم ذهبوا للاستقرار فيما عرف بعد ذلك بكردستان .

هذه فقط واحدة من الاساطير التي تحاول تفسير كيف أن أناسا ذوي بشره ناعمه ، وشعر أشقر معروفون بعلاقاتهم الوحشيه غير المحتمله ، وبعد اوانهم قد أتوا ليعيشوا في الجبال الواقعة على نحو منفرج على الحدود التي تفصل بين ايران ، العراق ، تركيا والاتحاد السوفياتي في الوقت الحاضر . لغتهم شبيهه بالفارسية ومن بعيد تمت بصلة الى الانكليزيه وكذلك بالنسبة لاغلبية الالسن الاوربية . ان الاكراد ولكونهم منغلقين في جبالهم لم يتزاوجوا من العرب والاتراك كما فعلوا مع الفرس . ربما لهذا السبب يبدو بعض الاكراد كالأيرلنديين أوحتى كالسويديين أوربما تكون مورثات تلك العذراوات الاوربيات التي أحضرها الجن قديما .

مضيت في بحثي عن الاكراد ـ لأنهم بالنسبة لي ـ يمثلون مغامرة بعيده عن الوطن وقضية عادلة أوءمن بها . كانت لدي تذكره طائرة وعمل ينتظرني في ايران . ولكن كردستان وليست ايران كانت غايتي . لاتوجد خرائط عدا تلك التي رسمها الاكراد و اصدقاوءهم تدرس كردستان ، وطن الأكراد ، لاتوجد اشارات تدل على الطريق ، لامكتب للسياح ، ولامرشد ون سياحيون . هناك البوليس السري الذي سيوجهك بسرعة وبقوة الى الاتجاه المعاكس لكن كردستان هي مكان حقيقي ، لها حدودها ومدنها ولها لغتها ، فكردستان

هي كامارات سحرية في ضباب الجبال غير الكثيف لها طريقة في الظهور والاختفاء ، فهي تكشف نفسها للغربية ومن ثم وبشكل محبط تنغلق على نفسها في وجهها .

ان الكثير من الامريكيين والايرانيين وجدوا صعوبة في فهم سبب اتخاذي القرار لدراسة الكردية ، فليس فيها كسب مادي ولا مجال لتعليم اللغة والأدب بها كما بالنسبة للفرنسية او العربية وفي الحقيقة لايوجد الكثير من الادب الكردي المدون . واللغه الكردية بالنسبة للكثيرين من الايرانيين والاتراك والعرب ليست لغه حقيقية فهم يعتبرونها مجرد لهجه ريفيه خرقاء يتداولها الأميون وأنها غير جديره باهتمام دارسة تعتبر نفسها باحثة حقيقية .

أما الاكراد أنفسهم فلم تكن لديهم صعوبة في فهم اختياري للغتهم . فبالنسبة لأناس يقاتلون من أجل حياتهم ،وللسيادة على أرضهم ، تعتبر لغتهم الام شيئا عزيزا جدا عليهم . ليس كل الاكراد شقرا وذوي ملامح اوربية ، فبعضهم يشبه العرب ،وليس كل الأكراد يرتدون سراويلهم التقليديه الفضفاضه أو الالبسة المتعددة الالوان ، فبعضهم يعمل في المدينة وآخرون يحضرون الجامعات بألبسة غربية الطراز . ولكن الى حد الان فكل الاكراد تقريبا المتعلمون وغير المتعلمين ، الشقر او السمر ، القاطنون في تركيا ، ايران ، العراق ، أو الاتحاد السوفياتي جميعهم يتحدثون الكردية . وفقط في بضعة من العقود الأخيرة المعاصرة ، نجحت الحكومات الثلاث في الانتقاص من هذه العلامة الاخيرة والاكثر أهمية بالنسبة للهوية الكرديه .

ان طريقة اللباس والحلي والحرف اليدويه ستصبح أسلوبا متبعا في ايران بالطريقة نفسها التي سادت فيها الثقافة الامريكية الهندية في أمريكا في الوقت الذي لن يعد يشكل فيه الشعب القبلي تهديدا للثقافة المهيمنه . وكلما حدث هذا بعجلة أكبر شعر الايرانيون بارتياح أكبر نحو هؤلاء الذين يريدون دراسة

الكردية . لكني لم ارد أن انتظر حتى ذلك الوقت ، وأملي هو أن ذلك الوقت لن يأتي ولا بشكل من الاشكال .

كان الاكراد قد استقروا في جبالهم لوقت طويل قبل أن يتربع شاه الفرس على عرشه الطاووسي أو أن يبني أعمدة (أوزيماندياس) في (برسيبوليس) . وقبل ولادة النبي محمد (ص) بوقت طويل اعتنق الاكراد العقيدة الزرادشتية مميزين كلا من اله الشر واله الخير ، بانين لهما معابد النار ، ومقيمين طقوس النوروز " اليوم الجديد " في يوم الاعتدال الربيعي .

عندما قدم العرب أذعن أغلبية الأكراد مثل أغلبية شعوب الشرق الأوسط للاسلام . وقد أعطى الأكراد للاسلام واحدا من أعظم المدافعين عنه – صلاح الدين الايوبي – حيث قاتل ريتشارد قلب الاسد والصليبيين لاستعادة القدس " اورشليم " سنة ١١٨٧ . وقد كان صلاح الدين مخلصا للزمن الذي عاش فيه ، فقد قاتل الصليبيين دفاعا عن الاسلام وليس عن الأكراد ضد العرب .

تبدلت الازمان ثانية ، وفي سياق الامبراطوريات الاسلامية العظمى بحث الاكراد عن هويتهم الخاصة . كان صلاح الدين منهم ولكنه أعطاهم القليل . وفي ظل تلك الظروف أرادوا الخلاص من ضرائب العثمانيين المرهقة ، وأرادوا التعرف على ثقافتهم ولغتهم قبل أن يقهروا من قبل العربية الكلية الوجود . ولكن المثاليين فقط مثل الشاعر الكردي العظيم أحمد خاني ، طالبوا بمثل هذه الامور في تلك الايام المبكرة .

ان أغلبية القواد الأكراد كانوا يقبعون في جبالهم ، ومثل الاسياد الاسكتلنديين يقاتلون أعداءهم من الأكراد ، ناسين كليا قضية وحدة الأكراد .

والآن لقد أعيق الاكراد – مثل أسلافهم الجان – ليس في القمقم ، بل في جبالهم . لقد حرموا من الكثير من مكاسب القرن

العشرين باقين رعاة فقراء ومزارعين يزرعون ويعملون في أرض صعبة بأساليب وادوات أجدادهم . ولم ترأية حكومة أنه من المناسب أن تحسن أراضيهم هذه ومثلما كان حال سليمان مع جانه ، تخاف هذه الحكومات من الاكراد ،تخاف مما قد يفعلونه مع حصة وافرة من نتاجات البترول التي تكمن تحت أرض كردستان ، تخاف مما قد يطالبون به لو عرفوا كيفية القراءة والكتابة وكانت لهم الحرية في التكلم بلغتهم الأم واصرارهم على حقهم في أن يبقوا أكراداً. والأكراد منذ القدم يشغلون بعضا من أقسى وأصعب الاراضي في المنطقة ، ولكن العراقيين قد نجحوا في ابعادهم خطوة اخرى الى الصحراوات الحارقة في الجنوب . أما ايران وتركيا فقد اعتمدتا على أساليب نفسية للسيطرة على الاكراد ، وهم معرضون ضمن حدود هذين البلدين لخطر دائم للابعاد ، ليس الى الجبال هذه المرة ،بل ليكونوا غير أكرادا ولخطر تجريدهم من لغتهم وحتى من لباسهم الخاص .

كان الأكراد في العقود الثلاثة الاخيرة ، قد أغروا ووعدوا ونكثت الوعود من قبل الانكليز والروس والامريكان . لقد سمحوا لأنفسهم بأن يكونوا بيادق في لعبة الشطرنج الشرق أوسطية العظمى آملين في الحصول على الحكم الذاتي لأنفسهم كأكراد . فكل قوة عظمى كانت تعدهم بالحرية عندما تتفرغ من مشاغلها وفي كل مرة ، وعلى الرغم من أنهم كانوا يقاتلون بشجاعة وشرف فقدكانوا يخذلون في قتالهم . وما من دولة – وبغض النظر عما وعدت الأكراد به لحظة قرارها استخدامهم لمصلحتها – سمحت لهم بأن يقاتلوا من أجل أنفسهم ومن أجل حلمهم القومي . وفي الوقت الحالي ، وفي الربع الاخير من القرن العشرين ، وبوفاق الامريكان والسوفييت مع الانظمه في طهران وبغداد ، وأنفره هناك القليل من الاهتمام بالاكراد وبمطاليبهم .

ان النضال من أجل حق تقرير المصير الكردي ظل متنقلا من تركيا في بداية القرن العشرين الى العراق سنة ١٩٣٠ و ١٩٤٠ ،والى ايران سنة ١٩٤٦ وثانية الى العراق سنة ١٩٧٥ ويعود ثانية الآن وأخيرا الى ايران .

ان الأكراد المقيمين في هذه الدول الثلاث وكذلك المقيمين في سوريا والاتحاد السوفيتي يزيد عددهم عن سكان الدانمارك، والنرويج والسويد مجتمعين . ومع ذلك ولاسباب تاريخيه ولانقساماتهم القبلية لم يحفظ الاكراد حقهم أبدا . وفي كل مرة يظهر فيها انه لم يعد لهم أمل فان الأكراد يثورون المرة تلو الاخرى . وكل حكومة من الحكومات المعنيه تقبض على الاكراد قبضة مميته وعندما تضعف تلك القبضه ولو قليلا فان الأكراد يستعدون للقتال . وكما يقول الاكراد " كردستان يان نمان " كردستان أو الموت .

وما يتبع في كتابي هذا هو سرد لقصة بحثي عن كردستان ايران السبعينات ، ايران الشاه وبوليسه السري . عندما عدت في زيارة اخرى سنه ١٩٧٨ ، كانت كردستان واضحه اكثر ، الى حد ما ، لأني عرفت أين ابحث عنها وكذلك لان قوة الشاه كانت قد ضعفت والان وقد أطيح بالشاه ، لا أحد يعرف بالضبط ماذا سيحدث في ايران خاصة في تلك الزاوية العاصفة في الشمال الغربي ،حيث تقع كردستان . ومرة أخرى وكما في أوقات كثيرة خلت ، يقاتل الأكراد من أجل الاعتراف بهم ومن أجل حياتهم .

الجـزء الاول

خارج كردستان

الفصل الاول

ان لباس المرأة في ايران وخاصة لباسها الخارجي هو صومعتها ، هو مأواها ، انه تركيبه تخبر العالم أن المرأة في خارج بيتها ليست آمنة ، وأن أمنها الفعلي هو في بيتها الذي تنتمي اليه . والكلمة المرادفه للعباءة هي " الشادر " وحرفيا تعني الخيمة . والفرق بين أن تكون المرأة بعباءة أو بدونها يمكن أن تعني الفرق بين أن يتحرش بها الرجال أو أن تهمل من قبلهم في الشارع . ان المرأة المغطاة بحجابها والمتحرش بها بطريقة ما لها الحق في أن تثور لأنها قد افترضت مظهر الفضيلة بلباسها والمظاهر في ايران هي أهم بكثير مما يكمن في الداخل وفي جوهر الأشياء .

عندما وصلت الى ايران لأول مرة أحاطت بي مجموعة من السيدات من ذوات الخيم السود وهن يتهامسن ويحدقن في ، متلهفات لفرصه ليتفحصن فيها امرأة أجنبية عارية تقريبا . وكرد على تصرفهن هذا ، أمعنت التحديق فيهن أنا أيضا ; واندهشت لرؤية الكميات الهائلة من مستحضرات التجميل على وجوههن المكشوفة وملامح من أجسادهن من خلال محاولاتهن المطردة والضرورية للاحتفاظ بالخيام المنزلقة حول جسد كل واحدة منهن .وعلى الرغم من أن النساء الايرانيات قد بدأن بالتحرر من عباءاتهن شيئا فشيئا ، ويذهبن الى العمل والمدرسة ويمشين ولو بصعوبة في الشارع سافرات الوجوه ، فان العباءة تشكل الغطاء التقليدي للمرأة الفارسية منذ قرون عدة . وبعيدا عن طهران لبضعة كيلومترات فقط الى الشمال الغربي ، وجدت مجموعه كبيرة من النساء لم يرتدين العباءات ، نساء لا تزال تعني لهن كلمة العباءة خيمة فقط ، وهي قطعة ثقيلة من الصوف المنزلي

الصنع التي تحتم عليهن تحمل مشقة حملها عند سفوح الجبال عندما تتحرك القبيلة صوب الربوع الصيفيه . ومن السخرية أن هؤلاء النساء يرتدين ملابس أكثرا احتشاما بكثير مما ترتديه العديد من النساء الفارسيات العصريات تحت عباءاتهن . ان لباس المرأة الكردية وبمقاييس غربية هو أشبه مايكون بالحصن ، حيث يتألف من طبقة فوق أخرى مع سراويل ثقيلة وقميص داخلي ، وعدة أثواب ، وسترات ثقيلة وصداره ووشاح أو وشاحين حتى في أيام الصيف الحارة .

ايران تشعرني دائما بأني مكشوفه . ففي زيارتي الثانية وأنا جالسه في احدى محطات خطوط الحافلات في طهران كان العرق يسيل مني وأنا أرتدي سترة ذات أكمام طويلة وقبعه ضيقة مرتفعة تحت ثوب قطني ثقيل . ووشاحا كبيرا قد ستر كل شعري ومع كل هذا فقد كان الناس لايزالون يشددون النظر الي .

من السهل ،في الولايات المتحدة ، أن تسخر من مجرد فكرة الغطاء ، وأن تقول : أنه لابأس للنساء المكرهات من قبل أزواجهن أو آبائهن بصورة رسمية لشعور هؤلاء بالعيب . ولكن بما أنك في ايران تتجشم عناء التحديق بك ،فانك تتشوق الى غطاء او الى أي شيء يجنبك نظرات الاخرين والى التحديق بحصانة ، لاأن يحدق فيك الآخرون .

بينما كنت أنا وزوجي جيرد جالسين ننتظر الحافلة لتعلن عن الرحيل ، رأينا رجلا كرديا يمشي باتجاه المنفذه داخل حجرة الانتظار . ولو انه كان ايرانيا . أوتركيا ، أو أرمنيا ، أو آشوريا ، أويهوديا أو عربيا لربما لم يكن بامكاننا أن نخمن زيه الموروث ، على الأقل ليس قبل أن يفتح فمه ويتكلم بلغه متميزة ولكن الأكراد هم على الاغلب ، مميزون دائما في ايران . والحال هو كذلك مع الأمريكان ، على الرغم من حقيقة ان ايران هي أمم من الأغراب وذات هيئات جسدية مختلفه تتدرج بين عرب ذوي بشرة سمراء الى أكراد ذوي شعر أحمر وأغلب الايرانيين حذقون في تمييز الغربيين .

أما الأكراد فلهم حكاية أخرى ، انهم أمة من بقع مجموعات قومية باقية ترتدي لباسها التقليدي . وبلغة قريبة من الفارسية يقدر الاكراد على الاندماج أكثر من الاتراك الذين يسخر منهم بسبب نبرتهم الفارسية ولكن الكثيرين من الاتراك لايهتمون على وجه خاص بالاندماج .

حدقت أنا وجيرد باعجاب صامت في ذلك الرجل الكردي عندما خطا بعيدا عن المنضدة بارزا في سرواله الازرق الصوفي الفضفاض وسترة متناسقة مع السروال ، وعمامة ملفوفة حول قلنسوة مطرزة ضيقة .

شعرنا بقليل من خيبة الامل عندما صعدنا الحافلة ،لعدم وجود أتراك فيها . وفي ليلة طويلة متعبة قضيناها وعيون المسافرين متوجهة الى خارج النوافذ ، لم يشغلني شيئا عن الانسياق في تداعياتي فقد حلمت طوال سنتين بالعودة الى كردستان . ومع ذلك فقد ترددت عندما حان الوقت لذلك ، ووجدت نفسي مرتاحة في الشرق الاوسط . ماذا عن محاولات الاخلال بالأمن ، التي كانت تحدث في كل انحاء البلاد ، ومنذ الشتاء الاخير ؟ . ماذا عن الحقد الذي يحمله الكثيرون من الايرانيين للحضور الامريكي في بلدهم ؟ ،ومع كل العنف الايراني المبرر لم أحتج الى أن أمعن النظر في أسباب شخصية اخرى تتعلق بمسألة تخوفي . وحالما بدأت الحافلة بالسير متسلقة الهضبة ، بدأت الذكريات القديمة والشكوك تزحف الى ذهني .

منذ أربع سنوات خلت ، وبعد مرور قرابة ستة أشهر على زواجي أقنعت زوجي على كره منه بالمجيء الى مدينة صغيرة تدعى ريزاي قريبة من الحدود حيث تلتقي ايران بكل من العراق وتركيا، يقطن خمسة عشر مليونا في تلك الجبال الحدودية والمناطق المحيطة بها وجميعهم يتحدثون بلهجة أو بأخرى من اللغة الكردية . كنت قد ذهبت خصيصا لدراسة لغتهم ولكنني اخبرت الحكومة الايرانية أني قد اتيت لتعليم اللغة الانكليزية في كلية محلية . لم يُشجع الاجانب أبدا على أن يقضوا وقتا مع أقليات متفجرة مثل الاكراد ، وفي فترة اقامتي كانت قد اندلعت حرب اخرى ضمن السلسلة الطويلة من الحروب على الحدود العراقية مباشرة . كان من الممكن دراسة لغة يمكن

بلوغها بسهولة أكثر مثل الاسبانية أوالعربية أو حتى الصينيـــــة ، لغات لاتتطلب ذرائع للاتصال بالناس الذين يتداولونها ، لغـــــات تستخدمها حكومات رسمية ، مفضلة إياها على تلك التي يســـتخدمها الهاربون ليلاً في اجتماعاتهم الثورية .

نظرت خارج نافذة الحافلة والظلام ينسدل فوق المناظر الطبيعية حيث تهب فيه الرياح الناشطة ، والعشب الاخضر يتموج بين الفينـــــة والاخرى الى جانب شجيرات أحنتها الرينح ، عروق نابتة في الصخـــور . ما الذي أعادني الى هذه الارض القاســـية الغامضة ؟ ، هـــــل " البيريز والديفز " التي يقابلها عندنا الجنيـــات والشياطين هي التي نسجت لي تعويذه ، موازنة بذلك بين الخوف وروعة الاشياء وبين القهـر والفرح ؟ ، عندما غادرت ايران منذ ثلاث سنوات خلت ، أفعم رأســي خلال سنة واحدة بعدها بالذكريات التي تبعث على النشوة والحيوية ، سنة لاتزال حتى الآن تقاوم بعناد كي لاتوءسر في سطور ورقة ما أوحتى فـي محادثة لطيفة . هل أحببت ايران ؟ ، كان هذا سوءالا معقولا تمامـا وقد أصبح متوقعا من شفاه العائلة والاصدقاء والمعارف الايرانيـيــن القاطنين في الولايات المتحدة بعد عودتنا . ولم يتوقع أحد أكثر مــن جواب لطيف وهو أحببناها كثيرا أو كانت صعبة قليلا . وقد فوجـــئ أغلب الناس بمعاناتنا الفكرية عندما كنا نحاول أن نعبر عن شعورنا . لقد كان مشهد الذكريات المتغير والمختلف الالوان ــ البصرية والعاطفية حيويا جدا تقريبا . كنت أتلهف للتحدث عن تجربة عيشي في ايـــــران ضمن مفاهيم عامة متدفقة لأكون مفهوما عن هذه التجربة غير المريحة ، لأقرر مرة ولتكن الأخيرة : هل أحببت ايران أم كرهتها ؟ .

أشار كثير من الناس الى أن الجو النفسي السائد في ايران هــو جو من جنون الاضطهاد والارتياب والعظمة . ومن المحتمل أن يفترض كـل شخص تعرفه في وقت ما أوآخر انك انت أو أحد معارفك من الذيـــن بدأت تشق بهم هم من عناصر البوليس السري . انه لشيء مثير للاعصـاب أن تشعر أن الناس ــ من الممكن ــ أنهم يهزوءون بك ، فهم يدعـونـك الى منازلهم ويخبرونك أنهم مهتمون بك جدا لمجرد أنه واجب اجتماعي والمفروض عليهم أن يوءدوه ، وهم ربما يحتقرونك في داخلهم في الوقـت نفســه .

من بين مجموع الناس الذين التقيت بهم تلك السنة في ايران تكونت لدي ثقة بالأكراد . وهم الوحيدون الذين بدا لي أنهم يثقون بي . ومع ذلك فان غياب ثلاث سنين زعزع ثقتي تلك ، على الرغم من أني لم أكتب رسالة واحدة الا وتلقيت عليها جوابا . والآن وقد تطبعت بسلوك الايرانيين فيما يتعلق بالثقة في معناها الظاهري ، تساءلت في نفسي لماذا وثقوا بي على الرغم من كل شيء . لقد ذهبت الى هناك والثورة الكردية في أوجها ، حرب كان من المفترض أن يخوضها الاكراد العراقيون فقط ، ولكنها جعلت الامل يضطرم من جديد في نفوس الاكراد في كل مكان .

لدى عودتي الى ايران تأكدت من شيء كنت قد شككت فيه من قبل وهو تورط أمريكا الممقوت ، والواسع الانتشار في تلك الحرب . فقد تأكد لي بعد ذلك أكثر من أولئك الذين بدأ أنهم كانوا يحركونه .

عندما غادرت ايران في المرة الاولى ، بعد مرور خمسة أشهر على انهيار الثورة الكردية في العراق كان الاكراد الايرانيين لايزالون يلقون بالملائمة على الشاه لخيانته اخوانهم العراقيين وقد بدا عدد قليل فقط من الاكراد العراقيين واعين لدور المخابرات المركزية الامريكية الذي لعبته في خيانة مصالح الأكراد . ماذا لوحزم أصدقائي -ولو على نحو متأخر-بعد كل شيء - .أنني كنت جاسوسة ؟ ، بأي ضرب من الترحيب كانوا سيستقبلونني عندما أعود ؟

عندما كنت في كردستان كنت أشعر مع الرجال الأكراد براحة اكثر مما لو كنت مع زجال آخرين من أي فئة أخرى في المنطقة . ومع ذلك فقد كانت تحدث صدامات مخيفة مع الرجال الأكراد في القرى الجبلية النائية والمدن التركية الحدودية الصغيرة الواقعة بين الغرباء . كان جيرد معي هذه المرة كما كان في معظم رحلاتي . ان وجود الاسلحة في قرية كردية ، سيجعل ابتغاء النجاح لزوج أمريكي متعب في مهمته أمرا ملحا . حدقت خارج النافذة مرة أخرى للاطمئنان فقط ، فرأيت ومضات من النور تلوح من بعيد . ففي ايران القليلة السكان تكون الأصقاع الواقعة بين المدن ، خالية على الأغلب وقد كانت الجبال لقرون عديدة ، مأوى لقطاع الطرق وحتى الوقت الحاضر ، في العقود الأخيرة من القرن العشرين

أتساءل عمن يمكن أن يختبيء هناك ، منتظرا حافلتنا لتمر به .

في داخل الحافلة ،راقبت امرأة جالسة في المقعد الأمامي وهي تلف رأسها ، والجزء العلوي من جسدها بعباءتها استعدادا للنوم . ومرة ثانية شعرت أنني مكشوفة وبدون مأوى .والقرى التي كنا ننوي البقاء فيها ليست بعيدة عن المدينة الا ببضعة كيلومترات ،ولكن هذه الكيلومترات غالبا ما تكون متعرجةحيث تلتف عبر الجبال فوق طرق ترابية . وليس في القرى طاقة كهربائية ولاهواتف . فليس بمقدورك أن تخطو الى حجرة ما وتتصل بالشرطة اذا أصبت بسوء . أعرف أني كنت أترك مخيلتي تسرح حالا ولكن الشياطين كانت تتملكني .

ـ أنا خائفة .

استطعت أخيرا أن أهمس بذلك عاليا لجيرد .

ـ أفترض أنهم لايريدون روءيتنا مرة أخرى .افترض أنهميظنوننا مع المخابرات الأمريكية .

أجاب جيرد موءكدا :

ـ أنا لست متأكدا من أنهم لن يريدوا ذلك ،ولكنني أثق بحاج اسماعيل فهو صديقنا .

كان الحاج اسماعيل يجيب على رسائلي لمدة سنتين بخطه الرديء وبكتابة فارسية تعلمها بنفسه . لم يتح الرجال الاقطاعيون الوقت الكافي للالتحاق بالتعليم الرسمي في حياتهم المحمومة في الأيام الخوالي. وقد كنت أبذل جهدا أحيانا في فك رموز رسائلهم المكتوبة بالكردية على الرغم من خبرتي الواسعة بالمراسلة ،لأنه لم يكن أحد منهم قد تلقى تعليما في أصول كتابة لغتهم الخاصة وفي مناطق عديدة يقطنها الأكراد تعتبر الكتابة عملا خارجا على القانون . ولكن الحاج اسماعيل كان يكتب على أية حال ، ويرسل تحيات مجموعة من نساء لايجدن الكتابة . لقد قضوا حياتهم في القرى بعيدين عن أية مركز بريد، ولكن المسافة لم تكن هي المشكلة فاغلبهم كانوا أميين .

عندما فكرت بالنساء ، وتذكرت أسماءهن مثل : مريم ذات الشعر الأحمر والعينين الزرقاوين وخديجة ذات العينين البنيتين والأنف الطويل

ونسرين بذقنها " المود يجليناني " وشعرها الأسود الفاحم ، شعرت بالطمأنينة تعود الي . حاولت أن أتخيل ماكن يفعلنه خلال فترة الثلاث سنوات التي كنت فيها بعيدة عن ايران . فقد كنت ادون ملاحظاتي المتعلقة باللغة الكردية ،وقدحصلت على درجة علمية ، ودرست وسافرت كثيرا خلال هذه السنوات الثلاث . أما هن فقد كان من المحتمل أنهن بقين في القرية باستثناء بعض الرحلات القصيرة مصطحبات معهن مرافقات الى المدينه حسب هوى الحاج . ربما كان علي أن أذهب بعيدا وأعود لأدرك كيف أن هوءلاء النساء لم يذهبن الى مكان آخر لاخلال فترة الثلاث سنوات من بعدي ولافي غيرها ، لربما خرجن من القرية في أوقات الحرب والهجرة ، أوبسبب الزواج من أكرادمن مناطق آخرى ، هذا بالنسبة للنساء غير المحظوظات منهن .وخلال الشتاء حيث تجعل جرافات الثلج والمواقد النفطية الحياة تعيسه ، كانت مريم وخديجة ونسرين يستيقظن كل يوم ويوءدين أعمالهن . وخلال الربيع كن يتمشين بين القطعان وبجوار الجداء والخراف ذات القوائم الضعيفة . كانت نسرين وخديجة تعملان في كل فصل من فصول السنة في ذلك المطبخ المعتم الممتلىء بالدخان في خلفية المنزل ونحن الآن في فصل الصيف ،فصل الحصاد ، وجني المشمش والخيار من البساتين والحقول . وسيحل فصل الخريف حالا ، وستهطل الأمطارثانية . وعلى الرغم من صداع الرأس وآلام الأسنان والحيض وغثيان الصباح الذي كان يصيبهن أثناء حملهن فقد كانت هوءلاء النساء ، يشاركن في تموين أهاليهن . ان تحملهن وثباتهن هذا جعلني أطمئن في غماربحثي الفجري لتحقيق الذات . ماكان عليهن أن يتبعن مايرغبن به ، فقد كان السبيل قد مهد أمامهن منذ قرون خلت .

قررت البقاء في جناح الحريم وارتداء ملابسهن . ولدى خروجي في نزهات الى السهل ومنه الى الجبال سيظن بي على أني امرأة كردية . لقد كان من الصعب تمييزي بشعري البني وبشرتي الشقراء عن الكرديات وبقدر اقتحامي واديا من جنون الاضطهاد والارتياب والعظمة ، وجدت نفسي أحلق ثانية في مخيلتي الى جمالية كوني سيدة كردية .

انقطعت تأملاتي عند هبوط الليل ، وفي الساعة الحادية عشرة لدى توقف الحافلة في الاستراحة الأولى ، واندفعنا الحجرة مزخرفة

مضاءة وممتلئة بمسافرين متعبين،يلتهمون من أمامهم كميات كبيرة من الأرز المسمن . لقد كانت معدتي مضطربة بسبب حركة الحافلة والشيء الوحيد الذى أحسست به هو أني استطعت الجلوس لألتقط من وقت لآخر شيئا من طبق " الشالي كباب" الأرز المطبوخ مع اللحم الذى أمر جيرد باحضاره أما شهية جيرد فقد كانت في حالة سوية .

بعدئذ قفلنا راجعين ووقفنا خارج الحافلة نتحدث مع مسافرين آخرين . كانت واحدة منهم امرأة عجوزا ،قالت انها عملت في السفارة الأمريكية في طهران ولكنها لم تكن تعرف التحدث بالانكليزية قط. حتى أن لغتها الفارسية كانت ذات نبرة ثقيلة بسبب من لغتها التركية الآزرية الأم.لمّح الينا زوج المرأة ذات الحجاب الجالسة في المقعد الأمامي أن ريزاى ليست بالمكان المناسب لنا لنقوم بزيارته ونصحنا قائلا: على الأجانب أن يبقوا في طهران. أدركت أنه كان يريد التودد الينا وأخبرنا أنه قد درس في فلوريدا ويتمنى الذهاب الى كاليفورنيا حالا لاتمام دراسته.حالما صعدنا الحافلة تساءلت بصمت فيما اذا كانت زوجته معتادة على ارتداء الحجاب ، أم أنها قد ارتدته خصيصا لهذه الرحلة لمدينة ريزاى المتخلفة .

اندفعت بنا الحافلة بعناد على طول الطريق العام وقد أعيق تقدمها فقط بالتفتيش الدوري في كل ساعة من قبل شرطة الطريق العام فقد كانوا ينظرون الى السرعة المرسومة بيانيا على ورقة الأسطوانة الموضوعة خلف مقياس السرعة للتأكد من أن السائق لم يتجاوز حدود السرعة المناسبة.وقد ابقتني المواقف المستمرة يقظة .ولكني سلمت بصحة انخفاض عدد الحوادث منذ أن فرضت دورية الطريق العام النظام الصارم .

بعد برهة بدأنا نتقدم على طول الشاطىء الشمالي الغربي من بحيرة ريزاي الشبيهة بشكل معين ،وهي بحيرة ضخمة ميتة مالحة تقع شرق سلسلة جبال زاغروس الواقعة الى الشمال الغربي من ايران . فتحت عيني عند انبلاج الفجر وحدقت عبر البقاع المالحة حتى البحيرة الضاربة في الزرقة . ولكن بحيرة ريزاى أصبحت ملجئي المفضل منذ بدأت بالتجديف لساعات على سطحها أغمس الخيار في الماء المالح وأقضمه على مهل بصوت مسموع .

بدأنا بالتدريج نرى علامات تدل على أن المنطقة مأهولة ، مثل بعض القرى التي يمكن لها أن تصبح يوما ما ضواحي ريزاي الحقيقية . ولدى تقدمنا صوب المدينة نفسها لاحت لنا خضرة في أرجاء عديدة وهي دلالات أكيدة على وجود كائنات بشرية في هذا السهل المقفر . عبرنا مصنع سكر الشمندر ومن ثم الطريق الجانبية المؤدية الى المطار ، وأخيرا وجدنا أنفسنا في الساحة الدائرية مع تمثال والد الشاه ، رضا ، الذي أعيد تسمية المدينة بريزاي نسبة لاسمه .

دمدمت الحافلة هابطة بنا الى شارع عريض . وعندما شعرت بدنو الجبال ذهبت عني شياطين وجنيات الليلة الفائتة . وعند الفجر شعرنا فقط بقليل من الغربة المنهكة . كانت ريزاي صغيرة جدا ، وقد استوقفتنا هذه المفاجأة كلينا . عندما كنا نقيم هناك كانت بالنسبة لنا عالمنا كله ، عالما من الألوان الخضراء والرمادية والبنية التي جانب زرقة البحيرة . تقع المدينة على بعد ساعة واحدة من طهران . وهي مكان لم يشجع الاجانب ، أو الايرانيين المدنيين على الذهاب اليها بسبب صغرها ، على الرغم من كونها المدينة الكبرى في منطقة أزربيجان الغربية .

عندما أحسست بأن أيقاعات جسدي مرتبطة للأبد بأهتزازات الحافلة ، عند ذلك فقط شارفت الرحلة على الانتهاء . كان أحد سائقي سيارات الأجرة قد استيقظ مبكرا ليلتقي بالحافلة وقد بدا مبتهجا على طريقته التركية الخشنة عند لقائه فجأة بأجنبيين . كنت أخشى ألا أجد أحدا في منزل الحاج اسماعيل ، وقد انتظرت في السيارة مع السائق ، بينما ذهب جيرد ليدق الجرس . لم تكن واجهة المنزل بقرميده الأصفر وقضبانه الحديدية المطلية بالأزرق في كل نوافذ الطابق الأول قد تغيرت . ولكني لمحت زجاجا مكسرا وطبقة كثيفة من الغبار خلف القضبان ، فشعرت لوهلة بالخوف . لماذا ترك الحاج اسماعيل بيته يبدو وكأنه مهجور ؟

بحيوية مدهشة وافق سائق التاكسي على أن يمضي بنا عبر الجبال . فمن المألوف أن سائقي سيارات الأجرة يغفلون أن يتركوا

الفولغات الروسية الشبيهة بالدبابة أن تتدبر أمر سيرها عبر الجبال .

في غضون هذه الفترة كانت الشمس قد أشرقت ولكن الشارع الطويل المشجّر كان خاليا من المارة عندما أسرعنا هابطين بروية مارين بالكلية التي عملنا فيها حتى بلغنا نهاية الاسفلت . في قرية باند حيث تنتشر المنازل فوق جبل يشرف على واد أخضر خصب . ان باند هي قرية بالأصل ، ولكنها تتحول الى ملجأ لفئة السائقين في ريزاي .

هبط السائق مبطئا في سيرة عندما ارتطمت سيارته بطريق حصوي منحدر . ها نحن الآن نتبع النبع الصافي الذي يتدفق من الجبال هابطا نحو سهل مرگا وار خلال ممر باند ، وعبر سهل آخر متوجها الى البحيرة . وقد أدهشني اخضرار الجبال الى يسارنا وامتلاء النبع الى يميننا . فقد كان هذا شهر تموز وقد مرت أشهر على موسم الامطار . وفي شهر تموز في السنة التي مكثنا فيها في كردستان كان الجفاف قد جعل السهل ظمئا وذا لون بني داكن .

ارتفعت الجبال فوق رؤوسنا مباشرة خارج سهل ميرگاوار الدائري العريض . والى الاسفل من رقع الثلج كانت قرية دستان تقبع مثل زمردة فوق رقعة خضراء مائلة للصفرة من الخضرة الجافة . وقد أخبرتنا الاهرامات العالية من القش ، المكومة على طول الطريق عند مدخل القرية بأن الحصادة كانت تعمل قبل قليل من الزمن . ولنتجنب الجدول المتعرج عبر دستان ، اتبع السائق توجيهاتنا الى المنزل الحجري ذي الطابق الوحيد ، منزل مريم خانم زوجة الحاج اسماعيل الثانية . لم يبد أحد في تلك النواحي و شعرت بالغرابة لذلك ، فبعد أن قطعت هذه المسافة الطويلة وما أحد يرحب بي أوحتى يلاحظني . ومع ذلك فان رغبتي في أن يلحظني أحد ماتعزى فقط الى شعوري النامي بأنى لم أبتعدحقيقة كل هذه المسافة أبدا . لم يكن أي شيء غريبا علي ، المدينة ، وادي باند ، النهر ، الجبال ، كلها كانت كما كنا قد تركناها ولربما أكثر اخضرارا ولكنها من الممكن أن تكون كذلك

لأن شهر أيار لايزال قائما والسهل لايزال يتشرب من الثلج المذاب . من الممكن أن النوم كان قد أخذنا في هذه المدينة الصغيرة القابعة في حضن الجبال . أولربما أننا قد استيقظنا لتونا وتذكرنا أن لنا موعدا لمقابلة الحاج اسماعيل في دستان .

قبل ذهابي الى كردستان للمرة الاولى ، وحتى قبل أن اقرر الذهاب ، مضيت في ما يقارب نصف دزينة من الرحلات الفكرية الى هناك برفقة مجموعة تقريبا كلها من المغامرين البريطانيين في غزواتهم لكردستان الموحشة . حيث صورت وبجلاء ، المشقات البدنية التي عانى منها المؤلفون والخوف من قطاع الطرق في هذه الأصقاع . والشيء الأكثر امتاعا لي كان اندهاش الرجال الغربيين لتمتع المرأة الكردية بحرية نسبية . فبعد مجالس الحريم والاغطية السوداء التي لقوها في المدن الفارسية والعربية لم يقووا على الاقتناع بمنظر نساء كرديات بغير خمار يعشن ويعملن جنبا الى جنب مع رجالهن .

كان من الصعب عليّ تتبع الكتب وهي تصف الحملات العسكرية المملة ، أو تسهب في التفاصيل عن جغرافية منطقة لم استطع تخيلها . ومع ذلك فقد نجحت في أشياء عدة . لقد كان الاكراد مثل الفرس زرادشتيين قبل أن يعتنقوا الاسلام في القرن السابع الميلادي .

واذا أخذنا بعين الاعتبار التربة الجبلية الفقيرة فلن يثير استغرابنا ترحل الأكراد وعلى نحو تقليدي من مكان لآخر ، يرعون قطعانهم وسوائمهم في المكان الذي يعثرون فيه على الكلأ . وقد تبقيهم الشتاءات الجبلية القاسية في الاحواض الجبلية خلال فصل الثلج وعلى قمم الجبال عندما تصبح السهول حارة قائظة في الصيف .

لم أقرأ هذه الاوصاف عن الرحلات الكردية بالترتيب الذي كتبت فيه بل كنت أقرأها ، كلما وجدتها في الزوايا المغبرة في المكاتب الضخمة . عندما قرأت مجموعة الكتب والاسفار الكاملة عنهم ، لاحظت اختلافا مدهشا ، لافتا للنظر بين كردستان ١٨٧٠ وكردستان ١٩٧٥ اسلوب الحياة لم يتغير عمليا ، واللباس والعادات كانت كما هي منذ قرون قبل أن يصفها الغربيون . أن جغرافية المنطقة هي التي قد

تغيرت ، فكردستان القرن التاسع عشر العظمى قد قسمت الى أجزاء وأقسام من العائلات والقبائل التي وجدت نفسها في التخوم غير المطبحة وكانت هذه دائمة الانقسامات .

على الرغم من أن أجزاء من كردستان قد حكمها في أوقات مختلفة شيوخ قبائل وأمراء أكراد ، فان كردستان لم تتوحد فعليا أبدا . أن الاكراد أنفسهم يرجعون سلسلة نسبهم الى الميديين تلك السلالة الايرانية الحاكمة الممعنة في القدم والتي غزت نينوى في ٦١٢ ق.م ، ثم هم أنفسهم غزوا من قبل الفرس سنة ٥٥٠ ق.م ومنذ ما يقارب ٦٠٠ ق.م فما فوق فان المساحة التي تسمى بكردستان حاليا كانت قد غزيت بالتتابع من قبل السلوقيين ، البارثيين، الساسانيين، الأرمن والروم والبيزنطيين والسلاجقة والمنغوليين والعثمانيين، وغيرهم وعندما كانت تضعف هذه الحكومات الاستعمارية أو يزول كيانها ، كان الأكراد سريعين في حكم أنفسهم . لكن مع قدوم الجيوش الحديثة والحكومات القوية للسيطرة عليهم أصبح الحكم الذاتي الكردي أقل احتمالا . وفي سنة ١٥١٤ ثبت تقسيم كردستان بين الامبراطورية الفارسية والعثمانية . ولكن الحدود الجبلية المرتفعة في كلا الامبراطوريتين اللتين لم تكونا تملكان تجهيزات عسكرية حديثة ، لم تكن واضحة بعد في الحياة اليومية للأكراد العاديين . وقد حثت الهجرات حسب الفصول وتبعا لصلاحية مناطق الرعي أكثر من أن تكون أوامر من الحكومات المركزية . لقد كان المغامرون البريطانيون في القرن التاسع عشر محظوظين، وان كان عليهم أن يقاتلوا قطاع الطرق ، فقد كان بامكانهم التجوال في كردستان دون أن يعيقهم حرس الحدود .

بعد الحرب العالمية الاولى وانحلال هاتين الامبراطوريتين وعد الاكراد الذين كانوا تحت الحكم العثماني بدولتهم المستقلة من قبل الحلفاء . وفي وقت مبكر من القرن التاسع عشر كان قد اجتمع بعض الاكراد المنوّرين مثل الشيخ عبيد الله النهري ـ وقد التقيت بأحد أحفاده لاحقا ـ بالحكومات الأوروبية للتحرر من ضغط الأتراك كممثلين عن الأكراد . وبعد الحرب العالمية الثانية انطلق الأكراد

في دعواهم لانشاء دولة كردية على أسس بنود ولسون الأربعة عشر التي أعلنها في كانون الثاني سنة ١٩١٨ . فقد عرض ولسون اقتراحا يوجب اعطاء الفرصة للاقليات العرقية الكبيرة داخل الامبراطورية التركية مثل الأكراد والأرمن والآشوريين لاقامة دولهم الخاصة بهم ، ولكن معاهدة سيفر الموقعة سنة ١٩٢٠ بين الحلفاء والحكومة التركية الألعوبة ، تكفلت باقامة دولة كردية خلال سنة من تاريخه ولكنها لم تترجم عمليا أبدا . فقد رفضها القوميون الأتراك الجدد بقيادة مصطفى كمال أتاتورك . أما اتفاقية السلام الجديدة ـ معاهدة لوزان ـ التي وقعت سنة ١٩٢٣ فلم تذكر الأكراد مطلقا .

وبدلا من أن يصبح للأكراد دولتهم الخاصة بهم ، وجدوا حريتهم الثقافية والسياسية تتقلص أكثر من أي وقت آخر . أما الاراضي الكردية الواقعة تحت نير تركيا ، تلك الجمهورية الحديثة التي تزعمها أتاتورك ، فلن تدعي بكردستان مرة أخرى وسيدعى السكان " بأتراك الجبال " وستحرم قانونيا تلك اللغة التي يتكلمها ربع سكان تركيا . التقيت في ايران بعدد لا يحصى من الاشخاص وأحفادهم الذين فروا نتيجة لقمع أتاتورك الوحشي للثورات الكردية في تركيا الشرقية . أما الأكراد في الدولة العراقية الحديثة فلم يصابوا بهذا السوء أبدا . ولم يكن لهم سيطرة على البترول الكامن في أراضيهم ، فالبريطانيون قد عملوا جاهدين للتأكيد على أن يبقى في أيدي العرب . ولكنهم على الاقل تمتعوا بالتحدث بلغتهم القومية ، وبارتداء لباسهم الوطني . يشكل الاكراد نسبة كبيرة في العراق وبسبب ذلك ، ولضعف الحكومات البغدادية المتتالية فقد كانوا قادرين على اشعال عدد من الثورات التي لم تنته بهزيمة حقيقية ، بل انتهت في مآزق . لم يكن الأكراد الايرانيون محظوظين بهذا القدر . لقد كانت لهم سنة واحدة مجيدة ، أسسوا فيها دولة كردية صغيرة جنوب ريزاي سنة ١٩٤٦ في نهاية الحرب العالمية الثانية . وعندما تحرك الجيش الروسي الذي كان يحتل على نحو مهلهل القسم الكبير من شمال غرب ايران للانسحاب ، تاركا الدولة الكردية الفتية بدون حماية ، دخل الجيش الايراني مهاباد وهي المركز القيادي للجمهورية الجديدة ، وأعدم القواد ، ولوحق كل من دارت حوله الشكوك بتعاطفه معهم لثلاثة من العقود التالية .وأصبح الأكراد ـ دون

حكومة ذات حكم ذاتي ـ مجرد احدى الأقليات العرقية المتعددة في ايران .

ان المصادر الرسمية غير الجديرة بالثقة والرديئة السمعة في كل الاحصائيات السكانية تكون متذبذبة وعلى نحو خاص عندما يتعلق الموضوع بالأكراد في كل دولة حديثة يقطنونها الآن . لقدكانت العراق ولسنوات تحاول أن تثبت أن حقل البترول الضخم في كركوك لايقع حقيقة في مركز سكاني كردي . أما الاتراك فلا يحصون الاكراد عندهم نظرا لعدم اعترافهم بوجودهم كأكراد .وايران تكره أن تقدم تقريرا دقيقا عن قوة أي من أقلياتها المستاءة وحتى لوجرت محاولة من قبل أي من تلك الحكومات لاحراز احصاء رسمي دقيق في كردستان ، فان الأكراد سيقاومونها اعتقادا منهم أنها من المحتمل لن تفيدهم . ان الأكراد ليسوا أحرارا في كتابة وتداول لغتهم في أي بلد باستثناء العراق والاتحاد السوفياتي الذي يشكل فيه الأكراد أقلية صغيرة .

ان افتتاني بهذا الشعب لم يتطلب مني جهدا كبيرا في البحث والمطالعة . فقد عرف عن الأكراد موقفهم الأكثر تسامحا تجاه المرأة أكثر من أي مجموعة اسلامية في المنطقة . لقد كنت أبحث عن لغة ما واللغة الكردية كانت تصرخ عاليا لباحث يدرسها .وبمشروع كهذا لن ادع همتي تفتر بالاقتصار على المكتبات ،و بحوث الجامعات المملة . ويتوجب علي الذهاب الى الجبال كي أكتسب ثقة هوءلاء النساء ذوات الأثواب الملونه ، واللواتي لايغضن الخمار .

ان طهران محطتنا الأولى ،لم تكن كما توقعتها بالضبط ، ولكنها كانت تتراءى فقط على نحو مبهم تحت الطبقة الكثيفة من الدخان والضباب اللذين كانا يتخللان جو المدينة برتابة . لم نلاحظ أي من الأكراد فيها ولم يتناهى الى سمعنا أن أحدا يتحدث فيها بالكردية فقد كان من الصعب سماع أي شيء يعلو صوت حركة المرور ، وقد تجولنا فيها لبضعة أيام في مشاهدة محاولين أن نتصور اذا كنا حقا في ايران ، بلاد فارس عمر الخيام الاسطورية وحكايات الجن الغريبة . لقد كنا قد حلقنا ما يربوا على ٦٠٠٠ ميل شرق نيويورك ولكنها كانت

تتقدمنا بطريقة ما . لقد كان ذلك شعورا غريبا .

أما مدينة ريزاي فقد كانت أفضل ، على الأقل كانت هنالك عربات تجرها الخيول مع أجراسها ، وجبال تخلو من الدخان والضباب وكان أيضا هنالك أكراد يظهرون في كل شارع . حتى في ريزاي الريفية كان الناس يرتدون ألبسة غربية أو صورة مطابقة لها باستثناء الأكراد. لم أكن متحمسة لمحاولة الذهاب الى هوءلاء الأكراد والتحدث معهم بكرديتي الجزلة التي تعلمتها في الجامعات الامريكية ولكني لم أتوقع أنها ستكون مسألة أيام أو اسبوع قبل أن ألتقي ببعض الأكراد واتحدث معهم باطراد .

سألت كل طلبتي في الصفوف الانكليزية في الكلية المحلية عن الأماكن التي أتوا منها واللغات التي يجيدونها ، وقد ظننت أنني حاذقة ، ولم يمر وقت طويل قبل أن يعرف كل طالب أن للسيدة م . كان رغبة غريبة في دراسة الكردية . والعدد القليل من الطلبة الأكراد أتوا الي تواقين لذلك . ولم يكن أحد منهم من منطقة ريزاي ، كما لم يتكلم أحد منهم اللهجة التي كنت أهتم بها .وفوق ذلك فانهم لم يبدوا كالأكراد . لقد نشوءوا في المدن أكثر ممافي القرى ، وكانوا يرتدون البذلات ـ بذلات الدنيم ـ اذا كانت لهم القدرة على شرائها . أرادو أن يحصلوا على درجات جيدة في الانكليزية ولكنهم كانوا يرتابون بشدة بدوافعي ، وقد ابتهجت لاني لم أكن أنوي دراسة لهجتهم .

في استعادة أحداث الماضي وتأملي فيها تحققت من أن لا أحد منهم كان سيوافق على قضاء الكثير من الوقت معي خارج الصف ليعلمني لغة قد حظرتها الحكومة الايرانية . وكما اكتشفت موءخرافلقد كانوا متأكدين ـ من وجهة نظرهم ـ من أني من عناصر المخابرات المركزية الأمريكية .

لم ينتابني شعور باليأس مباشرة فقد كانت لدي أمور أخرى لأقوم بها . فقد وجدنا مسكنا بمساعدة أناس في الكلية وانتقلنا على نحو سريع الى خمس غرف مجردة باستثناء قليل من الأثاث مع شرفة

ونوافذ ضخمة ممتدة من الارضية حتى السقف ولكنها كانت بدون مدفأة أو ثلاجة أو سخانات أو ستائر . كانت الدار رطبة وجرداء ولكنها كانت مطلية بالكلس ، بحيث أنك لو اتكأت على الحائط فان ملابسك ستغطى بالمسحوق الابيض . أمضينا معظم وقت فراغنا في البازار القديم وفي مركز المدينة التجاري ، مواجهين ولأول مرة في حياتنا صفقات شراء كبيرة من الحاجات المنزلية . رأينا الكثير من الأكراد في البازار ، وفي البداية لم أكن أميز بين المحليين واللاجئين . كان قد اخبرنا رجل جالس بجانبنا في الطائرة من طهران الى ريزاي أنه قد قدم المساعدة لمعسكرات اللاجئين التي أقيمت في المنطقة لأيواء وتقديم الغذاء لآلاف من الذين فروا من القصف العراقي . ان الثورة القائمة حالياً كانت قد بدأت في الربيع الذي سبق وصولنا الى ايران ، وكانت الحكومة الأيرانية تدعم الاكراد بنشاط ، وتقدم لهم السلاح وتشجعهم على جلب عائلاتهم الى حيث الأمان في ايران . كنت اتشوق للاطلاع على هذه الحرب ، وخاصة عندما اكتشفنا وجود عدد من الخبراء العسكريين الأمريكان ، وقد كانوا يسكنون في ريزاي وكانوا يسافرون على نحو دوري الى الحدود العراقية لاعطاء التعليمات عن استعمال الاسلحة كانوا يصرون على التأكيد بأنهم يلقنون التعليمات لعناصر في الجيش الايراني ، ولم أضغط عليهم أكثر من ذلك ، فقد كنت مدركة أني لم أحصل على الاذن من الحكومة الايرانية للبحث في اللغة الكردية التي تشكل أهمية أقل بكثير من حرب حدودية سرية .

كانت عائلة كبيرة من اللاجئين تسكن خلف منزلنا مباشرة لقد وصلوا حديثا مثلنا الى ايران وقد كانوا أغراباً في الجوار على نحو يلفت النظر. بدا منزلهم ممتلئا بالنساء والاطفال وقد كان حبل الغسيل المعلق في الشرفة مكسوا بالملابس القوس قزحية. وملابس أطفال غربية حديثة. الى جانب ألبسة نسائية كردية تقليدية من المخامل والاقمشة المطرزة . كنت أنا وجيرد نحدق بافتتان من نوافذ مطبخنا عبر ساحة المنزل الى حجرة جلوسهم ومن حين لآخر ، كنا نلمحهم وهم يختلسون النظر الينا بالمثل . وفي أحد الايام علقوا الستائر

ليحجبوا عنا روءيتهم وقد واصل بعضنا التحديق في البعض ونحن في الشارع ولكن لا أحد من الجانبين سيبادر بالتحدث أولا .

كنا نرى الاكراد في طريقنا . في كل مكان نذهب اليه في مركز ريزاي التجاري . كان رجال من الاكراد بعماماتهم المهدبة يتجمعون في زوايا الشوارع أو يجلسون عند النوافذ في المقاهي . كانت النساء الكرديات يتجمهرن في البازار وبعضهن كن يرتدين الاغطية فوق لباسهن . ولكن خلافا للعباءات الفارسية ، كانت هذه الاغطية مجرد زركشات سوداء تكشف عن الالبسة التي دونها ، ونساء أخريات كن يمضين دون حجاب وكن مغطيات فقط بطبقات من الأثواب والصداري وسراويل مصنوعة من المخامل والساتين ، مصبوغة بكل لون يمكن تصوره .

لفتت نظري ساحة منزل مأهولة بسكان أكراد مررت بها في طريقي من والى الكلية . كانت سيارة لاندروفر خضراء رمادية طويلة تقف عادة خارج الأبواب الفيروزية التي توءدي الى الباحة حيث كنت احدق دوما بشابين متوردي الخدين يصقلان واجهة السيارة أو يحمّلانها بحزم أو يفرغانها . كانا يرتديان سروالين خاكيين مكويين بشكل جيد ، ذلك السروال الكردي ذو الساق الواسعة المجتمع أو غير المجتمع عند الكاحل ، وذلك حسب عادة القبيلة المنتمى اليها . والبذلة كاملة تتضمن وشاحا حول الخصر وعمامة . عندما كانت أبواب الفناء مفتوحة قليلا كنت ألمح أحيانا رجلا ذا وجه نحيل يضع على رأسه عمامة ضخمة سوداء مهدبة . وقد رأيت مرة امرأة قصيرة ممتلئة ترتدي سترة فضفاضة من المخمل القرمزي . كانت ترافقها فتاة شابة جميلة ذات ضفائر طويلة وفكرت في نفسي أنها تشبه بطلة من حكايات الجن .

بينما كان الآخرون في المدينة يحدقون في كامرأة أجنبية مكشوفة ، كنت أنا الاخرى أحدق في الأكراد . لقد بدوا معتادين على التحديق أكثر مني . ولكن أحد منهم لم يتكلم معي ، أو حتى يجيب على نظراتي الباحثة . وكثيرا ماصرح لي الناس الذين أعرفهم انه يجب أن أتخذ سبيلا واضحا من هوءلاء الناس الجبليين الافظاظ . وقد

بدأ يتكون لدي تصور أني لن أقابل أيا من الاكراد أبدا في ريزاي وقد بلغت درجة تكونت فيها لدي شكوك بأني لم أختر اللغة المناسبة لدراستها . ليس فقط أن كل القاطنين في ريزاي يتكلمون الآزرية التركية فحسب ـ وهي فرع من التركية تتصل الى حد بعيد بالتركية المتداولة في استنبول بالقدرالذي تتصل فيه الكردية بالفارسية ـ بل أن شفاههم تزم باحتقار كلما ذكرت الاكراد .

يسيّر الاتراك مدينة ريزاي في خدمة الحكومة المركزية في طهران مثل جميع المدن الايرانية الواقعة الى الشمال والغرب من المدينة الكردية مهاباد على طول شواطئ بحيرة ريزاي . أن اغلبية الموظفين ذوي الرتب العالية هم من الاصقاع الايرانية التي تتحدث بالفارسية ولكن مخفر الشرطة والسلطات المحلية والمدارس والبنوك كلها قد زودت بالمساعدين الاتراك . كانت ريزاي تدعى أورميا ، قبل نهوض سلالة بهلوي الحاكمة في ايران وهو اسم قديم جدا لدرجة انه ما من أحد متأكد من أصله حقيقة . وقد أعيد لريزاي اسمها القديم بعد سقوط محمد رضا بهلوي الذي كان قد اطلق هذا الاسم على المدينة نسبة لأبيه الممقوت جدا . وبالنسبة لبعض الشعوب مثل الآشوريين المسيحيين الذين حكموا هذا الجزء من آذربيجان الغربية فترة من الزمن ، فلم يعترفوا بأن هناك مدينة تدعى ريزاي او بحيرة ريزاي ، بل فقط ـ مدينة أورميا وبحيرة أورميا ـ وهؤلاء الآشوريون يتتبعون أنسابهم من بقايا الامبراطورية الآشورية القديمة ، ويبدو أن هؤلاء الآشوريين القاطنين في ريزاي وكذلك يهودها كانوا يسكنون المدينة منذ زمن موغل في القدم.ولكن كلا المجتمعين قد انخفض عددهما الى حد كبير في القرن العشرين . اليهود عبر هجراتهم المتتالية الى اسرائيل والآشوريون خلال المذابح الجماعية . وفي اوآخر القرن التاسع عشر اجتذب الآشوريون في ايران على الحدود العراقية مباشرة مساعدة البعثات التبشيرية الاوربية والامريكية . وفي الحقيقة كانت الكلية التي عملنا فيها في الاصل قد بنيت كمستشفى من قبل الامريكان الذين أتوا لمساعدة المسيحيين الفقراء المتمسكين بعقيدتهم القديمة وسط الهجوم الاسلامي الضاري . وقد أشار هذا الاهتمام من قبل الغربيين

بعض الشك والغيرة لدى جيرانهم المسلمين ، فكان الآشوريون يذبحـــون على نحو متتابع وبأعداد كبيرة بأيدي الأتراك والاكراد في بداية القرن العشرين . وبعد ذلك أصبح سهل أورميا يخص الاتراك وحدهـــم ، على الرغم من الجهود الكردية لنيله ، ولايزال الصراع بين الاكـــــراد والاتراك مستمرا على اورميا . ان طهران التي لاتفيد الاتراك فــي شيء عدا استخدامها اياهم ضد الأكراد ، تتدخل عندما يكون للأكراد اليد العليا ، كما فعلوا سنة ١٩٤٦ وقد كرروا هذا ثانية بعد سقوط الشاه سنة ١٩٧٩ . ولكن خلال اقامتي في ريزاي ، بدت المعـــارك الحقيقية كما لو أنها في الماضي . كان الاكراد الذين التقيناهـــم يفتخرون بقدومهم الى ريزاي منذ عشر سنوات قبل وصولنا وأنهـــم قد اغلقوا المدينة ردا على غارة تركية على قريةكردية ، ولكـــن حتى هذا النوع من الحرية المتاحة للجميع قد قمعت بشدة من قبـــل السلطات الحكومية وبشكل مؤقت على الاقل . وقد تسرب البوليس السري بسرعة الى المدينة التركية وضواحيها من القرى الكردية .

عندما أتينا في البداية ، لم أقدّر كم كان عدد اللاجئيـــن والقرويين الذين يمرون بسهولة عبر المدينة من ضمن الاكراد الذيـــن رأيتهم ولم أكن أعرف كم يخاف جيراني الاتراك هؤلاء النـــــاس الجبليين العنيفين الذين تحيط قراهم بمدينة الاتراك وكم يحتقرونهم ولأسابيع عديدة حدقت بحزن وكآبة في لباس الأكراد الملائم لحكايـــات الجن وهم يمرون أمام ناظري في الشوارع ولكن بعد كل ماعرفتـــه عنهم كان من الممكن أن أعود الى امريكا وألاحق صفحات من كتاب ماعن رحلة غامضة .

* * *

الفصل الثاني

في ريزاي لم استخف بما كان يحدث في الشارع أبدا ، فلاشيء مما يحدث في الشارع الايراني يمكن أن يكون شخصيا أو خاصا . في الكثير من الاحيان وجدنا أنا وجيرد نفسينا مع جمهور قد احتشد ليصغي الى محادثاتنا ومجادلاتنا . وعندما كنت أتمشى وحدي كان بعض الرجال يتسكعون على مقربة مني تماما . وفي مكان كهذا فان المنازل تحتاج الى جدران حولها لحمايتها من الشارع . والعباءات " الخيم " هي امتداد لهذه الجدران ليس غير .

لفترة قصيرة سأتأقلم مع الشارع متناسية تقريبا أين كنت ، وبعدئذ سيحدث شيء مايعيدني الى اليقظة ، وسأدرك أني كنت غريبة ، وأني فريسة لكل فضولي وفاسق كان يلاحقني بنظراته . لكن وعلى الرغم من عدم شعوري بالأمان في مركز المدينة او في الاحياء الغريبة فقد أصبحت تدريجيا أثق بالذين يحيطون بي في الوقت الحالي . وبما أننا كنا نقطن على مسافة بعيدة تماما عن الشارع الرئيسي ولأن سيارات الاجرة كانت وسائل نقل جماعي ، مع مسافرين آخرين متوجهين الى أمكنه مختلفة فقد كنت أغادر السيارة عند بداية زقاق أمير فلاح وكان علي أن أمشي كل يوم بمحاذاة الجدار العالي الذي يحيط بمنزل الآغا أمير فلاح ، ذلك الرجل الغني الذي يشغل منزله المساحة المجاورة كلها . وهناك في الزاوية وتماما عبر البوابات الكبيرة المؤدية الى باحة منزله كان يقف ثلاث أو أربعة شبان بستراتهم الجلدية والجينز المستوردة ، لقد كانوا أولاد رجال أغنياء ،تبدو النظافة عليهم على نحو جلي ، وليس لديهم مايقومون به أفضل من التسكع بعد المدرسة .

بعد فترة ليست بطويلة من انتقالنا الى هذا الحي ، اقتنى أحد هوءلاء الصبية بندقية ذات رصاصات صغيرة ، كنت بعد ذلك كلما مررت راقبت البندقية ووجهة تصويبها . كانت هذه البندقية تثير أعصابي حتى بعد أن قابلت والد الصبي الذي يقتنيها . لم أفهم لماذا يحتاج أحد مابندقية في هذا الزقاق الاسفلتي المغبر، فقد كانت الطيور كلها داخل جدران حدائق المنازل . يبدو أنه لايوجد لعبة مثيرة أخرى غير ارباك الناس .

ربما كانت تلك البندقية كناية عن شيء ما ، فالصبي الذي كان يحملها كان قصيرا ونحيلا ، ولكنه ككل الذكور كان يحتاج لاظهار قوته في الشارع . كان بعض الناس يعتبرون الغطاء زيا قديما ومع أن والدة هذا الصبي لم تكن تضع الغطاء ، فقد كان لايزال يحدق في كما لو أنه لم ير من قبل امرأة بدون غطاء أبدا .

عندما كنت امشي بمحاذاة جدران منزل أمير فلاح القرميدية ذات اللون الاصفر كنت أجبر نفسي على إلقاء التحية على صاحب البندقية . وبعدئذ استمر بالمشي لاعرج الى زاوية زقاقنا ، مارةبحذو أعالي أشجار الكرم التي كانت تتدلى على جدران حديقة أمير فلاح . كان زقاقنا يقع في منطقة مبنية حديثا ، لذلك كانت واسعة بحيث تكفي لمرور سيارة وقد كانت معبدة أيضا ، فالكثير من الازقة في ايران هي مجرد ممرات ضيقة مع مجاري صرف مفتوحة تلحق بالمركز .

وجدت نفسي ضجرة من الجدران بعد الاسبوعين الأولين من اقامتي في ريزاي . لقد كانت تمنعني من روءية المدينة على ماهي عليه ، حتى أثناء ركوبي عاليا في الحافلات ضمن المدينة فلم أستطع روءية الجانب الآخر من الجدران داخل المنازل والحدائق في ريزاي وكل شيء وكل امرىء مختبىء وراءها . كان لمنزلنا أيضا جدار في مقدمته ولكن بما أن زقاقنا كان قيد البناء فان كل بنائي الآجر الذين يعملون في الطابق الثاني في شقة تبنى في الجانب الآخر من الشارع كان باستطاعتهم التحديق صوب شرفتنا ومن خلال نوافذنا .

بعض النساء في ايران يفتخرن لأنهن لم يضعن الغطاء أبــــدا في حياتهن ، على الاقل كن يظهرن ذلك أمامي . ولكن اذا كن مـــن المسلمات الشيعيات فقد كنت أنزع الى عدم تصديقهن . لأنه لابد أنهن قد وضعن الغطاء ولو في مناسبة ما لكي يقدرن على الدخول الى الجوامع الكبيرة أو المعابد مثل ضريح الامام رضا في مشهد . لن أراهن علـــى أن أي امرأة قد خرجت مكشوفة فعلا طوال حياتها في ايران عـــدا المسيحيات واليهوديات أونساء البهائيين الذين يعتبرن الغطاء عيبـــا . ولكن علي أن أكتشف ذلك ـ هنالك درجات عديدة من الأغطية تتـدرج ابتداء من أوشحه رأس بسيطة تربط مسدلة على الجبين بشكل لاتظهـــر منه آية ملامح جمالية وانتهاء بالعباءة السوداء العراقية الطراز مـــع غطاء للوجه وأكمام مفتوحة بشكل طولي . والغطاء المألوف في ايــران، الحجاب ، ليس الاقطعة رقيقة من القماش ، وعادة تكون بلون قاتـــم ، وأحيانا بنقوش صغيرة . ان تعديل القماش جيدا في مكانه المناسب لـه أهمية كبيرة جدا في تقرير قيامه بالوظيفة كخمار ساتر مفاتن التـــي ترتديه . وكما ترينني الآن فاتنه بزيّي هذا ، فكذلك ستكونين أيضـــا بدون هذه الاغطية التي تستر مفاتنك .

خلال عهد والد الشاه الاخير ـ رضا شاه ، كان الحجاب قد حـــرم في ايران ومثلما فعل أتاتورك في تركيا فقد أراد الشاه أن يجعـــل بلده غربيا في ليلة وضحاها . ولكن حيث نجح أتاتورك فشل في ذلـــك الشاه . فقد ظهر الغطاء ثانية كخمار أقل جدية ولا يشمل الجسم ولكنـــه كان كلي الوجود . ففي المدن الكبرى والقرى الصغيرة على حد ســـواء، استمرت أغلبية نساء الفرس والأتراك في استخدام الغطاء على الرغم مـــن تحقيقات رجال الصحافة الغربيين الذين لم يقوموا بها في الاحيـــاء الاكثر فقرا ،يسود الغطاء على نحو فعلي .

ان الأكراد هم من بين المجموعات الاسلامية القليلة في الشـــرق الاوسط الذين لاترتدي نساؤهم الغطاء على نحو تقليدي . وفي القـــرى يسكن الناس في الخيام ـ الشوادر ـ عندما يتبعون قطعانهم للرعي فـــي الصيف ، ولايرتدون الشوادر هذه . أما في المدينة فغطاء النســـاء الكرديات يعتمد على غنى العائلة وعلى درجة الاحتكاك بالمدينة . فأفقر

معارفي مثلا ، وهي امرأة قروية تدعى صلحية ، لم يكن لديها غطاء وعندما أتت صلحية الى ريزاي حيث كان ولدها طالبا في المدرسة الثانوية ، كانت ترفع وشاح رأسها البرتقالي لتغطي حنكها وفمها عندما تكون في الشارع ليس الا . ونساء كرديات أخريات في أنحاء البازار كن يرتدين أثوابهن الفضفاضة ، وأوشحة روءوسهن كما لو أنهن في القرية ، ولكن نساء أخريات أيسر حالا سكّن معظم حياتهن في المدينة كان غطاوءهن متفقا مع العرف الاجتماعي والذوق العام . وعلى الرغم من طبقات ألبستهن العديدة فالكرديات قليلات الحاجة لأغطية أخرى ويتحسسن من نظرات الرجال الفرس والاتراك المحدقة فيهن . فمن الصعب تماما أن تكوني كردية في مدينة تركية دون أن تظهري مكشوفة .

حقيقة أن الاغطية في كردستان ليست جزءاً أساسيا من اللباس النسائي كانت واضحة أيضا من لباس اللاجئين العراقيين . ونساء القرى القبليات في معسكرات حول ريزاي لم يضعن الغطاء أبدا سواء في المعسكرات أو أثناء زياراتهن للمدن ولكن زوجات وبنات الجنرالات وقواد الحزب الديمقراطي الكردي اطلعن حالا على العادات الايرانية . وبعض من النساء العراقيات الأكبر سنا والأكثر تقليدية كن يضعن العباءات التي جلبنها من العراق حيث تلبس النساء العربيات الغطاء بشكل عام . وفي العراق أيضا بدا أن نساء الطبقة العليا من الأكراد المقيمات على نحو دائم في المدينة بين العرب كن يستعملن الغطاء . ولو أنه يختلف عما هو في كردستان ايران فان بنات هوءلاء النسوة كن يحضرن الى المدارس ويطرحن كلا من اللباس الكردي التقليدي والغطاء جانبا وأثناء نفيهن في ايران كانت الواحدة تلو الأخرى منهن تجبر من قبل ذويها على ارتداء الغطاء . لقد كن يفضلنه على العباءة التي كانت تميز مباشرة من قبل أصحاب الدكاكين في ريزاي كعلامة تدل على الغريب .

في حينا المأهول على نحو خاص بسكان أتراك منتمين للطبقتين الوسطى والعليا رأيت القليل من الاغطية ، وفي الحقيقة رأيت

القليل من النساء . وبدلا من ذلك فانك تجد السيارات . فالنساء في هذه الاحياء يقدن السيارات كبديل لارتداء الخمار الذي بطل زيه . والألبسة المفضلة لدى جارتي شهرزاد والسيدة جام كانت تتألف من جزء علوي وهو عبارة عن جورسيه مقور ، بالاضافة الى تنانير أنيقة نادراماكانت تقلل من أهتمام الرجال في الطريق . و فقط ببقائهن في السيارات كانت تلك النسوة قادرات على أن يبقين محتشمات وماضيات على الطراز الحديث في الوقت نفسه . وباستخدامهن سياراتهن كغطاء فقد كن يذهبن من مدخل باب الى آخر ولو الى قطع مايقارب دزينة من المحلات التجارية المتلاصقة وبعدئذ تتوقف سيارتهن ثانية . والسيدة جام الأكبر سنا كانت تخرج فقط لعمل ملح معتمدة على النقود وعلى منزلتها الاجتماعية ، لتجلب الناس الى منزلها . ولم تكن تبرع في قيادة سيارتها المرسيدس ، فقد كانت كثيرة الاصطدام بحواجز الشوارع ، والحواجز الحجرية عند حواف الطرق والجدران وبسيارات أخرى أما شهرزاد فقد كانت تناور بسيارتها اليابانية الصغيرة بشكل أفضل بكثير . وعلى الرغم من اشاعات بذيئة كانت تكثر حول شهرزاد تشير الى أنه كان لها المئات من " الخلان " قبل أن تتزوج وهي في الخامسة عشر من عمرها فقد اخبرتني بأن زوجها هوشنغ يثق بها ثقة مطلقة ، وأنه قد سمح لها بأن تقود سيارتها الى أي مكان تريده.

في المرة الأولى التي رأيت فيها شهرزاد وهي امرأة عامرة الصدر ممتلئة الجسم مفعمة بالصحة على نحو جذاب بعينين تحملان أهدابا كثيفة ، وشعر فاحم ، كانت تقف في ممر منزلها مشيرة الينا بالحاح أن ندخل قائلة :

- " بفرمابيد ، بفرمابييد "

وهي الدعوة المختلفة الاغراض حيث تشكل المرتكز " حجر العقد " لحسن الضيافة والوفادة الايرانية .

كنت أميل الى الذهاب مباشرة الى بيتها ولكن الايراني الذي كان معنا رفض دعوتها بلباقه . وبدلا من قبول اعتذاره ألحت أكثر من ذي قبل مشيرة بيدها الى مدخل بيتها المعتم ومتحركه الى الخلف

مع همهمه من شفتيها ، طالبة منا أن نتبعها . رفض الايراني ثانية بأدب ، ولكن باصرار فأومأت شهرزاد برأسها وخرجنا الى الفناء ونظرنا الى الاعلى مرة أخرى ،الى حيث شرفة الطابق الثاني الذي كنا نعتزم استئجاره . قال الرجل الايراني وهو مدرس في الكلية :

ــ أنت محظوظة ، جارتك ودودة جدا فقد سألها الموظف المؤجر اذا كانت ستسمح للأمريكان بالسكن في نفس المنزل معها فأخبرته أنها ترحب بذلك . وكما رأيت الان ، فقد أرادت فعلا أن تدخلي الى منزلها .

في غضون الايام الاولى من استقرارنا في مسكننا الجديد كانت شهرزاد تبتسم وتكرر دعوتها لنا في كل وقت ترانا فيه وحالما قدرت على ذلك ، فقد قبلت الدعوة ووجدت نفسي في كرسي منخفض منجد ومريح ، تقدم الي الشاي والحلويات . ادير مفتاح التلفزيون الموضوع أمامي وقد كنت اتحول بين التحديق في وجه المغنية السمينه الممكيج باتقان ومحاولة التحدث مع شهرزاد ، وفي وقت متأخر قابلت هوشنغ زوج شهرزاد وهو رجل نامي العضلات ربع القامة ، وقد ارتدى قميصا وسروالا أنيقين . وكان يتكلم القليل من الانكليزية . وكثيرا ماكانا يخبراننا بأنهما يرحبان بنا أنا وجيرد دائما في منزلهما .

لقد كانت أسابيعنا الاولى في ايران محمومة بكل صعوبات اقامة منزل في أرض أجنبية . وشهرزاد وهو شنغ كانا قلقين بشأن المشاكل التي تصورا أننا نواجهها . فقد سألني هوشنغ عن كيفية ايجادي الوقت لشراء الغذاء واعداد الوجبات نظرا لتواجدنا كلينا طوال الوقت في الكلية ، ولعدم وجود خادمة لدينا، ابتسمت غير موضحة الموقف وأنا افكر بأن كل ذلك صحيح ، فلم يكن لدينا الوقت الكافي فعلا وكما لو أنه قرأ افكاري ،دعانا هوشنغ مباشرة لتناول جميع وجباتنا معهما . وعندما رأى أن قوائم كراسينا المعدنية كانت تحفر فجوات في الارضية الكلسية اللينة لحجرة جلوسنا الضخمة ، عرض علينا هوشنغ أن يعيرنا بساطين ايرانيين كبيرين مصنوعين آليا . ومؤخرا سألنا هوشنغ متى سنتفرغ لنحل عليه وعلى شهرزاد كضيوف في

النادي الليلي الذي كانا يترددان عليه. نادي ليلي ؟ . لقد قدّرت عرض الوجبات علينا على الرغم من أنها كانت دعوات سخية جدا لقبولها وبسرور أخذت البساطين ولكن هذا العرض الجديد قد ضايقني قليلا فأنا لم آت الى ريزاي لأزور النوادي الليلية . تطوع جيزد قائلا بفظاظة :

ـ مارغريت لاتحب النوادي الليلية كثيرا .

نظر هوشنغ بفضول . فهو لم يتوقع أن يلتقي بأمريكية لاتذهب الى النوادي الليلية . وقال بلطف :

ـ حسنا ، لربما تحب أن تذهب في وقت آخر . رجاء أخبرينا عندما تكونين مستعدة لذلك .

استقرت بنا الاوضاع تدريجيا في الكلية حيث بدأ الدوام في صفوفنا بعد اسبوعين أو ثلاثة ضمن برنامج محدد المواعيد . وقد زود بيتنا بثلاجة ومدفأة وسخانات للشتاء وقطع عديدة وغريبة من الاثاث الذي أعارته لنا الكلية على مضض بعد أن قدمنا عريضة الى عميدها . والآن بما أننا لم نعد بحاجة للتسوق كل يوم بعد العمل فقد اجبرت على ملاحظة شعوري بوحدتي المتنامية . فهذه المسألة لم تكن نتيجة لعدم تصرف الناس معنا بود . ففي الكلية كان كل امرئ يبتسم لنا ويسألنا عن صحتنا باطراد . وكنا دوما نجد أناسا نجلس معهم خلال تناول الغذاء في حجرة الطعام التابعة للكلية لكن عند التفكير في ذلك كان يخطر في ذهني أنه من المحتمل أننا لم نكن قد فهمنا نظام التشريف بعد ، وقد كنا نجلس مع كل من نريد . وفي الحقيقة ، وبدون علم منا ارتكبنا زلات اجتماعية كافية لتجعل الايرانيين حولنا أن يطبقوا افواههم بانفعال . ومع ذلك فقد ظللنا نقع في تخبطات أكثر . فلم يخبرنا أحد بأننا ننتقص أنفسنا بركوب حافلة المدينة جنبا الى جنب مع العمال والطلاب . ولم يسوح الينا أحد أنه ليس من الضروري أن نقبل الدعوات التي توجه الينا من اللحظة الاولى . كنا نتحدث مع الناس حولنا بالألفة الميسورة التي يسلم بها الامريكان ، ظانين أننا كنا مهذبين وحساسين بالمقارنة مع بعض الامريكان الآخرين الذين رأيناهم في المدينة . وعلى

نحو خاص خبراء الاسلحة التابعين لجيش الولايات المتحدة الذين كانوا يأتون أحيانا لتناول الغذاء في الكلية كضيوف على أستاذ ايراني يدعى السيد خشيني . والشيء الذي لم نكن نفهم كنهه هو أن الايرانيين كانوا يجملوننا جميعا ،بنظرتهم دون تمييز ، فرقة السلام،الجيش وبجاثة عن الاكراد و الكردية . ولكني كنت أرتاب في افتقار الناس من حولنا للشعور الودي . فلم أكن متأكدة منه على الاطلاق .

في البداية تحدثت عن رغبتي في لقاء الاكراد لأناس كنت أظن أنهم غربيون على نحو كاف لفهم مشروع كهذا . وقد عرفت أن هذا يمكن أن يعتبر حساسا من الناحية السياسية بالنسبة للحكومة . ولكن لم يخطر على بالي أبدا انه يمكن أن يكون حساسا من الناحية الاجتماعية أيضا . وعندما كان يجابه بطلبي واهتمامي الغربيين أعضاء مثقفون من الالمان والامريكان في الكلية ، كانوا يبتسمون بأدب فقط ، ويقولون بأنهم سيبذلون جهدهم ليقدموني الى بعض من - وهنا توقفوا هنيهة وأردفوا قائلين : - من الأكراد .

عندما كان جيرد يعود من الكلية بعد الظهر كان يأخذ سنة من النوم . أما أنا فقد كنت أنفر من النوم ، لذلك فقد اعتدت على التردد الى الطابق السفلي حيث منزل جيراننا الجعفريين . ولم تتخل شهرزاد أبدا عن ابتسامتها المرحبة ، وطبق الحلويات و تلفزيونها البواق ذي الدوي العالي . تكلمت عن اعتزامها السفر لتتعلم الانكليزية للقيام بأي شيء بالاضافة الى العناية بالأطفال . وعلى الرغم من كوننا من نفس العمر بالضبط . فقد تزوجت قبلي بثماني سنوات وكان لديها طفلان . وبما أن لها خادمة متفرغة تدعى نانا ، وأم متفرغة وتسمى مامان ، حيث تعيش مع العائلة وتقضي معظم وقتها في العناية بالأطفال ، فلم أر أن ابنها وابنتها يشكلان عبئا عليها .

كانت شقة شهرزاد صورة طبق الاصل عن طابقنا العلوي حيث كانت قد لفت بطراز ثمين ، فقد بسطت على الارض سجادات من تبريز وكاشان وقد غطيت النوافذ بمخمل متناسب مع الطاقم المطلوب من الكراسي المزخرفة المنجدة بالمخمل حيث كانت الموضة الدارجة في ايران . لم يهك

أحد يجلس على الارض ، فقد فصلت حجرة الجلوس أو ردهة الضيوف عن حجرة غذاء رسمية بستائر من الأورغنزا موءطرة باتقان وقد أزيحت الى الوراء .

كانت حجرة الطعام بطرازها الازرق الباهت المجلوب من كاشان توحي بمنظر مقامرة من الوزن الثقيل تعقد في نهاية كل اسبوع . كان هوشنغ المتعهد الحكومي يملك الكثير من المال ، بحيث لم يكن يدري ماذا يفعل به . لقد كانت النقود تتكوم لديه ، وقبل ثلاث سنوات ـ على الرغم من عدم امكاننا اعتبارهم فقراء ـ كانوا لايملكون هذه البسط أو هذه الكراسي المصنوعة وفق طلبهم . لم تكن ممتلكاتهم القديمة المكومة في قبو منزلنا مترفة لهذا الحد ، وحاليا ينشيء الجعفريون منزلهم في جزء آخر من المدينة ليتلاءموا مع ثروتهم الجديدة .

كان الجعفريون في بيئة مدينة ريزاي يعتبرون متهتكين فلا أحد يعتبرهم حسني الاسلام . فقد كانوا يقامرون ويعاقرون الخمرة ويرقصون . كانت شهرزاد تعتبر امرأة منحلة ، والشيء الغريب هو أنهم لو كانوا في أمريكا ، لكانوا يعتبرون عاديين ، ولربما حتى مملين ومحتشمين أيضا . لم تكن لدى شهرزاد فرصة للقيام بشوءون أخرى مع كل استهتارها المتحرر من كل قيد . انه لشيء لايتصور أن تقضي وقتا مع أي رجل ليس بزوجها أو قريبها الحميم . أنجبت طفلها الأول في السادسة عشرة ، وتعيش أمها معها الآن وقد كانت توءكد على ارتداء الغطاء حتى انها أحيانا كانت تلبس ابنة شهرزاد ذات الخمس سنوات الغطاء عندما تأخذها الى اجتماعات النساء الدينية .

كثيرا ما آخبرنا الجعفريون عن سعادتهم بجيرتنا ، لقد أحبوا أمريكا ويأملون في زيارتها ، لقد أرادو أن يتكلموا الانكليزية معنا ، ورغبوا أن نريهم آخر صيحات الموضة في الألبسة والرقص وسبل المعيشة . لقد توقعت منهم أن يخبروني عن العادات والتقاليد الايرانية التي استمرت عبر القرون . لقد كانت هذه ايران التي أهتم بها ، وليس ايران ذات السيارات المستورده وحفلات

السكر التي تعج بالكلام المتملق الحسن . ولكني أدركت بالتدريج كم كنا على أهداف مفترقة . لذلك ترددت في الحديث عن مشروعي المتعلق بالأكراد لشهرزاد . ان القدر الذي كانت تعرفه فقط هو أنني قد قطعت مسافة مايقارب نصف محيط الارض لیس الالتعليم الانكليزية في كلية ريفية صغيرة وغامضة . بدا هذا غريبا لها ولم يمر وقت طويل حتى سألتني عن ذلك قائلة :

ـ لماذا تختار أجنبية ، أمريكية أن تعيش في مكان مثل ريزاي ؟ . ماذا يمكن أن أفعل في مكان متخلف مثل هذا ، حيث لا يوجد فيه سوى ناد ليلي واحد فقط ؟ أخذت نفسا عميقا وأخبرتها :

ـ لقد أتيت لأدرس الكردية ، وأريد أن أؤلف كتابا عن قواعد اللغة الكردية :

تظاهرت كما لو أنها لم تسمعني وبدأت تتحدث عن رغبتها في ذهاب ابنها الى مدرسة داخلية في انكلترة ليتعلم التحدث بلغتي بطلاقة سألتها :

ـ ولكن ماذا عن ابنتك ؟ ألاتريدين ارسالها هي أيضا ؟ . رمقتني شهرزاد بنظرة مشدوهة ، أولا الأكراد والآن هذا .. حتى النساء ذوات المظهر الحديث مثل شهرزاد لايفكرن في أن تكن فتياتهن مستقلات . ماذا سأقول أكثر من هذا ؟ أفضل من أن ارتكب في قول شيء خطأ آخر ، أغلقت فمي بينما استمرت هي في الثرثرة .

واظبت على رؤيتي لشهرزاد ، فقد بدت متشوقة لقضاء وقت معي على الرغم من برنامجها الاجتماعي الممتلىء . كنت أعرف أنني لن أتقرب من الاكراد بانفاق الساعات من وقتي دون أن أقوم بجهد وأنا جالسة أمام خزانة تلفزيونها الضخمة أحتسي الشاي وآكل الحلويات ولكني على الاقل كنت أحسّن لغتي الفارسية والشيء الأكثر أهمية اني كنت اتجنب الوحدة في أرض غريبة جدا عني .

كان الأكراد دوما في أعماق ذاكرتي لدى تحدثي مع شهرزاد ربما كانت تعرف بعض الأكراد ولم تكن تخبرني ، وربما عندما نعرف بعضنا أكثر أتمكن من اثارة الموضوع ثانية ، وفي ذلك الحين

حاولت أن ازيد ثقتها بي بعدم التحدث عن السياسة أوعن نزعـــــات تحرر المرأة أوعن الاكراد .

لقد تعلمت الحذر ليس مع شهرزاد فقط ، بل مع أي شخص يمكن أن أطلب منه أن يقدمني الى الأكراد . ولكني بدأت أدرك أكثر من ذي قبل أنني لن أقابل الأكراد فقط بمصادفتهم في الشارع . وفي الكلية دأبت على طلب هذا من زملائنا المدرسين والاداريين والطلاب . وذكـر الكثيرون انه هناك مدرس كردي بيولوجي في الجامعة من منطقة ريـزاي ذهبت الى مكتبه وصافحت رجلا نحيفا مرتديا سروالا أنيقا جــــــدا متناسقا مع قميص أنيق و ربطة عنق حول رقبته . كان لايكاد يتحدث الانكليزية قط بما أنه قد أمضى الخمس سنوات الاخيرة من دراسته في باريس ولكنه أكد لي أن لغته الأم هي اللهجة الكردية التي أهتم بها . وبعد عدة عبارات مهذبة ودعوات متلهفة لزيارة منزله ، ألقاها في مزيج من الانكليزية المتكسرة والفرنسية ، أخبرني أخيرا عن مكان ولادته فهولم يكن خارج المنطقة التي اهتم بها فحسب ، بل حتى أنني بـــدأت أتساءل في نفسي بعد قضاء نصف ساعة في مكتبه اذا كان يقدر علـــى التحدث بأي لغة غير الفرنسية . لم تكن لدي بعد الخبرة الكافيــــــة لأدرك أن ربطة عنقه الحريرية وسيارته البيجو الجديدة ذات العلامـــــة التجارية وطريقته المداهنة تنم عن غربة طويلة عن الحياة الريفيــــة وقد بدت عليه خيبة الأمل ، عندما نهضت فجأة لأستاذ ن بالمغــــادرة . فســـألني :

ــ ولكن ألن تأتي الى منزلي ؟ .

ــ ربما في وقت مـا .

قلت ذلك على نحو غامض مندفعة من جو مكتبه المغلق والمعطر .

كنت كل ليلة في مسكننا ، أصغي السمع الى أصوات الكرمانجي. اللهجة التي كنت أنوي دراستها ، المذاعة من محطة راديو ايرانيـــة . لم أكن أستطيع فهم كل الجمل ، ولكني كنت اجلس الى جانب مذياعنـــا أتمتم بالكلمات التي أميزها . من أين كانت تأتي هذه الاصوات ؟ .لقد كانت الاشارة واضحة تماما بحيث أني أدركت حالا انه من المحتم أن

الكرمانجية تذاع مباشرة من ريزاي ، ولكن الناس القليلين الذين سألتهم بدوا أنهم لايعرفون الكثير عنها ، لابل أنهم لم يستمعوا الى البرامج الكردية في الراديو أبدا . ولكنني واصلت الاستماع اليها ولو أن موجات الصوت كانت واضحة فقط لكنت تتبعتهاحتى مصدرها .

على الرغم من عدم قدرتنا على اللقاء بالأكراد ، فقد كان هنالك أناس آخرون يريدون التعرف علينا . وكان على رأس القائمة اداريو دائرة الجيش الامريكي ومغتربون آخرون . ولكن وجهات نظرهم المؤيدة للشاه وكرههم الشديد للايرانيين جعلنا حذرين . حتى ولو كانوا من أكثر الناس حذقا والاكثر وعيا من الناحية السياسية فلم نكن نرغب أن نمضي وقتنا مع متحدثين بالانكليزية والفرنسية أو الالمانية . فاذا لم أقدر على التحدث بالكردية ، فالفارسية كانت أفضل . ولكن على الرغم من أن جميع متحدثي الفارسية الذين كانوا يلقون علينا السلام أو يسألون عن صحتنا كل يوم فقد بدا أنه ليس لدينا أصدقاء حقيقيون سوى الجعفريين . كل من التقينا به كان بالنسبة لنا آغا أو خانما ، سيد أو سيدة . حتى الناس الذين كانوا في نفس عمرنا ومكانتنا كانوا يعطوننا فقط أسمائهم الأخيرة عندما كنا نتعرف عليهم ، لذلك كنا نضطر أن نخاطبهم بشكل رسمي . أوضح لنا الجعفريون هم فقط ، منذ البداية بأنهم يريدون أن نناديهم بأسمائهم الاولى بدون ألقاب . وقد كانوا الوحيدين أيضا خارج نطاق أصحاب الدكاكين الجريئين في استخدامهم الضمير " TO " الرافع للكلفة عند مخاطبتنا وهو المرادف الفارسي للفرنسي " TU " وذلك عندما التقينا للمرة الاولى . وقد انتظرونا أن نرد بمثل هذه الايماءه الدالة على المودة ولكننا لم نقدر ، ليس لأننا لم نرغب بذلك ، بل لأننا ماكنا قد تعلمنا الشكليات أبدا . ولدى عودتنا الى الجامعة في الولايات المتحدة كان مدرسنا الفارسي قد حذرنا بأننا كغرباء من المحتمل أننا لن نتمتع بامتياز مخاطبة أي من الايرانيين بالشكل المألوف . حتى العديد من الاطفال الايرانيين لايستخدمون " TO " عندما يتحدثون مع والديهم . وعندما لم نرد ب " TO " التي استخدمها الجعفريون ، انتقلوا بسرعة الى الضمير " YOU " الاكثر رسمية .

كانت هذه التبادلية مشكلة بالنسبة لنا ، ليس فقط فيما يتعلق باللغة ، بل أيضا فيما يتعلق بحسن الوفادة وكرم الضيافة . فقد استمر الجعفريون بتقديم الطعام لنا ، ولكننا عندما كنا ندعوهم للغذاء كانوا يوضحون وبالحاح بأنهم لايشتهون ماكنا نطبخه ، وقد كانت شهرزاد تدفع طعامها من جانب لآخر في طبقها ببساطة ، بينما تحاول اطراءنا بأن طعامنا لذيذ جدا ، وبعد فترة قصيرة وافقنا على احتذاء مايرغبون به في قبول دعواتهم بدون أن نقلق أنفسنا بكيفية رد فعلهم هذا . أخذنا اخوهوشنغ وهو عازف جيتار في جولة بالسيارة لنرى للمرة الاولى البحيرة التي تقع على بعد عشرة كيلو مترات من المدينة . وقد اصطحبنا شهرزاد وهوشنغ في احدى نزهاتهم في ايام الجمع الى قرية باند .

خلال زيارتي اليومية لشقتهم ، كنت أعقد محادثات طويلة مع ابنة شهرزاد ذات الخمس سنوات ، حيث كانت قد بدأت للتو بتعلم الفارسية من والديها . لقد كانوا يريدونها أن تعرف شيئا منها بالاضافة الى لغتها التركية الأم قبل أن تبدأ بالذهاب الى المدرسة التي كانت تُدرّس رسميا بالفارسية فقط . كنت أنا وجيرد غالبا ما نسأل نصائح هوشنغ وشهرزاد عن العادات والاعراف الاجتماعية في ايران ، وفيما اذا كنا نرتكب خطأ في قبول دعوة بسرعة كبيرة أو أننا نوضح آراءنا بصراحة تامة أو أننا نلبس على نحو مناف للذوق ، ولكنهم كانوا دائما يبتسمون ويوءكدون لنا أننا كنا نقوم بكل شيء على ما يرام . وعلى الرغم من تأكيدهم كان الشعور بالقلق وبعدم الراحة يتنامى لدي اكثر فأكثر . فاذا كنا نتصرف كما يجب ، فلماذا كان يحدق فينا كل شخص في الزقاق ، في الكلية في الحافلات العامة ، بهذا الشكل غير الودي اذن ؟ .

ان الشغل المثالي للمرأة الايرانية هو أن تقضي وقتها مع قريباتها ، او اذا كانت أقل تقليدية مع صديقاتها ، تقتل وقت العصر بالثرثرة وأقداح لانهاية لها من الشاي مع المعجنات وطبيعي

أن مثل هذه المرأة لديها خادمة تمكث في المنزل تنفض الغبار عن الوسائد أوكما في حالة شهرزاد تستخدم المكنسه الكهربائية لتنظيف البسط الثمينة . والجدة تعتني بالأولاد . كان أطفال شهرزاد يدعون جدتهم بمامان ، الكلمة الفرنسية التي اتخذتها الطبقات العليا والوسطى في ايران بدلا من كلمة ." أم " و كانوا ينادون أمهم الحقيقية باسمها الاول .

ان لم تتواجد شهرزاد في دكان السلع النسائية أوعند مزيني الشعر أو الخياطين فأنها تكون مع أصدقائها وأقاربها . وذات يوم بينما كنت أمر من أمام باب منزلها دعتني للدخول ، التفتّ حولي وأدركت حالا أن سروالي المخملي المهدب وقميصي ذا النقوش المربعة لايلائمان المناسبة . لقد كنت محاطة بنساء مرتديات تنورات تصل حتى منتصف الساق ، وأحذية عالية الساق أو كما في حالة شهرزاد حيث كانت مرتدية فستانا أسود مقورا ، معدا للمساء . عندما قدمتني شهرزاد اليهن توقفن عن الحديث مع بعضهن ليمنحني ابتسامات عذبة جدا ، وكلمات ترحيب بالفارسية ، وبعدئذ تحولن الى التركية ثانية ، جلست هناك ، محاولة أن أتصرف كجزء من هذه المجموعة ولكني شعرت فقط بالغباء والبلادة . فالنساء الايرانيات كن يشعرنني بالحالة الآتية : أني مرتدية على نحو أقل منهن ، وأني ذات تعليم عالي ، وعموما يدعنني في حيرة . وماذايهم اذا كانت العديدات منهن لم ينهين الثانوية أو أنهن قد سلمن أطفالهن للجدات ليقدرن على أن يقضين أوقاتهن في حفلات الشاي عصرا ، أو أنه ليس بينهن من لديها أدنى فكرة عن السياسة أو الاقتصاد في البلد ؟ لقد كن يشعرنني بالدونية . وقد كنت أشعر بها فعلا ، وذلك لعدم قدرتي حتى على التحدث بلغتهن .وقفت في حيرة بينما احتشدن جميعهن في غرفة نوم شهرزاد ، حيث كانت آلة تمرين مستوردة ، غير مستعملة تقف في احدى الزوايا . تتبعتهن الى الغرفة وراقبتهن ، وكل واحدة منهن تخطو على حدة فوق ميزان شهرزاد ، فصدرت عنهن همهمات مفزعة ، لقد أصبحن بدينات جدا حيث أن كل هذه الملابس

المستوردة التي يرغبن فيها رغبة شديدة ستبدو مخيفة عليهـــن. ماذا بامكانهن أن يفعلن ؟ كانت المسألة تُناقش بالتركية ، لذلك لم أتمكن من تتبعها ، وقد تذكرن التحدث معي ثانية عندما هممن بالمغادرة فقط ، حيث تحولن الى الفارسية ثانية ليودعنني بصيغ مسرفة في التعبير العاطفي .

في اليوم التالي ناولتني شهرزاد رزمة من الحبوب كانت قد اشترتها من الصيدلية المحلية ، حيث كان يباع كل شيء من الأدوية المخدرة الى حبوب منع الحمل بدون وصفات طبية . وكانت شهرزاد تريد أخذ هذه الحبوب لتحميها من السمنة ، وكان طبيبها قدنصحها بتناولها . ولكنها كانت لاتزال متخوفة قليلا ، فالحبوب قوية جدا وربما تسبب لها أعراضا جانبية . هل لي أن أقرأ النشرة المرافقة ـ وقد كانت بالانكليزية ـ وأوضحها لها ؟ .

نظرت في النشرة واستنتجت وبدون معرفة أي شيء يذكر عن علم العقاقير أن هذه الحبوب تعطى للذين يعانون من اضطراب في الخلايا الحية التي تسبب السمنة . وبالقدر الذي يمكنني قوله فان سمنة شهرزاد لم تكن تعزى الى أي اضطراب في الخلايا الحية بل وبشكل محض الى أكل الحلويات والارز طوال اليوم بدون القيام بأقل مايمكن من التمارين . ولكنني قررت أن أترجم كل المكتوب بالانكليزية وبذلك يمكن لشهرزاد أن تقرأ وتقرر بنفسها . وقد وافقت طالبة في سنة التخرج مجتهدة في الانكليزية والبيولوجيا أن تزودني بترجمة مكتوبة ، واضعة اياها بحروف عربية صرفة في صفحة من دفتر الملاحظات الخاص بي . وقررنا معا أن ننصحها بعدم أخذ هذه الحبوب . وقد كتبت الطالبة في أسفل الترجمة : عليك أن تتمرني بدلا من أخذ الدواء . بعدئذ نقلت الي هذه الطالبة ـ التي كانت في طريقها للدراسة في أمريكا ـ موقف شهرزاد الساخر .

ففي العهود الغابرة بقدر ماتكون المرأة بدينة مثلما كانت

عليه شهرزاد فان ذلك لم يكن يعتبر غير ذي جمالية ، بل أن هذه البداتة كانت تشير الى الغنى والى حقيقة أن زوج المرأة لديه المال الكافي لاطعام عائلة على نحو جيد . وفي فترة تقارب الجيل كان كل شيء قد تغير ،كل شيء عدا اسلوب الحياة الذي ينتج مثل هذه السمنة . ان تمرينا حقيقيافي الهواء الطلق لمرأة مثل شهرزاد كان شيئا مستبعداعن التفكير . فحتى انها لن تخرج من سيارتها أو تتمشى . عندما عدت الى المنزل ، قرعت جرس مسكن شهرزاد واخذت صفحة الترجمة من دفتر ملاحظاتي وأعطيتها اياهافأخذتها بشغف ولكنها حالما شرعت بالقراءة بدأت ملامحها تتجهم وعندما أتت على نهايتها رمقتني بنظرة غريبة وشكرتني ببرود . ومن ثم لم تذكر لي موضوع وزنها مرة أخرى أبدا .

مع شهرزاد وايرانيين آخرين كانت قشرة الحضارة الغربية التي تعطي الاشياء رونقا وجمالية موضوعة بكثافة . حيث لم أقدر أن أميز أين تنتهي الا في وقت متأخر . ففي البداية لم أصدق أن تكون لدى شهرزاد أو السيدة جام آراء مسبقة مجحفة يمكن أن تمنعهن عن فهمي واحترامي . وبالطبع كانت حياتنا مختلفة تماما ،ولكني شعرت أن ذلك كان عرضيا فقط ، فقد كنت أنا وهي في نفس العمر، ولكني اعتبرت عدم انهائها للدراسة الثانوية مجرد سوء حظ . لم يخطر ببالي أن أحتقرها كما كانت تفعل السيدة جام لعدم حصولها على الدبلوم بالمراسلة . والسيدة جام وعلى الرغم من أن لديها ثقل اولاد صغار وزوجا لتعتني به عندما كانت في السادسة عشر فقط واصلت دراستها وتخرجت . ان ذلك لم يدخل الكثير من التغيير على حياتها كامرأة متزوجة من الطبقة الراقية في المجتمع ، فهي وشهرزاد كانتا تلاحقان نشاطات متشابهة ، والاختلاف الوحيد كان أن السيدة جام أكثر تقليدية نسبيا ، فهي التي كانت تقوم بتربية أولادها وليس أمها . وهي التي كانت تطبخ بنفسها تاركة خادماتها وخدامها يقومون بالأعمال الروتينية . ولم يحدث لي أن شككت في أن كلا من شهرزاد والسيد جام كانتا تريان نفسيهما أفضل مني أناء

تلك المرأة المسكينة ، المضطرة للخروج الى شارع ممتلىء بالرجال بدون سيارة لكي أكسب عيشي . لم أكن أرتدي الازياء العصرية وقلما وجد أثاث في منزلي . في البداية لم أحلم حتى كيف أني كنت أخيب أمل شهرزاد ، عندما أخبرت موءجر العقارات أنها سعيدة بقدوم عائلة أمريكية فقد كانت تنطلق من وهم أننا أمريكان حقيقيون ، أمريكان يشربون ويترددون على النوادي الليلية حيث يمكنهم أن يقدموا خمسة وسبعون دولارا ليوءمنوا الدخول في لعبة الرومي . وعلى كل حال كان من الصعب أن نعتبر أمريكان بهذه المقاييس ، ولكن ربما كانت شهرزاد قادرة على قبول حتى هذا الشكل اذا لم يكن خارجا على العادة . فكل ماكنت أهتم به هو الأكراد .

كنا جالستين بالقرب من التلفزيون عندما قررت أن أخبر شهرزاد بأني أجد صعوبة في ايجاد الاكراد ، وبما أن ذلك كان يشغل تفكيري كل الوقت فلم أقدر أن أتجنب التحدث عنه أكثر من ذلك ، وفي كل يوم لاأجد فيه فرصة للاتصال بالأكراد كان يدفعني الى التساوءل عن سبب مجيئي الى ايران . خيم الصمت لبرهة ومن ثم قامت شهرزاد بجهد محموم كي تبدو ودودة ، فقالت :

– ان زوجي يعرف بعض الأكراد ، فهو يعمل في مهاباد .

أصبت بالدهشة لدى سماعي هذا ، فشهرزاد لم تذكر قط أن زوجها يعمل في مدينة كردية . وكل ماكنت أعرفه هو أنه كان يكدس مبالغ ضخمة من النقود من بنائه بعض المنشآت الحكومية . ولم يخطر ببالي أبدا أنه يمكن أن يقوم بذلك في العاصمة الحقيقية لكردستان ايران . ان مهاباد ليست عاصمة رسمية ولاتقع في المقاطعة التي اختارتهاالحكومة لتسميها بكردستان . ولكن كل من قرأ أي شيء عن التاريخالكردي يعرف أن مهاباد هي مركز النشاط الثقافي والسياسي الكردي ليس فقط في ايران ، بل أيضا في كردستان الكبرى برمتها .

لسبب ماشعرت بوجوب الاشارة الى شهرزاد أني حقيقة لم أكن

أبحث عن أكراد من مهاباد ، لأني لا أدرس لهجتهم السورانية بل للهجة الكرمانجية التي يتداولها سكان منطقة ريزاي والى الشمال منها . أومأت شهرزاد برأسها متشككة ماذا تعرف هي عن اللهجات الكردية وماذا فيها لكي تثير اهتمامها ؟ لقد بدت سعيدة لأني لم أكن أرغب في أن ازعج نفسي بأكراد مهاباد على كل حال . فسألتني وهي تعرض على نفسها فستان مخمل أخضر زيزفوني ، منتظرة أن أبدي اعجابي به :

ـ مارغريت ، ما رأيك بفستاني الجديد ؟ .

كل ماكنت أستطيع التفكير به هو مهاباد ، مهاباد . وماذا لو أنني أدرس اللهجة الخاصة بها ؟ فعندما يتعلق الأمر بالأكراد كنت أهتم بما هو أكثر من اللهجات . قلت :

ـ ولكنني أريد أن أراها .

فسألتني :

ـ ماذا ؟ ترين ماذا ؟

أجبتها :

ـ مهاباد .

بدت على محياها امارات الخيبة والكآبة ، ولكنها ابتهجت بعدئذ وقالت :

ـ أوه ، حسنا ، لم لا ؟ ان هوشنغ يذهب الى هناك كل يوم ، يمكننا الذهاب جميعا . وسنلهو قليلا .

كانت شهرزاد يائسة تماما وكان هذا واضحا على محياها .

عندما أتى هوشنغ ~~الى المنزل~~ رتب كل شيء تلك الليلة على ان تسافر الى مهاباد خلال يومين . وحتى الآن لم أكن أعرف على نحو كاف شيئا عن العلاقات بين الاتراك والأكراد لأدرك اني سأزور مدينة كردية برفقة العدو . عندما قالت شهرزاد ان هوشنغ يتحدث القليل من الكردية صدقتها ، وعندما قالت أنها ستستمتع برحلة الى مهاباد فأظن انها كانت توهم نفسها بتصديق ذلك . فلو سميت المدينة باسمها القديم الذي كانت تسمى به قبل الشاه بسوج بولاق

لكانت ترددت . ولربما تذكرت أحداث ثلاثة عقود خلت قبل مولدها بقليل ، تلك الاحداث التي غيرت مهاباد وبقية ازربيجان الغربية . فحتى ذكرماكان قد جرى في الايام الخوالي تلك ، يمكن ان يعتبر شيئا منطويا على الخيانة . لربما شهرزاد قد نسيتها . أوأنها لم تخبر بها أبدا . حتى في فترة بقائنا في ايران كان الشاه مايزال مشغولا في اعادة كتابة التاريخ من خلال آلته الدعائية ، ليحول عدم قيامه بأي دور في انسحاب الجنود الروس من ازربيجان الى انتصار مذهل .

بعد الجلوس على كراسي منزل شهرزاد المدثرة كان من الصعب تصور الموقف في نهاية الحرب العالمية الثانية ،تلك الحرب التي أراد رضاشاه دخولها الى جانب الالمان . في تلك الايام كان هنالك القليل من الآلات ذاتية الحركة في ازربيجان . فقد كان الناس ينتقلون بين المدن والقرى بالعربات أو على ظهور الاحصنه . لم يكن هنالك كهرباء ولامياه جارية غير موءذية ، ولاتلفونات . والاثاث الاوربي كان أقل انتشارا بكثير ولم يكن أحد قد سمع بعد بآلة التمرين . وبضع من النساء كن يتجولن في الطرقات ،وتقريبا لاأحد سوى المسيحيات واليهوديات كن يمضين سافرات .

ومع ذلك وعلى الرغم من الظروف البدائية السائدة حينئذ ، فان فترة جمهورية مهاباد تذكر بفرح ليس فقط من قبل القاطنين في مهاباد بل أيضا من قبل كل الاكراد في كل مكان . وبالنسبة للجعفريين كانت مهاباد منفذا صغيرا يعوزه الاشراق والحيوية - مغبرة أو موحلة ، وهذا يعتمد على الفصل . لم يشر لنا الجعفريون الى المعالم البارزة في مهاباد عندما ذهبنا الى هناك . فقد كانت بالنسبة لهم مدينة بلا ماض . وقد كان ذلك يقع على عاتقنا أن نميز أهمية مدينة كانت ذات يوم تخص الأكراد وحدهم فقط .

الفصل الثالث

ان الاسماء في كردستان لها دلالاتها الخاصة . ان نسبة وفيات الأطفال مرتفعة في كل من ايران ، تركيا والعراق . ولكن في كردستان الجبلية فهي مرتفعة جدا ، وقد التقيت مرة بكردي من تركيا كان يدعى " ميڤان " الضيف . كان الملا المحلي الذي كان يستشار في هذه الإمور قد اقترح هذا الاسم . من الواضح أنهم قد استعطفوا الله بامارة الخنوع هذه ، حيث ان الطفل بالفعل قد كبر الى أن اصبح رجلا . ولكن الحكومة التركية هي أيضا يجب أن تستعطف ، ففي الكردية الضيف هو " ميڤان " وفي التركية هو " مسافر " وفقط في المنزل وما حوله بين الاصدقاء الأكراد يبقى " ميڤان ".أن أكراد تركيا معتادون على مثل هذه الازدواجية . فالمدينة التي كانت مسقط رأس الميڤان كان لها أيضا أسمان مختلفان ، اسم فرضته الحكومة واسم قد استخدم منذ زمن غابر بقدر ماتسع المرء الحيلة في التذكر . ففي المحادثات غير الرسمية خارج مسمع الحكومة والبوليس السري يستخدم الناس دائما الاسم القديم على الرغم من أنه قد محي من الخرائط الرسمية منذ سنوات عديدة .

تماما مثلما كانت أورميا قد غيرت من قبل الشاه الى ريزا ي كذلك كانت سوج بولاق قد قلبت الى مهاباد ، والاختلاف يكمن في أن مهاباد كلمة حميدة نسبيا مع الاصول الايرانية ، بينما ريزاي قد أعيد تسميتها بهذا الاسم نسبة لرضا ، الوالد الممقوت للشاه الاخير .. ولكن على الرغم من كون اسم مهاباد حميدا فان سوج بولا ق قد بقيت بثبات سوج بولاق وهو اسم تركي يعني الماء البارد . ولمجرد حقيقة أن الحكومة هي التي قد فرضت الاسم الجديد عليهم فان ذلك كاف لجعل الأكراد يرفضونه . لقد كانت سوج بولاق وستبقى سوج بولاق .

ان أول من صحح استخدامي لمهاباد كان أحد تلاميذي الأكراد الذين أتوا من تلك المدينة . وكان يقال أن هذا الطالب ذو القامة الفارعة والوسيم هو متحدر من سلالة أحد قواد الجمهورية الكردية التي أسست سنة ١٩٤٦. ومثل طلاب أكراد آخرين في الكلية كان قد افتتن لدراستي لغتة الأم . وفي أحد الأيام وبعد انتهاء المحاضرة تحدثت بلهفة عن رغبتي في زيارة مهاباد ، ذلك المشروع القابع في ذاكرتي منذ وصولي الى ريزاي . ومهاباد تقع عند النهاية الجنوبية للبحيرة على بعد ثمانين كم فقط .

- نعم انها مدينة جميلة .

أجاب طلابي الأكراد على نحو جماعي بينما كانوا واقفين حول مقعدي . فكرت في نفسي : أن هذه هي الفرصة المناسبة كي أسأل اذا كانوا يعرفون كرديا يدعى حسن قد التقيت به في الولايات المتحدة وكانت بلدته مهاباد . ولكن وجوه طلابي تجهمت لدى ذكري اسمه فأشار أحدهم قائلا .

- لقد قتل السافاك أخاه .

- ظننت أنه قد غرق في الرحلة المعسكرة في منيسوتا .

قلت ذلك وأنا أشعر بحيرة ازاء افتراض أن البوليس السري الايراني كان قد نفذ حكم الموت بأخي حسن . ربما لم يسمع هؤلاء الطلاب قط بالتفاصيل الحقيقية . صرح أحد الطلبة :

- ان الذي يجيد السباحة لايمكن أن يغرق . لقد قتله السافاك . أومأ الآخرون برؤوسهم مؤكدين ذلك ، وهم يحدقون في مشككين . هل أنا مبعوثة من السافاك لأقنعهم بغير ذلك ؟ .

هذا ماكان يتعلق بطلابي الأكراد . وهنا في ايران حيث لا توجد جريدة تنشر أخبارا موثوقة ، كانت لديهم أخبارهم المستمدة من مصدر موثوق . أما أنا وبعد التحدث الى حسن في أمريكا فقد

تصورت أنه كان مجرد حادث مأساوي،ماهي حقيقة الامر ؟ طالما هي مرتبطة بالسافاك فلن نعرفها أبدا . فكل الحوادث الأليمة في ايران يلفها ضباب كثيف . ففي غضون اقامتنا هناك انهدم سقف مبنى مطار طهران تحت ثقل ثلج الشتاء وقد قتل فيه المئات من المسافرين ، وذلك اعتمادا على المصدر الذي أعلن عن الحادث . وكان الطلبة في ايران لسنوات عديدة يقومون باضرابات يحيون فيها ذكرى اليوم الذي يقولون أن أربعة وأربعين طالبا في جامعة تبريز قد قتلوا فيه على يد الجيش . ومع ذلك فان شهود عيان يدعون أنه لم يكن هناك قتلى .

انبعثت حقيقة صعبة من خلال مناقشاتي مع طلابي المهاباديين فلم يخاطر أحد بنفسه كي يريني المدينة . وقمت أنا وجيرد بمحاولات عديدة لأخذ الحافلة الى هناك لوحدنا ، ولكننا كنا نفشل فيها . فقد رفض الموظف الجالس في مقعد في محطة الحافلات الصغيرة القذرة ، الواقعة قرب بازار ريزاي أن يعطينا مقاعد مستقلة فمن الواضح أنه لم ير في حياته أجنبيين بملابس حسنة يريدان الذهاب الى مكان مثل مهاباد بالحافلة . والآخرون في حجرة الانتظار كانوا يرتدون أسمالا بالية وكانوا جميعا يحدقون فينا بينما كنت أتفحص الجدران بحثا عن لائحة أو قائمة أسعار ولكن بدون جدوى .

والآن وبعد مضي شهر على وصولنا الى ريزاي وجدنا أخيرا وسيلة للوصول الى مهاباد . وحقيقة أننا كنا ذاهبين برفقة الاتراك لم تزعجني . لقد كنت سعيدة جدا لكوننا ستذهب على كل حال. راجعت في ذهني ماكنت أعرفه عن المدينة . كان أصدقاء لنا قد خدموا هناك في فرقة السلام قبل ثماني سنوات ، وقد وصفوها لنا على نحو شامل ولكن من الواضح أن الاشياء قد تغيرت منذ ذلك الحين كان أصدقائي قد نصحوني بأخذ ملابس خاصة لأرتديها في شوارع ريزاي . ولكني لاحظت مباشرة أن ارتداء السروال كان قد أصبح دارجا لدى المرأة الايرانية العصرية . قالوا اننا لن نجد ماء نقيا ولاثلاجة ،

أو سخانة ماء حيث حصلنا عليها مباشرة . وكانت هنالك جثتان معلقتان في سوق مهاباد في يوم وصول أصدقائنا اليها قبل ثماني سنوات . وقد كانتا جثتي كرديين اتهما بمعارضة السلطات . كان الأكراد خلال اقامة أصدقائي هناك مايزالون يناضلون ضد الحكومة علنا ، وكانت الحكومة تمثل بالأكراد في السوق . في الوقت الذي وصلنا فيه كانت هذه الاساليب قد بطلت . كانت الزنزانات الخفية للسافاك وقوات الدرك الريفيه النشيطة تسيطر الى حد ما على المناطق الريفية .

اذا كانت للأسماء في كردستان حياة خاصة بها ،فان الاسم الرنان المتسم بالطهاره " چارچرا " ويعني حرفيا القناديل الاربعة . هو احياء لذكرى اثنين من عمليات الاعدام ، فقد كان قد نفذ حكم الاعدام في اثنين من قواد الجمهورية الكردية هناك . وموءخرا كانت ساحة " چارچرا " المستديرة بقناديل شوارعها الاربعة عند نقطة التقاطع المغبرة قد ازيلت ، والشوارع الموءدية اليها قد أعيد تسميتها وبسبب مهاباد فان طهران لن تثق بالأكراد أبدا .فالأكراد جميعهم أعداء والخيانة كامنة في نفوسهم وهم مخربون بالنسبة للدولة التي تحكم من طهران . وبالانسحاب سنة ١٩٤٦ يستنبط الفرس بأن الأكراد قد قضوا على أنفسهم الى الابد . كانت مهاباد بالنسبة للشاه وللايرانيين بمختلف قناعاتهم السياسية مثالا لما يستطيع أن يفعله الأكراد وما سيفعلونه ثانية ، اذا أتيحت لهم الفرصة . وكذلك فان تبريز هي رمز لأحلام القوميين الأتراك و اضطهادهم . ولكن قصة الجمهورية التركية متعلقة هنا بالمحيط الخارجي .

في سنة ١٩٤٦ كانت كردستان ايران قد حررت على نحو غير متوقع من قبضة رضا شاه المحكمة ، الذي كان قد استخدم أساليب وحشية ليسيطر على الاكراد وعلى غيرهم من المجموعات القبلية المقاتلة . ومن جملة ما قام به من اعتداءات ، أنه اعتقل قواد قبائل في طهران ، فرّق أراضيهم ، وحرّم اللباس التقليدي عليهم .

في أواسط الحرب العالمية الثانية احتل البريطانيون ايران الجنوبية قرب حقول النفط بينما تحرك جنود الجيش الروسي نحو الشمال الغربي على طول الحدود التركية الروسية وكان ذلك ـ وعلى حد زعمهم ـ للتأكد من أن رضا شاه لم يدخل الحرب الى جانب الألمان . ولكن في الحقيقة كان لكلا البلدين مخططاتهما في ايران . وعلى نحو خصوصي مطامع في نفطها . بما أن حضور الجنود السوفييت قد منع الجيش الفارسي على نحو فعال من فرض النظام القائم حينذاك على كردستان فقد مضت مهاباد أو " سوج بولاق" بثبات أكبر تجاه الحكم الذاتي . والروس الذين كانوا أكثر فعالية بين الاتراك في الشمال رفعوا القيود عن الاكراد .

واخيرا في سنة ١٩٤٦ وبتشجيع من الروس ،انبثقت دولتان من بقية ايران وأعلنتا استقلالهما . وكانت جمهورية ازربيجان كبرى الاثنتين قد أسست في تبريز التي تقع على بعد ١٨٠ ميلا الى الشمال من ريزاي . وكان يديرها الاتراك الذين جعلوا من لغتهم التركية اللغة الرسمية في الجمهورية . حتى ذلك الحين كانت الآزرية لغة لاقواعد لها ، مهملة رسميا من قبل طهران ومحظر تداولها العام . وقد شجع الروس الاتراك الآزريين وساعدوهم على اعلانهم عن الاستقلال الثقافي والسياسي عن طهران . وكانت الحكومة الجديدة لجمهورية ازربيجان قد قولبت باحكام على شاكلة التفكير والعمل والسلوك السوفييتي مع منظمة بوليس سري محكمة .

على نحو أبعد الى الجنوب ، وبدعم أخف من الروس كانت الجمهورية الكردية الاصغر ، وكان يديرها قواد مجتمع يتمتعون باحترام بالغ من مهاباد مع ممثلين عن المناطق القبلية المحيطة . لم يكن هناك بوليس سري والتوجيه الروسي كان يتصف بالقلة نسبيا وكان جيش الجمهورية الكردية مشكلا على نحو رئيسي من أتباع قواد القبائل المحلية المختلفة ، ولكن ، كان من الصعب أن يكفي لصد هجوم منظم . كان على الجمهورية أن تدافع عن نفسها عاجلا أم آجلا.ولكن عندما أنجبت مهاباد جنرالها الاول الحقيقي لم يرحب به بأذرع

مفتـــوحة .

في الوقت الذي أسست فيه جمهورية مهاباد ، تسلم رئاسة قبيلة البرزاني في شمال العراق قائد قبلي جبار ، متوسط العمر ، يدعى ملا مصطفى البرزاني . كان البرزانيون مقاتلين مشهورين فبالاضافة الى محاربة أعدائهم التقليديين مثل قبيلة زيبـاري، كانوا في وقت قريب جدا يحاربون البريطانيين . وردا على ذلك فقد قصفت القوى الجوية الملكية مقاطعة برزان وأجزاء أخرى من كردستان وقد جاءت جمهورية مهاباد في وقت احتاج فيه الملا مصطفى للخروج من جبال برازان ، حيث كان يُجتذب بأناة الى فخ نصبه الانكليز بالتواطوء مع قبائل معادية مجاوِرة . في ١٩٤٠ كان البريطانيون قد قرروا فرض النظام في كردستان العراق بأية وسيلة . وقد رآوا في اتباع البرزاني القبليين تهديدا مباشرا لخططهم لنقل زمام السلطة في العراق الى العرب مبعدين بذلك كلا من الأكراد والآشوريين. وعلى نحو مغاير عن العراق كانت ايران قد قسمت وسادت فيها الفوضى خلال الحرب العالمية الثانية ، مقدمة بذلك أرضية مثالية للأكراد الراغبين في حكم أنفسهم بأنفسهم . قرر البرزاني أن يعبر برجاله الحدود ، وأقام مركز القيادة في مهاباد .في البداية استقبل البرزاني بحذر ، وعلى الرغم من أنه كان قد هرب لتوه من الأسر البريطاني ، فقد كان يرتاب فيه على أنه عميل بريطاني من وجهة نظر أزربيجان التي يشرف عليها السوفييت .وموءخرا فقط عندما تحرك الجيش الفارسي على مقربة من مهاباد تثبتت براءة البرزاني وقواته بمآثرهم الشجاعة .

على الرغم من أن الدولة الكردية كان يتوفر فيها القليل من الديمقراطية ، فان هذا القليل كان يمثل تقدما كبيرا عما كان يسبقها فقد طرد البوليس الفارسي والبوليس السري والجيش من المدينة ورفع العلم الكردي ، وقد رقص فعلا سكان المدينة في الشوارع ،وظهرت الجرائد والكتب بالكردية مباشرة ، وقد استخدمت الكردية في المدارس ،

وفي دور العدل والقضاء التي كان يديرها قضاة مسلمون تقليديون ، وكان القاضي محمد رئيس الجمهورية الصغيرة نفسه واحدا من هوءلاء القضاة .

على الرغم من أن الأكراد كانوا قد تمتعوا بحكم ذاتي فعلي لسنوات عديدة خلت ، فان الجمهورية الحقيقية استمرت قرابة سنة واحدة . خلال ذلك الوقت وعد الروس بدعم كلا الجمهوريتين الكردية والازربيجانية . ولكن القوى الغربية التي لم تكن تريد أن ترى الجمهوريتين المحميتين من قبل روسيا في ايران سعت جاهدة لازالة القوى الروسية . وأخيرا انسحب الروس من الجمهوريتين الفتيتين اللتين شجعتهما مع قليل من التحذير أوحتى بدونه أيضا وأصبحت الجمهورية الازربيجانية أسطورة بين عشية وضحاها – وعهد الارهاب يقول شيئا والحلم القومي يقول أشياء أخرى – وواجه الاتراك عقدا من المجاعة ، وكان سوء المناخ وندرة المحاصيل سببا في ذلك جزئيا . ولكن في فترة اقامتنا في ايران ، وبعد مايقارب ثلاثة عقود كان الناس يقولون : ان طهران لن تسامح تبريز أبدا . تلك التي كانت أكبر مدينة في ايران ذات يوم وكانت عاصمة السلالة الحاكمة ،وقد تركت لتبلى في غبارها ، وأصبحت منسية عندما وضعت الخطط الصناعية فاضطر سكانها الى الهجرة الى طهران بحثا عن العمل .

في مهاباد ، في النهاية الأخرى من البحيرة ، كان مصير الأكراد أكثر دموية ، لاعتقادهم أن الايرانيين لن يقوموا بأي عمل انتقامي ضدهم . لم يكونوا على علاقة متينة بالروس ،ولم يرتكبوا تجاوزات الأتراك في الشمال منهم . مع ذلك ، وبعد معارك عديدة وبعض المفاوضات مع الحكومة الايرانية ، اعتقد البرزاني أنه من الحكمة الفرارمع جيشه ، وقد عرض عليه الالتجاء الى ايران ولكن بشرط أن يسلم هو ورجاله كل أسلحتهموأن يستقروا في مكان بعيد عن مهاباد .ولكنه قرر مغادرة ايران هو ورجاله في ظروف بالغة القسوة جنبا الى جنب مع عائلاتهم ، وكانوا يطاردون في الجبال على

طول الطريق حتى الحدود الروسية . من ضمن الأكراد الايرانيين كان هنالك من لايضمر الحب للبرزاني . فاحدى القبائل على نحو خاص وهي قبيلة " الهركيين " تعاونت مع جيش الشاه بالقيام بغارات متكررة على البرزانيين وهم يفرون الى الشمال . ومرة آخرى انقسمت كردستان الى اتجاهات قبلية وكل مجموعة تحاول أن تستفيد على حساب الاخرى . يبدو آن هذا هو بالضبط ماتريده الحكومات من الأكراد أن يفعلوه . وبعد مرور ثلاثين سنة بداواضحا أن الشاه لم ينس موقف الهركيين ذاك ، حيث تتفاخر قرى الهركيين بالمدارس والمستوصفات التي تفتقر اليها القبائل الاخرى .

قبل أن تسقط جمهورية مهاباد مباشرة وقبل أن يتقدم الجيش الايراني نحو الداخل ، ذهب البرزاني الى القاضي محمد الرئيس ليسأله اذا كان يريد الذهاب الى روسيا . لكن القاضي.

ـ أما لبساطته أولأمانته البالغة ـ اختار البقاء في مهاباد . فقد شعر بعدم قدرته التخلي عن الناس الذين مضوا معه في هذه المجازفة الجريئة من غير اعتبار للحكومة الايرانية ، ومن المحتمل أنه لم يصدق حقيقة أن الحكومة ستكون غبية ، لتجعل منه شهيدا . ولكن وقبل مغادرة البرزاني بثلاثة أسابيع كان القاضي واثنان من أقربائه قد أعدموا في ساحة " چارچرا" القناديل الأربعة في سوج بولاق . ان كلا الاسمين ـ چارچرا وسوج بولاق لم يعودا يعزيان لأي مكان في ايران . ومهاباد كغيرها من المدن آرهقت بحمل اسم شارع بهلوي وبتماثيل الشاه البهلوي ووالده البرونزية العديمه الذوق . لكن أهالي مهاباد لن ينسوا ماحدث لهم أبدا .

حتى بعد قراءتي لتاريخ الجمهورية الكردية كنت لاأزال أدرك مضامينها فقط على نحو غامض فيما يخص العلاقات بين الاكرادوالاتراك في ايران في الوقت الحاضر . في سنة ١٩٤٦ قاومت دولتان طهران وتحدتا الحكومة المركزية بالقيام بأي شيء ضدها .

وكان كل من الاتراك والاكراد قد تلقيا الكثير من التشجيع من الروس ليتعاونا معا ، ومع ذلك فطوال الأحد عشر شهرا من وجود جمهورية مهاباد ، كان الكثير من الاكراد في شمال مهاباد ، في منطقة ريزاي يرون الاتراك الازربيجانيين - وليس فرس طهران أعداء حقيقيين . والازربيجانيون من جهتهم كانوا قد تجاهلوا الأكراد قدر استطاعتهم . وبما أن المدن الواقعة الى غربي البحيرة و ريزاي وحوالي تبريز كانت تقطنها الأغلبية التركية ، فقد شعر الازربيجانيون الاتراك بالامان عند منعهم الجماهير الكردية التي تشكل كما ضخما في القرى المحيطة من أن يمثلوا أنفسهم ، أو أن يؤخذوا بعين الاعتبار . وهذا الوضع لايزال مستمرا حتى هذا الحين . ويشكوا الاكراد من أن المدرسين والطلاب الاتراك يتحدثون التركية في المدارس العامة في ريزاي ، حيث من المفترض أن تكون الفارسية هي اللغة الرسمية . ويقول الاكراد بأنهم سيتذكرون طالما فيهم من لديه القدرة على التذكر أن الاتراك لم يتجاوبوا معهم على الوجه الاكمل . الا انني احتجت الى فترة من الزمن لكي أدرك ادراكا كاملا عمق التعصب العرقي في ريزاي .كان جميع جيراني اتراكا بينما كان معظم زملائي في العمل من الفرس . وتماما مثلما لم أشك بماهية شعور الجعفريين تجاه الأكراد ،كذلك لم أكن اعلم ولوجزئيا كم كان الاساتذه الامريكيين والاوربيين في الكلية يحتقرون جيراننا . كانت رحلتنا الاولى الى مهاباد رحلة لشخصين بريئين ، مثلما كانت لقاءاتنا الاولى غير المتوقعة والعديد في ايران . وصلنا الى مهاباد عن طريق عام كان لايزال قيد الانشاء ، هذا الطريق المعبد يوصل تبريز بكرمنشاه في الوقت الحاضر. لم نرى شيئا لعدة أميال سوى سهول موحلة ممتدة الى جانب البحيرة وفي احدى البقاع شاهدنا قطيعا من الجمال لايفسر وجوده هنا على اعتبار أنه ليس من الحيوانات المألوفة في آزربيجان الغربية . وحالما غادرنا السيارة في شارع بهلوي في مهاباد وسط منطقة الجزء الادنى من المدينة شعرت بأنه كان لزاما علينا عبور

الحدود . أن النساء في الشارع المهابادي لايضعن الغطاء . فهن لايحتجنه ـ ففي مهاباد القليل من الاتراك والفرس ، والشوارع مزدحمة بالرجال الأكراد المرتدين العمامات الفخمة والسراويل الفضفاضة التي تضيق عند الكاحل . وقد اكتشفت حالا ان الاكراد لايحدقون في بطريقة الاتراك المتفطرسة . على الرغم من أن مهاباد بطبيعتها محاطة عند حوافها بالجبال أكثر من ريزاي القابعة فوق سهل واسع فان مهاباد التي تقع في واد الى حدما ، هي أكثر اشراقا واضاءة . لربما كان تفسير ذلك هو غياب العباءات .

عندما خرجنا من السيارة لاحظت أن شهرزاد لم تظهر لتقاسمني حماسي لهذه المدينة الكردية . فقد لفت شالها الاسود المحبوك بشكل جيد حول جسدها بعصبية عندما قادتنا على نحو سريع الى دكان تذكارات يقتنيه ويديره تركي من ريزاي . قضينا فترة الصباح هناك حسب ارشاداتها . وبعد ان قمنا ببعض المشتريات عزمت على الاتصال بعائلة حسن المهابادي الذي التقيته في امريكا . وحالما ذكرت اسمه تغير جو المحل ، فأوحى الينا صاحبه ان اخا حسن ربما يكون ـ وعلى ما هو شائع ـ في السجن . ولكني رفضت أن يشبطوا عزمي وبذلك ساعدتني شهرزاد على مضض كي اهتف الى منزل عائلة حسن . وحين ظهر رجل بدين لا يشبه حسن في شيء عند مخزن التذكارات راودني الشك فيه ، فتساءلت فيما اذا كان هذا حقا ، أخو حسن أم أنه من عناصر السافاك . لم تكن هناك وسيلة لمعرفة ذلك . لماذا كانوا يفكرون في وجوده في السجن ؟ هل كان مجرما ؟ فأنا لم أقم المدة الكافية في ايران لأميز بين المقياس الامريكي والايراني في أسباب الاعتقال . اعطانا أخو حسن رقم هاتفه مكتوبا بأرقام انكليزيه مشكلة بطريقة غير متقنة وبعدئذ مضى بعيدا مما أراح شهرزاد كثيرا . لقد اراد أن نتصل به ونجتمع في المرة القادمة في مهاباد عندما نحضر اليها ، ولكننا لم نفعل ذلك أبدا .

ان تاريخ حسن واخوته الى حد ما هو نموذج لما كان على

المقيمين في مهاباد أن يعانوه في غضون سنوات . ففي سنة ١٩٥٠ . وبعد فترة ليست بطويلة بعد سقوط الجمهورية ، كان هنالك آخ آخر لحسن وقد كان في الثلاثين من عمره آنذاك ، حين جمع مع شباب اخرين وحجزوا في كوخ صغير لمدة اسبوع وكان البوليس قد غطى أرضية الكوخ بالماء بعمق قدم وقال حسن أن اخاه ذاك لم يشف من ذات الرئة التي اصيب بها أثناء التعذيب . كان قد آتهم بنشر مواد تحريضية وبعدئذ أفرج عنه . لقد تضررت رئتاه فقط ، أما الاخرون فلم يكونوا محظوظين مثله . كان ذلك في الزمن الذي يعتبر فيه الادب الديني عملا تحريضيا . وحسن نفسه وأخوه الذي قتل في احدى المخيمات العسكرية كانا فعلا قد رتبا امرهما للذهاب الى الولايات المتحدة ، زاعمين انهما سيذهبان للدراسة ولكنهما حقيقة وقبل كل شيء أرادا أن يبقيا على حياتهما . وبعد عودتي من ايران ، ولدى روءيتي لحسن عند ذلك فقط ، افهمني وأنا في امريكا سبب افتراض تلاميذي المهاباديين مباشرة ان الساڤاك قد اغتالوا أخاه . ان حوادث موت اناس من مهاباد غالبا ماتكون غير طبيعية ولا عرضية .

عندما سرنا مع شهرزاد الى فندق " مامون سراي " الحكومي ، المحلي ، الصغير ، القينا نظرة خاطفة على المدينة . كان دزينات من الرجال الباعين المتجولين ينادون على بضائعهم التي تضم راديوات ومسجلات وبضائع مستوردة اخرى على طول الطريق الرئيسي . لقد كانت مهاباد مشهورة بكونها قبلة البضائع الغربية المهربة ، وبما أن الاتراك على جانبي الحدود كانوا يتعاملون مع بعضهم البعض بيسر ليتجنبوا الجمارك من غير ريب ، فان سلسلة التهريب قد كسرت عندما استخدمت الحكومة العراقية النار وجردت عناصرا لتحدث مايبلغ امتداده خمسة وعشرين كيلو مترا من الارض المحروقة بين قراها الكردية والقرى التابعة للبلدان المجاورة لها في ايران وتركيا .

بعد أن تناولنا الغذاء في غرفة خاصة في فندق مامون سراي ـ حيث لاتتأخذ النساء غذاءهن في حجرة الطعام العامة ـ تجولنا أنا وجيرد لوحدنا عبر الازقة الصغيرة الموحلة وعلى ناصية الشارع الرئيسي وقوّت الازقة الملتوية والمنازل المبنية من الطين شعورنا بأننا كنا فعلا في بلد آخر . كان منزلنا الخاص مبنيا من الاسمنت مع قطع صغيرة من الزجاج الملون ، وكانت مرايا مكسرة تبرز في الواجهة . وفي وقت لاحق ، عندما سرنا الى موقع الانشاء الذي يعمل فيه هوشنغ ظننت ان مهاباد ستفخر حالا بمنازل مثل منازلنا . كانت منازل هوشنغ تبنى في صفوف مستقيمة ،طويلة وكئيبة . والانابيب تتدحرج في تلك الانحاء بين غبار الشارع غير المنتهي ، وكأن للمنطقة مظهر اعزل ، كئيب ، مغاير تماما للمتاهات التقليدية للازقة بجدرانها المنخفضة وحدائقها الصغيرة . غامرني شعور بانني ساتخلى بسعادة عن سخانة الماء والثلاجة لاعيش في مهاباد القديمة .

امضينا يومنا في مهاباد على عجل ، وانتهى هوشنغ من عمله ، وتحررت شهرزاد من حملها المقيت لترينا تلك الانحاء . كنا نتتبع مجرى النهر خارج المدينة ، عندما انعطف هوشنغ وبدون سابق انذار من الطريق الرئيسي الى شارع مستقيم منحدر ، ومفروش بالحصى بشكل حسن . بعد بضعة كيلومترات ادركنا ساحة مستديره ، وكانت تشبه تلك الساحة التي تشير الى بداية مهاباد تماما ، الا أن هذه ، تتميز بعدم وجود تمثال للشاه او والده ،وانعدام العشب في وسطها . داخل هذه الساحة المستديره كان يقف مجموعة من الرجال بعضهم كبار وبعضهم شباب ،و جميعهم مرتدون البسة ملوثة وممزقة من الطراز الغربي . لم أر زوجا واحدا من السراويل الكردية الفضفاضة او حتى عمامة . كانت شهرزاد تستشيط غضبا في المقعد الامامي عندما ترجل هوشنغ وبدأ بالحديث مع زمرة من الرجال. قررنا انا وجيرد ان نخرج أيضا ، ونلقي نظرة على تلك الانحاء .

حالما خرجنا من السيارة ، اندفع بقية المتجمهرين

باتجاهنا ليمعنوا النظرفينا عن كثب . القت الشمس التي كادت تأفـــل بسرعة بظلالها الوارفة على المشهد بشمولية تامة ، جاعلة وجـــوه الرجال الملوحة بالشمس تبدو أكثر سمرة . بينما كانوا يحدقـــون فينا ،شعرت بعداء قاهر موجه للباسنا النظيف غير الممزق ، ولوجوهنا الشاحبة المحمية ، ولفضولنا غير المخفي . وفجأة قال جيرد :

ـ الا تلاحظين شيئا غريبا في هذا المكان ؟

صدمت بسمة الاكتشاف المميزة في صوته وتجهمت ملامحي لذلك . مـــن الواضح أن المكان كله كان غريبا جدا ، لقد كنا محاطين بمجموعـــة من الرجال الاتراك الفقراء فقراء مدقعا والعدائيين ، حيث كانـــوا يقفون في الطريق يحدقون في زوجين غريبين عنهم .

في الجانب الآخر من هذه الساحة الدائرية الطينية المحاطـــة بطريق مفترش بالحصى كانت هناك مجموعة صغيرة من المخازن الشبيهـــة بالاكواخ تبيع الفاكهة والخضار وبعضا من البضائع الجافة المغبـــرة. هتف جيرد قائلا :

ـ لاتوجد سيارات هنا . انهم ينشئون هذا الشارع المشـــجر وهذه الساحة الدائرية السخيفة في مكان لااهمية له . فلا احد مـــن هؤلاء الناس يقدر على شراء سيارة . ان الحكومة تنشئ طريقـــا لن يعود عليهم بفائدة .

وقبل ان يمضي جيرد في تفصيلاته اكثر ، رأينا هوشـــنغ يرجع ويدخل سيارته . أسرعنا نحن أيضا بالدخول ووبختنـــي شهرزاد بعدئذ قائلة : أن الرجال هنا ليسوا معتادين علـــى رؤية النساء . اقترح هوشنغ في محاولة منه لتلطيف الجـــو ، أن نقوم برحلة جانبية الى واد آخر لرؤية بعض من البقايا الاثريـــة الممتعة ، وتجادل الاثنان لبضع دقائق ، وبعد ذلك اقر هوشنغ أن القيادة لن تكون مأمونة الجانب حول الجبال في الظلام . لقد بـــدا أن الطائرات العراقية كانت تحلق على مقربة دانية ، من الرؤوس ،

تقصف القرى الكردية في الجانب الايراني وكذلك في الجانب العراقـي من الحدود . وقد ضحك هوشنغ كما لو أن هذه كانت نكتة بارعـة . عند هذا شعرت بقشعريرة تسري في بدني .

اليوم الذي تلى رحلتنا الى مهاباد ، احتفل فيه بالعيد، اشارة الى انتهاء رمضان ، بعد فترة صيام المسلمين لمدة شهر . سمعت اصوات الضيوف في يوم العطلة هذه ، بينما كنت آمر بباب الجعفريين نصف المفتوح . فعرفتني على ابن عمها الذي كان يعمل في مهاباد كمراقب على التبغ .

ـ مهاباد مكان بغيض .

قال ذلك استجابة لاخبار ذهابي الى هناك منذ فترة قريبة جـدا. أومأ بقية الاتراك الموجودين في الغرفة بالموافقة على ذلك ،والحت شهرزاد في كلامها قائلـة :

ـ لكن مارغريت تحب مهاباد ، اليس كذلك ، يامارغريت ؟

ـ نعـم .

قلت ذلك بينما كان يحدق فيّ الجميع .

بعدئذ انفجرت شهرزاد قائلة :

ـ كما تعرفون ، ان مارغريت تحب الاكراد ، وتريد أن تتعلم الكردية .

عند ذلك جحظت عينا ابن عمها ولم يضف احد آخر اي شـيء . ابتسمت شهرزاد وهي تقول موضحة :

ـ الغرباء يهتمون بمثل هذه الاشياء .

ومن ثم غيّر احدهم موضوع المحادثـة .

بعد رحلتنا الى مهاباد ، نظرت الى قطعة الورق المجعـدة

المكتوب عليها رقم هاتف الرجل الذي ادعى انه اخو حسن عندما كنا في مهاباد . كان يلح علينا ان نهتف له حالما نتمكن من ذلك . ولكن كيف ؟ لقد ترددت في طلب الهاتف من شهرزاد لاستخدمه بعدئذ اخبرني احدهم ان الهواتف في مهاباد لم توصل بعد بتلك التي توجد في مدن ريفيه اخرى . لم اعرف ما الذي سأصدقه ؟

كنت على وشك استخلاص هذا الدرس في ايران : انه عندما يرفض أحدهم أن يعطيك معلومات عن كيفية الوصول من النقطة " أ " الى النقطة " ب " ـ كما حصل معنا في محطة الحافلة عندما حاولنا للمرة الاولى ان نذهب الى مهاباد ـ او عندما يقول : انه من الممكن الا استطيع الاتصال من مدينة باخرى ، فانه يحاول قول شيء مغاير. وعندما قالت شهرزاد لنا في مهاباد : انها لاتعرف أي مكان آخر لتأخذنا اليه سوى دكان التذكارات لصاحبه التركي ،فقد كانت تخبرنا بأنه علينا الا نكون في أي مكان آخر سواه . لقد كانت هي وهوشنغ يحاولان بحذر ان يحصرا زيارتنا هناك داخل سيارتهما فقط ، وفندق مامون سراي ـ الحكومي ودكان يقتنيه تركي . عندما اخترقنا الحواجز التي وضعوها لنا مصرين على رؤية حسن ،وذاهبين في جولات قصيرة ، وخارجين من السيارة في الساحة المستديرة ، كان من الطبيعي لهم ان يضطربوا لذلك . مع انهما يعرفان اكثر منا أين كان مكان تواجدنا .

كل امرىء في ايران له مكانه ، فالخدم والعمال لهم اماكنهم في حافلات المدينة التي يكلف الركوب فيها ثلاث سنتان فقط . الموظفون وعمال آخرون ذوو الياقات البيضاء ، لهم اماكنهم في حافلة هيئة الاساتذة ، التابعة للكلية ، او الحافلات المزودة من قبل مكاتب الكلية . هذه الحافلات حرة . والمشتغلون بمهن تقتضي ثقافة مثلنا ، من المفروض عليهم ان يقتنوا سيارات ، حيث كانت اجرة الركوب في زمن اقامتنا مايربو على ٤٫٥٠٠ من الدولار. ان هذا الحس بالمكانة قوي جدا ، لدرجة انه عندما اضطر زميل لنا لبيع سيارته تحت ضغط ظروف مادية ، كان يمشي عدة اميال بدلا من أخذ حافلة

المساعدين .

للاكراد مكانهم ، خارج مدينة ريزاي . كان ذلك جزءا من الامور المزعجة جدا عن اللاجئين . لقد كانوا يصرون على كونهم اكراد على نحو علني في مدينة تركية . اما مهاباد ، فقد كانت العكس تماما . فهناك لاينتمي اليها الاتراك . ربما كان ذلك هو السبب في أن الحكومة كانت تنشيء مدينة صناعية ، في ضواحي مهاباد لتجلب اليها الاتراك والفرس وتجعل المنطقة أقل كردية على نحو فعلي ، فكلما اصبحت كردستان اكثر اختلاطا ، فان سكانها سيجدون صعوبة اكثر في الانفصال عن الحكومة المركزية ثانية . لقد كانت الحكومة العراقية تستخدم هذا الاسلوب لسنوات ، لتقلص من مساحة كردستان التابعة لها .

كان الزمن ينقضي على نحو غير معروف لحكومة الشاه ، وكان قد تأكد بشكل قاطع ان المجندين في الجيش من كردستان ، أو في الحقيقة ، من أي من المناطق العرقية المكثفة ، لن يمركزوا بين الشعب المنتمى اليه . كانت الحكومة قد ارسلت حكاما ومحافظين مهيئين في طهران ، وموثوق فيهم بانعدام اي قاسم مشترك كاللغة والشعور بالتعاطف بينهم وبين هوءلاء الناس الذين تحت ادارتهم ، وكانت قد اغرت روءوساء القبائل واستخدمتهم لقاء مبلغ من المال . لكن حلم الجمهورية والاسماء سوج بولاق وچارچرا تواصلت بين الاكراد ، على الرغم من جهود السافاك القصوى لاجتثاثها .

الفصل الرابع

كنت مضطجعة على اريكة طويلة باتجاه بعض الستائر الفينيسية نصف المفتوحة ، محاولة النظر الى الوجه العريض و الودود للسيد جوهر خانه ، اكثر من خطوط النور المضطربة وراءه . لكن بقية الحجرة ، كانت تغشاها ضبابية اما بسبب عدم تجميعي الاشعة في بوءرة واحدة او بسبب عصبيتي . لم استطع ان احدد ذلك . كان يراقبني ثلاثون طالبا وأنا اواظب على اخذ درسي الكردي ثلاث مرات في الاسبوع . وكمتخصصة في مجال اللغويات فقد اعتدت على تحمل مسوءولية تنظيم وتمثيل وتركيب أي لغة يمكن ان احتاجها حرفيا . اما في محطة الاذاعة فقد كنت اشعر غالبا كما لو أني كنت اسحب الكردية من فم استاذي اكثر مما لاحد ما أن يقتلع سنا . كانت هذه الدروس المتعبة جدا تعطى في مكتب مدير اذاعة ريزاي - التي بالاضافة الى برامجها الرئيسة بالفارسية - كانت ، تذيع برامج اذاعية اخرى بالآزرية التركية ، والكرمانجية والتركية ، والآشورية . وعلى الرغم من أن هذه البرامج كانت تستلزم ضمنا المصادقة عليها لتثبت تسامح طهران تجاه اقلياتها العرقية ، فان بعض الناس كانوا يحتجون على ان اللغات غير القياسية كانت تحول الى فارسية على نحو مدروس في الاذاعات . حتى الناس الذين لم تكن لهم علاقة بالمسائل اللغوية ، ميزوا ذلك الجانب من الموسيقى ،فالبرامج الكردية كانت وعلى نحو رئيسي وسيلة للدعاية التي يستخدمها الشاه .

في أسفل التسلسل الهرمي لمحطة الاذاعة كان الرجل الذي يقدم الشاي يقف منتصبا وساكنا في أبعد نقطة من جوهرخانة في الحجرة ، منتظرا الفرصة ليتقدم نحو المقعد حاملا أكوابا كانت تطقطق فوق أطباقها . أعطى جوهرخانة تعليماته بأن يقدم الشاي الي أولا مع الوجهاء الاخرين في الغرفة وهم يأخذون الشاي بانتظام

حسب أهميتهم ، كان على معظمهم الذهاب بدونه ولكنهم لم يشعروا بالخيبة لذلك بما أنهم كانوا قد اتوا للتسلية وليس لشرب الشاي . كنت أنا نفس المرأة التي كانت قد ذهبت الى المحطة في الاسبوع الماضي مع رسالة تعريف من مدرس ايراني في الكلية . كان السيد جوهرخانه قد اشار بقوة هيئة المساعدين باعلانه انني يجب ان أعلّم اللغة الكردية . لذلك توقفت اقسام اخرى وفي اوقات محددة في ايام السبت ،الثلاثاء ،والخميس وذهب كل واحد الى مكتب مدير المحطة ليراقب ويمضي ويبدي الملاحظات بهمس .

وجدت نفسي ثانية بين الاتراك ألاحق دراستي للكردية ،ولو انه كان يوجد بعض الاكراد . كان السيد اسيابي ، رئيس مجموع المساعدين للبرامج الاذاعية الكردية هو نفسه نصف كردي ونصف تركي . لقد كان رجلا قويا ، معتدا بنفسه ،وذا تسريحة ممعنة في القدم . كان يفضل الكنزات الضيقة ، ذوات العنق الطويل . كان من الواضح انه يستمتع بدور المعلم امام جمهور كهذا . كان يرد اجوبته الدقيقة على كل اسئلتي السمجة عن صيغ الفعل وترجمات مواد المفردات بصوت عال . لقد كان مغرورا جدا وكان يركز على نحو واضح على مايقوم به اكثر من كونه ينقل معلومات ، حيث بدأت مباشرة بالشك بالكردية التي يعلمني اياها . أما السيد جوهرخانه ، مدير المحطة فلو لم يكن تركيا ، لكان معلما أفضل بكثير من السيد اسيابي . في حين أن اسيابي كان ينزع الى الفجر والسفسطة ،فان السيد جوهرخانه ، كان مباشرا ومتحمسا ، متحمسا جدا لدرجة انه في الحقيقة كان يشجع طموحي لتعلم الكردية . وكملك لمحطة الاذاعة فقد اشرف على دروسي ، وكان يبدي تعليقاته لدرجة انه خلص الى نتيجة أني ذكية جدا ، وكان يلفظها " زكية " . كان متأكدا من انني سأكون قادرة على تعلم كل شيء يمكن تعلمه عن الكرمانجية ، اللهجة الشمالية الكردية في أقل من شهرين ، في أي وقت ، وكان يرمي الى أني استطيع ان استمر لاصل الى شيء اكثر تعقيدا وفائدة . وانا من جهتي شككت بأني سأتعلم اللغة يوما ما وأنا اعمل في ميدان كهذا .

في احد الايام انشغل السيد إسيابي ببعض الاعمال الاخرى فحدد لي السيد جوهر خانة درسا لآخذه مع اخت السيد أسيابي وهي الشخصية الثانية في التسلسل الهرمي للبرنامج الاذاعي الكرمانجي . كانت حاملا وكان حملها يبدو ضخما ، وهي امرأة ذات عينين داكنتين وقد بدت قدرتها على التحدث بالكردية وكأنها قد ضمرت من قلة الاستعمال بسبب من السأم المفرط ، وهي مثل السيد اسيابي نصف كردية ، وبما انها كانت متزوجة من فارسي لذلك لم تكن تستخدم الكردية. وفي المرة التالية التي اتيت فيها الى المحطه بقلوني الى السيد جاهي وقد كان ذا مظهر افضل واكثر كياسة من السيد اسيابي . لقد كان السيد جاهي سريع الحركة ، وحسن الفهم ان تعليم الكردية لم يكن في قمة قائمة الاولويات لديه ولكن بما ان السيد جوهر خانه كان قد كلفه بذلك ، فقد بذل جهدا للاجابة على اسئلتي . كان السيد جاهي ، الرجل الكردي الاكثر فقرا . ذو ثقافة فرنسية وميالا لها اكثر من أي رجل آخر التقيته في الكلية وبدون فوائد الثقافة والتعليم الفرنسي أو " البيجو " كان السيد جاهي يحاول ان يخلف حياته الريفية الماضية وراءه . وكان يحتال ليخدعني بقصصه عن الشرب وهو يحوم ثملا حول المدينة وحيدا ومن المحتمل انه لن يخدع احدا آخر . جلس في مقعده طوال اليوم بقرب الهاتف صارخا " قربانانه " في سماعة التلفون ، وتعني حرفيا اموت من اجلك ، ولكن السيد جاهي يستخدمها على نحو طليق ليظهر لسامعيه كم كان رجلا رائعا ، رحب الصدر .

وأخيرا أعاد علي صبري بالفائدة ، فقد التقيت في المحطة بالشخص الوحيد المهتم بالكردية . وعندما وجد السيد جاهي نشاطات اخرى في المحطة ليشغل وقته بها حولت الى السيد خليلي الذي كان يرغب دائما في ان يكون مدرسي . اقترح مباشرة بأن نغادر مكتب مدير المحطة وان نعمل لوحدنا في الغرفة المجاورة .

لقد اثبت السيد خليلي انه مدرس مذهل بالمقارنة مع الذين سبقوه . فهو لم يكن يهتم فيما اذا تعلمت شيئا صحيحا فحسب ، بل انه كان يحب لغته . كان قد جمع كل انواع الآثار الادبية السرية التي طبعت بالكردية . وموءخرا علمت انه كان يقرض الشعر بالكردية . على الرغم من أن الكردية لم تكن قد ميزت على انها لغة رسمية في ايران او تركيا ، فان عدد الاعمال التي طبعت سريا هناك كانت مثيرة للاعجاب . والكتب الكردية المطبوعة في العراق على نحو قانوني ، كانت تهرب ايضا عبر الحدود ويحرص عليها بغيرة في القرى الايرانية . كان السيد خليلي قد نجح في احراز نسخة لي من ممو زين باخبار احد القرويين بأنه قد فقد النسخة الخاصة به . كان راديو ريزاي يذيع على نحو دوري اشعارا غنائية من هذه الملحمة الكردية العظيمة مع موسيقا مرافقة لها ولكن وكما اشار السيد خليلي لم يكن هناك مجال للتفكير في وضع السمات القومية الخارجية بوضوح وبدون تحفظ . أن ملحمة ممو زين ، هي قصة عاشقين فُرق بينهما على نحو مأساوي كروميو وجولييت ، وهي حقيقة ، قصة رمزية تعبر عن مصير الاكراد المأساوي ، ووحدتهم الممزقة والمستنكرة من قبل الاتراك والفرس وغيرهم ، وكذلك تعبر عن اقتتالهم القبلي الداخلي ايضا . كتب ملحمة ممو زين احمد خاني في القرن السابع عشر وقد اعيد طبعها عدة مرات في كردستان التركية والعراقية والسوفيتية . والكتاب الذين اتوا بعده عالجوا مواضيع تتراوح بين جمال الحب وجمال الجبال الكردية . لكن احدا منهم لم يكف عن ذكر الطموحات القومية الكردية . والكتابة بالكردية هي نفسها عمل يجسد التحدي. فقاموس موس عنتر الكردي ـ التركي مرفوض من قبل الحكومة التركية ، مثل كتابة "برينا رش" الجرح الاسود ، وهو مسرحية تعرض مرض وموت العديد من القرويين بسبب آخذهم بذورا قد عولجت كيمياويا سلمتها لهم الحكومة .

حاول السيد خليلي ان يعلمني الكردية الاساسية وقد اثارني ذلك في البداية ، ولكني شعرت بالاحباط تدريجيا ،لاني لم استطع

ان اتقدم على نحو كاف لاجاريه . لقد ارادني ان اكون قادرة على قراءة الشعر وعلى فهم الكنايات الشعرية العميقة ،بينما كنت لا ازال اعمل بجد لتعلم تصريف الافعال . لقد درست بعض الكردية في الولايات المتحدة ، ولكن بما انه ليس لكردستان لغتها القياسية الوحيدة ، فهي مقسمة بين اختلافات عديدة في اللهجات ، فكل ماتعلمته من قبل كان عليه ان يحول الى اللفظ المحلي ، وكان لايزال هناك الكثير من الكلمات التي لم اكن اعرفها . كنت اخشى احيانا من أن الصيغ التي علمني اياها السيد خليلي هي ادبية بحتة وانها معرفة مكتسبة من الكتب اكثر مما ينبغي بالنسبة للغة كالكردية . ان اللغة الكردية وعلى نحو اساسي ، هي لغة شفوية وليست لغة مكتوبة ، يتداولها القرويون ، الذين يعبرون بها عن حياتهم اليومية ويستخدمونها على نحو متسم بالابداع في قول النكت ، وتأدية الاغاني ، وسردالحكايات الطويلة . ان الكلمات العربية والتركية والفارسية الدخيلة على اللغة الكردية هي جزء اساسي من اللغة ،تماما كما هي الكلمات اللاتينية والفرنسية بالنسبة للانكليزية لكن السيد خليلي الكردي الوطني كان يحاول دائما ان ينقي لغته التي يعلمني اياها . فهو يستبدل جذور كلمات كردية اصيلة لايعرفها احد سواه بالكلمات الفارسية والعربية التي يستخدمها الآخرون . كنت قد بدأت ادرك انني لو اردت لغة كردية حقيقية وواقعية ، فانه علي الذهاب الى قرية ماوالتحدث مع اناسها هناك . اقترحت هذا على السيد خليلي ولكنه اثناني عنه قائلا اني لست مهيئة لذلك بعد .

بعد ذلك بفترة ليست بطويلة ، قرر السيدخليلي فجأة أن يأخذني الى قرية ما . والآخرون من مساعدي معدي البرامج في ريزاي ، جلسوا يسجلون البرامج ويحتسون الشاي . ويذهبون لمنازلهم في فترة مابعد الظهيرة ، لأخذ وجبات الغذاء المتبوعة بسنات من النوم . كان مطلوبا من السيد خليلي من جهة اخرى ولكونه الرجل الادنى درجة في هيئة المعدين ، ان يقضي كل يوم

في القرية يجمع المزارعين في جلسات منعقدة في الهواء الطلق يتداولون فيها مسائل الزراعة وشؤونها اسبوعيا . بعد أن طلب مني ان اسرع في المجيء ، سألني مشيرا فيما اذا كان جيردا سيحضر هو ايضا ، وقد اقلقتني نبرة صوته وتساءلت عما يجب ـ في رأية ـ ان افعله . فانا والسيد خليلي كنا مسبقا نتعرض لنظرات غريبة في المحطة لأن دروسي كانت تعقد في مكان منعزل.عندما عرفته اكثر ، تأكدت انه لم يقض وقتا لوحده مع امرأة ابدا سوى زوجاته .

لقد كان جيرد متفرغا ، حيث لم تكن لديه دروس في الكلية في اليوم الذي حدد فيه موعد هذه البعثة ، لذلك احضرته معي ، بموافقة السيد خليلي المسبقة . كان السيد خليلي وهو مرتد كالمعتاد بذلته السوداء ، وقميصه الابيض مع ربطة عنق سوداء ينتظرنا برفقة اخي السيد جاهي ، السائق الرسمي .ولدى ملاحظتي لهيئة السائق العابثة ، سررت لكوني لست وحيدة .

اتخذنا طريقا غربيا خارج المدينة ، طريقا لم نسلكه ابدا ، ابعد من قرية باند ، ويمكن الوصول الى مدينه مهاباد التي تقع الى الجنوب منه بوساطة شارع عريض تكتنفه الاشجار حيث يتحول الى طريقين فرعيين ، يتصرعان من قرية لاخرى . اما الطريق في الجهة الغربية ، فهو مختلف تماما . مررنا عبر وادي باند الخصب ،ولكن مشهد الطبيعه كان مجدبا وشبيها بالصحراء ،وذلك لاننا كنا في تشرين الاول ، النهاية الاخيرة لفصل الجفاف .

فعندما نظرت الى الخارج الى الهضبة المطوقة بالجبال شعرت وكأننا نسافر على وجه القمر ، لهذه الدرجة كان هذا المشهد مختلفا وغريبا عن أي منظر رأيته من قبل . مررنا برعاة اكراد ، كانوا الى جانب الطريق ، يحدقون بالتناوب في سيارتنا الجيب وقطعان ماشيتهم. عبرنا عائلات محتشدة ، منتظرة الحافلة الريفيه ، وتقريبا لم نعبر شيئا آخر سوى صخور ، تاركين غيمة ضخمة من الغبار وراء السيارة.

وعندما نظرت الى الخلف تساءلت ، كيف يمكن لنا ان نجد طريق العودة عبر هذا السهل المجدب بصخوره المتناثرة .

حالما انحرفنا الى الطريق الثانية ، خلال الجبال التي تفصل سهل ميرغاوار المنحني الاول عن سهل تيرغاوار المنحني الثاني ، لاحظت زيادة طفيفة في حجم الخضرة هناك . كانت قرى تيرغاوار الحجرية قد سكنتها قبائل مسيحية لوقت مضى ،حيث كانت قد تقاسمت الجبال والسهول مع الاكراد لفترة من الزمن . كانت تلك هي القبائل الآشورية . وهوءلاء الآشوريون الى جانب الارمن ، كانوا قد اعتنقوا الديانه المسيحية قبل بقية معظم العالم المسيحي بفترة طويلة . لقد عاش الآشوريون في وضع متقلقل مع الاكراد ، لسنوات عديدة ، ولكن الاحداث العالمية ـ كاهتمامات الجيش الروسي الذي احتل اذربيجان تقريبا في فترة الحرب العالمية الاولى والبعثات التبشرية الغربية ـ قلبت غضب جيرانهم المسلمين على روءوسهم . لايزال قاطنوا بعض القرى الواقعة الى الغرب والجنوب من ريزاي أغلبهم من الآشوريون ، اما سهل تيرغاوار فقد رحل عنه الآشوريون واجبروا على الخروج منه أوذبحوا بطريقة وحشية ، بينما استولى الاكراد على الاشجار والكنائس .

لقد سيطرت قبيلة الهركيين على تيرغاوار ، وهي واحدة من اضخم القبائل في كردستان اليوم وتتألف من حوالي ٣٠,٠٠٠ فرد متوزعين في ايران والعراق . ويقطن جزء من القبيلة هنا في القرى المسيحية القديمة ، بينما يقطن جزء آخر في العراق ،قرب مدينة اربيل " هولير " كما يسميها الاكراد . ولكن وعلى الرغم من انفصالهم الجغرافي ، فقد ظلت المجموعتان متحدتين الى حد بعيد . وفي كل السنوات التي تواجه فيها الجيش العراقي والايراني ، على طول حدودهما المشتركة ، كان قد سمح للهركيين ـ نوعا ما ـ أن يعبروا الحدود ، ليرعوا قطعانهم فيجبال ايران ، كل صيف . بينما كانت قبائل اخرى قد اضطرت الى ان تختار احد البلدين ، او آن تظل

منفصلة الى الابد ،وكان قد سمح للهركيين بالعيش مثل اسلافهم ، يعسكرون فى قرى مستقرة في الشتاء ، وفي الخيم فوق قمم الجبال في الصيف ،غافلين عن الحدود القومية بابتهاج . وقد شهدت تلك السنة التي اتيت فيها الى كردستان انتهاء هذا النمط من الحياة ، حتى بالنسبة للهركيين المتمتعين بالامتيازات ايضا . لقد كان مقدرا على المتمركزين على طول الحدود ، ان ينتظروا بدون جدوى الربيع القادم ذاك المنتظر كبيّنة اولى للقبيلة وقطعانها لتقوم برحلة طويلة ، شاقة من العراق .

على الرغم من أن جميع الاكراد ، كانوا قرويين منذ قرن تقريبا حصلت بعض القبائل على امتياز العيش مثل الهركيين ، في الوقت الذي وصلت فيه الى كردستان ، كان معظمهم قد حجزوا في القرى مع بعض المحظوظين ، دائمي الاستقرار في المدن ، حيث استطاعوا ، بفضل تعلمهم ، او حنكتهم ، ان يوفروا لاولادهم مستقبلاً أفضل مما قد توفره حياة القرية . غالبا مايتوقف هوءلاء الاكراد ، واحفادهم عن التفكير بانفسهم ، عندما يتعلق الامر باصولهم القبلية ، ولكن في القرى الايرانية ، لاتزال هذه القبائل كلية القوة ، حيث تهيمن بولائها وتكتلها القبلي اكثر من هيمنة الحكومة الايرانية . يوجد في ايران فقط ،مايقدر بستين قبيلة ، ويتراوح عدد عائلات كل قبيلة بين ٥٠٠ الى ٣٠٠٠ر٣ عائلة ،وتتفرغ بعض القبائل الاكثر ضخامة الى طوائف او عشائر والعائلة بامتدادها ، هي الوحدة الاجتماعية الاصغر في كردستان والسائدة اكثر من الفرد الواحد . وبعض من القرويين القليلين جدا يعتبرون غير منتمين الى قبائل ، ويدعون بالكرمانج وعندما يحط من قدرهم اكثر يطلق عليهم " دود ي بودي " وهي مرادفة الى حد مالما يدعي عندنا ب " هوي بولوي" " أي " الرعاع " وهوءلاء " الكرمانج " ملازمون للقرى ولمالكي الاراضي كفلاحين او كأقنان . وعلى الرغم من انهم قد يقاتلون من أجل قبيلة معينة فهم لا يرتدون اللباس الخاص الذي يميز قبيلة عن اخرى مثل العمائم الحمراء او البيضاء التي تميز البرزانيين أو الاحزمة الخضراء المميزة " للسّياد " المنتيمن لآل البيت .

ان " الشيخ " في كردستان ، هو اللقب الذي يتفرد به رئيس القرية أو العشيرة ، أو القبيلة ، على الرغم من أنه يمكن أن يستخدم بمعناه الاسلامي المألوف على نحو أكبر لقائد ديني . وهناك ألقاب اخرى يستخدمها وجهاء الاكراد مثل : " البك "و " الآغا " و وأصل كلا الكلمتين تركي ، وكذلك اللقب المنغولي " خان " وقد فقد كل من كلمتي " بك " و " آغا " بعضا من صفاتهما المميزة خارج كردستان ، بما أن كلمة " آغا " في ايران وكلمة " بي " في تركيا هما اللقبان المألوفان للرجال ، مثل كلمة " السيد " . وقد حرم رضا شاه ، والد الشاه الاخير لقب لا الخان " لأنه اراد ان يكون الخان الوحيد في البلاد . ويبدو ان الاكراد قد تجاهلوا ذلك المرسوم من بين آخرين عديدين ،وهم لايدعون بعضا من قوادهم خانا فحسب بل وعلى نحو مغاير للشعوب الاسلامية الاخرى يلحقونه بأسماء نساء ورجال مميزين أيضا . لم ابصر سوى المشاهد الصخرية المنتعشة بجدول صغير هنا ، او بقرية او رقعة ارض مشجرة هناك وذلك لجهلي التام بماضي ومستقبل تيرغاوار وكذلك لمعرفتي القليلة بالتسلسل الهرمي للقرى والقبائل الكردية . حتى اني لم اقدّر بدقة تفوق القرية التي كنا ماضين اليها . لقد كانت قرية مانوا ، مركز القيادة الرئيسي لرشيد بك العظيم ، وهو واحد من القواد الهركيين ، في الوقت الذي لعبت فيه هذه القبيلة دورا غريبا ومتناقضا في تأسيس وحل جمهورية مهاباد . وبالطبع فان السيد خليلي لم يذكر لي شيئا من هذا ابدا . كان قد اخبرنا فقط اننا نسافر الى قرية كردية نموذجية حيث سأشاهد وللمرة الاولى كيف يعيش سكان القرى " الاكراد الحقيقيون " وكيف سيكون باستطاعتي التحدث مع النساء وفهم شيء ما عن حياتهن . كنت قد اغرقت في القلق لتخيلي كيفية ردود فعل هوءلاء النساء الكرديات اللواتي تصورتهن طويلا وهن امامي . كما اغرقت في التساوءلات حتى عن كيفية فهمهن لي ، بكرديتي الفضولية المكسرة ، ولم يخطرببالي التفكير بما كان اخو السيد جاهي والسيد خليلي سيفعلانه ببذلتيهما القاتمتين ، وبربطتي عنقهما السوداوين في قرية " نموذجية ، مغبرة ".حتى السقوف المعدنية

البراقة للمستوصف والمدرسة الواقعين خارج مانوا تماما ، لم ينبآني كم كان مُنْعِما على هذه القرية على نحو غير مألوف . فكل ظني ان اسباب الراحة هذه متوفرة في جميع القرى . اصيب مضيفونا بالهلع لخلو فناء الدار الذي استقبلنا ونحن نندفع نحو الطريق الداشري الخاص المؤدي الى مضافة رشيد بك الواسعة والمعتمة والى جناح الحريم ، تملكني شعور متنام بالخوف والقلق حول حشد من الاطفال الرثي الملابس حيث كانوا قد تجمعوا ليحدقوا فينا اثناء نزولنا من السيارة . لقد بدوا فقراء وغريبين جدا . لم اكن أعرف انه حتى اطفال القواد القبليين الاكثر ثراء يتجولون في ثياب رثة كصبية مهملين ، تعلو وجوههم الصغيرة الملوحة بالشمس طبقة داكنة من الاوساخ . ومن السخرية ان اول ما ادهشني كان فقر وقذارة مانوا التي تعد واحدة من اغنى القرى في كردستان الشمالية .
وتحدث الي السيد خليلي بلطف ولكن بصرامة قائلا :

ـ عليك ان تذهبي مع النساء .

نظرت حولي وتساءلت اين يمكن ان يكون مكانهن . وعندما رأيت فتاتين يافعتين مرتديتين بذلتين من الطراز الكردي ،انيقتين وجديدتين الى حد ما ، تقتربان مني وهما خارجتان من احدى البنايات ذات الطابق الوحيد والمواجهة لي . راح السيد خليلي والسيدجاهي يأخذان جيرد بسرعة في اتجاه آخر ، وتُركت لوحدي وقلبي يخفق بشدة . كررتا عبارة " توخير هاتي به " ـ قدومك سعيد ـ عدة مرات لكي اعرف انه قد رحب بي في منزلهما . ومن ثم اشارتا الي ان اتبعهما الى الداخل ،وصعدنا درجات صخرية خشنة الى الطابق الثاني واخرجت احداهما مفتاحا هيكليا ضخما وفتحت بابا خشبيا غير متقن الصنع .

كانت الحجرة في الداخل مضطرمة بالالوان على نحو متباين مع القاعة الخالية القذرة . وقد ذكرتني الوسادات ومعلقات الجدار واغطية الاسره بالادوات المصنعه يدويا التي رأيتها في مهاباد. ولم تترك حتى واجهة واحدة خالية . وكان لكل من ذراع تدوير آلة

الخياطة والمذياع المسجل الموضوعين فوق الرفوف على نحو متقاطع مع الحائط اغطية مدروزه . وكان يقبع في احدى جهات الحجرة سرير مزدوج عال مع كومة من اغطية الاسرة المصنعة يدويا ، وفي الجهة الاخرى كانت طاولة زينة منخفضة مغطاة بقوارير عطرية مزخرفة وكانت امرأتان مسنتان بشعرهما الاسود القاتم وبملابسهما الزرقاء مع صداراتهما السوداء جالستين على سجادة بجانب الطاولة . وقد نهضتا عندمادخلت مع الفتاتين وكان قد جرى وراءنا حشد من الاطفال من فناء الدار .

" توخير هاتي يه " قالها الجميع ،وبسرعة قدموا لي صحنا من التفاح الصغير وكان يبدو مسوسا . ولشعوري بوجوب تناول بعض منها التقطت واحدة ونزعت قشرتها واكلتها بينما كن جميعهن يراقبنني . وحالما انتهيت من أكلها احضرت احداهن كومة من اللباس وبدون ان ينبهنني ، تجمعن حولي ، وبدون وساطة اللغة استوعبت الفكرة نوعا ما ، لقد كن يردن ان ارتدي زي امرأة كردية فتساءلت بقلق للحظة فيما اذا كان علي ان اخلع بنطالي المخملي الفضفاض وكنزتي ، اللذين ارتديتهما خصيصا للقرية . القت احداهن الفستان الاول الابيض الحريري المذهب فوق رأسي ، كما لو آنه كان جوابا على تساؤلي ،واتبعته ببقية اجزاء البذلة بسرعة . وفي غضون دقيقتين اثنتين كان جسدي قد لف بكاملة بزي كردي . و بعدئذرفعت المرأة قلادة ذات سلاسل ذهبية وحلي صغيرة من حول عنق احدى الفتاتين اللتين رحبتا بي ووضعتها حول عنقي . نظرت الى الاسفل ، الى الذهب متسائلة فيما اذا كانت السلسلة ذهبا حقيقيا ، فقد كان هنالك الكثير منها . وبعد ذلك لففن رأسي بكوفية مزينة الحواف وقد علقت بها خصلات من شعري ، واخيرا حاولن ان ينزعن نظارتي ليكحلن عيني بتلك المادة السوداء المستخدمة على نحو تقليدي في كل انحاء الشرق الاوسط كقلم للعين . عند هذا صددتهن ورفضت ان يجملنني ووضعت نظارتي ثانية ، وقد تنهدن عندما اخبرتهن اني لا استعمل مساحيق التجميل ابدا . واني لا امضي بدون

نظارتي ابدا . بعدئذ ادرنني صوب مرآة طاولة الزينة وهن يراقبنني بتلهف ليرين رده فعلي على ذلك .

حدقت في صورتي المنعكسة في المرآة ، شاعرة وكأنني في حلم . فمنذ لحظة كنت واقفة في الباحة المغبرة يتفحصني حشد من الاطفال . والآن بدوت كما لو انني قد انضممت الى مهرجان من القرون الوسطى ، بالاكمام الطويلة ذات النهايات الدقيقة ،الملفوفة حول رسغي والاغطية الثقيلة التي لف بها رأسي . ولكن وقبل ان اعلق بسخرية حول مظهري ، اخذتني مضيفاتي الى مكان آخر . فامسكت بالاجزاء السفلية من الفستان باحكام لأتجنب التعثر عند نزولنا فوق الدرجات الصخرية . وتحت الشمس المشرقة في الخارج تراجعت الفتاتان الى الوراء وهما تمسكان باوشحة رأسيهما وتسحبان جزءا منه لتغطاه فوق فميهما ، بينما بدأت أنا بالمشي باتجاه جيرد ، حيث كان جالسا على طاولة لعب ورق مع الرجال تحت الاشجار في الفناء .

انحنى لي الرجال احتراما عندما تقدمت نحوهم ، ولكنهم لم ينهضوا . ففي القرى لايقف الرجال للنساء الا اذا كن نساء مهمات جدا والرجال غير مهمين . نظر الي " السيد خليلي مستحسنا لباسي وقد اخبرني جيرد موءخرا ان الرجال كانوا يلمحون له ان مفاجأة قد اعدت له .

كان ذلك من ضمن طقوس ادخالنا الى واحدة من قواعد الضيافة التي يقدمها الاكراد للنساء الغربيات اللواتي يأتين لزيارتهم . حتى النساء الفارسيات من طهران اللواتي كن يقضين عطلتهن في ريزاي كان يمكن لهن من قبل اصدقائي الاكراد في البازار ويوءخذن الى المنزل ويلبسن الالبسة الكردية ومن ثم توءخذ لهن صور . لم استطع ان احدد بالضبط الطرف الذي كان يتسلى اكثر ، الملبّسات ام الملبسات . وبما ان الصور كانت عنصرا اساسيا في هذا التقليد ، فقد اعطيت آلة التصوير لجيرد ليلتقط بعض

الصور ، ولكنه عندما دنا من المنزل ، حيث كانت تقف الفتيات ، ابتعدن على نحو عفوي عن آلة التصوير واوشحتهن فوق افواههن . قفلت عائدة الى الرجال ،وسألني السيد خليلي :

ـ هل تقضين وقتا ممتعا ؟

نظرت اليه ومن ثم الى جيرد وبعدئذ الى الرجال الآخرين . هل كنت اقضي وقتا ممتعا ؟ ببساطة كان من المستحيل تقييم أي نوع من الوقت كنت اقضيه . فقد كان كل شيء يحدث على نحو سريع جدا ، وكل ما استطيع ان افعله هو اني اتساءل عما سيفعلونه لي في الخطوة التالية . ولكني بالطبع اخبرت السيد خليلي انني كنت اقضي وقتا رائعا . فابتسم لي بابتهاج . عند ذاك نظر الى جيرد بغرابة ، وتساءلت عن كيفية قضاء وقته . واكتشفت موءخرا ان الرجال كانوا يحاولون اقناعه باتخاذ زوجة اخرى له . وقد احدث العرض حماسا اكثر عندما اخبرهم عن رغبته الشديدة في تعلمي الكردية . فأجابوه برد منطقي الى حد ما وقالوا :

ـ اذا كنت تريد زوجة تتحدث الكردية ، لم لاتأخذ واحدة تعرف اللغة حقيقية ؟ فبامكانك ان تتخذ احدى فتياتنا كزوجة ثانيه لك .

بعد ذلك اوضح لهم جيرد انه من المهم ان تعرف زوجته الانكليزية . واخيرا قال جيرد : انه يجب أن يتصادق مع زوجته قبل ان يتزوجها . وقد اربكهم ذلك ، فالزوجات والازواج الاكراد لايتصادقون ، وخاصة ليس قبل أن يتزوجوا .

في غضون ذلك قررت مضيفاتي اخذي في جولة في القرية ، فأمسكت بآلة التصوير بيد والاجزاء السفلية الطويلة من الفستان بالاخرى على الرغم من انهن كي ينصحنني باستمرار بافلات حاشية الثوب وترك حواف اللباس لتجر على الارض . تجاهلت ما اعتقدت انه عرض مهذب وبقيت ممسكة بالحرير الابيض المذهب ولم اتركه ينسحب

على الارض . لم اتصور ان اترك مثل هذه الملابس الجميلة تغطى بالتراب . كان علي أيضا أن افهم جيدا حقيقة ان هوءلاء النساء يرتدين مثل هذه الالبسة كل يوم وانه ليس لديهن الوقت للقلق من هذا التراب القليل . فلا عجب فالقرية برمتها بدت كأنها مغطاة بالطين . ومرة اخرى اثار الفقر والغرابة دهشتي عندما تمشينا خلف المباني القرميدية الضخمة . حيث تسكن مضيفاتي . هنا في الممرات الملتوية رأيت الاكواخ الطينية المخروطية السطوح ، وافنية دور عميقة وتراءت لي دزينات من العيون تحدق في من وجوه ملوحة بالشمس .

انتشرت الاكواخ المخروطية الشكل بسقوفها القشية على مقربة منا بشكل غير واضح ، وقد رفعت الاجزاء السفلية من اللباس الى اعلى قليلا لأعبر جدولا صغيرا في طريقنا وقادتني مرافقتاي المرتديتان على نحو افضل من كل من كان في الحشد ، قادتاني الى امرأة مسنة فقدت اسنانها ، كانت تنسج على نول غير متقن في الفناء امام كوخها . توقفت امامها وتفحصت تشكيلة الصوف الاسود الخشن وسألت عما يمكن ان يكون .

ـ انه شادر .

جفلت ونظرت حولي . هل أنا لاشرقية لدرجة ان افشل في ملاحظة القرويات وهن يرتدين الاغطية ؟ كانت روءوس معظم النساء الواقفات على طول الممر مغطاة بالاوشحه فقط ، وليس بينهن من تضع الخمار بطوله الطبيعي الكامل .

ـ شادر ؟

كررت ذلك بصيغة سوءال . رمقتني المرأة بنظرة ، وبدون شك متسائلة فيما اذا فهمت لغتها واضافت :

ـ انه للجبال .

بعدئذ فهمت ماكانت تريد توضيحه . انه الشادر بمعناه القديم " خيمة " وليس بالمعنى الشائع في المدينة كعباءة .

ان الشيء الوحيد الاسود في كردستان (بالاضافة الى صدارات بعض النساء) هو الخيم التي تنصب فوق قمم الجبال عندما يصبح الجو دافئا بشكل كاف في الربيع ، لاخذ الحيوانات الى هناك للرعي .

في طريق عودتنا الى منزل مضيفتي رأيت امرأة حبلى تغزل قطنا فوق مغزل مدلى . لم ترغب في التقاط صورتها ولكن مضيفتي تغلبتا عليها . لقد استفدت من معرفتي القليلة جدا للكردية ، ولكوني جاهلة تماما عادات القرية ، لم أشعر بالذنب حول الفوز بموافقتها المكرهة . ولكن بعد هذا لن اقدر ان اصور نساء غريبات في القرى بهذه السهولة .

على مقربة من المنزل ، مررنا برجل اصلع يقطع الخشب بفأس . كان سعيدا بالتقاط صورة له اثناء مروري واخذي صورة لهذه الشخصيات الغريبة ـ النساجة العديمة الاسنان ، والمرأة الحبلى التي كانت تغزل ، والحطاب الاصلع . لم استطع التغلب على شعوري بأنني كنت في حكاية من حكايات الجن . صور جميلة ونقوش صغيرة لحياة غريبة أو مضتها أنا ولكن كيف لي أن اعرف اي شيء عن طريقة معيشة هؤلاء الناس ؟ لقد كنت برفقة اميرتي القرية ، وكان بيتهما غريبا الى حد بعيد ، ولكنه كان يحتوي على اشياء مالوفة ، مثل الاسرة وآلات الخياطة ونوافذ قد وضعت على زوايا مستقيمة . ماذا يكمن خلف عتبة الباب الطينية لمنزل تلك المرأة النساجة ؟

بعد جولتنا الى ابعد من اكواخ القرية الطينية ، نظرت الى المنزل الذي كانت مضيفتاي تقطنانه بنظرة جديدة ، فالقرميد الاصفر المصنع ، واطارات النوافذ المعدنية والطابق الثاني ، كلها كانت عادية جدا عندما رأيتها لاول مره . فهناك الآلاف من مثل هذه البنايات في ريزاي ، والعديد منها في حالة أفضل . اما في ماتوا

فقد كانت توجد هناك اثنتان فقط وكانت كل قطعة قرميد أوحديد قد نقلت عبر الممرات الجبلية في طريق ترابية • كان رشيد بك قد بنى هذه المنازل واسكنها بذريه زوجاته وزوجات ابنه أمير خان •

دلفنا الى داخل المنزل من بابه الخلفي ، مارات بزريبة الحيوانات في الطابق السفلي ، وكان من الصعب علي أن أرى أي شيء الى أن رجعنا الى مدخل الدرج حيث توجد فيه نافذة في أعلى الجدار خلعت ملابسي المستعارة بسرعة داخل الحجرة التي كنا فيها من قبل واسترحت من قلق توسيخها ثانية • ومن ثم اخذنا اماكننا في الجلوس متقابلات واخيرا حفظت اسماءهن عن ظهر قلب وبشكل صحيح • كان اسم الفتاة السمراء الممتلئة الجسم شيرين أو"حلوة " بينما كانت بروانه " فراشة " مثل اسمها تماما ، فقد كانت شقراء وبالغة الرقة • بادرت شيرين اصغر الاثنتين بالسؤال قائلة :

ـ هل عندك اولاد ؟

ـ لا •

ـ ولم لا ؟

ـ آه ، لم يمض على زواجي وقت طويل •

ـ اذا سيكون لديك طفل في وقت قريب ؟

سألت وهي تنظر الى بطني •

ـ لا ، لا أظن ذلك •

ـ وكيف تعرفين ؟

جلست متعجبة من كيفية سير المحادثة وبهذه السرعة ، كم كان عمر هاتين الفتاتين ؟ الى أي درجة من التفاصيل تتوقعان ان اعطيهما عن شكل منع الحمل الذي اتبعه ؟ صورت بدقة الحجاب الحاجز وهي حيلة غير معروفة في كردستان الايرانية وحاولت ان استجمع الكلمات لاصفها • واخيرا قالت بروانه وهي تحثني على الكلام :

- هل تأخذين حبوبا ؟

فأجبتها بالفارسية :

- تقريبا .

وتقريبا تعني حرفيا " على نحو تقريبي " وهي كلمة عربية تفيد في اعطاء اجوبة غامضة في كل ارجاء الشرق الاوسط .

والآن جاء دوري لتوجيه الاسئلة . ولكوني متحفظة في السؤال عن الاشياء الخصوصية جدا فقد اقتصرت مواضيعي في الحجرة على الاسماء الكردية فقط . ولعبنا هذه اللعبة لفترة قصيرة بنجاحات متفاوته . لقد كنت افهم القليل من الكردية ، على الرغم من تأكيدهما بأدب ولباقة اني اتكلم لغتهما بطلاقة ، وكانتا تواصلان التحول الى الفارسية . وبما انهما تابعتا الدراسة حتى الصف الخامس فقد كانتا تعرفان القليل جدا عن اللغة القياسية وقد افترضتا انه بما انني غريبة متعلمة ، فأنني سأعرف بالطبع اللغة الفارسية أفضل بكثير من لغتهما غير المدونة . وقد بدا انني لم استطع ان أفهمهما ان اللغة التي ادرسها في الولايات المتحدة هي تلك اللغة الكردية عديمة القواعد وغير المعتبرة وانها ليست الفارسية .

مضت مضيفتي بدون أي توضيح للتحدث مع الخادمة في الرواق ، وبعد ذلك دخلت الاخيرة الى الحجرة وهي تحمل طستا معدنيا وابريقا بلاستيكيا ذا مصب ضيق . واخرجت احداهن قطعة مستطيلة من الصابون من الخزانة وناولتني اياها وعلى نحو غير بارع مددت يدي الى الامام قليلا ، بينما صبت عليهما الخادمة الماء . بعدئذ ارغيت يدي بالصابون وغسلتهما برفق مع مزيد من الماء المصبوب . ومن ثم جففتهما بالمنشفة .

بينما كانت الفتاتان تغسلان ايديهما ، اوضحت لي بروانه قائلة :

– لدى والدي العديد من هذه .

فحدقت فيها متسائلة : العديد من ماذا ؟ الطسوت والاباريق ؟ قطع الصابون ؟ ولكنها عندما اشارت الى الفتاة التي تصب الماء ، فهمت قصدها . فلدى والدها العديد من الخادمات .

كانت خادمة والد بروانه هي الاولى من بين العديد من الخادمات اللواتي التقيتهن في البيوت الكردية . ومنذ البداية تماما لم أكن استطيع تحديد كيفية تعاملي مع الخادمات . فقد كان يزعجني ان يكون هناك من يقوم بدور الابريق والحنفيه أمامي . والخادمات كذلك كن يقضين ساعات في غسل الملابس يدويا ، وينظفن المواد الغذائية ، يخبزن الخبز ، ويقمن بأعمال روتينية مستهلكة . والشيء الذي كان يضايقني لم يكن قساوة حياتهن او عبودية اعمالهن الروتينية فقط ، بل أيضا عدم قدرتي على تمييز الخدم . فقد كانت هذه أيضا مشكلة . ان الخدمة ضمن نظام اقتصادي ، اقطاعي جزئيا وليس ماليا هو شيء جار . وعلى الرغم من ان بروانة قالت ان والدها " يملك " الخدم فقد رأيت في قرى أخرى انه يمكن ان يدعى أي شخص للخدمة في أي وقت ، حسب اقتضاء الموقف والمكانة الاجتماعية للناس المخدومين . فالفلاحين غالبا ماكانوا يقومون على خدمة مالكِي الاراضي وعائلاتهم معتبرين ذلك امرا طبيعيا ، وبدون اي اجر نظامي . اما القرويون الذين كانوا يأتون الى المدينة من فترة لأخرى في رحلات قصيرة للقيام بأعمال معينة وكانوا يبقون في منزل الشيخ ، كانوا يخدمون أهل الدار على نحو روتيني . والاكراد الذين كانوا خدما دائمين غالبا ماكانوا يبدون لي كأنهم اعضاء من العائلة ، فقد كانوا يقيمون احيانا في منازل مستخدميهم وكان لباسهم على الاغلب لايختلف عن لباس الذين هم في حالة أفضل منهم . وعلى العكس فان افراد العائلة الحقيقيين كانوا يبدون كالخدم احيانا . وزوجات الابناء كن يقمن على خدمة امهات الازواج والاخوات والاخوة ، والاخوات

الا صغر سنا كن يقمن على خدمة الا خوات الا كبر منهن . وحتى الشيخ الرجل الذى يمثل اعلى درجة في القرية ، يمكن ان يقوم على خدمة اى شخص ،اذا كان ذلك مناسبا . والرجال الا كبراد الا رستقراطيين المدللون منذ الصغر من قبل النساء والخدم حولهم، كانوا يتحولون الى مضيفين محترمين جدا ومراعين لرغبات ضيوفهم اذا لم يكن هناك احد غيرهم ممن يقوم على خدمة الضيف ، ولكن الخدمة في كردستان هي على نحو رئيسي " ضمن العائلة فقط ". لأنني عندما حاولت ان اجد امرأة كردية مفضلة اياها على امرأة تركية لتعمل في بيتي ، أخبرت ان الكرديات لا يعملن لدى الغرباء .

بما انني لم اقم بزيارة الى قرية من قبل لم استطع ان اقدر كم كانت الوجبة ممتازة وسخية عندما اعد لنا الغذاء . وحتى لم يخطر ببالي ان اتساءل كيف تتناول مضيفاتي اللحم غالبا ، وما يتعلق بها من القيام بعمل الرعاة وعمليات ذبح الماشية ومشكلة التخزين في مكان ليس فيه ثلاجات وكل ذلك دون ان نذكر مسألة التقطيع والتنظيف . لم يكن طعامنا المطهو يحتوى على لحم الضأن فقط بل أيضا على خضروات منتجة منزليا . وكان هناك ايضا رقاقات بطاطس مقلية على نار غير مكثفة ولا غازية . واخيرا كان الخبز ، حيث كن يبذلن جهدا في خبزه كل صباح ، وكان مصنوعا من الدقيق المطحون في الطاحونه ، التي سمعتها تهمهم عندما تجولت خارج القرية وبالطبع لم يكن لدى العديد من القرى طواحينها الخاصة بها .

بعد اخذ وجبة الطعام حاولت شيرين وبروانه ان توحيا الي أنني تعبة ، وانه علي ان اضطجع قليلا وآخذ قسطا من النوم . ولكنني شعرت اني متيقظه تماما . وبالاضافة الى ذلك لم ادر كيف سأسند قدمي بلباقة امامهما ، بعد ان كنت قد قرأت في كتاب انه من المعيب جدا في الشرق الاوسط ان توجه قدميك صوب احدما . وبينما جلسنا جميعا القرفصاء على الارض . احدنا مقابل الاخر ، فهمت انهما تتساءلان كيف ستقدمان

على تسليتي . لقد اصبح الحاجز اللغوي مضجرا اكثر فاكثـــــر. واخيرا لمعت عندها فكرة تعليمي الرقص . وقفزت بروانــــــه وانزلت المسجلة من فوق الرف،ازاحت غطاءها ووضعت فيها شريط تسجيل . وبينما بدأت المسجلة المحدثة صريرا بالعزف ، شبكت الفتاتان ايديهما وببطء بدأتا بالدوران في الحجرة في أداء رائع من الرقص التقليدي الشرق اوسطي ، والذي يشكل صفا طوليا . لقد كانتا تتوازيان اولا على قدم واحدة وبعدئذ ترتكزان على الاخرى ، ومن ثم تجران القدمين معا على الارض جانبـــــا . ونزولا عند الحاحهما نهضت وحاولت ان اتبعهما . وبعد بضـــع دقائق من الرقص غير المتقن جلسنا جميعا ثانية . وتساءلــت فيما اذا كان ذلك كل مافي الرقص الكردي . بعدئذ بحثنـــا عن شيء آخر ، فأخرجتا دفتر صورالعائلة ونظرت في الواحدة تلو الاخرى من صور الاكراد العنيدين العبوسين . قلبت الاوراق بادب محاولة ان اكوّن مفهوما ماعن جميع هوءلاء الغرباء ، ولكنـي كنت افشل . بعد ذلك سألتني شيرين :

ـ هل ستأتين الى حفلة زفاف بروانه ؟

نظرت اليها بفضول محاولة ألا ازيد من آمالي ، فقد كنـــت قد سمعت عن الاعراس الكردية الخرافية والمبالغ فيها وكنـــت اتحرق شوقا لأن ادعى الى حفلة منها . ولكني لاحظت أن بروانـــة قد احمرت خجلا وتجهمت ملامحــــها .

ـ أنا لست مقدمة على الزواج .

قالت الفتاة الشقراء وهي تحدق بغضب بقريبتها .

ـ بلى ، ستتزوج .

آكدت لي شـيرين .

نقّلت نظري من واحدة لأخرى ، وآنا لاازال آمل نوعـــا ما في ان هذه الدعوة حقيقية لعرس كردي حقيقي ، ولكني فـي

نفس الوقت شعرت بأنه من المحتمل الايكون هناك عرس اذا رفضت العروس المزعومة ذلك . لربما كان ذلك طقسا آخر من الطقـــوس والعادات مثل تزييني . كأن يدعون ضيوفا اجانب على ســبيل الدعابة الى اعراس لم تدرج في موعد ماللقيام بها .

ـ كـم عمـرك ؟

سألت الفتاة معتقدة ان ذلك يمكن ان يزودني بمفتاح اللغـــز فيما اذا كانت بروانه مقدمة على الزواج فعلا أم لا .

ـ أربعة عشر عاما .

كشّرت بروانه ، بينما حثتني شيرين قائلة :

ـ اذا ،ســتأتين ؟

فقلت متشــككة :

ـ لا اعــرف .

في تلك اللحظة ظهرت الخادمة عند مدخل البـاب ، فنهضت كلتا هما لدى سماعهما الاخبار بأن السيد خليلي قد دعانـــي. فبعد كل هذا العناء معي ستقدران على اخذ قيلولتهما لفترة بعد الغذاء . وبعد ان شكرتهما وصافحتهما ، كتبت لهمـــــا عنواني في ريزاي على نحو سريع وحثثتهما على زيارتي عندما تأتيان الى المدينة . وكانتا قد اخبرتاني في سياق الحديـــث انهما غالبا ماتأتيان الى ريزاي . وقد تخيلت ببساطــــــة انهما كانتا حرتين في مغادرة مكان اقامتهما اينما كـــان، وبالتجول أو اخذ سيارة اجرة الى منزلي .

قادتني الخادمة لدى نزولي عبر الدرج الصخري ومن ثــم اشارت الي ان اذهب الى الرجال . ومرة اخرى تفحصتنـي العـديـد من العيون الرجالية الجسورة . شعرت بالعدوانية والاحتقـار في

تحديقهم ، على الرغم من اني لم اكن اعرف بعد انهم قد عرضوا زوجة اخرى على جيرد . وسألني السيد خليلي مرة ثانية فيما اذا قضيت وقتا طيبا . وقفت متوقعة لكل واحد منهم ان ينهض لكي نغادر ، لكن احدا لم يتحرك : فسألت جيرد بالانكليزية :

ـ ألن نغادر ؟

ـ لا أظن . فالسيد خليلي اراد فقط ان يرى كيف كان الحال معك .

حدقت الى الخلف الى مدخل دار الحريم ، الخالي من الاطفال والفتيات في شمس الخريف الحارة . والآن كان علي آن اعود ، لاني لم استطع الاستمرار في الوقوف ، وهوءلاء الرجال يحدقون بي . وببطء مضيت بعيدا صاعدة الدرج لوحدي ، الى آن فتحت شيرين الباب فجأة ناظرة الي بفزع ، فالضيوف في القرية من المفترض آلا يتركوا لوحدهم آبدا .

وبتودد استعدت شيرين وبروانه لتكونا مضيفتي حتى ساعة اخرى أيضا . احتسينا كوءوس الشاي الواحدة تلو الاخرى وحاولنا ان نبقي الحديث متواصلا ، لكن كل واحدة منا شعرت بالراحة ، عندما حضر اخيرا طفل واخبرنا انه قد حان موعد رحيلي . ودعنا بعضنا ثانية ولكن في هذه المرة ، رافقتني الفتاتان طول الطريق نزولا على الدرجات وحتى الخارج لتتأكدا من مغادرتي فعليا . لدى عودتي الى سيارة الجيب التي كانت تلفها غيمة من الغبار تحت آشعة الشمس المحرقة لفترة بعد الظهر تماما ، علمت ان مسجلة السيد خليلي السويسرية الصنع الفاخرة لم تكن تعمل جيدا لتسجيل آي شيء ، فبالنسبة له كان اليوم مجرد لهو وتسلية . سألت جيرد .

ـ لماذا بقينا طويلا هكذا ؟

فأجابني :

ـ لقد بقينا لأجلك .

قال السيد خليلي مبتسما :

ـ تعرفين الآن شيئا عن حياة القرية .

أومأت برأسي بلباقة موافقة على ذلك .

كانت مشاهد اليوم قد تجمدت في ذاكرتي مثل صور سينمائية غير مترابطة في فيلم سينمائي غريب . الغبار ، الالبسة البراقة ،المغازل المتدلية ، الاكواخ الطينية ، الوجوه الملوحة بالشمس ، اللبن اللاذع المذاق ، والغبار والغبار والمزيد من الغبار . كنت قد جلست حتى آلمني ردفاي ، محاولة التحدث مع الفتاتين . ماذا كانتا تفعلان في غيابي ؟ ليست لدي ادنى فكرة عن ذلك . لم يخطر ببالي ان اتساءل ، لماذا كانوا يجعلونني اتسلى مع فتاتين في الرابعة عشرة والخامسة عشرة من عمرهما . وقد افترضت انه لابد ان والدتيهما كانتا تقومان بأشياء مفيدة اكثر من تسلية ضيوف اجانب . ولكن اين كانتا ؟ كانت نظرياتي حول مايفعله الناس ـ وخاصة النساء ـ في اوقاتهم لاتزال وعلى نحو ميئوس منه مرتبطة بالولايات المتحدة وببيئة لاتحمل اي صلة بهذه القرية. سألت السيد خليلي في المرة التالية التي رأيته فيها :

ـ هل فعلا بروانه مقدمه على الزواج ؟

نظر الي السيد جاهي الذي لم يكن يتحدث في الهاتف هذه المرة . وضحك بصوت مرتفع للنظرة المندهشة على وجهي وقال :

ـ لقد تزوجت ، في الثلاثاء الماضي . بروانه رمت نفسها في النار .

تصورت العادة الهندية لحرق الزوجة عند المحرقة الجنائزية لزوجها واتضح اني لم اكن بعيدة جدا عن الحقيقة . واوضح السيد خليلي :

ـ تقول : انها القت بنفسها في النار لأنها تزوجت من رجل عجوز . واضاف السيد جاهي مع ضحكة خافته :
ـ رجل عجوز وله زوجتان .

واصلت الوقوف هناك ، مدركة لحقيقة انني كنت ابدو متجهمة جدا وان الرجلين قد كونا مفهوما عني ، على انني نموذج المرأة الغربية الثائرة . والآن عرفت لماذا احمروجه بروانه لهذه الدرجة وقلت :

ـ لقد اخبرتني شيرين ان بروانه مقبلة على الزواج ولكن بروانه نفت ذلك . فقال السيد خليلي:

ـ نعم ، هذه هي العادة . فعلى عرائسنا ان يكن خجولات .

كان والدها هو الذي نظم العرس ، وكان ذلك هو السبب في عدم وجود احد في القرية في اليوم الذي ذهبت اليها ؛ لقد كانت جميع النساء قد اتين الى ريزاي للتحضير للحفلة .

حدقت فيهم ، متعجبة كيف اني كنت غافلة لهذه الدرجة . لماذا اختار السيد خليلي الذهاب الى مانوا ؟ من كان والد شيرين وبروانه ؟ ولماذا اختار ان يزوج ابنته لرجل عجوز اطرش وله زوجتان ؟

كان ذلك غريبا جدا ، وقاسيا جدا . لم اتصور كردستان مهاباد على هذه الشاكلة ابدا . لقد ظننت أن الاكراد مختلفون ، فنساؤهم لايغطين الاغطية ، ويعملن جنبا الى جنب مع رجالهن . اين هي المفاهيم الديمقراطية لجمهورية مهاباد ؟ .

عدت الى روتين محطة الاذاعة لأدرس مع السيد خليلي حسب البرنامج الذي كنا قد اتفقنا عليه . كان احيانا يذهب طوال اليوم في رحلة يقوم فيها بتحقيقات ميدانية ، وكنت اما

ان اتساءل عن سبب عدم اخباره لي اوكنت انزع الى الانزعاج اكثر بسبب عدم دعوتي للذهاب معه أنا ايضا . كان يعطي المواعيد الغامضة ولكنني كنت متأكدة من انه لن يأخذني ابدا ثانية لأجلس مع النساء . هل حصل ان اربكته او ازعجت مضيفاتي في مانوا ؟ فكرت مليا في احداث ذلك اليوم وراجعتها في ذهني متسائلة عن انطباعات شيرين وبروانه عني ورأيهما في .

كانت تصل اكوام من الرسائل الى محطة الاذاعة كل اسبوع. رأيتها متراكمة فوق مقعد السيد اسيابي . وسألت عما تكون تلك . انها اسئلة وتعليقات من المستمعين في القرية . وكلما كانت تتطور كرديتي اكثر ، كنت اصبح اكثر قدرة على متابعة برامج الاذاعة وقد تحققت ان جزءا مهما من البرامج كان ترجمة للاخبار تحضر وتختصر الى العناصر الاساسية خصيصا للاكراد : " ان الشاه هو حاكم عظيم ومجيد " " ان الجيش الايراني قادر على غزو كل الاعداء " " ان البترول سيغني افقر قروي في كردستان " " ابق جهازك مو لفا على الاذاعة الكردية واستمع للموسيقا الكردية " وكان العديد من القرويين يضبطون اجهزتهم على الاذاعة ويحتشدون حول اجهزة الاستقبال العاملة بالبطارية التي كانت تعتبر وسيلة اتصالهم الوحيدة بالعالم الخارجي . تساءلت : كم من الاخبار يصدقون ؟ وماذا فعل السيد اسيابي بهذه الرسائل ، ولماذا خرج السيد خليلي وقام بتحقيقات صحفية في القرية .

كلما كنت اقضي وقتا اطول مع السيد خليلي ، كنت ادرك أن غموضا ما يحيط به . كان رجلا يبدو عليه الاسى على نحو لافت للنظر فقد تراءى على التوالي حزينا ومعتل الصحة اكثر من ذي قبل وخلال السنة التي قضيتها في ايران . وقد اخبر جيرد مرة انه لم ينم طوال الليل وانه قد فقد الكثير من وزنه لانه فقد شهيته للطعام ، وبدت البسته واسعة

عليه وفي بعض الايام بداجلده شاحبا كشحوب الموتـى . كـان في بعض الاحيان يقرأ الشعر ويحكي القصص ويسجلها في مسجلتـي ولكي اجعله يتحدث بدون رسميات ، سألته ذات مرة ان يسرد لي حدثا تعرض فيه للموت . وعندما سمع هذا الطلب شحب لونـه اكثر مما كان مألوفا وقال : انهلو اذعن لطلبي ، فانه سيضطر الى ان يحيي ثانية تجربة رهيبة لن تدعه ينام لأسابيع .

كان السيد خليلي جادا في مجال عمله . لو انه فقـط قد ر على قبول اعادة معالجة الدعاية الحكومية وتحويلها الـى الكردية . ولو انه فقط استطاع اعتبار رحلاته الى الاريـاف كنزهات حيث يمكن فيها ان يبسط اهميته على القروييـن ليحوز على عطفهم وعربون محبتهم .

علمت اخيرا من كثرة اصغائي للبرامج الليلية ان السيد خليلي كان من المفترض انه ينشر تعليمات حول الزراعـة بوساطة جلسات المناقشة والمداولة التي كان يسجلها على اشرطة تسجيل في مساجد ومدارس القرى . لكن هذه الحملات كانت مثل ذر البذور في تربة الجبال الصخرية والجافة والقاحلة . لم يفكـر احد من المسوءولين الحكوميين تفكيرا جادا فعليا ، اوفـي توظيف النقود في مسألة كيفية التأثير في هوءلاء الفقـراء ليغيروا من اساليبهم الزراعية وينتجوا اكثر . ببساطـة كان السيد خليلي الحلقة الاخيرة في سلسلة تنتهي الى لامكـان - اضحوكة هابطة لسياسات الشاه الزراعية الغامضة . وقد حكى لي انه عندما قبل هذا العمل في البداية ، كانت لدية آمـال كبيرة لعمل شيء ما لأبناء بلده . ومجرد التفكير في مفاهيمه السابقة كان يجعله يضحك بمرارة . لقد اشبع غروري ذلك المدى الذي اختاره للبوح عن مشاعره في فترة يكون فيها المـرء وبمثل هذه المشاعر قد وقع في موقف خطر جدا . ولكن ربمـا أن السيد خليلي قد واجه الخطر مسبقا . وربما انه كان قـد اعتقل وعذب من قبل . ان تجربة كهذه كانت من الممكـن أن

توضح قلقه المرعب . ولكنني لم آسأله ابدا ، فقد كان حديثنا مقتصرا على ماهو جار وعلى ماهو محتمل حدوثه في الحـــــرب الكردية الحالية لسنة ١٩٧٤ ، التي تثير التفاوءل .

كلما تحدثت مع الناس في الكلية ، كنت ادرك اكثــــر ان كل شخص في ايران كان مفعما بالخوف . وكان من النادر ان تجد من يرغب في تداول السياسة . منذ ان فكرت ـ ولاول مـــرة ـ في الذهاب الى محطة الاذاعة ادركت اني سأعرّض نفسي علـى نحــو صارخ للبوليس السري . كـــان هناك رجل شرطة يحرس باب المحطـــة وكان واضحا من الاصغاء الى الاخبار المسائية انه لم يكن هنـــاك تفريق بين موءسسة الصحافة والاعلام وبين الحكومة . لقـد عرضت نفسي لخطر السوءال عن نوع الرخصة والمصادقة التي قد حـــزت عليها لدراسة هذه اللغة شبه المحظورة او الا سوآ من ذلـــك لخطر اعتباري جاسوسه او عميلة قد جاءت لتثير المشـــــاعـر القومية بين الاكراد في ايران وكامرآة تعلم الانكليزيـة فـي الكلية فقد بدوت غير موءذية بما فيه الكفاية ، ولكـن لـــم يكن هنـاك ما يدل على ذلك . افترض اني قد خلقت لنفســي عدوا . افترض آن السيد جوهر خان ، التركي ، تضايق جديـــا مني كأجنبية ارادت تعلم الكردية بدلا من التركية افتـــــرض وافترض . لم يكن هناك شيئا محسوسا لاصاب بالقلق بســــببه ولكنه سيكون بعد حين .

الفصل الخامس

لقد احتجت الى وقت طويل كي ادرك مدى وضوحي كأجنبية في ريزاي . كنت قد اعتدت على العيش على نحو غير منظور في مدن كبيرة مثل نيويورك . ولكن حتى اقامتي المؤقته لم تهيئني للتفحص الذي سأقاسيه كأجنبية في ايران . ان عدد سكان ريزاي الذي يبلغ حوالي ٥٠٠٠٠ر١ نسمه قد ازداد خلال فترة اقامتي بسبب تدفق الاكراد اللاجئين من العراق . وسط هذه الكثافة من السكان الاصليين كان هناك عدد ضئيل من الاجانب ـ لربما خمسون من الالمان والامريكان والفرنسيين والبولنديين وكذلك بعض الاتراك والمصريين ، الاجانب الاقل لفتا للانظار، بالاضافة الى عدد من الاجنبيات كن زوجات للايرانيين الذين كانوا قد درسوا في اوربا وامريكا ، وقد لاحظت مباشرة ان جميعهن تقريبا كن يلتزمن البقاء في منازلهن بالقدر الذي يستطعن ذلك ، معتمدات على الخدم او الازواج لتسوق حاجاتهن .

ان امكانية البقاء في المنزل لم تخطر ببالي ، على الاقل ليس خلال الشهور الاولى القليلة في ريزاي . لم تكن لدينا سيارة ، لذلك كنت اذهب كل يوم الى الشارع الرئيسي وانادي مستوقفة سيارات برتقالية ، واذهب الى سوق الفاكهة ، والبازار ومحطة الاذاعة والكلية . وحالما كنت اسير من الزقاق الخالي نسبيا والذي يقع فيه منزلنا الى الشارع الرئيسي ، كانت النداءات تبدأ ." مرحبا ميسوز، كيف حالووك " حيث يرجع صداها خلفي حتى بعد ابتعادي لمسافة ليست بقليلة ومضيي في الشارع . في البداية كنت انظر الى الناس ، وكان معظم الذين يصرخون بي من

الرجال والاطفال . كانت اذناي يقظتين لترحيبات محتملة من اصدقاء حقيقيين وحتى النبرات الاقل قربا من الانكليزية وكذلك النظرات الغرامية كان يمكن أن تلفت انتباهي . وبأناة تعلمت المشي بثبات وبدون أن ابتسم أبدا حيث كنت اتفاضى عن سماع أي شيء ، لقد احتلت بأحفاء نفسي داخل غطاء نفساني كثيف جدا لدرجة انه اذا سلم علي صديق ما في الشارع ، وكانت الفرصة متاحة كنت اتجاهله ، واتحقق من انه كان شخصا ما ، اعرفه ، فقط عندما تفوتني الفرصة . وقد جزم مهندس بولندي كان يعمل في احد المكاتب الحكومية في المدينة اني شخصية غير ودودة ابدا ، لانه كان قد القى علي السلام ثلاث مرات في الشارع واني كنت قد تجاهلته في المناسبات الثلاث كلها . لم يكن تجاهل اتصالات غير مريحة متسمة بالطابع الشخصي مع الايرانيين سهلا كتجاهل مضايقات الشارع . فلم نكن من قبل ـ ابدا ـ قد خضنا تجربة نُسأل فيها بصراحة من قبل اجانب فعليين :

ـ كم من المال تكسبون ؟ لماذا ليس لديكم اطفال ؟

فالكثير من الايرانيين الذين تعرفنا عليهم ، كانوا يسألوننا هذه الاسئلة في احاديثنا الاولى معهم . لقد كانوا يطرحون الاسئلة ببساطة لم نكن نعرف فيها كيف سنفهم الناس ان ذلك ليس من شأنهم دون أن نبدو فظين على نحو لايصدق . وبدون أي معرفة تهدينا ، افترضنا انه لابد ان الايرانيين يسألون بعضهم البعض نفس الاسئلة وانهم يجيبون على بعض منها . ان الفارسية هي لغة متطورة جيدا لمعالجة الفروق الضئيله التي تكاد لاتدرك لكل التفاعلات الاجتماعية . ولسوء الحظ ، اننا لم نكن نعرفها المعرفة اللازمة لأستخدامها لصالحنا ، لذلك فقد كنا نترك معقودي الألسن دائما ، اوكنا نفضي بمعلومات اكثر مما ينبغي بحيث لاتضمن لنا الراحة ، او كنا نهين

سامعينا على نحو سخيف بجهودنا غير الفعالة لنتهرب من اسئلتهم .

ذكرت هذه المشكلة مرة لزوجة المدرس الذي كان قد ساعدنا في ايجاد شقتنا . وقد ادركت مباشرة ماكنت اتحدث عنه وقالت :

ـ نعم الناس هنا " فزوليون " فضوليون جدا .

ان الاتراك بغيضون بأسلوبهم الذي يتحدثون به ويتدخلون في شؤون الآخرين فالطريقة التي يسألونك بها عن أي شيء لا تنم عن اخلاق حميدة على الاطلاق . لقد جاءت من مشهد ، وهي مدينة تقع بعيدا في الشمال الشرقي من ايران ، وككل الناس الذين تحدثت معهم ممن لم يكونوا من السكان الاصليين بل مضطرين للاقامة فيها ، كانت تكره هذا المكان . فسألتها محاولة ان اتعلم الكلمة الجديدة .

ـ تسمين الناس فزوليين عندما يسألون مثل هذه الاسئلة ، فأجابتني :

ـ نعم .

ـ هل هي كلمة مهذبة ، اعني ، هل يمكنك ان تسمي الناس بتلك الكلمة بدون ان تضايقهم ؟

كنت قد بدأت احذر من قوة معاني الصفات في ايران ، فالاجابة يمكن أن تكون محبرة بالنسبة لامريكية قد اعتادت على قول وتلقي الاهانات العرضية . وقالت :

ـ اذا كان الناس فزوليين ، اذا بامكانك ان تسميهم بذلك . كتبت الكلمة وحفظتها لاستخدام مستقبلي وكررت تلك الليلة المحادثة كلها لجيرد .

" فزول " كرر جيرد مع نفسه ، متعلما تلك الكلمة التي تصف بعضا من سلوك الايرانيين الاقل استحسانا لدينا .

كنا احيانا نجد نفسينا برفقة ايرانيين كانوا يريدون الحصول على معلومات منا ، وكانوا يعرفون كيف يحصلون عليها بأساليب اكثر دقة واحكاما . لم نكن قد انسجمنا مع السمات الاجتماعية المقبولة والضرورية من اجل البقاء في دولة البوليس . ويدرك بعض الايرانيين جيدا مدى بساطة وجهل الاجانب - خاصة الامريكان - في مجتمعهم المعقد ، والكثيرون منهم قادرون على استخدامهم هذا الادراك والمعرفة لصالحهم الخاص .

في احد الايام كنا جالسين حول طاولة ، في محل حلويات محلي عندما انضم الينا كردي . قائلا : انه كان صديق حسن ، صديقنا من مهاباد . بطريقة او بأخرى اخبرنا هذا الغريب بذلك بأسلوب لم يخطر فيه ببالنا ان نتساءل مباشرة كيف عرف اننا نعرف حسن . وقادنا صديق الطاولة الجديد الى محادثة استغرقت حوالي عشرين دقيقة ، حيث توجت بدعوة لمرافقته الى منزله . في تلك الايام التي كنا نتلقى فيها القليل من الدعوات وكنا نعرف القليل جدا عن فن المجاملة الايرانية كان حافزنا الاول والغامر هو القبول دائما .

وجدنا نفسينا واقعين في مطبخ منزله الصغير حيث كانت زوجته تعد الشاي واذا به يسألنا مباشرة كل انواع الاسئلة حول حسن . كان كما لو انه قد خدرنا حتى هذه اللحظة - حيث هدأنا وتدرج بنا لمطاوعته. على نحو غير مشكوك فيه وذلك بدعوته الكريمة ومناوراته الكلامية البارعة . وبعد ان استدركنا نفسينا نجحنا في التخلص من هذه المحنة بعد شرب كأس الشاي المقدم لنا . بعد ذلك اندهشنا لاستغراقنا

هذا الوقت الطويل لكي ندرك ان هذا الرجل هو بدون شك عميل للبوليس السري ، ربمالانه كان كرديا واننا لم نتوقع أن نجد كرديا في السافاك . ولم نكن نعلم ان فرع ريزاي كان يترأسه كردي من كرمنشاه كان يُظن انه على علاقات طيبة مع ارستقراطيي مانوا .

جيراننا الجعفريون هم الوحيدون الذين لم يزعجونا بأسئلتهم ولكنهم كانوا يبدون فضولهم حول مقدار المال الذي نكسبه ، ولكن كان من الواضح انهم يكسبون اكثر مما نكسب بكثير ، بحيث ان هذه المسألة لم تكن محرجة عندهم . مهما يكن ، فلو انهم طرحوا علينا اسئلة ، فمن الطبيعي اننا كنا نشعر بالراحة تماما عندما نسألهم بالمثل . فقد بدت العلاقة على قدم المساواة . مرت فترة قصيرة قبل أن ألاحظ انهم ينتبهون الى كل شيء نقوم به . فقد لاحظوا ونقدوا تكرار مجيء وذهاب الناس الذين كانوا يقومون بزيارتنا . ونقدوا حتى النبرة الصوتية المشددة بجرسها المختلف التي كنت اكتسبها في لغتي الفارسية . وفي أحد الايام انفجرت شهرزاد بالضحك عندما لفظت كلمة فارسية عامية . فقالت على نحو متسم بالاتهام :

ــ تخلفين انطباعا لدى المرء بأنك كردية .

لقد كان ذلك صحيحا ، فالكردية والفارسية لغتان قريبتان من بعضهما البعض لدرجة أنه كان من الصعب جدا علي أن افصل بينهما ، وخاصة عندما كنت احاول تعلم كليهما في نفس الوقت . وضحت ذلك شهرزاد ولكنها لم تبد أي تأثر لذلك . كان المغري من ذلك ان النبرة الامريكية مفضلة على النبرة الكردية عند التحدث بالفارسية . وقد جعلني ذلك اشعر بضرورة الانتباه اكثر اثناء التحدث اليها ، ولكنني مازلت على عدم شكي في الشعور الودي الذي يكنه الجعفريون نحونا . لم اقدر تقديرا

صحيحا ، وبدقة كم كانوا يوجهون نشاطاتي عن كثب ، لأنني لم استطع ان اتخيل انهم مهتمون بي بهذا القدر . لقد كان مجرد وهم من اوهامي انني كنت امضي في ريزاي كشخصية منعزلة في عمل خاص ، غير ملحوظه ولايسخر منها السكان المحليون .

لقد كنت في طريقي لأن اصبح مشهدا غير جدير بالملاحظة في محطة الاذاعة ، حيث ان الشرطي الذي يحرس عند الباب كان يكاد لا يرفع رأسه لدى دخولي . وبما اني الآن لست تحت المراقبة المشددة ، فقد وفرلي ذلك الفرصة للانتباه اكثر للزوار الآخرين . لم تكن الرسائل هي وحدها التي تصل المحطة من القرى الكردية ، بل كان يحضر اليها اناس ومعظمهم من الرجال أيضا . كانوا يتسكعون حول الغرفة التي يجلس فيها أعضاء هيئة معدي البرامج الكرمانجية على مقاعدهم المعدنية ، واعتمادا على اهميتهم الواضحة من لباسهم ، اما انهم كانوا يتجاهلون دوما اويقدم لهم الشاي مراعاة لهم . وبدا ان بعض الرجال المسنين ، بملابسهم الرثة كانوا ينتظرون لساعات واقفين امام السيد اسيابي كي يرفع بصره عن المكرفون او الاوراق ليسمع التماسا ما . وآخرون ذوو البسة حسنه ، قواد قبليون متوسطوا الاعمار ، كانوا يحتكرون محادثة هيئة المعدين لساعات في وقت واحد ، ولكن لغتي الكردية لم تكن جيدة بعد بما فيه الكفاية كي اتابع كلمة كلمة عما تدور حوله هذه الاحاديث . وقد تصورت من وجهة نظر ريفية ان لابد ان السيد اسيابي وحتى السيد جاهي والسيد خليلي انهم يبدون مثل الرجال المهمين قادرين على تقديم كل انواع الخدمات التي لايمكن تصورها .

في احد الأيام رأيت رجلا ببذلة رمادية ذات لمعان وعمامة سوداء ، والعديد من التيجان الذهبية فوق اسنانه يجلس في المحطة . وقد تعرفنا الى بعضنا بكلمات مختصرة ومن ثم عاد

الى حديثه الخصوصي مع السيد اسيابي ، وموءخرا التقيت به صدفة مرة ثانية عندما قام السيد جاهي بتوصيلي الى الكلية بسيارته ، وقد بدا أن كلاالرجلين قد التهيا كثيرا لكونهما وحيدين في سيارة مع امرأة اجنبية ، وقد سمعت الرجل ذا البذلة الرمادية يسأل جاهي كل انواع الاسئلة عني ، وعندما قاطعته وأجبته بالكردية كان قد اندهش لذلك ، فأخبر السيد جاهي وكما لو اني استطيع التحدث ، ولا اسمع :

ـ اذا فهي تتكلم الكردية ، اين تعلمتها ؟

واجابه جاهي :

ـ لقد علمها اللغة في امريكا ،كردي من تركيا .

وبدأ عقل الغريب يعمل على نحو سريع وسأله :

ـ هل كان شابا ام فتاة ؟

توقف جاهي ونظر الي ، وبما ان الكردية ليس فيها الجنس من حيث التذكير والتأنيث وحيث أن " هو " و " هي " تؤديان بضمير واحد ليس بمذكر ولاموءنث ، لم يكن هناك سبيل لدى السيد جاهي لمعرفة ذلك ، لأني لم اذكر اسم معلمي ابدا .

ولتلهفي للمشاركة بفعالية في المحادثة فقد اخبرتهم بسرعة وبدون تفكير :

ـ لقد كان شابا .
ـ آه .!

واومأ برأسيهما ايماءة ذات مغزى ، لم ادركها في حينها ،ولكن صورة سمعتي كانت قد ثبتت الآن في فكر السيد شيخ زادة ،حيث كان ذلك هو اسم الغريب المتعجرف ـ شيخ زاده ، انه من ذرية الشيوخ ، واتضح مباشرة انه كان قد اتى لمحطة

الاذاعة هذا اليوم ليدعوا هيئة معدي البرامج الكرمانجية الى مأدبة في قريته . وقد ضمني الآن الى هذه الدعوة بحسن ذوق منه . وقبل ان اجيبه ، اقحم السيد جاهي كلامه بلطف مفصحا اني متزوجة . وشمل شيخ زاذة جيرد ايضا ، على الرغم من أنه لم يصدق اني كنت متزوجة حقا كما علمت موءخرا . وقد قبلت على الرغم من نظراته الخبيثة ، وبعد صمت السيد خليلي المبهم حول هذه النقطة كان علي ان اقبل دعوة من أي شخص كان تقريبا لأقوم فيها بزيارة قرية كردية .

بزغ فجر نهار يوم الوليمة مشمسا وجافا ، تقريبا مثل كل الايام منذ مجيئنا الى ريزاي في ذلك الخريف . وعندما اتجهنا انا وجيرد ناحية محطة الاذاعة ، رأينا العديد من الناس يتنزهون على طول الطريق ، على الرغم من أنه كان رسميا يوم حداد " وفاة " علي، وهو ولي شهيد من المسلمين الشيعة ، فقد بدا أن كل شخص يستمتع بوقته . لاحظت في المحطة ان السيد اسيابي ينظر الى لباسي نظرة ناقدة ويغمغم لجاهي قائلا :

– انظر ، انها تلبس فستانا للقرية ، بينما ترتدي سروالا في المدينة .

بعد تجربتي في مانوا ، حاولت ان احتذي نموذج الملابس الكردية قدر استطاعتي مع ملابسي المصنوعة على عجل وبدون اتقان نسبيا . وقد جمعت بذلتي الكردية المزيفة مع جزء سفلي من فستان طويل وثقيل مطرز الحواف ، وقميص خارجي فضفاض وصدرية محبوكة .

غادرت بنا سيارتان من المحطة الى قرية شيخ زاده ، لأنه بالاضافة الى الهيئة النظامية الموءلفة من ثلاثة رجال كان هنالك قريب لاسيابي واخو السيد جاهي . ولكوننا ضيوفا اجانب فقد دعينا مباشرة وبلباقة للركوب في سيارة اسيابي الاجنبية

الصنع ،بينما كان على الباقين ان يتحملوا الصدمات في سيارة الجيب . انطلقنا هابطين في احد الطرق الرئيسية في المدينة الى أن بدا الطريق وكأنه اختفى في واد مستو غير محروث ، اومرعى ترتع فيه الاغنام . وبدون التوقف عند هذا المنعطف المتعذر اجتيازه على مايبدو ، انحرف السيد اسيابي الى اليمين وبدأنا بالسير على طول ممر ترابي بجانب بعض الاشجار . ولو اننا لم نسر عليه لما عرفت ابدا انه كان طريقا .

في اطراف المدينة كانت اشجار البساتين تتساقط اوراقها، وحدائق محروثة قد تركت بدون زراعة لاراحتها ، داخل حدود جدران صخرية منخفضة على جانبي طريقنا . بعد ذلك ظهرت قرى بكاملها ، بيوت طينية محاطة بجدران طينية .

بانت قرية شيخ زاده بعد أقل من ستة كيلومترات من المدينة عبر طريق مستقيم منحدر ومفروش بالحصى على نحو لافت للنظر ،حيث كان يعدُ بشيء اكثر من القرية الصغيرة ذات الطين الجاف التي التقت بها اعيننا عندما انحرف السيد اسيابي بسيارته الى الطريق الترابي المحدد ، الذي يقع بين الجدران المحيطة بالمنازل .

ظهر كلب الراعي الضخم ، لينبح صوبنا ، وبعدئذ رأينا السيد شيخ زاده نفسه في ممر الباب يبتسم ابتسامته العريضة التي تكشف عن اسنان ذهبية . كان مرتديا على نحورسمي كما كان في اليوم الذي رأيته في المدينة ببذلته الرمادية ذات اللمعان والقاتمة اللون ، وتوقفت سيارة الجيب الممتلئة بالضيوف الآخرين خلف سيارة السيد اسيابي مباشرة . وعندما ترجل الجميع بدأنا محنة عبور ممر الباب بالترتيب المناسب .

وبما اني كنت المرأة الوحيدة الحاضرة بينهم فقد ادخلت انا أولا . كان جيرد المدعو الثاني للدخول ، لكونه ضيفا

أجنبيا ،ولكنه رفض متذرعا بسلوك تقليدى تماما ،فبعد وصولنا مباشرة الى ريزاى ، كان جيرد قد أدرك النظام الايراني لفن المجاملة المعروفة بـ " التعارف " أى الشكليات والرسميات وقد وجد في طريقة عدم تقدم طلابه عليه أبدا عبر ممر الباب شيئا مسليا للغاية ، وكان يسر في دفعهم أمامه أولا ليزيد في ارباكهم . كان جيرد قد استوعب بسهولة واحدا من المبادىء الأولية لنظام الشكليات : انه ليس ذا أهمية كم أنت رجل مهم ، وكم هو واضح لكل امرىء انه ولهذا السبب عليك أن تكون الأول فواجبك دوما أن تذعن لارادة الذين من حولك . ولسوء الحظ لم يكن جيرد قد تفهم المبدأ الثاني لنظام الشكليات . وهو أنه على كل امرىء في النهاية أن يذهب بالترتيب المناسب . وكان قد فشل أيضا في ادراك الأمور الأساسية والخطيرة لهذا التقليد الفارسي الغريب . فبالنسبة لجيرد كان كل ذلك مجرد لعبة ، أما بالنسبة للايرانيين فنظام الشكليات هذا هو أسلوب في الحياة . وقد كان جيرد هذه المرة وبخلاف ما كان أثناء تواجده مع طلابه ، قليل الخبرة بين ايرانيين اكبر سنا وأكثر خبرة منه وبعد مقاومة ودية قصيرة كان قد أجبر أن يمضي وفق ما يريدون، فجاء بعدي عبر ممر الباب ،وتلاه اسيابي ، الذى تبعه جاهي مع البقية وهم يدخلون في نظام ثابت معروف لديهم فقط . ولكن السيد شيخ زاده هو المضيف فقد كان آخر من مشى .

سرنا كرتل ونحن لانزال في نفس الترتيب عبر الحديقة صعودا على الدرجات الاسمنتية حتى دخلنا منزلا قرميديا . وداخل الرواق المركزي خلعنا أحذيتنا واحدا تلو الآخر وبعدئذ مررنا عبر ممر آخر مؤدّ الى الحجرة الواقعة على يمين المدخل . جلسنا جميعنا هناك فوق سجادة فارسية مزهرة ذات أرضية حمراء،ومن ثم جلت بنظرى في أثاث الحجرة . وقد دهشت لدى رؤيتي تلفزيونا وسألت فيما اذا كان في القرية كهرباء . وبما أنهنا كانت تقع على بعد ستة كيلومترات فقط من ريزاى ، لم يكن

وجودها شيئا غامضا ، ولكني كنت قد سمعت ان سياســـة الحكومة كانت تمنع الكهرباء عن كل القرى واثبتت قرية شيخ زادة انها ليست استثناء بعد أن اتضح ان تلفزيونه كان يعمل بقـــــوة بطارية سيارة . كان منزله في الشتاء يدفأ بمدفأة تعمـــل على النفط مع انبوب يرتفع ممتدا الى روافد المنزل المكشوفـــة . وقد علقت على الحائط صورة عفى عليها الزمن للشاه وزوجته اخت الملك فاروق ملك مصر .وكان هنالك أيضا صورة اكثر حداثـــة بكثير للشاه يقدم فيها ما يشبه المكافأة لمضيفنا . تساءلـــت في نفسي : ماذا كان قد فعل ليستحق عليه ذلك ؟

جلسنا انا وجيرد في احد جوانب الحجرة بينما جلس السيد شيخ زاده وهيئة المساعدين في الجانب الاخر في مواجهتنا . لـــم تظهر نساء او اعضاء من العائلة عدا فتاة ممتلئة الجســـم ، ذات خدين ورديين ، علمت مؤخرا انها ابنة السيد شيخ زادة . كانت تدخل وتخرج على نحو نشيط ، تقدم الشاي بنظرات مسدلـــة نحو الارض وبدون ان تتفوه بكلمة امام كل هؤلاء الرجال .

كرس السيد شيخ زاده اهتمامه بي في البداية ،وقد انـــار شعاعا من ضياء الشمس البقعة التي كنت اجلس فيها وكنت احـــدق فيه بعينين نصف مغمضتين ، بينما كان يمتحنني بالسؤال عـن المفردات الكردية الواحدة تلو الاخرى . وقد اكتشفت حالا أنـــه يعمل كناظر مدرسة القرية ، وهوعمل غير عادي لأي كردي قروي . كان يدير معظم مدارس القرى جنود في الجيش ، ما يدعى بســـلك تعليم القراءة والكتابة ، المؤلف من جنود شبان . ان التعليـم الجامعي اوحتى تعليم المدارس الثانوية احيانا كان كافيـــا لتأهيلهم لتعليم اطفال القرية الكتابة والقراءة . ان الفكرة من حيث المبدأ ربما لم يكن يعيبها شيء ، ولكني لم اســـمع ابدا ان احدا من الاكراد المهتمين بأمور التربية والتعليــــم يقدرها . وبما ان المجندين الجدد كانوا قد ارسلوا على نحـــو مدروس ومقصود الى اجزاء من ايران بعيدة عن المكان الذي نشؤوا

فيه ، لم يكن أحد من الذين عينوا في كردستان يتحدث الكردية وبالطبع لم يكونوا مدرسين مدربين .لقد بدا ان القرويين كانوا يحتملونهم تسامحا معهم وليس ترحيبا بهم . وحتى انهم كانوا يُقتلون في بعض الاجزاء من ايران . تصورت ان طلاب قرية شيخ زاده يشعرون بأنفسهم كأنهم محظوظون لوجود شخص ذي خبرة مع الميل الواضح نحو علم اصول التدريس لديهم . ولكني تساءلت فيما اذا كان يستخدم الكردية في صفه ام لا .

قاطعنا السيد اسيابي فجأة على نحو نفذ فيه صبره وسط جلسة الاسئلة والاجوبة وقال شيئا بالتركية . ومنذ ذلك الحين استمرت المحادثة كلها بالتركية . كان اسيابي ، شيخ زادة جاهي واخو جاهي ، وقريب اسيابي كلهم يتحدثون بحيوية بلغة لا جيرد ولا أنا كنا نقدر على فهمهم . وبدا ان احدا لم يلاحظ ذلك سوى السيد خليلي الذي لم يكن يتفوه بشيء هو الآخر . وكما شعرت بدا متضايقا ، ماذا كنا نفعل في قرية كردية مع مجموعة من الاكراد يتحدثون بالتركية مع بعضهم البعض ؟

وبعد ان تجاهلونا لبضع دقائق ، ادركت فجأة انهم قد شملونا ثانية وتحول السيد اسيابي هذه المرة الى الفارسية ليخاطب جيرد بطريقة بدا فيها متعجرفا وقال :

– كم تعطى في كل شهر ؟

اضطربنا انا وجيرد للحظة . اذا كانت المسألة تتعلق بالرواتب ، فالافعال في الفارسية تقلب مضامينها عما تتوقعه من مفاهيمها في الانكليزية ، فالفعل " يعطي " - يعني " يحصل" والعكس بالعكس . وقد صعقت عندما ادركت ماكان يريد معرفته. لماذا كان يريدنا أسيابي ان نحدد رواتبنا امام هيئة الاذاعة كلها في قرية نحن غرباء فيها ؟ شرحت السؤال لجيرد بسرعة وخيم الصمت على الحجرة بينما حدق فينا الجميع ، ينتظرون ردا .

نظرنا انا وجيرد الى بعضنا . ماهو الشيء المتوجب قوله ؟ نهض جيرد معترضا ، معبرا عن فكرة فظة على نحو غير سوي بقدر ما كانت تسمح له لغته الفارسية غير المتقنة وسأل :

ـ ماذا تعني كلمة " فزول " ؟

نظرت الى اسيابي وميزت رد الفعل الذي رأيته على وجه موظف الفندق الذي حاول وعلى نحو يعوزه الذوق ان يخدعنا في أول يوم لنا في ريزاي . وكان جيرد قد اجاب على اكاذيب الموظف ببذاءة فارسية معتدلة تعلمها من بعض الطلاب الايرانيين في الولايات المتحدة . وقد شحب وجه اسيابي مثل الموظف تماما . جذبت الى نظر جيرد وعبست في وجهه : لماذا علمته كلمة " فزول ؟نظر جيرد متحيرا للتعبير المرسوم على وجهي . كان بمقدوره أن يقرأ الغضب عليه ، ولكنه لم يلحظ اي تغيير على وجه اسيابي . لماذا كنت اجهم ملامحي ؟ خيم الصمت المربك للحظات وشعر اسيابي بنظرات مرافقيه الاقل مكانة اجتماعية منصبة عليه ، انه ملزم بالمواجهة بتحد . فقال لجيرد :

ـ أنا متأكد اني اكسب مالا اكثر مما تكسبونه بكثير.

فأجابه جيرد موافقا :

ـ وأنا أيضا متأكد من ذلك .

وبعد ذلك غيّر اسيابي جلسته بحيث لم يعد يواجهنا وعادت المحادثة الى مجراها الطبيعي الى حد ما . طنت اذناي ولم اعد اعرف فيما اذا كانت المحادثة تجري بالتركية أو الفارسية . لو أن جيرد كان قد استوعب لعبة " التعارف " اسرع مني ، لكان ادرك مقدار الاهانة بعجلة اكبر . لقد احسست بطريقة ما منذ اللحظة التي دخلنا فيها ايران ان الناس يبدون كأنهم ينتظرون ان يتخذوا موقف الهجوم . فلو انك اهملت إلقاء السلام على البقال عند دخولك المخزن ، فانك تعرض نفسك لعدم

تلبية طلبك . واذا لم تسأل عن صحة احد مافقد يظـــــــن الناس انك كنت تعاملهم بازدراء . لقد اصبحت اعتبر العديد من الاشياء اللطيفة اسوأ حالا مما هي عليه ولكني تأكدت من شـــيء واحد منذ اللحظة التي رأيت فيها ملامح وجه موظف الفندق وهـــو أن الاهانة لايُجنب احراجها بالضحك في هذا البلد .

كان رد الفعل في هذه الحجرة بيّنا بالنسبة لي ـ كـــان كما لو ان كل شخص حاضر قد احتبس في نفسه . ويتساءل : من اين جاء هوءلاء الامريكان لكي يظنوا انهم يقدرون ان يتحدثـــوا بهذه الصراحة مع رجل مهم مثل اسيابي ؟ لقد سبق كل امرئ عبر المدخل عدا الضيوف الاجانب . والآن اهانه هوءلاء الضيوف الذيـــن شرفهم . لم نكن نعرف بعد اصل وتاريخ كلمة فضول . ولكـــن ذلك هو مجرد نقطة تفصيلية . وفي وقت متأخر سيكتشف جيـــرد ان إخطار خادمتك بأن كلماتها هراء وباكثر الكلمات اعتـــدالا، سيعطيها مبررا لأن تغادر منزلك حالا وبدون ان تعود اليـــه ابدا .

استمرت المأدبة بطريقة ما ، وبدىء بتقديم الطعام ،حيث وضعت الابنة طبقا ، ومن ثم تلته بآخر ذي رائحة ذكية فـــوق الغطاء البلاستيكي الذي كانت قد فرشته وسط ارضية الحجرة . بقيت استرجع في ذاكرتي رد فعل السيد اسيابي على كلمات جيـــرد . ربما كان ذلك في خيالي المفرط الحساسية فقط . وربما ان غضبـــه قد زال ، فملامحه لم تكن تسجل شيئا عندما نظرت اليه .

كان من الواضح ان واحدة مامنهن ، ربما (الابنة ؟ الزوجة اونساء لم ارهن ؟) كانت قد امضت وقتا طويلا في تحضيـــر وجبة غنية ومنوعة كهذه . وقد نسيت تقريبا الجو غير المريـــح عندما حدقت في الدجاج والخضرة المحشوة المحشوة بالارز المعشـــب، و اللبن المصفى و المخللات ، " والبيلاف " . وقد توقفت المحادثـــة

عندما شرع كل شخص محاولا أن يملأطبقه . عندما بدأت بنزع قطع من اللحم من الفروج المخصص لي وجدت أنني قد نزعت عظم الترقوة .. وفي محاولة لتلطيف الجو خطر ببالي أن أسأل عن لعبة كردية كنت قد قرأت عنها . هلا فعلا يلعبها الناس ، أم أنها كانت شيئا مختلقا من خيال أحد المغامرين البريطانيين؟ سأعرف ذلك حالا .

لمعت عينا السيد اسيابي عندما رفعت العظمة .. جناح ..... سمى اللعبة العديد من الموجودين في الحجرة حالا . وقال السيد اسيابي :

- أنا سألعب . بماذا سنعد بعضنا البعض ؟

لم أفهم أنه كان يحاول أن يحدد شيئا نراهن عليه . ، ولكن طلب آسيابي مضى غير ملحوظ في فوضى اخباري عن قواعد اللعبة من قبل كل الحاضرين وبذأنا اللعب بدون أن نعرف ماذا سيربح الفائز . أن غرض اللعبة الذي يقدح بمجرد كسر عظم الترقوة من قبل كلا اللاعبين هو أن يناول أحد الشخصين الشخص الآخر شيئا ما وعلى هذا ان يقبله . التقط السيد اسيابي مباشرة قلمي ذا الرأس الكروي الذي كنت استخدمه في تدوين كلمات كردية وحاول أن يناولني اياه . كنت سأقبل .. وبذلك أخسر اللعبة ولكن السيد خليلي ذكرني . وقد أهملت اللعبة بعد محاولات عديدة قام بها السيد اسيابي . حضرت الابنة وقادتني الى بيت الخلاء الخارجي ومن ثم أرجعتني الى الداخل الى الحجرة الواقعة في الجانب الاخر من المنزل . في غضون ذلك بدأ السيد اسيابي بممارسة لعبة جديدة أكثر خبثا مع جيرد . لم تكن هذه لعبة كردية ، بل لعبة ممعنة في القدم كانت تمارس في ايران لقرون عدة . ومما لا شك فيه أن لعبها مع أجنبي مبتدىء مثل جيرد فيها من المتعة المزيد بالنسبة لاسيابي .

بينما شرعت ابنة مضيفي باخراج مجموعة من ملابسها لكي ارتدي شيئا منها ، بقي معظم الرجال في الحجرة الاخرى عدا السيد خليلي . وتساءلت موءخرا فيما اذا كانت المناقشة ستكون هي نفسها فيما لو ان السيد خليلي لم يقرر الذهاب في جولة حينذاك حيث بدأ السيد اسيابي بالتحدث وسأل جيرد بدون أي مناسبة للموضوع حالما غادر السيد خليلي :

ـ هل تود المجيء الى منزلي لتدخن بعضا من " الترياق".
حدق فيه جيرد مفكرا : في البدء سأل عن رواتبنا والآن يعرض علينا المخدرات . ان نظريات السيد اسيابي عن الامريكان بدت مقولبة ونمطية كآراء واحد من القرويين الاكثر جهلا وفظاظة . هز جيرد رأسه . قائلا :

ـ لا ، شكرا ، أنا لا اهتم بتعاطي المخدرات .
فواصل السيد اسيابي باصرار :
ـ لم لا ؟

تململ جيرد متضايقا . وكان الرجال الآخرون يراقبون كل شيء من كثب . واجاب ببساطة :
ـ لأن البوليس يمكن ان يأتي .
فقال اسيابي على نحو هادف :
ـ ان البوليس لايأتي الى منزلي ابدا .
تأمل جيرد اسيابي بقلق ، عندما سحب هذا الاخير بطاقة من جيبه وعرضها امام الامريكي ليراها . لقد كانت ضربا من" ID " واعلن اسيابي قائلا :

ـ أنا ضابط في السافاك .

لم ينبس احد ببنت شفة عندما اتضح لجيرد بأن امر ما يجري بطريقة خاطئة . كان السيد اسيابي يعرفه بأعنف طريقة ممكنة انه عنصر من البوليس السري الايراني المرهوب الجانب . ماذا سيحدث بعد ذلك ؟ تمعن جيرد بوجوه كل الحاضرين . لقد

كانوا ذوي شخصيات غير واضحة او مميزة الملامح . ماذا كان من المفروض عليه ان يقوله ؟ . لقد بدا ان الموضوع تلاشى بنفس السرعة التي اثير فيها ولكن لو اننا كنا نعرف التحدث بالتركية لربما قضوا بقية فترة الظهيرة وهم يعلقون بطريقة ساخرة منا وكم كنا مغفلين .

خرج الرجال من الحجرة جملة وكان قد انضم اليهم السيد خليلي . حكى لي جيرد بسرعة ماحدث . حينذاك كنت قد لبست بذلتي المستعارة التي لم تكن جميلة مثل البذلة التي اعطوني اياها لارتديها في مانوا . كان ينقصها الجزء الاعلى من مئزر ذهبي والسترة المصنوعة بالماكنة بدلا من صدرية صوفية سوداء . وعلى الرغم من ان شيخ زادة كان الاكثر ثقافة وثراء من أي شخص آخر شاهدته في قريته ، لم يكن على نفس مستوى رشيد بك .

تجولنا على طول الجدار الطيني المهيأ للانهيار ، الذي يحيط بملكية شيخ زادة وقد كانت قطعة ارض جرداء وجافة في هذا الوقت من السنة . وعلى بعد مسافة كنا نستطيع رؤية ريزاي كواحة ممتدة ، وخضرة اشجارها وحدائقها المروية تتلاشى في زرقة البحيرة الواقعة خلفها . لدى تجوالنا في حقل شيخ زاده مررنا بنساء يغسلن الالبسة بايديهن في جدول ماء. هبت الريح على تنورتي بحركة خاطفة ، بينما اخذ جيرد صورا لكل الحاضرين ، وقد اراد السيد اسيابي ان يظهر في جميع الصور واندفع شيخ زادة بانتباه الى الامام الى جانب رئيس البرنامج الاذاعي الكرمانجي . كان اسيابي يتصرف بطريقة يعامل فيها مضيفنا بتنازل ، ولكني بعد ذلك لم اشهده يعامل الناس حوله بدون تفضل . ولكنه لم ينجح في جعل جيرد يلتزم بهذه القاعدة التزاما شديدا . فقد حاول اسيابي ان يهين الاجنبي بطلبه معرفة راتبه امام مجموعة من الغرباء

وانتهى الى ارباك نفسه . وبالنسبة لرجل مثل اسيابي كان هذا شيئا لايطاق وتساءلت عن المدى الذي من الممكن ان يمضي فيه ليسوي هذا الموقف الجارح .

شعر الرجال بالبرودة حالا ببذلاتهم الغربية الطراز وهم في الخارج في مهب الريح . فذهبنا الى الداخل ، التقط أسيابي فنجانا من الشاي من فوق الطبق وحاول ان يناولني اياه . ولكني رفضت ، فلواني ربحت لعبة " الجناح " فاني سأربح هذا اليوم كله ايضا من اسيابي . ومن ثم اتخذت المناقشة منحى آخر يوجهه آسيابي . فقد قرر هذه المرة أن يناقش مسألة " التعارف " أي الشكليات والرسميات .

ان التعارف ، ذلك النظام الذي قاد كل واحد وفق الترتيب الذي كان عليه ان يطبقه اثناء مروره في الرواق ، هو كلمة فارسية مقتبسة من الفعل العربي " عرف " ان صيغة " تعارف " في العربية تعني شيئا مثل " المعرفة " او " الادراك " بينما اتخذت في الفارسية مضمونا مختلفا نوعا ما ، على الرغم من انها ماتزال تتعلق بمسألة المعرفة بمعنى من المعاني . ان التعارف في الثقافة الايرانية ينتظم كل التفاعلات الاجتماعية عدا تلك التي بين اصدقاء حميمين جدا وبين العائلة . وحتى في هذه العلاقات الاخيرة فباستطاعتك دوما ان تبعدها عن نفسك بالارتداد الى الشكليات . ان التعارف هو طريقة لتنظيم الناس والمواقف مع الحد الاقصى من الكياسة والحد الادنى من التعرض للتجريح والانتقاد واحيانا يشبه الرقص ، في لحظة باردة الى حد اقصى لايتلامس فيها المشاركون أبدا ، ولكن كل شخص منهم يؤدي مهمته على احسن وجه ، على الاقل من على بعد . ونزولا عند قواعد " التعارف " عليك ان تعرض كل شيء على الملأ حتى حياتك الخاصة . وبذلك فان اللازمة التي يتقولها جاهي في الهاتف في مكتبه باطراد ، هي عبارة

مأثورة في الشكليات . وكذلك كلمة " بفرمايييد " أي تفضلوا ، هي العبارة التي كانت تستخدمها شهرزاد عندما كانت توجه لي الدعوة للدخول الى شقتها . وفي افضل معانية يمكن " للتعارف " ان يكون كرم ضيافة غامر ، وعروضا لانهاية لها من الشاي والحلويات وطاولات تئن تحت عرض مجتهد فيه لمزيد من الغذاء الغني . وحسن ضيافة يستمر حتى ساعة متأخرة من الليل طالما ان الضيوف قد اختاروا البقاء. ولامضيف يتثاءب ابدا . والمنعشات لاتنتهي حتى لو ان الخدم واعضاء العائلة اضطروا الى التسلل من خلفية المنزل في بحث صامت عن الغذاء والشراب ليستكملوا نقص ماتم استهلاكه .

ولكن هناك جانب آخر للشكليات وهو الثقل الذي تتضمنه كنتيجة للتلقي . فكل امرئ يرغب في ان يقدم ولا أحد يرغب في القبول . فاذا قال لك احدهم " قربانانه " من الممكن أن تومئ " برأسك بأدب وتقدم نفسك قربانا له بينما ليس لدى احد منكم الشعور الواهي او أي اعتبار للآخر. ففي المبالغة القصوى لمفهوم " التعارف " لاالمقدم نفسه ولا الرافض يعنيان مايقولانه على الاطلاق ، عدا ماتحتويه من مجرد مجاملة بحتة . ربما يقدم لك احدهم وليمة عظيمة بينما لايوجد في بيته سوى الخبز التفه المذاق . وبالطبع ستجيب بأنك قد اكلت لتوك حتى لو أنك تشعر بالجوع وتعوزك النقود لشراء الغذاء .

كان الايرانيون الشباب قد ادعوا ونحن في امريكا أن الشكليات هي مظهر كاذب مهجور ، وانه عائق للصداقة . وقد اخبرنا الاكراد ان عادة الشكليات هذه غير سائده بينهم. ولكن كان علينا أن نكتشف بأنفسنا الى أي مدي وبأية أساليب ومواقف يمارس الناس نظام الشكليات في ايران.

احيانا كان نفس الذين يستنكرون نظام الشكليات هذا ، هم أنفسهم الاكثر اعتمادا عليه . وعلى ذكر التعارف علق جيرد مباشرة :

– لايوجد نظام شكليات في امريكا .

وكان يعني بذلك انه ليس مهما من يسبقك عبر الباب ، أن الناس عادة يقبلون الدعوة من المرة الاولى ، لان الامريكان بشكل عام يعنون دعواتهم التي يقدمونها لتواريخ محددة وانهم لايتصرفون بطريقة ايحائية . وفي وقت متأخر وبتقييم صادق من ثقافتنا الخاصة كان علينا ان نعترف بوجود مؤكد لنظام الشكليات في امريكا . وفي المرة الثانية سمعنا امريكيين يقولون :

– ببساطة علينا أن ندعوك للغذاء .

وعندما عرفنا انهم لم يكونوا عازمين على دعوتنا ادركنا أن الامريكان أيضا قادرون على ممارسة الشكليات ان تعليق جيرد بصدد عدم وجود شكليات في امريكا كان تماما مايريد السيد اسيابي ان يسمعه . ومنذ ذلك الحين بدأ اسيابي وعلى نحو يتفاخر فيه يسبق جيرد خلال الرواق، يأخذ الشاي قبله وبشكل عام يتصرف بنفسه على نحو يبدو فيه كأنه ايراني استثنائي . وفي كل مرة يتجاوز فيها احدى القواعد ، يعذر نفسه بقوله :

– لايوجد نظام شكليات في امريكا .

واخيرا وعلى نحو لطيف شارفت نزهات النهار على نهايتها. وقف السيد شيخ زاده في مدخل الباب ليود عنا بامنياته الطيبة بينما اثنى عليه المتحدثون من ابناء بلده لحسن ضيافته ، وقد سمح لي اسيابي ان امر عبر الباب أولا، ولكنه حرص فيما بعد على ان يسبق جيرد . ومرة أخرى

وجدنا انفسنا في سيارة اسيابي وبما انه كان يقود السيارة فقد نجحت في ان اناوله سيجارة مشتعلة وبذلك ربحت لعبة الجناح هذه المرة .

سأل اسيابي ابن عمه الجالس معه في المقدمة :

- ماذا اعطيها ؟
- لربما فستانا أو شيئا ما .

ولدى سماعي ذلك ظننت ان الخصومات قد انتهت .

عندما عدنا الى المدينة دعونا كل الحاضرين لتناول الشاي ، وقد قبل اسيابي الدعوة مباشرة واثقا من انه "لاتوجد شكليات بين الامريكان" ولكن تحت تأثير مسحة ايرانية . وقادنا اولا الى دكان معجنات ليقدم لنا الهدية الالزامية لكونه حل ضيفا علينا للمرة الاولى .

كان اسيابي في منزلنا لطيفا وحتى ودودا ولكنه ايضا بدا مرهوا بنفسه وفظا اكثر من العادة .. فقد مكث يردد :

- لاتوجد شكليات في امريكا . ومن ثم لا يأخذ مسائل الشكليات بعين الاعتبار . وبالنسبة للمعايير الامريكية لم يكن يعتبر غير مهذب ولكنه كان يعتبر فظا للغاية حسب المعايير الايرانية . بقدر مايمكن ان يسعفني التعبير فان اسيابي كان ايرانيا بسلوكه اكثر بكثير من أن يكون امريكيا . ومع ذلك فقد بدا ان اليوم سينتهي على نحو أفضل بكثير مما توقعت ، حيث تقبل اسيابي حسن ضيافتنا وحتى انه جلب لنا علبة من كعك محلى . لم استطع أن أدرك انني كنت لاازال افسر سلوكه حسب ثقافتي الخاصة . وكان الكعك المحلى مجرد ايماءة عن الشكليات . فلربما كان لدى

اسيابي اسبابه الخاصة ليأتي الى منزلنا الذي لايوقع في النفس شعورا بالرضا والابتهاج . ففي ايران يقبع الشكل على السطح مثل الاغطية التي رأيتها في مطار طهران . أما ما يكمن في الداخل فليس سهلا على الاجنبي روءيته أبدا .

في المرة الثالية التي قدمت نفسي فيها في محطة الإذاعة أو مأ الشرطي برأسة كالعادة ومشيت نحو الحجرة التي جلس فيها مجموع معدي البرنامج الكرمانجي . الشيء الاول الذي لاحظته هو كيفية انشغال كل شخص بعملية تنويع للبرنامج كانوا يقومون بها لدفع السأم ، فالسيد اسيابي والسيد خليلي كانا قد غمرا بالاوراق التي تخصهما ، بينما كان السيد جاهي قد انشغل باستخدام الهاتف . لدرجة ان أحد لم يلاحظ انني كنت واقفة هناك واخيرا انصرف اهتمام السيد جاهي عن الهاتف وقال :

ـ أنا آسف مارغريت خانم ، ولكن السيد خليلي مشغول جدا ولايستطيع العمل معك هذا اليوم .

وفي تلك اللحظة نهض استاذي الكردي النحيف ، ذو النظرات القلقه واندفع خارج الغرفة ، وبصعوبة لمحني عند ما مر بي . تجمد قلبي وحاولت أن الفت نظر السيد اسيابي ولكنه كان مشغول أكثر من الجميع بترجمة اخبار اليوم الفارغة " التي لاأخبار فيها " حيث كان قد اعدها خبراء الدعاية والاعلان في طهران وأرسلوها الى ريزاي . من الواضح ان هذا، كان العمل الاكثر اهمية لدى الهيئة الكرمانجية . فقدكان اسيابي يجلس على مقعده وينقل الترجمة شفويا الى المذياع المسجل الضخم ومن ثم ينسخ ترجمته لترسل الى طهران ولتدقق من قبل السلطات .

واصلت الوقوف في المكتب ، غير واثقة مما سأفعله

في الخطوة التالية . وقد كان وجودي هناك وبدون ان يلاحظه أحد تجربة جديدة عليّ . قبل ذلك كان يتواجد دائما صف من الناس المنتظرين الذين يرغبون في لفت انتباهي او يرغبون أن يسألوا سوءالا ماعن الانكليزية أو عن الولايات المتحدة ، يريدون أن يظهروا انفسهم انهم موجودون . والآن صرت أنا الشخص غير المتواجد والموجود . لم اسمع مداعبة او مغازلة أو ترحيبا . اكتسى وجهي حمرة من الارتباك وشعرت بالدموع تلسع جفوني . فبدأت بالمشي صوب الباب ولكن السيد خليلي الذي كان قد عاد من مهمته العاجلة لبضع دقائق مضت ، قال لي :

– تفضلي بالجلوس مارغريت خانم .

بعد ذلك قدم لي الخادم كأسا من الشاي . ومربي رجل غير مهم وحياتي : عندما انتهيت من احتساء الشاي نهضت وغادرت الحجرة دون أن ينتبه الي احد او حتى يرفع احد بصره لينظر الي .

قررت أن اقوم بزيارة اخرى الى المحطة ، لأنني كنت مرتابة من قدرتي على فهم الاشياء في ايران . انتظرت عدة أيام لأستجمع شجاعتي وبعدئذ عدت ثانية . ربما كانوا فعلا مشغولين يوم زيارتي لهم . ربما أن بعض التوجيهات قد اصدرت اليهم من طهران اضطرتهم فعلا الى تبني سرعة مكثفة في سير العمل . ربما كنت حساسة جدا . ربما أن كل شخص منهم قد ألفني ولم اعد مركز الانتباه ، فليس باستطاعتي أن ابقى مركز ميدان تلاشي الحلقات الى الابد .

وفي المرة الثانية لم اخطىء في حكمي على ماكان يجري فقد اخبرتني شخصية ليست أقل أهمية من السيد جوهر خانلو ان السيد اسيابي قال ان الهيئة الكرمانجية مشغولة بحيث

لاتستطيع أن تقدم لي المساعدة في عملي في الكردية . وكان السيد جوهر خانه نفسه ودودا ولكنه كان مشغولا . وبدا انه لايحمل أي ضغينة ضدي ، ولكن موقفه كان : انه اذا اعتقد السيد أسيابي أنني غير مستحقة لوقت أي شخص أكثر من ذلك ، فمن المحتمل انه محق في ذلك . على اية حال ، مهما كانت مشاعر جوهرخانه تجاه اسيابي ،فانها لم تكن تستحق لديه لحظة يقع فيها في مجابهة معه لأجل امرأة اجنبية تريد تعلم الكردية . ومرة اخرى بدا وكأنه قد قدّر علي الأتعلم هذه اللغة التي اتيت من أجل دراستها من على بعد خمسة آلاف ميل .

بدأت الكآبة والشعور بالاضطهاد بسيطران علي حالا فصببت جام غضبي على جيرد حيث اتهمته بالاغراق في الانانية على نحو لايمكن تسامحه في رد فعله لسؤال اسيابي . وبما أن القاء مسؤولية اختلاق الموقف كله على اسيابي كانت بلا جدوى فقد ألقيت اللوم على زوجي وتساءلت فيما اذا كان سيتعلم التكيف مع الاعراف الاجتماعية الايرانية يوما . والشيء الذي لم اكن اعرفه ،هو أن العضوين الاخرين في هيئة معدي البرنامج الكرمانجي الاذاعي في الحجرة كانا يلقيان باللائمة على اسيابي فقط . وانهما كانا وبأساليبهما الخاصة ينتظران الدقيقة الملائمة عندما لايكون فيها اسيابي على مقربة منهما لأخباري عن شعورهما الحقيقي .

كان لقاؤنا الاول مع جاهي ، حيث كان يركن

سيارته في الشارع قرب منزلنا في احد ايام الجمع وقد لمحني مصادفة . صاح ملقيا التحية بصوت عال ولوحت له بيدي وواصلت السير في طريقي عائدة من عند البقال الواقع في الزاوية . ولكن جاهي صاح ثانية :

- لماذا لاتأتين لتتناولي الغذاء معي ؟
- لا ،شكرا .

صحت مجيبة عليه ، متأكدة من أن الدعوة هي مجرد شكليات ، وانها ليست حقيقية . فسألني :

- هل تناولت غذاءك ؟

فأقتربت منه لأجيبه :

- لا .
- اذا لماذا لا تأتين ؟

سألني وقد بدا وكأنه يعني دعوته جديا .

- ماذا عن جيرد ؟
- دعينا نذهب ونحضره .

اجاب جاهي بذلك ، تاركا باب مقعد السيارة الامامي مفتوحا . سرنا حول صف من البيوت لنأخذ جيرد ، وتأكدت انه قد عنى دعوته فعلا .

أخذنا السيد جاهي الى النادي الليلي الايراني وقد كان في قمة فتنته وسط تجمع العائلة في وقت الاصيل، حيث يتناول افرادها الكباب والارز مع البيض النيء وفي النهاية أصر على دفع الفاتورة وهذا أمر مقضي في ايران بما انه هو صاحب الدعوة. لقد اشار عدة مرات قائلا : انه قد احب جيرد جيرد كثيرا وذلك خلال الوجبة وثانية عندما رجع بنا الى مسكننا . لقد كانت الرسالة حاذقة ، كما تنزع كل الرسائل الفارسية الى أن تكون كذلك . فبدون ذكر اسبابي ابدا او الاشارة الى الحادث

في قرية شيخ زادة ، عرفنا الآن ان السيد جاهي قد أخذ جانبنا .

كان السيد خليلي بالانسجام مع طبيعتة أقل حذقا . فقد التقيت به مرة وأنا امشي هابطة نحو الشارع المشجر حيث كانت تقع المحطة . ناداني كي انتظره ، وقال بلين بعدان لحق بي وبعد ان تبادلنا التحيات المطلوبة :

ـ السيد جيرد يقول الحقيقية .

تبادلنا النظرات ، حتى ان السيد خليلي كانت له حدوده فهو لم يكن ينوى أن يصرح برأيه بشكل مباشر بأن اسيابي كان " فزوليا " فضوليا . وانتهزت الفرصة مع السيد خليلي وحاولت توضيح ماحدث في قرية شيخ زادة . فقلت :

ـ لقد انزعج اسيابي حقيقة من جيرد لماحدث في القرية وفي الحقيقة لايزال منزعجا حتى الآن . فنظر الي السيد خليلي على نحو بدا فيه متضايقا وقال بهدوء :

ـ لاليس غاضبا منكم .

ـ بالطبع هو كذلك ، فقد دعاه جيرد فضوليا .

وقد عرفنا موءخرا ان كلمة " فضول " التي تعني " نوسي" بالفارسية قد اقتبست من كلمة عربية ترادف كلمة " شيت " عندنا وهي كلمة تفيد في التحقير .

ولكن السيد خليلي تجاهل مسألة عدم ملائمة استخدام الكلمة وركز على شيء آخر .

ـ لايقدر أن يتضايق ، طالما انه جاء الى منزلكم واحتسى الشاي معكم .

كان السيد خليلي يشير الى قاعدة كردية من قواعد حسن

الوفادة : ضيف في بيتك لايمكن ان يكون عدوك .

مع ان السيد خليلي كان قد امضى عدة سنوات في المدينة فقد كان عقله لايزال في القرية ، مع مجموعة القواعد الكردية التقليدية واسيابي من الجهة الثانية كان قد ولد وترعرع في المدينة ، لقد كان تركيا اكثر منه كرديا .

لم استطع التوقف عن التفكير في اسيابي على الرغم من تأكيدات جاهي وخليلي . لماذا تطرق لنقطة مثل هذه ، كالادعاء انه عنصر من السافاك ؟ . لنفترض انه ملزم برفع تقرير يقول فيه اني جاسوسة وانني دخلت ايران واقيم في ريزاي تحت ذرائع مزيفة ؟ لقد حدد عقدي مع الحكومة الايرانية انه يمكن اقالتي من الكلية مباشرة عند تعاطي عملا منظما ضمن أي نشاط مهني غير تعليم الانكليزية ، ولن يكون هناك سبيل قانوني أو أي أيضاحات حول ذلك .

بدأنا تدريجيا بالتماس آراء الناس الآخرين فسألنا زملائنا :

- هل من الادب واللياقة ان تسأل احد كم يكسب من المال ؟

- لا ..

كان ذلك الجواب الاشمل تقريبا .

- اذا لماذا يسأل عنه العديد من الناس ؟

- لأنهم لايدركون اكثر من ذلك . انهم غير متعلمين .

كان يأتي هذا الجواب مرتبكا قليلا . من الواضح انه لم يكن السبب الحقيقي ، لأن بعضا من هوءلاء الناس المثقفين ، جيدا هم انفسهم كانوا قد سألونا عن رواتبنا . وعلى كل وافقنا

الناس الذين سألناهم على نقطة وحيدة : ان على السر• ان لا يستخدم كلمة فضول ابداً لعنصر من الساڤاك . و النتيجة الطبيعية الواضحة التي لم يقلق احد نفسه بتوضيحها بتعابير لا لبس فيها كانت : لا تستخدم كلمة فضول لأي كان ، لأن اي شخص يمكن ان يكون من الساڤاك .

بعد البحث مباشرة في مسألة اسيابي ،نزل جيرد و تحدث طويلاً مع هوشنغ الجعفري . و قد استنبط كلاهما بعد جهد جهيد اعتذاراً رسمياً للسيد اسيابي و قد كان تقريبا شيئا كهذا : أستميحك عذرا . تعرف اني لا اعرف الفارسية جيدا ، و احياناً لا اعرف ما تعنيه الكلمات ،فقد خلطت الكلمة التي استخدمتها بكلمة اخرى اعتزمت استعمالها ،و لكن اذا كانت قد بدرت مني الاساءة فأرجو ان تسامحني .

أكد جيرد لهوشنغ انه كان يعرف الكلمة ،و قد عنى استخدامها ،و لكن هوشنغ اخبره بحزم ان اي اعتذار آخر غير وارد. و طبعا عرف اسيابي جيدا انها لم تكن غلطة ،و لكن تلك لم تكن هي النقطة المهمة ،بل ان الاسلوب و الشكليات كانت هي المهمة. و لحسن الحظ،و لاحترام الذات النابع من ثقافتنا لم تتح الفرصة التي تمكّن جيرد من تقديم هذا الاعتذار بسهولة . لم اذهب الى محطة الاذاعة بعد ذلك ابداً ،و لم نصادف اسيابي على الطريق ابداً . و بدأت ادرك ان الاعتذار لن يفيدني في شيء.فقبل الحادث كانت دروسي الكردية قد اصبحت مضللة اكثر مما تكون مرضية ، حتى مع السيد خليلي في غرفة الادارة. فغالبا ما كان السيد خليلي يتغيب على الرغم من تأكيده انه سيحضر في موعده حسب اتفاقنا ،و اتضح لي انه كان متعبا من معدل تقدمي البطيء نسبيا .و قد ازدادت رغبتي في التحدث مع النساء الكرديات كثيرا .نساء لم تتغير لغتهن الكردية بنظريات مزيفة من التعديل .لقد جئت الى كردستان معتقدة أني سأكون الاولى التي تتحدث الكردية، فبالنسبة لأي شخص مطّلع ،من الجائز ان يلاحظ

ان النساء الكرديات يتحدثن بلغة مختلفة تماما عن لغة الرجال . ففي قبيلة هندية أمريكية ، يستخدم الرجال و النساء أشكال نحوية مختلفة و قد صرحت - محددة في اطروحتي المفترضة - اني كنت مقدمة على المقارنة بين كلام الرجال و النساء . و لكني لم اتحدث مع امرأة عدا اخت السيد اسيابي حيث لم اعد انظر اليها ككردية حقيقية تماما كنظرتي الى أخيها .

كنت قد بدأت - و حتى قبل رحلتنا القصيرة الى مأدبة القرية - بطلب المساعدة من السيد خليلي ليجد امرأة متكلمة لأتحدث معها . و لكن جوابه كان اقل مما وعد به . فقد قال :

- انا لا أعرف نساء كرديات . ربما كان ذلك الشيء اللبق المحتم ان يقوله في مجتمع كهذا يفصل بين الجنسين ، و لكن ، كلانا عرفنا ان ذلك شيء مضحك . فالرجل لديه زوجتان و العديد من القريبات . و قد تعجبت اين خبأهن جميعا .

النساء الكرديات يظهرن في الشارع و لأنهن كرديات ، فهن أكثر النساء ظهورا في الشارع . و العديد من القرويات و اللاجئات كن يخرجن سافرات الوجوه ، و لكن حتى هؤلاء كن يظهرن محتشمات ولم يكن يتأنقن على نحو يتفاخرن به . راقبتهن تواقة اليهن اكثر من أي وقت مضى . لن أشعر بالارتياح ابدا في الجلوس في حجرة يملأها الرجال ، و انا في مطبخ احدى هؤلاء النساء . تصورت نفسي جالسة ببساطة و دفتر الملاحظات في يدي ، اتعلم أشياء كثيرة و ليس فقط أشياء عن اللغة . نظرت ثانية الى العائلة اللاجئة التي كانت قد انتقلت الى جوارنا و لكن كانت تعلو وجوههم تغابير كتومة ، لا يمكن الوصول اليها . حيث كانوا يسرعون ذهابا و ايابا في الشارع المشجر بسيارتهم اللاندروفر المضروبة . و كنت أخشى التحدث اليهم .

اتكلت مرة على حسن ضيافة جيراننا الجعفريين . كان هناك امريكيون آخرون في المدينة ، و لكنهم كانوا قد فصلوا رأيهم فينا بأننا منبوذون لأننا لم نكن نقضي ليالينا في مركز قيادة الجيش التابع للولايات المتحدة ، نشرب و نشاهد الافلام السينمائية الامريكية . كنا

على الاغلب نمكث وحيدين في الليل نسام من بعضنا البعض و مـــن فشلنا ،و لكننا كنا نأبى الذهاب الى الامريكيين و اظهار عدم نجاحنا امامهم.و كان الجميع قد اخبرونا انهم قد سئموا من المحـــاولات الكثيرة لتكوين صداقات مع الايرانيين . و عندما لم يكن البرنـــامـــج الكرمانحي ذو الستون دقيقة يُبث ،كنت احاول ان اضبط المذيـــاع على اذاعة (البي .بي .سي) .و كل الروايات ذات الاغـلفـــة الورقية التي احضرتها معي كانت قد قرئت .

ما كنا نحتاجه هو الاصدقاء .و لكننا كنا لا نزال نلقى صعوبـــة بسبب الشكليات و ما هو أسوأ من ذلك .اردنا ان نناقش انطباعاتنـا و شعورنا عن ايران .و قد بلغنا حداً يائساً بحيث احتجنا الـــى استرجاع كل ما كنا نقوم به و النظر فيه من جديد .

كنا نتلقى الدعوات و الابتسامات من الجعفريين .و من الايرانيين في الكلية كنا نتلقى الابتسامات،و قد صعب علينا كثيرا استرجـــاع ذكرياتنا مع شخص كنا نثق به و نستطيع التحدث معه بحرية ،حيث كنـا قد التقينا به منذ مطلع اقامتنا في ريزاي في شهر ايلول وكـــان يصغي الينا باندماج اكثر من مجرد توزيع ابتســامة ، شخص عـرفنـــاه بعيدا عن الجعفريين ،وعن المدرسين في الكلية .و الوقت الـــذي امضيناه معه كان بعيدا عن اجواء ايران .كان في عالم خاص بــنـا ، لأننا لم نكن نشعر بالملل مع أمير لمجرد انه بصحبتنا ،و لم نـكـــن نعزل بعيدا كما كان الحال مع معظم الايرانيين الذين عرفناهـــم. وعلى الاصح كنا قد سُحرنا من قبل صبي كان قـــد حـــبـــك حولنـــا رقـيّـــة سـحريـــة كـرديـــة .

الفصل السادس

كان امير ، الشاب الفارع الطول ، النحيف الذي اتى من بوكان هو املنا لبلوغ كردستان اكثر من الجعفريين، اكثر من السيد خليلي واكثر من أي شخص آخر كنا قد التقينا به منذ مجيئنا الى ايران . كان امير واقفا قريبا مع الطلاب الآخرين عندما تحدثوا عن كيفية قتل السافاك ٣اخا. صديقي المهابادي في امريكا . وكان واثقا من انه قد اختيل ولكنه لم ينسحب بعيدا عني مثل الاخرين .. بدلا من ذلك وعندما ابتعد جميع الطلاب وهم يتحدثون بنبرة هادئة ويعبرون عن شكوكهم لبعضهم البعض كان امير قد تبعني الى مكتبي وعرض على تعليم الكردية ،لهجته السورانية الاصلية (الكردية الجنوبية) ولكنها مع ذلك تبقى كردية . وقد اخبرني انه يعرف قليلا من الكرمانجية (الكردية الشمالية) وانه سيكون قادرا على تعليمي الاختلاف بين اللهجتين . لقد جاء أمير من مدينة كردية تقع جنوب مهاباد واقترح مباشرة انه علي ان اسافر اليها معه والتقي بعائلته . لم يستطع امير التوقف عن الحديث عما سنفعله معا ،كيف سيعلمني الكردية وكيف سيأخذني الى اماكن في كردستان .. حدقت فيه متعجبة ، كيف كان لطالب في السنة الدراسية الاولى من مدينة كردية صغيرة ان يتعلم التحدث بالانكليزية بهذه الطلاقة ؟ ولماذا سعى هو الي بينما تراجع الطلاب الآخرون ؟ .

عندما زارنا امير في بيتنا للمرة الاولى كان ذلك يوم الجمعة ، يوم عطلتنا الاسبوعية . وقد عرض علينا أن يرافقنا الى مهاباد ولكنني كنت مصابة بالتهاب القصبات الهوائية واخبرنا قائلا :

- أعرف مهاباد تقريبا مثلما اعرف بوكان .
شعرت بسعادة وانا افكر بالذهاب حالما اتماثل للشفاء . ولكن أمير لم يقدم عرضه ثانية ابدا وذهبنا الى مهاباد برفقة الجعفريين .

اعتاد أمير المجيء الى مكتبي ، وهو حجرة معتمة بمقعد ذي غطاء مطاطي ومدفأة داكنة بلون الرماد تعمل على النفط ، قابعة في الزاوية . لم يطرق بابي احد من الطلاب الآخرين ابدا الاعندما كانت تعطى الدرجات ، كانوا يتجاهلون اعلاناتي المتكررة عن ساعات التواجد في المكتب . ولكن اميرلم يكن مثل البقية منذ البداية . لقد كانوا بعديين واحيانا عدوانيين بينما كان هو ودودا ومتحمسا . لم تكن انكليزيتهم تنفع لمحادثة حقيقية بينما كان امير يتحدث بانكليزية لم تكن عامية تماما ولكنها كانت تنزلق بسهولة من فمه . وعلاوة على ذلك كان امير كرديا . كان قد جعل من نفسه مزماري المتعدد الالوان لكردستان ، يوما بعد يوم قادني الى مقربة منها وهو يرقص فوق طريق منثور بورود خيالية ويخبرني عن جمال بوكان وعن الشعور الودي لعائلتة تجاه الآخرين ،والاروع من ذلك انه كان يحدثني عن الافكار والتطلعات السياسية للاكراد . اصبح امير جزءا من حياتنا دون أن ندرك كيف حدث هذا . فبالاضافة الى عرضه لتعليمي الكردية ، كرس نفسه لمساعدتنا في معالجة تعقيدات الاستقرار في ايران . فاذا احتجنا للحصول على شيء من البازار كان يقول انه مستعد للذهاب معنا . انه يستطيع أن يترجم لنا ويرشدنا، ولكن الاهم من هذا وذاك انه بامكانه أنيقضي وقتا معنا ، ذلك الوقت الذي كان يمضي احيانا على نحو متعاقب بسرعة شديدة ومن ثم ببطء شديد .

فالاسبوع الذي تعلمنا فيه تسوق الغذاء والحاجات

المنزلية قضى على كل وقت فراغنا . لم يكن صاحب الدكـــــان احيانا ، ونحن أيضا لم نكن نقدر احيانا على فهمه . وعلـــى كل حال فان الوقت الذي أمضيناه في تفحص الاشياء وعـــــدد المشتريات التي قمنا بها كان قليلا . اعددنا جداول ولوائـح لأواني التنظيف ، التوابل ، الصابون ، واشياء اعتبرناهـا مـن الاساسيات ـ ولكننا لم نستطع آن نجد نصفها . كنا نجـــد انفسنا فجأة في أيام الجمع عندماكان البازار ومعظم الدكاكيـن تغلق ، بدون آي شيء نقوم به ، لااحدنزوره او نتحدث اليه . جعل أمير أيام الجمع محتمله او حتى مسليه . فقد تجولنـــا معه مرة آو مرتين في مركز المدينة ، ولكنه وعلى نحو مألوف كان يجلس ببساطة في منزلنا لساعات ، يقعد في مواجهتنـــا عن قصد على المنضدة المعدنية ويقشر بعصبية بذور عبـــــاد الشمس والبطيخ ولب الفستق ، ويتكلم ويتكلم وكنا نحن أيضـــا نستجيب لاحاديثه . كان يريد معرفة كل شيء عن امريكا ،وكنا نحن نريد معرفة كل شيء عن كردستان . ماذا يعمل والـــده ؟ ومثل ماذا كانت مدينته ؟ كم لديه من الاخوة والاخوات ؟ هل هناك مدارس شانوية في مدينته ؟ ماذا يفعل الناس فـــــي الشتاء ؟ ماذا يأمل الناس في مدينته عن الحرب الكردية فـــي العــــراق ؟

جعلنا نشعر اننا نستطيع ان نسأله عن آي شيءوالفرق بين اجوبته ـ حيث كان بعضها صريحا ودقيقا وبعضها ملتبسـا فيه وغامضا ـ كان قد اصبح ضبابيا بسبب افتتاننا بأي شـــيء يختاره للقول ـ وكان يسر لقول اشياء متطرفة ومبالغ فيهـــا فقد وصف لنا مدينة في الربيع والجبال مكسوة بالزهور ، وقـــد توقعنا ان نذهب معه الى هناك اما في الخريف أوفي الشـــتاء واكد لنا ان الحرب الكردية هناك لم تكن على الاطلاق مثلمـــا كنا نفكر فيها . فقد قـــال :

ـ ان الاكراد لايقاتلون العرب . ان الاكـــــراد

يقاتلون الاكراد .

كان يدعو البرزاني ، الشيخ القبلي والقائد العسكري الذي دافع ذات يوم عن مهاباد بالامبريالي ، الفاشستي الذي باع شعبة الحكومة الامريكية بتقديمه البترول للامريكان، فعلّه يلقى الدعم للقضية الكردية . قال أمير :

ـ أن الاكراد الحقيقيين يقاتلون على الجبهة الثانية واخبرنا انه كان يستمع الى كل محطات الاذاعة التي تذيع بالكردية من ايران والعراق والاتحاد السوفياتي . لقد كان مفتتنا بالاتحاد السوفياتي .

اخبرناه بما كنا قد سمعناه عن الاكراد في امريكا، فقد قلت له انه حالما يصلني صندوق كتبي الذي ارسلناه بالشحن الجوي من بوسطن ، سأريه ماذا طبع عن الاكراد والكرديه في بلدي . بدا أن الساعات كانت تضيق بنا بحيث لم تكن تكفي للتحدث معه بينما كان الآخرون الذين التقيناهم مقلين في الحديث عن السياسة وعن الاكراد ، صامتين في استجابتهم للمشاعر التي كنا نعبر فيها عن كوننا اجانبا ، فقد كان أمير مصدرا للمعلومات ، وردود الفعل والمشاعر . كان يبقى لتناول وجبات غذاء في منزلنا حيث كنت قد يئست من أن احدا من الايرانيين سيحل ضيفا علينا يوما ماعدا زيارة الجعفريين . انتقد طعامنا بصراحة وعلى نحو ظريف . لم اشعر بالاهانة . كيف يمكن أن اشعر بذلك ؟ فاسلوب امير في طرح الاشياء كان رائعا جدا .

ـ كأنك تمضغ علكة ، اليس كذلك ؟

ادلى بملاحظة ،بينما كان يجهد نفسه في طحن قطعة من اللحم المسلوق حيث كنت قد طبختها فقط لثلاث ساعات بدلا من الساعات السبع التي كانت تتطلبها . ضحكنا لذلك ، واخبرنا أن طبخ والدته مشهور ، وسنكون قادرين على تذوقه بأنفسنا بعد أجل قصير .

كنا ندعو كل ايراني التقينا به عدا هوشنغ وشهرزاد بلقب ، بالاضافة الى اسمهم الاخير . حتى طلابنا ، كنا ندعوهم بالسيد فلان والسيدة فلانه . عندما كنا نتحدث بالفارسية كنا نستخدم الصيغة اللبقة " انتم " مثل الفرنسية "VOUS" وبما أن امير كان طالبنا – وحسب فن المجاملة الايرانية – كان من غير الوارد ان يسمينا باسمنا الاول . ولكن عندما التقينا للمرة الاولى لم نكن نعرف ذلك وقد اختار هو ان يتجاهل ذلك فقد بدأ مباشرة بمناداتي بـ " دادا مارغريت " مستخدما اللقب الكردي الجنوبي للاخت ، وكان يخاطب جيرد بـ " كاك" أو الاخ الاكبر . وكنا نحن نناديه باسمه الاول دائما .

لقد بدأت علاقتنا مع امير ضمن شرنقة ، فقد امضينا وقتا معه لوحده بعيدين عن الايرانيين الآخرين . لايمكن ان نقارن احدا مع امير في حميميته ، ربما عدا الجعفريين فقط . كان هذا الشاب يطفح بالحيوية و الحماس برأسه الكبير اكثر من المعتاد وعينيه البنيتين الواسعتين الموءطرتين بأهداب طويلة وكثيفة . اخبرته ذات يوم قائلة :

– اهدابك جميلة .

فأجابني بجدبة مزيلا نظارته عن عينيه لاستطيع روءيتهما بشكل أفضل :

– اوه ، نعم انا مشهور بعيني في مدينتي .

كانت امه مشهورة بطبخها ، أما هو فقد كان مشهورا بجمال عينيه . لقد كان من وجهة نظر امير ، كل شيء وكل شخص في عائلته و مدينته مشهور . لقد كانت كردستان مكانا سحريا ولم يكن عليه ان يقنعني بذلك . ألم آت من على بعد ٥٠٠٠ميل لأني اعتقدت نفس الشيء ؟

في استعادة للاحداث نجد صعوبة في تحديد سبب وقوعنا تحت سحر أمير وكيفية حدوث ذلك ، فقد كان عاديا في الكثير

من النواحي ، ومراهقا غير محبوب ، مفعما بالغرور والافكار المجنونة . كنا نعرف انه يبالغ ، وبدآنا ندرك انه كان يتهرب من العديد من اسئلتنا . ماذا يعمل والده ؟ لايجيبنا بالحقيقة ابدا . كيف تعلم الانكليزية بهذه الجودة ؟ بدا انه شيء غير وارد ان يكون قد التقطها من سياح امريكيين يمرون من بوكان على نحو عرضي ، كما كان يدعي . اين كان يسكن امير عندما كان يحضر الى الكلية ؟ لم تتوضح لنا هذه الامور ابدا .. ولكن محادثاتنا لم تتخللها فجوات مربكة . كان الفرق بين امير والجعفريين لغويا وعاطفيا أيضا . فبينما كنا نجهد مع جيراننا بفارسية مكلفة ، كان امير قادرا على ان يصب كل مافي قلبه لنا بالانكليزية . وكنا نحن أيضا بدورنا نفعل ذلك . اخبرناه عن كل شيء عن حياتنا في امريكا عن آمالنا وخيبة آمالنا في ايران ، عن مشاعرنا في البعد والغربة المطلقة عن المشهد الايراني الاجتماعي . وعندما تجولنا معا في الشارع ابديت شكواتي من كيفية تحديق الرجال في والنظرات العداوانية المزعجة و الجريئة تلوح في عيونهم. شعرت وكأنهم سيسلبونني ويقتلونني اذا سنحت لهم الفرصة . قال امير انه يفهم ذلك . وتحدث عن الانحراف في الاخلاق بين جماهير الطلبة والطريقة التي تهتف بها الفتيات للشبان في المهاجع ليلا ، وهن يتوسلن اليهم ان يخرجوا معهن .

قال امير مرة :

– انه لشيء مثير للاشمئزاز . أليس لهؤلاء الفتيات اخوة ليقوموا بحمايتهن واخبارهن عما هو صحيح ؟

كنا انا وجيرد نتسلى بذلك . فليس هناك ادنى شك في أن امير كان جنسياً ولكن كان فيه شيء مايسمه بالبراءة والعنف الى حد بعيد . حتى انه صرح انه مشمئز من " غوغوش" المغنيه الاكثر شعبية في ايران التي كانت قد ابهجت الآخرين جميعا :

ـ انها فتاة سيئة بالسلوك الذي تنهجه .

كان ذلك حكمه عليها . تساءلنا انا وجيرد فيما اذا كان كل الشباب الاكراد على هذا النحو من التزمت ؟ .

كان امير شخصا غريب الاطوار ، في وسط الفسق الكامن داخل المظهر الخارجي لكل اللقاءات بين الرجال والنساء في ايران . فقد كان يرفض البقاء معي ولو للحظة لوحدنا في منزلنا. فاذا توجب على جيرد ان يخرج من البيت فامير أيضا سيغادر المنزل . ولكن في وقت لاحق وعندما ازداد ادراكي للامور بدأت مناداته لي باسمي الاول تبدو كعلامة على العلاقة الخاصة التي ستوجه اليها الانتقادات في الكلية . واخيرا بدأت النظرات المحرجة تستقر على علاقتنا مع امير . واولها كانت من جانب مدرس في الكلية كان يسكن على مسافة منا في نفس الزقاق وسأل بعد أن رأى امير معنا وهو يخرج من منزلنا :

ـ انتم أصدقاء هذا الشاب ؟

فقال جيرد :

ـ نعم ، نحبه كثيرا .

تفحص المدرس وجه جيرد للحظة وقال :

ـ ان أمثال هوءلاء الشبان خطرون .

فسأله جيرد :

ـ ولماذا ؟

فقال المدرس وهو يلقي نظرة عجلى وغامضة علي :

ـ لأنهم يريدون الكثير من الحب . اعرف هذا الطالب انه يريد كل شخص ان يحبه . مثل هوءلاء الشبان خطرون على النساء .

تخلصنا انا وجيرد من شعورنا بعدم الراحة الذي هاجمنا للحظات بالضحك . عرفنا منذ ذلك الحين ان لا أحد من المدرسين

الاخرين يحلم بأخذ أي من طلابهم الى منازلهم . كان الحاجز الاجتماعي بين الطلاب والمدرسين في الكليات الايرانية قائما .

واخيرا عندما وصل الصندوق المشحون من امريكا وكان جاهزا لأخذه من الجمارك بعد وصولنا الى ريزاي بخمسة أسابيع توجهت كالعادة ، الى امير . عزمنا على مغادرة الكلية والذهاب لاحضار الشحنة " وقبل ان نغادر اخبرت اميرا أن جميع كتبي عن الكردية وكردستان كانت داخل الصندوق . نظر الي وخوف غامض يتسلل من نظراته :

ـ لكن السافاك سيصادرون جميع كتبك .

ـ لماذا ، فأنا امريكية ، وبالاضافة الى ذلك لن يعرفوا ماهيه هذه الكتب . انها بالانكليزية .

كان امير يشك في ذلك ولكنه اتى معي كما كان قد وعدني بينما كنت انتظر في الخارج ،أدار احد السائقين سيارته البرتقالية في وسط الطريق امام الكلية واتى مباشرة وبأقصى سرعة باتجاهي . قفزت متقهقرة لابتعد عن طريقه وقدماي تتحركان بخوف وعلى نحو يعوزها الرشاقة في الحركة . ظل امير متسمرا في مكانه . واصدر التاكسي صوتا طويلا وحادا عندما توقف على بعد انشين من المكان الذي كنت فيه . قال وهو يضحك مني :

ـ ما الامر ،دادا مارغريت ؟ هل خفت من مجرد تاكسي يجب الاتخافي من الموت . أنا لا اخافه ابدا .

انتظر امير معي في مكتب الانتظار ، بينما قام موظفو التفتيش بفتح غطاء الصندوق ، وقد بدت على وجوههم الخيبة عند رؤيتهم ثمانية ازواج من جوارب جيرد وقد حشرت في اعلى الصندوق . وبسرعة تفحصوا مادونها من الكتب . وبدؤوا بالحديث مع بعضهم بانفعال ، عندئذ تدخل أمير فهدؤوا بعد ذلك مباشرة ، وسلموني قطعة من الورق لأوقع

عليها ثم اعيد الى الصندوق ثانية . فسألت أميرا :

- ماذا حدث ؟

- ارادوا أن يبعثوا الكتب الى مكتب السافاك ليتفحصوها ولكني اخبرتهم انها تخص عملك في الجامعة ، وبذلك فقدوا اهتمامهم بها .

تساوم أمير مع سائق سيارة لنقل الصندوق الثقيل الى منزلنا وقد ساعده السائق على حمله على السلالم عندما وصلنا. كان أمير قد اصر على دفع الاجرة عند ذهابنا ورجوعنا من الجمارك . وعندما غادرنا سائق التاكسي تعقبت أمير وهو ينزل فوق الدرج محاولة ان اضع في يده المبلغ الذي دفعه للسائق . واخيرا نجحت في وضعه تماما في جيب قميصه . حدقت فيه متعجبة من كرمه الزائد هذا . كان امير قد قال لي انه يريد ان يستعير بعضا من كتبي ولكني عندما قدمتها له ، ردها الي قائلا انه يخشى ان تشاهد معه .

ذات يوم وبعد ان جلبنا معا الصندوق بفترة قصيرة ، سمعت امير في مكتب رئيس القسم الانكليزي يوضح : انه لن يحضر الى الصف لشهر او اثنين . ماذا كان ذلك ؟ اصغيت اليهم ولكني لم استطع ان اكتشف سبب ذلك . وفي وقت لاحق جابهته بكيفية قدرته على ترك الجامعة بعد مجرد ستة اسابيع من الدوام في سنته الاولى في الكلية ؟ نظر الي بغموض وقد بدت عيناه الواسعتان اكثر اتساعا بكثير لجديته .

- لااستطيع اخبارك ، دادا مارغريت .

- لم لا ؟

- لااريدك ان تقلقي .

تناقشنا انا وجيرد حول الموضوع لعدة ايام . ووضعت تصورا بأن امير كان ماضيا للانضمام الى المقاتلين في العراق . الم يتحدث في احيان كثيرة عن كيفية تحقيق رغبته

فوان يكون في المكان الذي يريد ؟ . سألته :

- هل انت ذاهب الى العراق يا امير ؟

نظر امير الى الارض بحزن وقال :

- لااستطيع ان اخبرك ، يجب الا تعرفي .

ولعدة ايام وكلما كنت اشاهده كنت أساله عن سبب مغادرته وكان دائما يضحك بحزن ويرفض التحدث عن ذلك . وقد رفض رئيس القسم الانكليزي وهو امريكي معتد بنفسه كان قد نبهني عدة مرات بأن امير " ودود جدا " ، رفض هو أيضا أن يخبرني قائلا بأن امير قد وضح له السبب ولايجوز الافضاء به لكونه مسألة شخصية بحته . تألمت لعدم ثقة امير بي ولكني كنت أيضا مهتمه وقلقة على نحو فظيع . اعتقدت أن امير كان رومانسيا وعنيدا بما فيه الكفايه ليقوم بشيء خطير بالفعل . وفي الحقيقة اقنعت نفسي بأنه ماض للقتال حقا مع " الاكراد اليساريين " ضد البرزاني في العراق .

اخيرا كشف لي عن السبب في مكتبي . لقد كان ذاهبا الى طهران لاجراء عملية في مستشفى ما . فقد كان يعاني من وجود حصى في كليته . سمحت لنفسي هذه المرة ببعض من الشك والارتياب . ولماذا ضخم الموضوع لهذا الحد ؟ لماذا تصرف بهذا الغموض ؟ لقد كان امير قادرا حتى على جعل حصى الكلية تبدو كمأساة سوداء . وصرح لنا في المرة الاخيرة التي قام فيها بزيارتنا قبل ان يرحل :

- لااعرف ماسيحدث لي ، وماذا ستكون نتيجة هذه العملية ؟ فأكدنا له من غير تكلف :

- سيكون كل شيء على مايرام .

بدا متألما من ردة فعلنا الخالية من الهم وقال :

- انتم لاتعرفون المشافي الايرانية . لاتعرفون

الاطباء الايرانيين . فهذه ليست امريكا .

بعد ان غادرَنا تلك الامسية كان قد نجح في افزاعنا نحن أيضا وتساءلنا فيما اذا كنا سنراه ثانية يوما ما .

حصلت لنا اشياء واشياء في غياب امير ، ولكن أي منها لم يبد حقيقيا تماما . لأنه لم يكن معنا لنناقشها معه . وكما يقولون بالفارسية ، فقدنا طعم الحياة ولذة المحادثة ونشوة الافكار . فهو لم يكن موجودا عندما رجعنامن مانوا اوعندمانبذتني هيئة الاذاعة . واخيرا اصبح فقدان امير ذا اهمية بالغة بسبب عدم وجود احد من الأكراد على الاطلاق ليتحدثوا معي . في الوقت الذي غادرنا فيه أمير، كنا قد اقتنينا اسرّة ، ومنضدة ، كراسيا ، ثلاجة ومدفأة، بالاضافة الى السجادات التي اعارنا اياها هوشنغ . ولكننا كنا لانزال نبحث عن بعض الاغراض في المخازن . لقد كان التسوق بالنسبة لناتحديا متقدما باستمرار ، حيث كنت اتوق اليه فقط عندما اكون في مزاجي الاكثر استرخاء للتحدث بالفارسية . وحتى بعد ذلك لم يكن من الهزل التواجد لوحدي بين الحشود . فالمارة الذكور كانوا يحدقون في باطراد ، وكانوا سيلمسونني اذا سنحت لهم الفرصة . ولم اغادر دكانا تقريبا دون أن يخامرني شعور بأني قد غششت لأني اجنبية من قبل التاجر هناك . وعندما كانت للمشتريات قيمة اكبر حاولت دائما ان أجد احدا ما من المحليين ليرافقني .

تصرفت زوجة جارنا الذي كان قد حذر جيرد من امير بودمعي . لذلك سألتها يوما فيما اذا كانت ستذهب معي الى البازار لتساعدني في شراء بساط صغير لمناسبة عيد ميلاد جيرد . وقدوافقتني على ذلك . وفي اليوم المحدد للتسوق مضيت مبتهجة الى منزلها ، متشوقة للتجول في البازار برفقة شخص مايعرف ماذا يجري فيه . كنت في مزاج صاف حتى اني لم اكد

الاحظ ان نازي لم تكن قد ارتدت ملابسها بعد ، حين وصولي .
لعبت مع طفلها وابديت اعجابي بسجاداتها الجميلة بينما
كنت انتظرها لتجهز نفسها . واخيرا ارتدت ثوبا خاصا
بالشارع وسترة غليظة . وسلمت الطفل للخادمة وخرجنا من الدار .
وبينما كنا نمشي نحو الشارع اخبرتها عن رغبة جيرد الملحه
في اقتناء واحدة من هذه السجادات وأي مفاجاة ستكون له
عندما يراها . اوقفت سيارة اجرة فجأة وبدون ان تتفوه بشيء
بينما كنا في منتصف الطريق الى ساحة المدينة . توقفت السيارة
وصعدتها و اوضحت من خلال النافذة ان ليس لديها الوقت لتساعدني
بعد كل ذلك . بعدئذ سارت السيارة باتجاه البازار وتركتني
مصعوقة الى جانب قناة صرف مكشوفة . لم استطع تخيل ماحدث
سوى اننا وقبل ان نغادر كنا نتلقى المضايقات المألوفة من
جميع الذكور المتسكعين في الشارع . فشعر نازي المصبوغ بالاحمر
وعيناها الخضراوان الطبيعيتان بالاضافة الى فستانها القصير
والمقور الصدر على نحو مثير كانوا قد اعدوها لتبدو غريبة
على نحو مطابق للزي الحديث . من المحتمل ان الرجال حسبوها
اجنبية هي أيضا.وقد سألتني متهمة ، تماما قبل أن تفر هاربة:
ـ هل يفعلون ذلك معك دائما ؟

توصلت الى انطباع غير مشكوك فيه انها قد اعتقدت
أنها غلطتي ، وانني قد قمت بشيء مالاثارة المضايقة التي اضطرت
للمشاركة فيها .

كنت لازال افكر بفظاظة نازي خانم عندما بدأ
الجعفريون بالتحدث معنا عن حفلة زفاف يمكن أن تقام ضمن
عائلتهم ، فقد كان اخو هوشنغ ، وهو مهندس متوسط العمر،
قد انتقى فتاة تبلغ ثمانية عشر عاما من بلدته لتكون عروسا
له قبل ان يمضي في رحلة عمل الى اليابان . واثناء غيبته
ظنت شهرزاد ان محمود الاخ سيفسخ الخطوبة عند عودته ، مدركا
انه يمكن ان يجد أفضل من هذه الفتاة القليلة الاثارة التي

من بلده ، وقد لمّحت لي شهرزاد انها مميزة في الدرجة الاولى بشعرها الاشقر فقط . مهما يكن فقد قرر محمود وبمعنويات تعوزها الحيوية ان يمضي في اقامة مراسيم الزواج وكما قال كان تعبا من المكوث وحيدا في ريزاي . وحالما حدد تاريخ العرس اكد لنا الجعفريون بأننا سنستمتع كثيرا برؤية عرس ايراني ونحن بدورنا عبرنا عن فرحتنا بالدعوة . وقد تمنيت على نحو خاص آلا ينهي موقف العريس الاحتفالات .

على كل حال ، اتضح ان كل شيء بهيج جدا واوربي على نحو مدهش ، ابتداء من حمام منزل والد العريس الذي يتفاخر بوجود مرحاض وحوض استحمام افرنجي فيه ، وصولا الى كميات الجن المحظورة والغالية الثمن والتي كانت تسكب بسخاء في كؤوس طويلة لمعظم الذكور وبعض الاناث الحاضرات . بدت العروس الساحرة في ثوب زفافها الاوربي بحواشية الطويلة ، مستمتعة تماما بحفلة عرسها وقد ادت رقصة هز البطن اللطيفة امام الضيوف المجتمعين .

وفي آخر المساء ، احرج رجل ثمل جيرد ، فقد طلب منه بانزعاج ان يعرف :

ـ كم تدفع لكم الحكومة الايرانية مقابل عملكم هنا ؟ انتم امريكيون اغنياء . نحن لانحتاج اليكم .
بقي الرجل ممسكا بمرفق جيرد الى آن اتى هوشنغ واجبره على آن يقدم اعتذاره . واوضح قائلا :
ـ لم يكن يعرف مايقوله .
أومأنا برأسينا بالموافقة على ذلك ، وقد ابدينا اللباقة ظاهريا ولكننا كنا مرتابين في داخلنا . فهذه حالة من غياب الوعي والثمالة الحقيقية .

حتى تلك اللحظة كنا نشعر بالترحاب في حفلة الزفاف فكل شخص كان يعتني بنا بافراط ، يقدم لنا الغذاء و الشراب،

يأتي ليتحدث معنا ، ويبتسم لنا باستمرار ، فهبجان الرجل الثمل لم يفسد أمسيتنا ولكنه جعلنا نتساءل عما كان يدور في فكر هوءلاء المبتسمين جميعا . فكلما طال بقاوءنا في ايران كنا نتعلم النظر الى ماوراء الابتسامات اكثر . ولكن لم يكن امير هناك لنناقش معه هذه الحوادث التي تثير الكآبة في النفس . لم بكن هناك مجال لننظر في امر احتمال ارسال السيد اسيابي تقريرا عني للسافاك .لم تكن لدينا "وسيلة اختبار ما او موجّهة صوت ، ولاطريقة نشرح فيها صدورنا من تراكم اضطراباتنا واحزاننا وسوء فهمنا . فقد كنا أنا وجيرد قد حجزنا في زنزانة نفسية مع بعضنا البعض ، ولم تكن علاقتنا تنمو ضمن عزلتنا هذه .

في نهاية احد الشهور ارسل الينا امير رسالة حارة من منزل لاقاربه في طهران . وقد اجبت عليها مباشرة ،واخبرته عن مدى افتقادنا له ، وعن الاشياء التي حدثت لنا ، وعن حاجتنا للتحدث معه . وبعد عدة اسابيع وقبل حلول الشتاء والمطر كان امير يقف تحت ضوء الشمس عند مدخل ساحة دارنا .

" آمير " صرخت وعانقته وانا اعرف ولكن بدون أن اهتم بأن الرجال والنساء لايتعانقون امام الناس ابدا في ابران ولايتعانقون في أي مكان آخر اذا لم تكن بينهم صلة قرابة قريبة جدا ،أما بالدم او بالزواج . نزل جيرد على السلالم وعانقه هو أيضا .

كان اجتماعنا الثاني في فترة الغذاء ولكن لم يكن لدينا الوقت الكافي لنتفوه بكل شيء كان يجول بفكرنا . فقد كان علينا جميعا ان نعود الى الكلية لنراه فيها. والآن وقد عاد امير ،شعرت بأن كردستان بكل رومانسيتها وامكانيتها يمكن أن تفتح صدرها لي .

بعد انقضاء ليلتين على عودة امير من طهران . جاء

ليتناول الطعام معنا . كان اللحم هذه المرة قد نضج تماما .
كان كل شيء معدا حسب الذوق الايراني لأننا في غياب امير كنا
قد استأجرنا رجلا تركيا ممتازا ليطبخ لنا ثلاث مرات في الاسبوع
فقد اعتقدنا بأننا بهذه الطريقة يمكن لنا ان نستقبل ضيوفا
ايرانيين بدون ان نصاب بخيبة رؤية الغذاء دون ان يمسسه احد .
بينما بدأنا انا وعزيز بوضع الاطباق فوق الطاولة اتى امير
الينا وسأل :

ـ هل سيتناول عزيز الغذاء معنا ؟

نظرت الى عزيز مضطربة وقد بدأ الشعور بالاثم بالنفاذ الى
قلبي المتسامح .

ـ لا ، انه لايفعل ذلك ابدا .

ـ اذا سأطلب منه ذلك . هل انت موافقة على ذلك ؟

ذلك ما قاله طالبي وهو يذهب الى المطبخ خلف عزيز بدون
أن ينتظر ردي .

ـ طبعا أجبته بفتور .

جلس عزيز المضطرب والخجول معنا على الطاولة وتظاهر
بتناول شريحة من اللحم والسلطة . انه يعرف أمير من الكلية
حيث عمل عزيز لايام في مطعم الطلاب ، حسب القواعد الايرانية
لنظام الشكليات كان من غير المقبول أبدا أن يجلس طالب
ومدرسوه متماثلين ، ولكن الشيء الذى لا يصدق مطلقا هو أن
يتناول طالب جامعة ايراني ومدرساه والخادم طعامهم معا على
نفس الطاولة .

حتى أنا كأجنبية أحسست بذلك ، ومع ذلك فان أمير وكما هو
دائما كان قادرا على أن يجعلنا ننزل عند رغبته حتى لمجرد
ابداء اقتراحه ، فقد أعلن أن نظاما اجتماعيا جديدا هو على
وشك الولادة في ايران ،ولثقته بتأثيره علينا كان قد قرر أن
يدشنه في منزلنا .

شعرنا أنا وجيرد بالغرابة . فقد اندفع عزيز بعيدا عن الطاولة وأمير يحاول أن يتحدث معه قبل أن يقدم الشاي .لا أعرف حتى فيما اذا كان أمير قد لاحظ كم كان عزيز متضايقا .

دخلنا مرة أخرى في علاقة نمطية مع أمير . فغالبا ماكان يقوم بزيارة قصيرة الى منزلنا عند المساء وفي نهاية الأسبوع . وثانية كنا نجلس نحن الثلاثة لساعات ونتحدث . ولكن الامور كانت قد تغيرت نوعا ما ، ليس مع أمير ، بل معنا فبعدما يقارب ثلاثة أشهر من وجودنا في ايران كنا قد أصبحنا أقل بساطة وأكثر تشككا . ولم نكن متفائلين جدا حول توقعاتنا في خلق أصدقاء جدد لنا . وكنا قد بدأنا نعير انتباهنا أكثر للفروق الدقيقة لما نقوله نحن للناس الآخرين وما يقولونه هم لنا . مع ان امير ذاته لم يتغير وكان احد اصدقائنا الاولين والوحيدين . كانت انكليزيته قد وهنت قليلا في طهران ، ولكنهاقويت حالا بتأثير المحادثات . لم يعلمني الكردية ابدا على الرغم من أن هذا كان السبب الاصلي للقائنا كنا ثلاثتنا احيانا نتحادث بالفارسية ، ولكننا كنا ندرك أن اميرا قليل الصبر مع جهودنا . وقد اتهمه جيرد مرة بعدم رغبته بتعليمي الكردية ،فارتسمت على وجه امير تعابير الالم المميزة عنده ، حيث برزت شفته الى الامام واطالت عيناه التفكير . وبالطبع كان يعتزم تعليمي الكردية ولكن ، كان من المهم جدا له ان يتعلم الانكليزية . كل شيء سيأتي في وقته المناسب . ولشعورنا بألم اللوم في عينيه تراجعنا عما قلناه اضافة الى ذلك ، فثمة مسألة اخرى ، وهي زيارة مدينة امير بوكان . متى سيأخذنا اليها ؟ لقد انتظرناه طويلا ببساطة لكي يقترح علينا وقتا مناسبا لذلك . ومن ثم وبعد عودته من طهران اثرنا الموضوع نحن بأنفسنا . ولكن امير كان يؤجل ذلك دائما . الآن ليس الوقت المناسب . ستكون الجبال مغطاة بالثلوج ولكن اميرا اخذ الحافلة هو نفسه الى هناك مرة اومرتين ، وكان طلاب آخرون من بوكان يذهبون الى بلدهم بين الفنية

والاخرى . لماذا لانقدر على الذهاب الى هناك نحن ايضـــــا ؟ ولماذا فقد امير اهتمامه بالذهاب معنا الى مهاباد؟ فقد كنا قد اخبرناه عما حدث لنا مع الجعفريين وعن رغبتنا فــــي الذهاب ثانية برفقة كردي ، ولكن اميراوضح لنا بأسلوبــــه المراوغ بأنه لن يأخذنا أبدا. وبعد عدة اسابيع اعلن اميـرا أن والده سياتي في زيارة الى ريزاي . وعندما رأى الاهتمـــام على وجهي ، اضاف مباشرة :

– اريده ان يلتقي بك . لقد اخبرته كل شيء عـن مدرسي، كاك جيرد ودادا مارغريت .

واخيرا رُتب الامر على أن اميرا سيعد لنا طبخة ايرانيه فــي منزله واننا سنذهب لتناول الغذاء مع والده . وفي اليوم الــذي دعانا فيه امير وصل الى دارنا قبل الوقت بثلاث ساعات ، فسألته محدقة في أسفل الدرج لأرى فيما اذا كان احد ماواقفا هناك :

– ماذا فعلت مع ابيك ؟

فقال أمير :

– اوه ، لقد ذهب الى البيت تـوا .

– ولكن ماذا عن الغذاء الذي كنت ستعده ؟

– اوه الطعام،هل هومهم لك ؟ سأعده هنا في منزلك .

نظرت الى أمير ببرود .ماالذي كان يشغله ؟ بالتأكيد لقد ادرك انني ماكنت اهتم به هو مقابلة والده وليس تناول الطعـــــام . فســـأله جيـرد :

– ما الامر ؟ الا تريد ان نأتي الى مسكنك .

– حسنا . انه ليس مكاناً لطيفا ، ليس لطيفا بالقدر الذي يليق بمدرسيّ .

لم يمكث امير طويلا ذلك اليوم ، بعد ان شعر وبدون شك بالاسئلة التي تجول في فكرنا . فجأة بدأت المراوغـــــات حول تعليمي الكردية وزيارة مدينته ، وكل الاسئلة غيــــر

المجابةعن والده ، من يكون وماذا يعمل ؟ حتى الاسلوب الـــذي كان يتبعه امير في تجنبه اخبارنا اين يسكن ، كل ذلك بـــدأ يظهر الى الوجود ويشغل حيزا من تفكيرنا . لم يكن قد قـــام بأي اجراءات لتعليمي الكردية . والآن كان قد عرض علينـــا ان يقدمنا الى والده وبعدئذ وبدون أي توضيح ســـحب الدعوة . سألت جيرد :

ـ لماذا تظن إنه لايرغب في ان نرى والده ؟

فأجابنـــي :

ـ لاأظن ابدا ان والده قد اتى الى ريزاي .

ـ اذا لماذا اخبرنا انه قد جاء ولماذا اصر على دعوتنا ؟

فأشـــار جيرد :

ـ لقد دعينا الى اماكن عديدة قبل هذا ولم يكـن الناس يعنون اخذنا فعليا .

ذلك صحيح . فالشكليات كانت ترفع رأسها المنافق فـي كل مرة كنا نقدم فيها دعوة او نتلقاها . لقد كنا قد توصلنا الى النقطة التي لن نسمح فيها لأنفسنا بأن نظهر لهفتنـــا لأي دعوة ، مهما تكن مغرية ولم نقدر ان نتأكد ابدا فيمـــا اذا كان الناس الذين ندعوهم سيلبون الدعوة أم لا . كان موقفنا هـو الانتظار ومشاهدة ماسيجري عندما كانت الساعة المحددة تقتـرب . كان امير على الاقل يأتي دائما الى منزلنا عندما كان يقـول انه سياتي وكان ذلك ، قياسا مع الناس الآخرين ، أفضـــل بكثير بما فيهم الجعفريين . كان الجعفريون يفضلون ان يكونـوا الى جانب تقديم الدعوات اكثر من أن يكونوا الى جانب هـــدف تلقي حسن الوفادة من جانبنا . اما امير فقد بدا على العكـس من ذلك .

ان سلوك امير الغامض نزع اعترافا من جيرد . فقـــد اخبرني ان الكآبة والحزن كانا قد أخذا من نفسه موقعا فيالفترة

الاخيرة ، لأن واحدا من تلامذته المفضلين في الكلية ، وهو زميل لأمير ، كان قد اخبر جيرد بأنه سيعلمه الكتابة المسمارية وبعدئذ وبعد ان آخذ درسا ممتعا رفض الطالب أن يلتقي معه ثانية . والسبب في ذلك هو أنه سيفقد كل اصدقائه اذا شوهد يتسكع مع مدرس امريكي . وقد اقر جيرد احتمال ان امير قد شعر بنفس الشيء . وبعد ان فكرنا قليلا تذكرنا انه على الرغم من عروضه فان امير كان قد تجول معنا في الطريق فقط لعدة مرات في بداية علاقتنا . ومنذ ذلك الحين كان ينكث بعهده اويتجنب كل الدعوات والعروض لرؤيتنا في أي مكان سوى داخل منزلنا وعادة في الليل .

لم يقم أمير بزيارتنا لمدة اسبوع تقريبا وبعدئذ ظهر فجأة في احدى الامسيات في الساعة التاسعة ، فسأله جيرد بفظاظة :

ــ أين كنت ؟

لقد كنت مشغولا جدا بالبحث عن مسكن جديد ، عن مكان افضل بحيث يكون مناسبا اكثر لدعوتكما الى الغذاء .
فقال جيرد :

ــ هاه ..

بدا امير متضايقا من ذلك . وتابع جيرد قائلا :

ــ انت لاتريدنا أن نأتي الى منزلك لتناول الغذاء أو بالاحرى ، لماذا تتردد علينا ؟ هل أنت من السافاك ؟
شحب وجهه أخيرا ،ولم يتفوه أحد منا بكلمة لمدة دقيقة فشعرت بقوة خارجية تحثني على تغيير الموضوع ، كيف وصلنا الى هذه الدرجة من عدم الثقة ؟ . ماذا جرى لكل ذلك الحب والدفء ؟
حدقت في امير الذي لم يقل شيئا يدافع به عن نفسه أو شيئا يعيد الطمأنينه الينا . فتركت جيرد يواصل ذلك .

ــ لماذا دعوتنا لمقابلة والدك بينما لم يكن هنا ؟

ـ أنا اسف جدا لذلك ، فقد كان عليه ان يعود فجأة الى البيت . ولاكون صادقا معكم فأنا ووالدي لسنا على مايرام في علاقتنا معا لقد تخاصمنا فقرر المغادرة . فقال جيرد :

ـ لا أصدقك .

اخفض أمير نظره الى الاسفل وقال ببساطة :

ـ لا اصدقك هي عبارة قاسية اينما كانت .

في ايران حيث يلوث الكذب عجلات التفاعل الاجتماعي على نحو روتيني يكون السؤال الصريح عن صحة اقوال احد ما شيء غير وارد ابدا .

التمع في ذهني تصور كان يفكر فيه امير فقلت :

ـ لا أظن أن امير يصدق مانقوله نحن أيضا .

فسأله جيرد .

ـ هل هذا صحيح .

ـ انت لاتصدق انني فعلا قد اتيت الى ايران لاكتب رسالة الدكتوراه عن الكردية اليس كذلك يا أمير ؟

نظر الينا امير وقال وهو مفعم بالامل تقريبا :

ـ حسنا انت صغيرة جدا لتحصلي على شهادة الدكتوراه .

ـ لقد اخبرتك ان عمري خمسة وعشرون عاما .

فقال أمير بثقة :

ـ عمرك لم يبلغ خمسة وعشرين عاما . فلا أحد من الطلاب يصدق انك في سن الخامسة والعشرين تبدين أصغر بكثير .

فسألته بالحاح :

ـ ولماذا اكذب ؟ ولماذا اتظاهر بأني أكبر مما أنا عليه ؟ رفض أمير ان يجيب على سؤالي او حتى أن ينظر الي .

ـ انت لاتصدق اني ادرس الكردية أيضا اليس كذلك ؟ .

ـ لا ، حسنا لربما تدرسين الكُردية تقولين انك تهتمين بالكرديةولكن هل يمكنك أن تقومي ببحث وانت بعيدة عن جامعتك ؟ ان الطلاب يقومون بالبحوث في احدى الجامعات وانت الآن في ايران . لذلك من غير معقول انك تعدين بحثا .

دار في خلدي احتمال تقبل امير حكايتنا موءقتا كنت قد توقعت أن اشك فيها بعض الشيء ولكنني بدلا من ذلك وجدت عدم تصديق كلي وانكارا لكل ماكنت قد وضحته عن نفسي ، عن كل شيء كنت قد ابديت اهتمامي به على مدى الاشهر الثلاثة الاخيره واخبرته عنه . كنت قد حدثته على نحو متواصل عن عملي الاكاديمي ، عن خططي للبحث ، وقبل كل شيء عن اسباب رغبتي في المجيء الى ايران . كل حديثنا ذاك ، كل كلمة منه حاكمها هذا الشاب ابن المدينة الصغيرة ، ومن الواضح انه رفضها بعد دراستها في عقله . قاومت دافعا يملي علي تلمس وجهي لا طمئن على حقيقة وجودي . لقد بدا امير في تلك اللحظة قبيحا وحتى مرعبا . فكيف لي أن استمر بالحديث معه ؟

سأله جيرد بهدوء :

ـ هل تظن اننا من عناصر الـ (سي . آي . اي) ؟

فقال امير :

ـ لا ،لا اظنكم منهم .

ـ اذا ماذا نحن ؟ ماذا تظن ؟

نظر الينا امير وقال مدافعا عن نفسه :

ـ لم يمر وقت طويل على معرفتي بكم . لا اعرف من انتم . ان التعرف على شخص ما والثقة به يتطلب وقتا طويلا .

ـ ولكن كيف لك ان تعرفنا اذا كنت لاتصدق شيئا مما نقوله ؟

لم يجب امير على ذلك . ولم ينصرف مباشرة على الرغم من اننا ، انا وجيرد شعرنا ـ ودون ان نقول شيئا ـ باننا نكاد لانستطيع البقاء جالسين وننظر في العينين الواسعتين

المتألمتين والشفة السفلى البارزة للحظة اخرى . كان كما لو اننا كنا قد اتخمنا انفسنا بالفستق وحتى ان مجرد روءيته تجعلنا نمرض . لم يكن أمير ، ذلك الذي كنا نراه امامنا ، بل بساطتنا المجسدة وسهولة انخداعنا ، وقابليتنا للتجريح والتضليل . لم يكن شك أمير وارتيابه فقط ، قد ولد فينا ذلك الشعور ، بل ايضا تخلص نازي مني بالمكر واهانات الرجل الثمل ، وغضب السيد اسيابي وتحفظ السيد خليلي . كان الاكراد والاتراك قد قابلونا على نحو مماثل . واطلقوا علينا حكما ولفظونا ، مغرقين في ذلك . وها أنا ذا اتفحص خيطا محلولا بعناية اكثر ، الخيط الاخير على ملفه. ذلك الذي سيقودني الى كردستان .

استمر أمير في الجلوس على طاولتنا ، يحدق في احدنا ثم في الاخر . لم يصدق حقيقة اننا قد تحولنا ضده على هذا النحو الكلي . كان قد احتفظ بشكوكه لنفسه ، جالسا بصمت كل هذه الساعات، وكل هذه الاسابيع التي افشينا له فيها عن مكنونات قلبينا . لماذا اجبرناه على قول ماكان يفكر فيه ؟ فقد كان كل شيء مبهجا جدا . لقد كان يتعلم الكثير من الانكليزية . لماذا كان الامريكيون متبلدي الذهن ، عديمي الحس وحاسمين لهذه الدرجة ؟ نظرنا اليه بوجوه خاليه من التعبير وأخيرا نهض ليغادر والدموع تلتمع وراء نظارته . كنا أنا وجيرد نناقش بين الفينة والاخرى احتمالية كون أمير عنصرا من السافاك الذي كان قد عين ليكتشف ماذا كنا نفعل في ايران وكدفاع اخير ضد غضبنا أوحى الينا أن ثقته قد تداعت ضد رغبته ، وانه كان قد خاض تجارب رهيبة كانت قد ظهرت الى حيز الوجود في بوكان واننا كأمريكيين لانستطيع تصورها .

— ماذا ؟ ماذا ؟

عاجلته بالسوءال هذه المرة ، ولم يقدر ان يبقى غامضا. قال انه كان قد استدعى من قبل البوليس السري لنشره جريدة

طلابية في مدرسة ثانوية . وكان والده قد استدعى من المنـــزل ليقف معه ويستجوب هو أيضا . وسألته دون أن أبدي أي تعاطف معـــه : – هل عذبت ؟ هل سجنت ؟

فأجاب معترفا :

– لا ، لا شيء من هذا القبيل . ولكني روعت حـــتى الموت . لكن اعتراف امير جاء متأخرا جدا وفي نهاية جلســـات اعترافات عديدة اخرى . لم اعرف ماذا اصدق . لقد كـــــان كرديا ، كان يتجول مع الطلاب الاخرين ، وكان يتكلم الكرديـــة هذا كل ما عرفته ولم اقدر أن ادرك اكثر من ذلك . من الـذي كان قد ظفر باخلاصه المتذبذب ؟ هل هي النقود التي حملته علـى ذلك أم الخوف ام الحس الوطني الكردي ؟ اذا كان لايثق بنـــا فلماذا كان يرغب باصرار في مناقشة الامور السياسية ؟ لقـــد كانت تلك علامة سيئة في ايران ، حيث كان من المعروف ان عناصر السافات فقط يتحدثون عن مثل هذه الامور .

بقينا الآن لوحدنا ومعزولين حقا . فلم تكن هـــذه مثل الحادثة التي جرت مع السيد اسيابي . لاننا لانستطيـــع الاعتراف للناس عن نوع العلاقة التي كانت تربطنا بهذا الشـــاب فمثل هذا الاعتراف سيسبب ضررا اكثر . لم نستطـــع أن نناقشه مع امير صديقنا الحميم سابقا . لمت في نفسـي الناس الذين طلبت منهم افكار تمهيدية عن الاكراد . فكـرت في الجعفريين ، بهيئة الاذاعة ،في المدرسين في الكليـــة ، واقصيتهم جميعا عن تفكيري . كان من السهل في أمريكا الاتصال بالاكراد القلائـل الذين كانوا يقيمون هناك قبل ان اغـــادرها فقد هتفت لهم ببساطة وقدمت نفسي لهم . ولكن في ايران التـي لم تكن فيها الهواتف عمومية ، لن يجدي ان اذهب الى منـازل الناس واقول لهم انني ادرس الكردية . فبدون الاتصالات المناسبة وبدون الاعتماد على سنوات من تعزيز الثقة ، كانت وسيلـــة الاتصال وجها لوجه بغير معنى . كان مثل محاولة صرف شـــيك في مصرف في مدينة امريكية بدون " ID "

كان انعدام الثقة بيننا وبين امير مثل حدوث تصدع في الحقيقة . فمنذ الآن وصاعدا ، اصبح لكل كلمة وكل فعل معنى مضاعف وخفي . اصبحت الآن اكثر يقظة لملاحظات الناس بكثير مما كنت عليه في أي وقت مضى . فعندما اخذنا احدهم من الكلية الى المنزل بسيارته وقال في نهاية الرحلة : متى ستشترون سيارة ؟ ادركت من كلامه ان كل عنصر في الكلية يمتلك سيارة سوانا نحن، وان اعضاء الكلية الآخرين يمتعضون من توصيلنا وفي نفس الوقت يشعرون بأننا خائنون لمنزلتنا الاجتماعية لأننا ركبنا حافلة المدينة مع العمال والطلبة .

لم أعد متشوقة الى قبول أي دعوات ، لأنني لم استطع ان اميز بين الدعوات الحقيقية وتلك التي كانت مجرد حركات ايمائية وفي الحقيقة بدأ ينتابني احساس ، كلما عرض احدهم شيئا ما علي بأنه مقصور علينا فقط بقصد الازعاج . فقد كانت تلك الدعوات والابتسامات والترحيبات التي لاتعني شيئا تبدو لي مثل مضايقات بحتة .

ظهرت حواجز غير مرئية في كل الجهات ، وبدأت افقد القدرة على رؤية الاشياء وفقا لعلاقتها واهميتها الصحيحة والنسبية وأيضا الثقة التي كنت املكها يوما في مجتمع كنت اعرف كيف اتصرف فيه وكيف اجد المعلومات عندما كنت اريدها .

بدأت امطار الشتاء بالهطول ، فبدت السماء والجبال اكثر قربا ، ما جعلني اشعر وكأنني مطوقة بداخلها . ايـن كانت كردستان ؟ نظرت باتجاه الجبال حيث كان الثلج المتساقط مبكرا قد حول القمم الى اشكال مخروطية بيضاء . هل الاكراد موجودون في الجانب الآخر فقط من هذه الجبال في العراق وتركيا؟ لابل انهم هنا بالقرب مني تماما ، تحت السماء ذاتها . ينظرون الى الجبال نفسها . دأبت في البحث عن الشخص المناسب الذي سيعرفني بالناس المناسبين وعن الكلمات السحرية لأقولها والتي ستجعل الجن يظهرون .

الجزء الثاني

على تخوم كردستان

الفصل السابع

ان تكون وحيدا في ايران ، فهذا يعني انه قد حلت عليك اللعنه . في البداية سيشفق عليك الناس ولكنهم اذا ظنوا انك تتجنب أناسا آخرين عن قصد فانهم سيصبحون شكاكين حالا . على النساء - على نحو خصوصي - الا يبقين وحيدات .فكلما كان يذهب جيرد ليمارس التحدث بالفارسية مع الجيران ولم اكن معه ، كانوا يحثونه على العودة الى منزلنا لأخذي . وبعد ان اوضحت لهم اني اعمل في فترات المساء فانهم وللتحقق من هذه المعلومات ، كانوا يحدقون من نوافذهم بانذهال ، يراقبون المرأة الامريكية المجنونه والمنعزلة وهي تعمل على الآلة الكاتبة الخاصة بها .

وكغرباء فقد علمنا حالا بأنه لايمكن لنا توقع قضاء وقت مع الناس وهم فرادى . وفي كل مناسبة تقريبا كنا ندعوا فيها شخصا ماللذهاب معنا الى مكان ما فقد كان يظهر شخص آخر اضافة الى الشخص المدعو على الاقل . كان ذلك من الاسباب التي حدت بي للمضي لرؤية النساء الكرديات - حيث قابلتهن اخيرا - والذي كان يثير اعصابي . لقد كن دائما على شكل مجموعات بينما كنت انا لوحدي وماكنا نقدر ان نحدد مواعيد للقاء في محل عام اومطعم مالتناول الشاي اوالطعام . فالنساء لايرين ابدا في المحلات العامة ، وقد كن يذهبن الى المطاعم فقط برفقة ازواجهن أو آبائهن . لذلك كان امامي خياران :
آما أن اقدر على الذهاب الى منازل هوءلاء النسوة اوأن اتعامل معهن جملة ، او الا اراهن على الاطلاق .

بالاضافة الى عدم وجود والدتي او أي شخص آخر من اقاربي

ليشكل مصدا دفاعيا اجتماعيا ، كانت ثمة حقيقة مدهشة أيضـا وهي انه لم تكن بيني وبين جيرد صلة قرابة قبل أن نتـزوج كان الاكراد دائما يسألون عن هذا ، متعجبين من كيفية لقائنا كان يجب على الاقل ان نكون اقرباء بحكم الزواج وبذلك فـان قريبا لنا يمكن ان يكون قد ذكرني لام جيرد ، حتىقدرنا علـى اللقاء ضمن هذا التقليد الاجتماعي اللائق معتمدين على العلاقـات العائلية على وجه الخصوص . وبدلا من ذلك فقد التقينا لوحدنـا ، بعيدين عن عائلتنا ، وفي جامعة ذات اجواء موضوعية تماما حيث لايمكن لأحد ان يعرف كيف كان سلوكنا قبل أن نتزوج .

بعد طول انتظار ، قرر السيد خليلي ان يعرفني الـى امرأة كردية . فقد هتف الى مكتبي في الكلية لينبئني بالاخبار وليحدد موعدا لنا لنذهب الى منزلها سوية . صبرت على الانتظار بصعوبة . درّست صفوفي و اسرعت في القيام برحلات قصيرة الـى البازار ، ومضيت الى النوم ومكثت افكر طوال تلك الليلة بالمـرأة الكردية هذه .

عندما ظهرت عند مدخل غرفة الهيئة الكرمانجية فـي اليوم التالي التقط السيد خليلي الهاتف وطلب رقما واخبر شخصـا في النهاية الاخرى اننا في طريقنا اليه . لم يقل السيد خليلـي شيئا عن المنزل الذي كنا ذاهبين اليه . وكل ماكنت اعرفـه كان اسم المرأة التي تكلم معها على الهاتف وهو مريم اوبلباقة اكثر ، مريم خانم ، السيدةمريم .

دخلنا الى شارع بهلوي وقد كنت اعرفه ، وهو أحـد الطرق العاقة الرئيسية في المدينة . قادني السيدخليلي الى منـزل يقع خلف بقالية غالبا ماكنت اتعامل معها ،وصعدنا الـى الاعلى حتى وصلنا الى باب معدني ازرق باهت ودق جرسه . اجابتنا امرأة ذات وجه وردي وخصلات من شعر اشقر قد فرت من تحـت وشاحها البرتقالي الزاهي . وبعد ان اخبر السيد خليلي المـرأة

ذات الوجه الوردي من اكون ودعنا وهم بالمغادرة. حدقت بفزع في شخص ذي بذلة سوداء يتمشى بعيدا في الشارع. من سيقدمني لمريم خانم ؟ فقد احسست ان المرأة التي بالباب ليست مضيفتي ، ولكن من تكون ؟

قبل ان تتاح لي فسحة من الوقت لاصاب بالذعر امسكت المرأة ذات الوجه الوردي المبتسم بيدي وقادتني الى الداخل. اغلق الباب المعدني بصوت مكتوم ومن خلال ضوء خافت ميزت قاعة خالية من الاثاث ومعتمه وفي داخلها زوجان من الحمامات الرمادية الاليفة تطوفان ارجاء الغرفة ذات الارضية المكسوة برقاقات الفلين وهما تهدلان. وبرشاقة مدت المرأة يدها ورفعت حقيبتي وآلة التسجيل الثقيلة عن كتفي. ماكنت قد سجلت بعد شيئا منذ مجيئي الى ايران وفي الحقيقة كنت قد سننت لنفسي مبدأ بأتي لن احاول ان اسجل لأحد الى أن يعرفني ويثق بي ، مع ذلك ، حملت الالة معي وكنت قد بدأت اخشى الايعرفني احد اويثق بي. ربما كان علي ان ابدأ التسجيل كلما سنحت لي الفرصة.

وحالا اشارت الي المرأة الكردية ذات الوجه الوردي بلباسها الكردي المتألق ان اتبعها الى الاعلى. وقد كانت الدرجات هي ايضا جرداء وكانت تكسوها رقاقات فلينية وسخة مثل ارضية الرواق ، وكان يغطي زجاج النوافذ الخشن خطوط من الوحل وقد كانت مطلة على الشارع على طول بيت الدرج. وصلنا رواقا آخر عند نهاية الدرجات وكان يحتوي على ثلاجة ضخمة. ومن ثم وجدت نفسي واقفة فجأة في مدخل حجرة حيث كانت قد وضعت مجموعة من الاحذية والخفاف المطاطية فوق حصير. سمعت هسهسة فتيات ودمدمة اصوات ،وبدون أي انذار وجدت نفسي وجها لوجه امام حجرة ممتلئة بالنساء الكرديات. لقد كن جميعهن واقفات ينتظرنني كي ادخل. وبحركة غير رشيقة انحنيت لأفك رباط حذائي الطويل ،فصاحت العديدات منهن

كي لا اخلعه ولكني لم اروواحدة اخرى قد ابقت حذائها حتى داخل الحجرة وعندما دخلت بقدمي المكسوتين بالجوارب ،لاحظت ان الحجرة كانت قد دثرت وزينت كأنها علبه جواهر . ركضت احداهن الى الزاوية لتحضر كرسيا مطويا ولكني رفضت هذا ايضا فلم تكن أي منهن جالسة على كرسي .

كنت اقف وسط حلقة من السيدات ـ سيدات حقيقيات بملابسهن الطويلة الفضفاضة وطبقات من الاثواب والسراويل والجوارب القصيرة المحاكة يدويا . وفي مخدع ممتلىء بالالوان المميزة ، وكل جهة منه مزينة بمناديل محبوكة واقمشة مصنعة آليا مزدانه بالرسوم والصور . كانت مرايا وقوارير عطور متقنه الصنع ،ممتلئة بسوائل مختلفة الالوان قد احتلت مكانها فوق طاولة زينة قابعة في الزاوية . بهرني كل ذلك . كانت احداهن تدفعني الى مقعد تحت النافذة ، واندفعت واحدة اخرى الى عدة من صناديق الملابس وانتزعت من فوقها وسادة مغطاة باطلس واقحمتها خلف ظهري عندما حاولت الجلوس . رغبت بشدة في النزول لاجلس على الارض ،عندها ادركت ان كل الانتباه كان موجها نحوي وفي النهاية رتبت وضعي وفق رضاهن وبقيت احاول تغطية ركبتي العاريتين بقميصي البني القصير.كان لزاما علي الآن ان افتح فمي واتحدث . فساد الحجرة صمت منطو على توقع للحديث

قدمت المرأة الجالسة بجانبي ،المرتدية ثوبا خارجيا باهتا بلون الماء مع طبقات من ظلال اخرى من البسة زرقاء كانت تلوح من تحته ،قدمت نفسها بصوت خافت واحنى على انها مريم وببطء وهدوء شديدين شعرت انهن سيفقدون صبرهن فاجبتهن على اسئلتهن ،من اكون وماذا افعل في ايران والى اي درجة احببتها وفيما اذا كانت ايران افضل ام امريكا . لم استطع ان ازيل نظري عن مريم فقد كان لها عدد . ان ذهبية

في مقدمة فمها . كان شعرها احمر . ربما بسبب الحناء ، ولكنه كان يناسب بشرتها الشاحبة تماما . كانت عيناها اصفى وأكثر زرقة من أي الوان زرقاء في لباسها ، وكان حنكها يبرز الى الامام ، فيسم وجهها بمظهر رجالي متناسب مع هيئتها الصارمة وصوتها المنخفض . ربما انها كانت مضيفتي فقد افترضت انها صاحبة المنزل . سيقدم لنا الشاي الآن ، فالمرأة ذات الوجه الوردي آتية عبر المدخل وهي تحمل طبقا عليه كؤوس صغيرة ممتلئة بشاي أحمر بني شديد التركيز وثمة امرأة اخرى مرتدية ثوبا حريريا رقيقا احمراللون مزركشا بفراشات مزينة بنثار معدني لماع كانت قد ذهبت الى خزانة الثياب الخشبية القابعة في الزاوية واخرجت اربع علب صينية خزفية ووزعتها في ارجاء الغرفة فوق البساط . كانت العلب تحتوي على قطع من"القاند " السكر لتوضع بين الاسنان عند رشف الشاي . حدقت في كتل السكر ، محاولة ان التقط المقدار المطلوب . وفي عجلة شديدة اخترت قطعة ضخمة وحاولت بعد ذلك وبحركة غير بارعة ان اقطعها الى اثنتين . استمرت النسوة بمراقبتي وفي ثوان قليلة صرخت احداهن للخادم كي يحضر ملعقة ، فاعترضت على ذلك بحماس والحاح لدرجة ان الملعقة لم تجلب .

جعل السكر اسناني تصر عندما شربت الشاي ، الكأس تلو الآخر فكلما كنت انهي كأسا كانت الخادمة أو المرأة ذات الفستان الاحمر تأتي وتملؤه ثانية .

ـ هذه عروسي .

قالت مريم هذا وهي تضع يدها حول خصر المرأة ذات الرداء الاحمر التي كانت قد قدمت لي الشاي للتو. حدقت فيها متسائلة عما كان يعني ذلك . كنت أعرف ان كلمة " بوك " تعني العروس ، ولكن كيف يمكن أن تكون عروس مريم ؟ لم اكن اعرف بعد أن العرائس في كردستان لسن ـ ولدقة الحديث ـ خاصية ازواجهن ، بل ايضا خاصية عائلة ازواجهن وعلى نحو خصوصي امهات ازواجهن .

كنت قد قرأت أن اكثر الانماط شيوعا للزواج في كردستان هو الذي يحدث بين اولاد اخين ، مايدعى بزواج الـ " فابرودا "وهذه العادة مناسبة من وجهتي نظر : انها تحتفظ بالارض لتبقى ضمن العائلة وتهدف الى تخفيض مهر العروس الذي يمكن ان يكون مبلغا باهظا . تساءلت وانا امعن النظر في مريم وخديجة فيما اذا كانت بينهما صلة قرابة قبل زواج خديجة من ابن مريم . لقد بدتا من الناحية الجسدية مختلفين تماما ، وكان من المستحيل بالنسبة لي ان اطلق حكما عن ماهية شعور احداهما تجاه الاخرى في هذا الموقف المتسم بالرسميات البالغة . ولكني كنت قد احسست مسبقا بشباب خديجة الممتلىء حماسة وحيوية بالمقارنه مع صرامة مريم المسيطرة .

اعتبرت مريم انه من الاساسيات اخباري ان خديجة ،كنتها وهي ايضا ستساعدني في تعلم الكردية ، فقد بدت مريم متحمسه تماما لعزمي على تعلم لغتها . بينما سألتني النساء الاخريات بشغف عن حياتي الشخصية ، هل انت متزوجة ؟ اين هو زوجك ؟ هل لديك أطفال ؟ ولم لا ؟ كانت مريم قد اعدت نفسها مباشرة لمهمة التأكد من اني عرفت الاسماء الكردية لكل الاشياء الموجودة في الحجرة.

ان مدى عدم براعتي في الكردية بلغ حد سمعي . وقد كانت مريم مهذبه ولبقة جدا معي ، تنتظرني بصبر حتى اصحح اجوبتي وتكرر الاشياء اذا بدوت مرتبكة . ولكني استغرقت من الوقت دقيقة او دقيقتين اضافيتين لكي اعالج بسلسلة من التكرار حتى ابسط الجمل . وسيكون متحدثا نادرا في أي لغة ذلك الذي يستطيع أن يصمد مع هذا طويلاً . فانا نفسي كنت قد اخبرت طلابي في الكلية بأنني لن ابطىء في كلامي اليهم لان ذلك لن يكون انكليزية حقيقية .

ولكن هؤلاء النساء الكرديات ـ ولا أظن أن أي منهن كانت قد خاضت ليوم واحد تجربة تدريس رسمي في حياتها ـ كن

صابرات بما فيه الكفاية ليتحدثن لي بكردية دقيقة .

كنت استخدم الرموز اللفظية لأنسخ كل الكلمات التي علمتني اياها مريم ، وآلة تسجيلي تقبع عاطلة عن العمل . ارادت احدى النساء الحاضرات أن تعرف اذا كان بمقدوري فعلا أن انطق الكلمات الكردية تلك بنفس الطريقة التي من المفترض ان تلفظ بها . قرأت عليهن الكلمات التي كنت قد دونتها واحده تلو الاخرى. دمدت النسوة فيما بينهن فقد لاحظن أنني لم أكن استخدم الالف باء الفارسية . كيف كان للالفاظ ان تخرج بهذه الدقة بأحرف آجنبية غريبة ؟ لقد كنا قد شاهدنا آلات التسجيل من قبل ، لقد كانت الكتابة كتدوين ورسم للصوت هي التي ادهشتهن . فبقدر ماكن يعرفنه هو أن لغتهن لايمكن أن تكتب . فهي لم تكن تستخدم في المدارس ، ولم يكن ثمة قواميس قياسية للتهجئة . بدأت النساء تدريجيا بتقليل الحديث معي والتحدث مع بعضهن البعض آكثر . كنا قد ارهقنا انفسنا ببذل الجهد للابقاء على التواصل . لم يكن هناك الحاجز اللغوي فقط لنقاومه ، بل ايضا كان الحاجز الثقافي موجودا فحتى هذه اللحظة كان بمقدورنا فقط ان نجلس ونطرح على بعضنا البعض الاسئلة . كان قد هالني ضخامة عددهن لذلك لم آسالهن عن شيء سوى لغتهن . ولكن على الرغم من فترات الصمت الذي سأتقبله على انه امر سوي عندما نعرف بعضنا على نحو أفضل فقد استمر التواصل . لقد سمح الوقت لهن أن ينظرن الي بانتباه ويبتسمن ولكن خديجة كنة مريم كانت تبتسم لي ابتسامة عريضة باستمرار تقريبا . تخيلت حماسا مسليا في هاتين العينين الرماديتين المطوقتين بالكحل الاسود ، وتمنيت لو أنني مع خديجة لوحدنا ، لم تكن صعبة مثل مريم ، وحنكها لم يكن يبرز الى الامام ولم تكن تلفت النظر ببشرتها المكسوة بالبثرات وأنفها المعقوف . وقد بدت لي أكثر الموجودات ودا وأكثرهن امكانية في الوصول اليها ممن في الحجرة . وبطريقة ما وبدون أن أعرف ، خالجني شعور بالرباط المشترك بيننا . فقد كانت خديجة العروس الجديدة لا تزال غريبة مثلي في هذه الحجرة .

مضى بنا الوقت والشاي لايزال يقدم ، ولم تكن لدي أدنى فكرة عن كيفية وقت التدفق الذى كان ينصب في كأسي . أبصرت اشعاعات ضوء الشمس تميل بشدة أكثر فأكثر صوب الحجرة جاعلة نثار الألوان أعمق وأكثر تنوعا عندما بدأت أتأمل الساعة الضخمة التي تعمل بقوة البطاريات وهي تدق على الحائط ، لقد مضت ساعتان فقط منذ وصولي . ولكن التعب قد أنهكني ورأسي يضج بغمغمات مختلطة بسبب الكافيين الموجود في الشاي . كيف يمكن لي أن استأذن الرحيل ؟ بدأت أشعر بالقلق حول الكلمات التي سأحتاجها لاخلص نفسي بأدب من هذه الحجرة التي بدأت تعتم وترتفع حرارتها وتحبس الانفاس أكثر ،وعلى نحو غير بارع اندفعت واقفة بعجلة فسألت مريم متوقفة في منتصف محادثة أخرى كانت قد بدأتها .

ـ ماذا تفعلين مارغريت خانم ؟

ـ على أن أذهب الى المنزل الآن .

قلت ذلك بطريقة غير متقنة ، مدركة على نحو متأخر بأنه لن يكون لي ثمة مخرج لبق . ببساطة لم أكن أعرف كيف أجد لي مخرجا . وصاحت بعض النسوة الأخريات :

ـ ابق ، ابق .

وكررت مريم قائلة :

ـ نعم يجب ان تبقي .

فقلت :

ـ ولكن علي أن اذهب الى المنزل لاجهز الطعام .

فأجابت مريم :

ـ تناولي غذاءك معنا .

ـ ان زوجي ينتظرني

ـ اذهبي وأحضري زوجك لتناول الغذاء .

هل كن جادات في دعوتهن رجلا ؟ اين سينتهي تعقيد هذه الدعوات ؟ لم تبد الدعوات وكأنها من ضمن نظام الشكليات

ولكن ماذا اعرف عن ذلك ؟ وككل مرة أغريت بالقبول . ولكنني كنت قد تعلمت اخيرا واخذت درسا،لن اقبل أي دعوة اخرى ثانية أبدا بمعناها الظاهري .

ـ شكرا جزيلا . ولكن علي أن اذهب .

قلت ذلك شاعرة بالابتسامة وقد ارتسمت على وجهي ، عرفت انهن قد قبلن رفضي ، لان جميع النساء قد نهضن الآن في دمدمة وصخب عظيمين . اجلت بنظري باهتياج شديد في ارجاء الحجرة راغبة في اخذ آلة التسجيل والذهاب بسرعة كي لأيمضين في الوقوف أكثر . ارجعت خديجه جهازي الي قبل ان اطلبه ومن ثم تبعتني الى خارج الحجرة . وقبل ان نقدر على النزول عائدتين معا فوق الدرجات حتى الباب الامامي ، كان علي ان انحني ثانيا عند ربط حذائي الطويل الذي كنت قد تركته فوق الحصير . جميع النساء الموجودات في الحجرة لبثن واقفات يودعنني مرات عديدة قبل أن اعتدل في وقفتي وعند الباب في الطابق السفلي ناولتني خديجة حقيبتي ومسجلتي وودعتني بأمنيات طيبة .

خرجت الى ظلمة اول الليل الكئيبه . كان الرجال ببذلاتهم الغامقة الرثة يسرعون الى المنزل بعد عودتهم من العمل ، بينما كانت النساء المحجوبات عن النظر بأغطيتهن السوداء ينتقلن من دكان غذاء صغير الى آخر ، وهن يدسسن سلالهن تحت عباءاتهن . كانت الالوان الحيوية لفترة بعد الظهيرة قد تلاشت ولكني عندما التفت ورائي ونظرت ، رأيت خديجة بفستانها الاحمر ولفاعها البرتقالي تتكئ خارج مدخل المنزل مثل جنية وقد انبثق نصفها من المصباح .

اكدت لي مريم ، اجابة على اسئلتي الخرقاء أنها سعيدة لمساعدتي في الكردية . فعرفت انه علي العودة الى منزلها حالا لكي احملها على المشروع في تنفيذ عرضها ولكني ترددت.كانت هذه هي اتصالاتي بالمجموعة الاولى والحقيقية للنساء الكرديات ،اللواتي

كن يقمن على بعد نصف دزينة من المباني من منزلي ، وقد كن ودودات ومرحبات بي كأي مجموعة من الناس كنت قد القيت بها ، ومع ذلك فقد كنت اخشاهن . لربما انهن قد ابدين اللباقة فقط . فمن المؤكد أن لديهن اشياء افضل للقيام بها بدلا من الجلوس طوال فترة بعد الظهر يحتسين الشاي ويعلمن الكردية لأجنبية . لقد كانت الفكرة الاخيرة هي التي اوقفتني واستمرت في توقيفي لأشهر ، الى ان ادركت ماذا تفعل نساء الطبقة العليا الكردية حقيقة في ايامهن ، مع او بدون امرأة غربية تراقبهن .

وبقليل من التشجيع من جيرد ، قررت ان احمل نفسي الى المنزل في شارع بهلوي بعد عدة ايام ، حيث وجدت مريم جالسة مع امرأتين اكبر سنا منها في مهاباد . لم تكن الحجرة محتشدة مثلما كانت في يوم الاول .فبا لاضافة الي والى خديجة كانت هناك اربع نساء اخريات . كان لباس النساء المهاباديات يختلف عن لباس مضيفاتي . فقد كن يرتدين سترات قصيرة واحزمة عريضة ملتفة عدة مرات حول خصرهن مما تجعل اجسادهن تبدو ممتلئة اكثر مما هي عليه .

بالاضافة الى الاختلافات الواضحة في اللهجة بين الكرمانجية الشمالية والسورانية الجنوبية ، يمكن التمييز بين الاكراد بسهولة في لباسهم وخصوصا النساء . ان التقسيم الشمالي والجنوبي للعادات واللغة الكردية ينقسم في جزئي العراق وايران بينما يتكلم جميع اكراد تركيا ، سوريا ، الاتحاد السوفياتي الكرمانجية . وعلى الرغم من أن القوميين الاكراد يرغبون في قول أن هذه الاختلافات تافهه فقد ابدى العديد من الاكراد الشماليين ملاحظاتهم لي بوضوح ،وهي ان لباس النساء الكرديات الشماليات هو اكثر جاذبية لان النساء الكرمانجيات لايفعن الاحزمة الضخمه حول خصورهن ، وزيهن يعطيهن مظهر ساعة رملية جذاب . ولكن حتى ولو ان الاكراد الشماليين يأتون في المقدمة في اسلوب زيهم ومن الناحية اللغوية فقد لحقهم الضرر في العراق على الاقل ، فعلى الاطفال جميعهم في كردستان العراق ان يتعلموا القراءة بالسورانية على الرغم من

حقيقة انها بالنسبة للبعض مختلفة جدا من الكردية الشمالية المحكية في المنزل . لقد بذلت جهدا بالغا لفترة ، لفهم نبرات هؤلاء النساء المهاباديات . هذه المرة قامت خديجة الجالسة بجانبي بأشياء اكثر من مجرد الابتسام بصمت . فقد التقطت خصلات من شعري وابدت اعجابها بها . وثم امعنت النظر في وجهي واعلنت بصوت عال :

ـ اليست مارغريت جميلة ؟

كنت صامته ولكن بدا أن خديجة كانت غير منتبهة الى ارتباكي على الاطلاق ، واستمرت ـ في شرود ذهني ـ تتلمس شعري وتنظر الي كما لو أني طفلة . لم تبد مريم والمرأتان المهاباديتان متحمسات جدا ، بعد اسراف خديجة في التعبير عن عاطفتها . ولكنهن لم يكن غير ودودات ايضا . ارادت المرأتان المهاباديتان مثل كل ضيفات مريم ، ان تعرفا التفاصيل الاساسية : ماذا كنت افعل هناك ، الى أي درجة احببت ايران وفيما اذا كنت متزوجة أم لا ، وما ان تحول الموضوع عني هذه المرة وكنت قد شربت ثلاث او اربع كؤوس من الشاي ، قررت المغادرة . احثتني مريم على البقاء ولكن ليس بالاصرار الذي عهدته في المرة الاولى ". مضيت بعيدا متسائلة عن حقيقة شعورها تجاه زيارتي غير المتوقعة . تركت اسبوعا أو اكثر يمضي قبل أن اذهب الى منزل مريم للمرة الثالثة . رحبت بي خديجة كنّة مريم في عصر اليوم الذي عدت فيه اخيرا الى المنزل الواقع في شارع بهلوي . تمنيت أن تكون خديجة لوحدها لنقضي فترة العصر في الحديث لوحدنا لدى وصولي الى مدخل حجرة جلوس النساء في الطابق الثاني. فقد كانت الحجرة محتشدة بالضيفات . ترددت في الدخول ولكن خديجة كانت ورائي تدفعني برفق لداخل الحجرة . وعندما انحنيت بحركة غير رشيقة لأفك رباط حذائي الطويل ، نهض جميعهن عدا امرأة ذات عكاز خشبي كان الى جانبها .

ـ " تـه خير هاتي يـه " قدومك سعيد .

رحبت بي جميعهن في انسجام فاسرعت في الجلوس في المكان الذي

اشرن اليه ليجلسن هن أيضا . كانت جارتي هي المرأة المقعـــدة .
كنا انا وهي الوحيدتين المزودتين بالبطانيات والوسائــــد ،
والاخريات جميعهن كن يجلسن على البساط المجرد من أي اثاث .

عرّفتني مريم الى كل امرأة باسمها ، وحاولت ان اتذكرهن
من لباسهن وملامحهن ولكن كان من الصعب التركيز على أي شيء وأنـــا
اعرف بأن جميعهن كن يحدقن ويتهامسن مع بعضهن البعض بأحاديث
عني . قُدم لنا الشاي ، وبعد ان سُألت الاسئلة المألوفه عما اذا
كنت قد احببت ايران ام لا ، وهل لدي زوج واطفال ام لا . عــادت
المحادثة الى مجراها الطبيعي . كان العديد من النساء حاضرات بحيث
لم يكن باستطاعتهن الجلوس بصمت بينما تلقي احداهن على الاسئلة .

بينما كنت احتسي الشاي بصمت محاولة ان التقط كلمــة
من هنا وهناك دخلت الى الحجرة امرأة نحيفة ذات بشرة شاحبــة
جدا وشعر اسود .
ـ مارغريت هذه زينب . لقد عادت لتوها من طهــران
بعد ان عالجت اسنانها .

ابتسمت لي المرأة ، فلمحت لمعان الذهب في فمها .وحالما
بدأت مريم بالحديث مع امرأة اخرى التفت الى جارتي وسألتها :

ـ من هي زينب ؟ هل هي اخت مريم ؟

فنظرت الي المرأة ذات العكاز الخشبي غير مستوعبة ومن ثم بـــدأت
بالضحك وقالت :

ـ انها زوجة الحاج .
فزعت لدى ملاحظتي ان ضحك المرأة المقعدة كان قدركز انتبـــاه
جميع الضيفات على محادثتي . فكررت باندهاش :

ـ الحاج ؟

الحاج هو اللقب الذي يطلق على الرجال الذين أدوا فريضـــة

الحج . " رحلة الحج الى مكة " . صاحت امرأة جالسة في نهاية الحجرة :

- حاج اسماعيل طبعا .

كانت النساء جميعا يراقبنني في هذه اللحظة . كن قد عرفن ان هنالك غريبة في وسطهن ولكنهن ماكن يعرفن كم كنت جاهلة . سألتني احداهن :

- الا تعرفين من هي زينب ومريم وسوسن ؟

هززت رأسي منفية ذلك . وقالت اخرى :

- انهن ضرائر " هفي " .

لاحظت أن النساء الثلاث المسميات كن صامتات وقد تركن الاخريات يوضحن . كتبت كلمة " هفي " في د فتر ملاحظاتي ورفعت رأسي . قالت احداهن :

- جميعهن متزوجات من الحاج .

فضحكت النساء باضطراب هذه المرة كما لو أنه لم يكن من الصواب تماما التحدث عن الحاج . سألت زينب :

- الا يتخذ الرجال في امريكا اكثر من زوجة ؟

فأجبتها :

- هناك قانون يمنعهم من ذلك .

وشرعن في الحديث معا مرة أخرى . وسمعت المرأة المقعدة تقول لجارتها :

- لقد اخبرتك أن امريكا مكان جيد .

كنت لا ازال افكر بما اخبرتني به . من كان الحاج اسماعيل؟كنت قد لمحت اليوم مجموعة من الرجال يمرون بجانب الباب ولكنهم بدوا عابرين وكأنهم ليسوا مقيمين هنا .

اعتقدت اني عدت الى كوني غير منظورة ، ولكن احداهن

بدأت بالتحدث معي وقالت :

ـ مارغريت هل صحيح انك تريدين تعلم لغتنا ؟

اجبتها :

ـ نعـــم .

وعلقت احداهن :

ـ لقد زارت عائشة انكلترة .

سألتها بلهفه :

ـ هل تتحدثين الانكليزية ؟

فأجابـــت :

ـ ليس تماما ولكني اريد تعلمها وسأعلمك الكرديـــة . تعالي الى منزلي اي يوم .

ـ شـــكرا .

اجبت بذلك متسائلة فيما اذا كانت تعني ماتقوله فهـــي لم تعطني عنوانها . بدأت بالنظر الى عائشة بتفحص اكثر عنـدمـا شرعت بالحديث مع امرأة اخرى . كان فستانها الاخضر الفاتح ذو القماش الشفاف المزين بخيوط فضية وخاتمها الزمردي واقراطها الذهبية الضخمة المتدلية ، كلها كانت رائعة . لم تبد الالوان المبهرجـــة والنظارات الملونة المؤطرة بالذهب الحقيقي زيها المعتاد . سألتنـــي المرأة المعقدة :

ـ هل ستذهبين الى منزل عائشـــة ؟

لم أكن أعرف أن هذه أم عائشة .

ـ لاأعــرف .

قلت ذلك على نحو غير بارع . فأكدت لي عائشة :

ـ تعالي رجاء فانا لست مشغولة جدا . انا مثلـــك ليس لدي اطفال .

فسألتهاوقد تملكتني فكرة اني لا استطيع ان اطلب منها ببســاطــة ان تتحدث معي الكردية ولا اعطيها شيئا بالمقابل :

ـ هل بامكاني ان اعلمك الانكليزية ؟
ـ حسنا .

قالت عائشة ذلك ، فقهقهت النساء المحيطات بها . وقالت احداهن بصوت ساخر :

ـ لايمكن ابدا ان اتعلم الانكليزية . ولكن طبعا زوج عائشة رجل متعلم جدا . انه دكتور .
فسألت المرأة :

ـ ماهي اللغات التي تتكلمينها .

فأجابت :

ـ الكردية ، طبعا والتركية والفارسية .

فقلت مبدية اعجابي :

ـ انت تتكلمين ثلاث لغات . بالتأكيد تستطيعين تعلم الانكليزية .
فاعترضت المرأة وهي مرتبكة :

ـ لا ، لا اعرف الكتابة .

بدا هذا التجمع ضخما على نحو غير مألوف وقد بدت مريم غريبة في سترة فراء قديمة فوق لباسها الكردي ، وعندما خطر ببالي ان أسال عن المناسبة اكتشفت ان مريم كانت تستعد لمغادرة المدينة لتقضي الشتاء في قريتها . شعرت بالخيبة على نحو فظيع فمريم ستمضي الى قرية ما ، ولن اقدر على رؤيتها ثانية ، وكل ذلك لايحصل الاعندما بدأت اعرفها . راقبت المرأة التي زودتني بهذه المعلومات ردة فعلي بانتباه فسألتني :

ـ تظنين انه على مريم الاتذهب الى القرية ، اليس كذلك.
نظرت اليها مجفلة ، كيف كان لها ان تعرف مايدور بخلدي ؟
بعدئذ ابدت المرأة اقتراحا :

ـ اذا ذهبت مريم الى القرية فان زوجها سيبدأ بالبحث عن زوجة اخرى .

عندئذ غمر الضحك معظم الموجودات في الحجرة ، ولكنـــــــي كنت قد اضطربت ، ماذا كانت النكته ؟ من هو زوج مريم ، وهـــل صحيح انها ستغامر بفقدانـــــه بذهابها الى القرية ؟ اين يسكن ؟ قالت لي مريم عند نهاية فترة الظهيرة تقريبا :

ـ اود أن تعلمي ابني الانكليزية هذا الشتاء .

أومأت برأسي متحمسة . فالآن ستتوفر لدي حجة جيـــــدة للعودة ،لأن ابن مريم كان طالبا في الثانوية وسيقضي الشتاء فـــي المدينة . وفضلت فكرة مقايضة الانكليزية بالكردية معه ومع عائشة على غموض الزيارة من أجل الشاي . وعندما علمت ان رحيما ، الابـــن سيكون في المنزل خلال ساعة انتظرت واحتسيت ثلاث كوءوس من الشـــاي وبعد الكأس الثالثة وضعت كأسي على جنبها ، فعلت ذلك ، كمافعلـــت النساء الاخريات تماما . وعندما قامت زينب لتملأ كأسي ثانيـــة ضحكت ، فلفتت انتباه صاحباتها لكأسي المقلوبة وبعد ذلك ولتكـــدر مزاجي سوت الكأس وصبت لي المزيد من الشاي . تركته هذه المرة ببساطة وبعد مضي فترة على صحبتي مع الاكراد عوملت كأسي المقلوبـــــة كالبقية تماما .

عندما غادرتنا بقية الضيفات ، قادتني مريم الى حجـــرة النوم التي كنا قد جلسنا فيها خلال زيارتي السابقة لمنزلها . نهض صبيان وسيمان بعيون زرقاء وحنكين يشبهان حنك امهما اثناءدخولي. صافحني طه ، الولد الاكبر ونظر في عيني تماما عندماتعرفنا علـــى بعضنا ، ولكن رحيما حدق في الارض رافضا أن يسلم بوجودي . وبمـــا ان رحيما لن يكلمني فلم تكن هناك وسيلة حتى لتحديد موعد لأخـــذ الدرس . بعدئذ التفت الى طه سائلة اياه فيما اذا كان يرغب فـــي مبادلة الدروس الانكليزية بدروس في الكردية ، ولكنه ضحك وكمـــا لو اني قلت نكته .

بعد ذلك تكلمت مريم مع رحيم بسرعة وقد استمر بتجنـــب نظراتي . في وسط ارتباكنا المتبادل سمعت صوت جلبة في خارج الحجرة .

فقد كان جرس الباب قد رن في الطابق السفلي وبعد ذلك بدقيقة رأيت جيرد يدخل الى الغرفة . وفجأة اندفعت كل النساء اللواتي كن قد بقين واقفات الى غرفة اخرى ، وهن يقهقهن وقد رفعن لفاحاتهن فوق افواههن .ولكن مريم بقيت مسمرة في مكانها ولم تبرحه ، عرّفت جيرد عليها ،وبعد ذلك حان وقت الرحيل . تمنيت لمريم قضاء شتاء طيب ،واجابتني هي بدعوتي لزيارة قريتها ، ولكن لم يكن لدي اي فكرة عن موقع تلك القرية ولم يكن هنالك متسع من الوقت لأسألها عن ذلك .

مع رحيل مريم شككت في الترحيب بي اكثر من أي وقت مضى، وقد فكرت في نفسي مليا وناقشت مع جيرد امر تصواب العودة في هذا اليوم او ذاك . وكالعادة نجحت في ايجاد عمل اشغل نفسي به . واخيرا وبعد أن تخلصت من كل الاعذار يطردها ، وجدت نفسي في مواجهة الباب المعدني الازرق .

هذه المرة ، لم تكن مريم وحدها هي التي ذهبت بل خديجة ايضا كانت قد اختفت ، والمرأتان اللتان وجدتهما - زينب ، ضرة مريم ، ونادية كنة مريم الثانية - كانتا تضحكان ضحكا نصف مكتوم عندما اخبرتاني ان مريم قد اخذت خديجة على مضض الى القرية ، لتقوم بعمل ما ، كما قالتا . لم استطع التخلص من الانطباع الذي حدث لدي انهما كانتا تهزآن مني ومن خديجة أيضا . وعندما جلست معهما ، ادارت زينب عجلة آلة الخياطة اليدوية بينما ارضعت ناديا ولدها ذا السنة الواحدة ، القبيح الى حد لافت للنظر ، حيث كان ذا رأس ضخم حليق . كانتا تتحدثان الى بعضهما بسرعة وكان من الصعب علي ان التقط أي شيء مما كانتا تقولاته ونادرا ما تنظران الي . وبين حين وآخر كنت ابذل جهدي لكي انضم الى محادثاتهما ، فكانتا تنظران الي وكما لو انهما تحاولان كبح ضحكة . ازدادت شكوكي المضطربة وتنامت الى حد لم اعد استطيع معه ايقافها اكثر ، فمضيت الى المنزل ببطء ، وكنت اقف لأنظر في نوافذ الدكاكين دون أن ارى حقيقة أي من البضائع المعروضة محاولة ان اجد معنى لهذا اللقاء الاخير المحير .

كنت قد احسست بالانقسامات والولاءات في عائلة مريم قبل ان اعرف عنها أي شيء بوقت طويل . فكنتا مريم ، كلتاهما كانتا دخيلتين . فهما لم تكونا من نفس العائلة كمريم وزوجها فقط، بل أيضا لم تكونا من نفس القبيلة . لقد كان اختيار خديجة مستحسنا فقد كانت هنالك مصاهرة مسبقة بين عمها وابنة زوج مريم ،قد مهدت الطريق للدخول في مفاوضات الزواج بين عائلتها وعائلة طه : اما زواج ناديا فكانت له قصة مغايرة تماما .

بالرغم من أن الخطيفة هي اسلوب مقبول للزواج في كردستان فان ذلك لم يسعد مريم عندما هربت ناديا مع ولدها الثاني الاكبر مسعود . لم تكن هنالك مفاوضات ولا احتفالات ولاموافقة الوالدين المسبقة . لقد كان ذلك من خيار العروسين نفسيهما ولكن كان على ناديا اكثر من مسعود أن تتعايش مع هذا الخيار . وقد سمعت مريم تعلق مرة وبعدم رضى بأن مسعود لم ينه دراسة الثانوية ابدا بسبب هذا الزواج المبكر ، فقد كان لايزال في السن السادسة عشر بعد . وبما انه ترك المدرسة فقد اضطر للعيش على نحو دائم في القرية مع زوجته الجديدة . هذا يعني ان ناديا كانت خادمة مريم على نحو رئيسي ، بشكل مغاير عن خديجة حين التقيتها . كانت تقوم باعداد كل الوجبات ، تجثم لساعات بالقرب من مراجل معدنية ضخمة موضوعة على نار حامية .تكدس اوراق العنب بين الملح لحفظها في قدور ضخمة، وتخلل تشكيلة من الخضار للشتاء . وبالاضافة الى كل اعمالها الروتينية التي كانت تقوم بها لحماتها فقد انجبت اربعة صبيان على نحو متتال وسريع . لقد كانت ناديا معروفة بلسانها السليط وذكائها الحاد بالاضافة الى جمالها . كانت تثير اعصابي عندما لم أكن اتحدث الكردية جيدا بأجوبتها السريعة والبارعة وضحكها الساخر . ولكني موءخرا تمنيت لو انه كان بمقدوري ان اعرفها اكثر .

على الرغم من اني كنت اشعر انه لا اصدقاء لي ، فقد كان

بعض افراد عائلة مريم يوجهون لي الدعوات للقيام بزيارتهم في ذلك الحين . لقد كانت خديجة الكنة المختارة ، زوجة الاخ الاكبر، ونادیا كانت الهاربة . كانت مريم الزوجة الثانية للحاج ، وزينب كانت الثالثة . هؤلاء النسوة كن يقضين الايام والاسابيع وحتى الشهور معا في نفس المنزل في المدينة . اما في القرية ــ وكما علمت فقد كانت كل واحدة منهن الشريكة الرئيسية للاخرى . ومع ذلك فقد كن دائما يتنافسن ، ويحاولن ان يحصلن على النصيب الاكبر لأنفسهن ولأولادهن . وكن يحرصن بشدة على ممتلكاتهن وصديقاتهن ، وحتى المعارف الامريكان الغرباء . وبالنتيجة لم يعد لدي صديقات مع رحيل مريم وخديجة . كانت هنالك مشكلة الحضور الدائم للمجموعة مثلما كان الحال في محطة الاذاعة . فقد بدا أن أي واحدة لاتفعل شيئا بمفردها ولكن كيف يمكن لأحد ان يتعلم الكلام في ميدان كهذا سوى طفل صغير ؟ لقد ترسخت لدي قناعة بأنني محتاجة لأن اجد شخصا واحدا كمدرس ، لأجلس معه كل يوم وادرس معه الكلمات والقواعد الكردية على نحو ابذل فيه كل جهدي .

كان علي أن ادرك الدور الذي لعبته ثقافتي الخاصة في هذا القرار . فقد كنت محتاجة الى بنية معينة . احتجت لأن اعرف وفق أي نظام كان يعمل الاخرون ، ببساطة لم اقدر أن افهم ماذا كانت تفعل النساء الكرديات في حياتهن ، ومتى كانت ساعات الفراغ وساعات العمل لديهن ، متى كن مستعدات لاستقبال الضيفات بابتهاج ومتى كن يرغبن في المكوث لوحدهن . ولشعوري بالتطفل عليهن بطريقة ما ، وبوقف سير حياتهن الطبيعية فقد كانت تنتابني نوبات انزعاج لدى وجودي معهن . اتمنى لو أن لي عرّابة كردية . جنية لتأتي وتخبرني ان معظم العالم لايعيش وفق برنامج ثابت . ولكن حتى في القصة الكردية المتكافئة مع " سندريلا " ليس هناك عرابة جنية بل مجرد بقرة حمراء . ولم تكن لدي بقرة حمراء بل فقط مفاهيمي الخاصة المسبقة ، لذلك واكبت بحثي " وفي النهاية نجحت في ايجاد كردي يعمل وفق برنامج محدد ، وقد شغل مكانا مناسبا في جنب من جنبات هذا العالم ، مثلما كان الامر معي تماما .

الفصل الثامن

كنت قد اندفعت عبر بوابة الساحة الواقعة امام الكليـــة ، وكانت هذه هي المرة الثانية التي أصل فيها متأخرة ،فقد كان مدرسي المتوقع دارا احمدي قد حضر ليرى العميد هذه المرة شخصيا ولكنـه كان قد ابعـد .

علق الحارس وهو ينظر الي غير مصدق :

ــ قال ذلك الصبي انه قد جاء ليعلمك الكردية .

ظهر دارا ثانية بعد برهة قصيرة عند البوابة وقد ادخلـه الحارس على مضض الى حرم الكلية ،"فقط هذه المرة " . كان العميد قـد اوضح تماما انه لايريد ان يرى دارا هنا ، ولم يكن يُسمح لأحـــد مهما كان مهمّا ان يتجاوز البوليس عند البوابة بالدخـــول دون اذ ن العميــد .

هل كان لزاما على دارا ان يخبر الحارس انه قد اتـــى ليعلمني الكردية ؟ ماكنت سأفكر مرتين بتصريح كهذا في امريكـــا، ولكن في امريكا لم يكن لديهم بوليس مسلح لصد الجواسيس والمشكـوك في كونهم ثوارا عند بوابة كل كلية وجامعة .

لم يظهر معلمي اي انطباعات سيئة عن زيارته القصـــيرة للعميد . لقد مشى بمرح يدل على التصميم وقد بدا اكثر حزما ببنطاله ذي النقوش المربعة والمكوي بشكل جيد ، وسترته القطنية الزرقاء الاليفة وقد ارتداها فوق كنزة جيرسيه صفراء ذات ياقة ضيقة . لم أكـــن اتوقع ان تكون له مثل هذه الخدود القرمزية اومثل هاتين العينيـــن

البنيتين الهادئتين . لم يكن يشبه ابـــن اخته على الاطلاق ، السيد حق زاده الجدير بالاعتماد عليه بابتسامته العريفة بافراط والتـــي تكشف عن اسنان بارزة وعينين ضيقتين متحركتين باستمرار فـــي جميع الاتجاهات . اما عينا دارا فقد كانتا واسعتين ، وكانـــت تعابير وجهه يقظة وهادئة . وطبعا فكرت في نفسي انه لايمكـــن لنظراته ان تكون مخادعة مثل نظرات ابن اخته . فالسيد حـــق زادة ،لم يكن مخادعا البتة . كان ابن اخت دارا اكبر من خالـــه بخمس سنوات وكان واحدا من تلاميذنا القلائل المهتمين فعـــليا بتعلم الانكليزية . كان السيد حق زاده قد الزم نفسه طوعيـــا بالبحث لي عن متحدث باللهجة الكردية الشمالية . فمن بين جميـــع الناس الذين سألتهم كان هو وحده قد اثبت نجاحه في ايجـــاد شخص . وقد اثار ذلك دهشتي لانه كان تركيا وليس كرديا . فـــي عزلة في مكتبي عرّفت نفسي بكتابة اسمي فوق اللوح الاسود . وقـــدم دارا نفسه بدوره على انه السيد احمدي بأن كتب اسمه الاخيـــر فقط على اللوح بجانب اسمي الكامل . لايقدم الناس في ايـــران انفسهم بالالقاب ، فاضافة اللقب الى الاسم الاخير يقع على عاتـــق الشخص الآخر . كنت مسبقا قد ناديت معلمي بدارا واشرت الى نفسـي بمارغريت ولأنني قد اعتزمت الا يوجه الي اتهام بأني اتصرف بلطـف ولكن بطريقة اظهر فيها شعوري بالتفوق تجاه الشـــباب الاكـراد. بعدئذ حُدد طابع واتجاه دروسنا ـ لقد كان ذلك السيد احمـــدي. وعندما اثرت مسألة النقود ، فقط لاحت مسحة ضئيلة من الارتبـــاك على وجه دارا ولاشيء من ذلك المشهد الذي كابدناه لدى تسوية مسألـــة راتب طباخنا عزيز ، فقد تبادلنا آنذاك الآراء وناقشناهـــا ـ وعزيز يصر خجلا انه لايستطيع مناقشة المسألة معنا . فاعطنـــاه جيرد النقود ، لكن عزيز حاول ان يرجعها لنا بالحاح شديد. وكـــان ذلك يشير فقط الى العادات الشكلية السائدة على نحو حاسم . أمـــا مع دارا فقد سويت مسألة النقود ببساطة اكثر، فهو لم يناقش السعـر الذي حددته وهو دولار ونصف الدولار عن كل ساعة ، ويقدر ذلـــك

بحوالي نصف مايتقاضاه عامل بناء في ريزاي لمدة عشر ساعات من العمل في اليوم . اومأ برأسه موافقا ببساطة وابتسم ابتسامة خفيفة وبعد ذلك بوقت طويل ابلغني عن مدى اهمية تلك النقود له ولأمه الارملة ، التي تقيم في قرية يتعذر بلوغها ، بعيدة عن أي فرصة لكسب ايراد نقدي .

قضيت ساعتي الاولى مع السيد احمدي في مكتبي ونحن نسجل حكاية خرافية ذات مغزى عن شيخ كان يعد صيصانه قبل ان تفقس او على نحو ادق كان يحسب مقدار سمنته قبل أن تمخض . وفي كل يوم ولاسابيع متتالية كان على دارا ان يحكي لي قصة جديدة لأعمل فيها او اترجمها . وعندما شعر بخطر نفاذ القصص عاد الى قريته وحصل على المزيد منها من والدته . وقد ادركت مباشرة كم كانت القيمة التي ادفعها رخيصة ـ ليس فقط لمعلم دقيق ومنتظم يجلس بأناة ويجيب على كل اسئلتي عن طريقة استعمال الالفاظ الكردية ولكن ايضا للحكايات الشعبية الكردية وحكايات الجان جميعها التي لا تقدر بثمن .

انتهيت مع دارا في ذلك اليوم ، وانا اشعر بابتهاج غامر ولكن ساورني شعور بالخشية من تلاشي هذا بطريقة ما . حددنا موعدا للقاء المقبل . ومشى دارا بخطى واسعة نحو البوابة ومر بالحارس الذي كان يحدق فينا بينما كنت واقفة خارج مبنى حجرة الدراسة والآن حان الوقت لمواجهة العميد بسلوكة المستبد . وبعد المكوث لفترة كافية لاثارة الاعصاب . في حجرة الانتظار ، ادخلت الى مكتبه . نظر الي العميد من خلف واجهة مقعد ذي جلد اسود اصطناعي مزغب وقد التوت ملامحه المنغولية البارزة باتجاه الاعلى بقدر ماتستطيع لتبدو ودية . من الواضح أنه لم تكن لديه فكرة عن سبب مجيئي ، وعندما اخبرته، عقد حاجبيه وقال بحذر وحرص :

ـ لانستطيع السماح للمدرسين في هذه الكلية ان يستغلوا

اوقاتهم بتعلم لغات مثل " التركية ".

فصححت له :

ـ الكردية .

بدا العميد وكأن صبره قد نفذ . لقد جاء من الجزء الشمالي الشرقي من ايران قرب مشهد . البعيدة عن ريزاي واختلافاتها العرقية الخاصة . ولكونه متحدثا بارعا بالفارسية ومتوسط الجودة بالانكليزية فلم يكن يسنح له وقته لادراك الفرق بين لغة غير مميزة وواضحة واخرى . وكما هو واضح تماما ليس لديه الوقت ليبالي باهتمامي بها . مضيفا في الحديث ومقلا احيانا، واخبرته بأنني لغوية ولذلك فان اللغات الاجنبية بالنسبة لي هي كالمواد الكيمياوية والمختبر بالنسبة للكيميائي ، ولكنه لم يقتنع بشيء من هذا كله . فالقدر الذي يتعلق به هو ان اقتصر على تدريس الانكليزية فقط . على الرغم من اني ادركت اني قد غلبت ، فقد اجبرته على اعادة تأدية رقصة الشكليات العشائرية المتسمة بالاعادة من جديد وذلك بأن يعطي الاسبقية لشيء ثانوي بينما يبقى العنان بيد المرء دائما .

واخيرا وبعد أن تعب من تأكيداتي وحججي الدفاعية المصرة قال على نحو خال من المنطق وبشكل مدهش :

ـ اذا سمحنا لك بتعلم الكردية وقت الدوام في الكلية، اذاً فعلينا ان نسمح للجميع بتعلم هذه اللغة ، وبذلك سنخلق لنا مشكلة .

فتحت فمي مندهشة واغلقته محاولة ان اتخيل كل الفرس والاتراك يركضون الى مكتب العميد، وهم يطالبون بصفوف وحلقات دراسية كردية . واضاف العميد موضحا :

ـ أنا لاأسالك عما تفعلينه بعيدا عن الكلية .

عرفت انه كان يشير بحذق الى العبارة الواردة في عقدي، والتي تقول محددة انه يمكن أن افصل من الوظيفة فورا في حال تعاطيّ نشاطات مهنية تقتضي ثقافة بالاضافة الى تعليم الانكليزية خلال فترة اقامتي في ايران .

نهضت ونهض العميد أيضا خلف مقدمة مقعده ذي الجلد المزغب بازراره اللدائنية الخشنة . انتهت المقابلة ولطف ملامحه ذات المظهر الجنكيزخاني وحوّلها الى شيء كان من المفترض ان يكون مسرّا تماما . ابتسمت انا ايضا الى أن غادرت مكتبه ، واذ ذاك توقفت عن الابتسام .

واخيرا عندما رأيت السيد حق زاده اعتذرت بسبب المشكلة التي تجشم عناءها خاله ، لدى استدعائه الى مكتب العميد . أجاب السيد حق زاده على اعتذاري بعجلة وانصرف . كيف يمكن لوقت صبي بعمر حق زاده ان يكون اكثر اهمية من وقتي ووقت العميد ؟

وددت لو اواظب على دروسي الكردية مع السيد احمدي في الكلية لأنها المكان الانسب لكلينا ،لأنها موقع اكثر رسمية ،ومناسب لدراسة جدية . ولكن الاهم من ذلك كله انها لائقة و مناسبة اجتماعيا . عندما التقيت به عند البوابة وقلت له انناسنذهب الى منزلي من الآن فصاعدا ،تقبل السيد دي الاخبار بدون تعليق، لسوء الحظ ، لم يتقبل احد غيره الموقف ـ ان يبدي تعليقا ما .

في كل يوم عدا يوم الجمعة يظهر السيد احمدي عند فناء منزلنا . فيتوقف عمل البنائين العاملين في المسكن الجديد في الجانب الآخر من الطريق فجآة ، فيلتفت كل واحد منهم ليحدق في المرآة الاجنبية وهي ترافق شابا الى شقتها دون حضور زوجها . وفي النهاية كنت اسوّغ كل الاشاعات التي كانت تحوم – وبدون شك – منذ ان اكتشف الحي ان امرآة اجنبية تقيم في الزقاق . ان افكار

الرجال عن المرأة في هذا القسم من العالم هي على وجه الحصر جنسية بحتة ، لدرجة أن جيرد نفسه بدأ يقلق من وجود السيد احمدي في المنزل وحده معي . ولم اسمع ابدا رأي الجعفريين بزائري الذي يزورني على نحو منتظم ولكني متأكدة انهم قد انتبهوا الى ذلك.

بدأ جيرد بالمجيء الى المنزل خلال فترة الدروس ، كان يندفع بالدخول عبر بوابة غرفة الجلوس فيجدنا جالسين بلباقة واحتشام حول طاولة حجرة الطعام عند الابواب الفرنسية تماما باتجاه الشرفة المكشوفه كليا امام الحي بأجمعه . بعدئذ ينظر حوله كما لو انه غير قادر على تصديق اننا كنا جالسين بكامل لباسنا وندرس الكردية .

وعندما اعترف لي جيرد اخيرا بأنه كانت تتشكل لديه ضروب من التصورات حول ماكنا انا والسيد احمدي منهمكين فيه لوحدنا في المنزل ، شعرت لذلك بالاشمئزاز ، فوجودك لوحدك مع رجل في ايران لهو دليل على نحو تقليدي على انكما قد مارستما الجنس و احتمالية التحفظ اواللامبالاة او الظروف المخففة لذلك بعيدة تماما . ودون أن اشعر بأي تعاطف مع جيرد فقد تركته يخلق مخاوفة على هواه بينما مضيت انا لرؤية السيد احمدي في المنزل . وبفضل جهود العميد لم يكن لدينا مكان آخر لنذهب اليه . بدأت اتساءل كثيرا من أين جاء السيد احمدي ، وفي كل مرة يظهر فيها كانت تبدو على سروالهذي النقوش المربعة جعدة حديثة كما لو أنه كان قد خرج لتوه من محل لتنظيف الملابس . وعندما كان الجو يتغير ويصبح باردأوماطرا كان مع ذلك يحضر دوما في موعده وبنفس البذلة ، بينما بدأت انا بارتداء معطف من جلد الخروف لأحتفظ بالدفء ، بقي السيد احمدي ملازما لسترته القطنية الفضفاضة . وقد فوجئت به عدة مرات يتمشى في الزقاق عندما كنت اندفع مسرعة للعودة من الكلية في سيارة اجرة لكي ادرك الموعد

المحدد لدروسنا . سألته فيما اذا كان يمشي دائما ام انه كان يأخذ سيارة اجرة احيانافأجاب انه قد يأتي مشيا اذا كان لديه الوقت . قدرت ان المسافة لابد انها تقارب ميلين من قرب البازار حيث يقيم . ولكن الخمسين سنتا وهي اجرة السيارة كانت تعني له الشيء الكثير اكثر مما تعنيه لي .

لقد كانت ريزاي هي مدينةالسيد احمدي على الرغم من انه قد ولد في القرية . كان يعرف اين والى أي مدى يتمشى . كان يتحدث اللغة المشتركة والتركية بطلاقة . كان من المفروض أن تكون ريزاي مدينة شهرزاد ولكني اشك فيما اذا كانت تسلم بها وتعتبرها حتمية كما كانت بالنسبة للسيد احمدي ، فهو كرجل لم يكن يحتاج الى غطاء او الى ملابس اخرى للتستر . وبسبب لغته التركية المميزة لم يكن يُمّيز على انه كردي ان لم يكن يرغب في أن يكون كذلك. كان السيد احمدي في طريقه ُللارتقاء في هذا العالم .

من المحتمل انه الشاب الوحيد في قريته ، الذي يتابع دراسته الثانوية في الوقت الحاضر، ومع ذلك فانكار السيد احمدي للمبادىء السلوكية الصارمة التي نشأعليها او التخلي عنها ، احتمال بعيد جدا . لقد كان مساعدا في القواعِد التركية ولكني حاولت أن اتحدث معه عن اشياء اخرى اذ كنت احيانا اجد نفسينا في محادثات سخيفة لاتفيد في شيء سوى انها تشعرني بالغباء . فقد ابديت شكواي في احدى المرات لمعلمي عن احدى النساء المغطيات في البنك ، حيث كانت قد اقتربت مني وحدقت في على بعد ستة انشات من انفي، وقلت :

ـ لابد ان النساء المحجبات يظنن انفسهن غير مرئيات .
ـ لا أعرف .

اجاب السيد احمدي على نحو ملتبس بحيث لم يدل جوابه على موقفه وشعوره . فسألته :

– هل تظن أن فكرة الحجاب جيدة ؟

فقال :

– لاأعرف . ربما لا .

فقلت ملحّة :

– هل تظن انك عندما تتزوج ستضع زوجتك الغطاء ؟

– محتمل .

شددت على اسناني حتى صرّت وعدت الى القواعد . كانت مثل هذه الاوضاع تجعلني مدركة اكثر من أي وقت مضى مافعله اميـر في تلك الايام التي لم نكن نعرف مايفكر فيها ، فقد كان قد تركنا ننفس عن مشاعرنا ، ننتقد ، نشكو ، نصاب بالخيبة والاحباط والاهم من ذلك كله ان نعيد النظر في امور كثيره .

بدأت انتزع بصعوبة من السيد احمدي ، بعض التفاصيل عن حياته الشخصية ، والشيء المهم الذي عرفته عنه في مطلع عملنا معا هو أنه كان لديه اخت تبلغ من العمر خمسين سنة . اشار ذلك اهتمامي ، على الرغم من اني واصلت التفكير في انني بطريقة ما قد اسأت الفهم . وكان السيد حق زاده اصلا قد فكر أني سأرحب بالعمل مع هذه الاخت المتزوجة من جد حق زاده . كنت قد دهشت كثيرا لدى ذكر ذلك – ان هذا الجد قد تزوج من كردية – لأن حق زادة لم يكن كردياً بل تركيا . فهو لم يحضر مع طلابي الآخرين في مهاباد والنهاية الجنوبية من البحيرة ، ليخبرني انه يتكلم الكردية . ومع ذلك فقد ابدى اهتماما منذ المرة الاولى التي سمع فيها انني ادرس الكردية . لقد بدت رغبته في المساعده غريبة بالنسبة لتركي . ماالقاسم المشترك بين حق زاده والاكراد؟ فجد حق زاده نفسه كان تركيا ، اذا لماذا اتخذ جده التركي امرأة كردية زوجة ثالثة له ؟

اكتشفت أن السيد حق زاده كان ينتمي الى مجموعة من السنيين الاتراك القاطنين في اذربيجان . بينما الغالبية العظمى من الاتراك الآزريين هم من المسلمين الشيعه مثل غالبية السكان في ايران ، بالاضافة الى مجموعة صغيرة من الاتراك السنيين . أ ن الاختلاف بين السنية والشيعة ليس دينيا بقدر ماهو عاطفي وتاريخي. ان جميع الحكومات في العالم الاسلامي عدا - ايران - في الوقت الراهن ، تنضوي تحت لواء السنية وتقبل نظام الخلافة الاسلامية ، وتتبع قوانين واركان وسنن الاسلام بدون ان تشغل نفسها على نحو غير مناسب بتاريخه المبكر القاسي . ولكن في جميع هذه البلاد وطوال نمو وانتشار الاسلام وُجد خارجون على هذا الدين وانفصلت طوائف عن جسد معتنقيه الاساسي . وفي ايران فقط كان هوءلاء الخارجون كثيرين ومنظمين الى حد مكنهم من تأسيس سلالة حاكمة وبالنتيجة اصبح التيار الاساسي في ايران شيعيا بينما بقي الاكراد المعزولون والمحميون بجبالهم سنيون مثلما بقي العرب . وعلى نحو مشوش تماما ، ومغاير لاتراك ايران بقي غالبية الاتراك في تركيا سنيين . وقد قدر للاكراد أن يبقوا منفصلين عن جميع الشعوب المحيطه بهم . منفصلين من ناحية اللغة والثقافة عن الاتراك والعرب ومن ناحية الدين مغايرين للايرانيين . والاكراد دائما تقريبا يدعون الاتراك بـ " العجم " كنعت مهين وهي كلمة مقتبسة من العربية ، حيث تعني " بربري " أو غير عربي" . أما الاتراك السنيون فهم ليسوا بعجم بالنسبة للاكراد . لم استطع ان احول دون التساوءل عما اذا كان هوءلاء الاتراك السنيون اكرادا من قبل وانهم اتخذوا اللغة التركية يوما لغة لهم ولكنهم احتفظوا بعقيدتهم السنية .

كان شارع السيد احمدي يدعى بشارع السنيين على نحو متوافق مع الموجودين فيه تماما، والبيت الذي يسكن فيه يخص زوج اخته ، جد السيد حق زاده المقيم مع زوجته وبناتها . كانت لغتهم اليومية التركية وليس الكردية . وفي الحقيقة فان الفتيات لم يكن

يستطعن التحدث بلغتهن الام مطلقا . كانت والدة السيد احمدي تعيش مع بناتها الصغيرات في قرية تقع الى الشمال من ريزاي حيث لاأحد فيها يتحدث بأي لغة اخرى سوى الكردية .عندما كان السيد أحمدي في السن السابعة تقرر أن يجيء الىالمدينة ويقيم فيها بمعزل عن بقية عائلته لكي يحضر المدرسة . لم تكن توجد مدرسة في قريته في ذلك الوقت ، حتى ولاواحدة من تلك التي يديرها سلك تعليم القراءة والكتابة وبسبب حياته المنزلية كان السيد احمدي قد اصبح طليقا تماما بالتركية وبسبب حياته المدرسية كان قد اصبح جيدا جدا بالفارسية أيضا . لايسعني الا أن اقدّر عاليا انجاز السيد أحمدي ، بعدبحثي عن متحدثين بالكردية في الكلية . كانت لهجته الاصلية هي الكرمانجية " الكردية الشمالية " وهو منحدر من عائلة ريفية فقيرة . ومع ذلك وبمساعدة منحة تعليمية من مدرسة ثانوية محلية وبعلامات جيدة كان في طريقه الى الكلية، ربما كلية ريزاي . فاذا ذهب فانه سيكون واحدا من الطلاب الاكراد الاوائل في كلية ريزاي في منطقة ريزاي . لقد نجح في التغلب على الحواجز التي قد ابقت الآلاف من الاكراد الشماليين الآخرين بعيدين عن المدارس الثانوية والكلية التابعة لمنطقتهم . فقط بقوة ارادته وبذل جهده وطبعا برجولته . ففي كلية ريزاي حيث آتى جميع الطلاب الاكراد القلائل نسبيا من مدن واقعة الى الجنوب من ريزاي كان غياب الاكراد الشماليين المحليين بشكل خاص ملحوظا . أن الاكراد ، ان لم يكونوا غير عاديين الى حد بعيد مثل السيد احمدي او اغنياء جدا مثل طه فانهم لا يملكون حرية الوصول الى المدارس الثانوية .

كان تحفظ السيد احمدي ورباطة جأشه واساليبه المنتظمة . تثير فضولي . فقد اردت ان اراه وهو ضمن البيئة التي انحدر منها، واصلت اسئلتي عن قريته . ولكن القرية قد انقطعت عن ريزاي بسبب الثلوج التي راح انخفاضها يزداد بشكل يومي في المنحدرات الجبلية

حوالي المدينة . وبما أني لم اجد الوسائل لأصل الى هناك ، فقد بدأت أسأله عن اخته وعن شارع السنيين كان يجيب على كل اسئلتي ولكنه يتطوع بالقليل من عنده . واخيرا الححت عليه ليقدمني الى اخته ، فقد قلت له اني احتاج الى تسجيلات لأحاديث نساء كرديات فأخذ طلبي هذا على محمل الجد مثل كل طلباتي للمعلومات وأخبرني حالا انه يمكنني المجيء الى المنزل في الخميس التالي .

اتى السيد احمدي الى منزلنا اولا وسرنا بسيارة اجرة الى السوق . كان علينا أن نتغلب على الوحل الذي يمتد على طول الطريق من الشارع الرئيسي حتى البوابة الخشبية غير المتقنة قبل ان نتمكن من الوصول الى الفناء . واخيرا وصلت الى منطقة ريزاي التي تشبه الجزء القديم من مهاباد بشبكة ازقتها الموحلة والمعقدة وجدرانها المبينة يدويا . كان الجو باردا وماطرا لذلك لم نلفت أنا والسيد احمدي الانتباه كما كان جائزا ان يحدث في يوم صحو. اسرعت في المشي الى جانب السيد احمدي ممسكة المظلة في يد وآلة التسجيل في اليد الاخرى محاولة ان اجاري خطى السيد احمدي. بدا الناس الذين مررنا بهم فقراء ، رجال ببذلات عتيقة ونساء باغطيتهن ، وكان لدى القليل منهم مظلات اوملابس دافئة الى حد يتناسب مع قساوة الجو .

كان علي ان اخفض رأسي لأدخل من خلال المدخل المنجّر يدويا لمنزل السيد حق زاده.- بدا كل شيء غريبا في الحجرة ، عدا خزانة التلفزيون ، حيث قابل فيها السيد احمدي اخته الكبرى وابنتيها ، واحدى كنائنهم . جلسنا وقدم لنا الشاي واحضر طبق فيه برتقالات كبيرة الى جانب كعك حلو مشترى من محل حلويات مملوءة بالكريما المخفوقة . كانت اخت السيد احمدي وبناتها وعروس ابنها يبتسمن ويرحبن بي مرة تلو الاخرى ويدفعن بالطعام الى طبقي بينما لم يأكلن شيئا . لقد كنت مدركة لحقيقة انهن لم يدعونني ، بل انا التي دعت نفسها . لاأظن انهن قد استوضحن

ابدا عن سبب وجودي في منزلهن . وبالنتيجة فان القلق والتوتر في الجو لم يتلاش ابدا على الرغم من كلمات الترحيب التقليدية وابتسامات الاحتفاء بي .

لقد كان ذلك مشروعي وكان السيد احمدي هو القائم على الادارة . ولذلك عندما اقترحت عليه ان تتحدث اخته عن تاريخ القبائل الكردية المحلية ، وخصوصا قبيلة الشكاك التي ينتمي اليها والدهما ، وافقني السيد احمدي على ذلك مباشرة، فاوصلت مسجلتي بالقابس الكهربائي المرتفع حتى الخصر المستخدم عادة للتلفزيون وبدأ السيد احمدي يحادث اخته عن تاريخ منطقة ريزاي . ومؤخرا عندما اصغيت بعناية لهذا التسجيل اندهشت لقلة المعلومات التي قدمتها في كلماتها . فقد كان هناك قائمة من الاسماء وعبارات غامضة عن عظمة بعض من قواد القبائل ولكن معظم التسجيل كان قد كرس لمدح حكومة ايران الحالية ، وهو موضوع غريب بالنسبة لكردية تتحدث عنه . فقد مجّدت الشاه ووالد الشاه لجعل الطرق آمنه ، فقد سهلها وجعل السفر عليها ممكناً من جهة معينة في اذربيجان الى اخرى دون الخوف من أن يُذبح المرء أو يُسلب منه كل شيء يحمله . لقد كان صحيحا أن الجيش الايراني وقوى الدرك قد جعلوا الطرق اكثر أماناًولكنني لم اسمع ابدا اي كردي يذكر أن المصالح والفوائد التي جنتها هذه السلطة من كردستان قد فاقت الاضرار التي الحقتها بها اكثر بكثير .

في نهاية جلسة التسجيل شكرت الاخت لحسن ضيافتها وانحنيت احتراما لكل فرد في الغرفة وبعدئذ لبست حذائي خارج الباب . وفي الخارج رافقني السيد احمدي بعيدا حتى بلغا الشارع الرئيسي حيث ناديت مستوقفة سيارة اجرة وتمنيت لو انه يوجد مكان آخر اذهب اليه أبعد من هدوء شقتي الخالية من الاثاث . لقد فضلت دفء سيارة الاجرة وراحتها ولكني وبسرعة وجدت نفسي عائدة وفي بداية الزقاق وأنا امر بصبي يحمل بندقيته . لقد

كان علي المشي الاسبوع تلو الآخر بجانب ابن صديق هوشنغ الذي استمر في التسكع في الزقاق مع رفاقه . ولم تفشل البندقية أبدا في اثارة اعصابي .

بلغ حنيني مبلغة في الاسابيع التالية . وقد احتفلنا بعيد الشكر بصحبة الامريكيين الآخرين في مقر الجيش الامريكي وقد راودني احساس بأنني سجينة في حقيبة بلاستيكية ضخمة وسط عشاء تركي فخم وكان شعوري مفعما بالكآبة لدرجة اني بدوت غير قادره على سماع ماكان يقوله الامريكيون من حولي . هل نسيت لغتي الام ؟ وعندما اقترب عيد الميلاد اكثر اشتد حنيني الى الوطن اكثر . وصلتنا رسائل من العديد من افراد العائلة يسألون فيها عن عطلة الميلاد وكان اخو جيرد قد اقترح أن نقابله في مكان ما في اوروبا خلال العطلة . ألم يدرك احد منهم أننا لانقيم في بلد مسيحي وانه ليست هناك عطلة ميلاد ؟ أو لم نوضح لهم ذلك في رسائلنا ؟ .

قمنا أنا وجيرد بجولات منفصلة للبازار في محاولة لايجاد هدايا الماجي " المجوس " . لقد كان من المفترض أن تكون ريزاي هي نقطة البداية للملوك الذين تبعوا النجم الى بيت لحم. انشدنا ترنيمة " نحن الملوك الثلاثة " مرات كثيره لنخلق لأنفسنا جو عيد الميلاد الحيوي . ولكن كلما كنا نحاول اكثر كنا ندرك كم كنا غير منسجمين مع المكان الذي نقيم فيه . كان جيرد قد اوصى خفية على صنع خاتم ذهبي لي في سوق الجواهر، وعندما مررت في نفس المحل اندفع الصائغ ممسكا بالخاتم وقد رفعه ليريني كم انفق زوجي علي من النقود،وقد تفحصته عن بعد .

كان من غير الممكن أن يكتشف جيرد ماسأقدمه له ولكن بالمعدل الذي كانت تسير عليه الخيّاطة الارمنية في عمل تطريز

للقمصان التي أخذتها دون علم جيرد من محل كي للملابس ، شككت أنه سيرأها في عيد الميلاد . فقد مضيت في الذهاب والاياب بين منزلي ومنزلها الذي يبعد ربع ميل في فناء كنيسة ارمنية مرسوم فوق جدرانها الخارجية مخلوقات مجنحة رائعة . لقد سرني أن ارى احدا ما يعرف عن عيد الميلاد ، حتى ولو انها احتفلت به في كانون الثاني بدلا من كانون الاول . ولانها ادركت كم كان يعني لي فقد تدبرت امرها لانهائه في اليوم السابق لعيد الميلاد .

في عصر ذلك اليوم البارد والمليء بالغيوم ، كنت أمشي عائدة بمحاذاة الجدران المصمتة للزقاق المؤدي الى منزلنا عندما اصابني في جبيني زجاج مصباح كهربائي وقد اخطأ عيني اليمنى بقليل تماما. وقبل أن استشعر شظايا الزجاج في شعري حكمت عليها بتجربتي الخاصة انها مجرد انفجار ، ظانة ان الصبي صاحب البندقية ذات الرصاصات الصغيرة قد اطلق النار علي أخيرا . حدقت بهذا الصبي الواقف امامي وقد بدأت ملامحي بالتغضن . كان كما لو أن احدا ما قد استهدف ان يفعل ذلك في يوم عيد الميلاد نفسه واطلقها علي من السماء . اسقطت سلة التسوق البلاستيكية الممتلئة بالقمصان المطرزة حديثا والمغلفة بورق الجرائد ونظرت حولي.

كان الاولاد يراقبونني بحذر . فقد كان هنالك اثنان آخران بالاضافة الى صاحب البندقية . ماذا كان ذلك ؟ سألت بصوت مرتعش . اشار احدهم الى الزجاج عند قدمي وبعدئذ الى ضوء الشارع فوق رأسي . فسألت :

- من أين اتت ؟

نظر الصبية حولهم واشاروا الى زقاق في الجهة اليسرى . لمست رأسي وهززته بهدوء . لقد كان اقرب منزل في ذلك الزقاق يبعد عدة ياردات عن المكان الذي اقف فيه . على كل حال كنت اعرف مسبقا انه من المفروض أن يكون الزجاج قد اتى من اليمين . لقد كان في هذا الجانب من الزقاق منزل واحد فقط ، وهو منزل اغنى رجل في الجوار ، ذلك الرجل الذي سميت بأسمه جميع هذه الازقة - السيد أمير فلاح .

عندما مشيت متجاوزة الاولاد بدأت الدموع تسيل فوق وجهي وبعدئذ بدأت بالركض وعندما رأيت جيرد بدأت بالنشيج . كنت اغص بالبكاء لألتقط انفاسي وانا اروي له ماحدث ، فكرنا مليا بالحادث لبضع دقائق ، لم أتأذى منه ولكن الزجاج كان قد اصاب مكانا قريبا جدا من عيني . وكان من الممكن ان اصاب بأذى بالغ . فقرر جيرد أخذ نصيحة هوشنغ والشيء الاول الذي فعله جارنا هو محاولة تهدئتنا فقال :

ـ هذه الاشياء تحدث ، فهذه ليست امريكا . احيانا عندما ينتهي الناس من الاستفادة من المصباح الكهربائي وبدلا من رميه في النفاية ، يرمونه من خلال النافذه . لايدركون انه من الممكن أن يوءذي احدا . فسألته :

ـ اذاً لماذا حدث واصاب رأسي بالذات لحظة مروري، لماذا لم يصب الشارع .

أَقْنَعْنا هوشنغ الراغب عن الخروج معنا لنذهب الى الشارع ونتقصى عن الحادث . رن هوشنغ جرس أمير فلاح وبعد مضي مابدا وقت طويل اتى خادم شاب مرتد سروالا فضفاضا الى البوابة وهو يبتسم ابتسامة عريضة . فسأله هوشنغ فيما اذا كان سيده موجودا في البيت وعندما اجابه الخادم بالنفي ، اخبره هوشنغ عن سبب مجيئنا . وعند ذلك استطاع الخادم بصعوبة ان يسيطر على نفسه، وعندما نظرت الى هذا الخادم وهو يكبت ضحكة تأكدت من أنه هو الذي كان قد القى بالزجاج . ولكنه طبعا انكر حتى معرفته ماكنا نتحدث عنه . وبعدئذ وقفنا مباشرة بواجهة بوابة مغلقة ثانية .

اقنعنا هوشنغ الذي تضايق اكثر بعد هذا التقصي ، أن يقرع جرس منزل صديقه ، والد شاهدنا الصغير على الحادث ، الذي نتمنى له أن لايرى شرا . لم يجبنا أحد . وخلال فترة العشر دقائق الاخيرة كانت ساحة الازقة المحلية المتشابكة قد خلت من الناس ، وهو شيء غير مألوف في فترة العصر تماما .

عاد هوشنغ معنا الى منزلنا وقال لي :

ـ فقط انسي ذلك .

ـ لا استطيع . افترض أن هذا حدث ثانية .

ـ كانت شهرزاد تمشي مرة في الزقاق هنا مع ابننا ، لحقها الصبي وامسك بها من خصرها ، وكان ولدنا قد تضايق كثيرا، ولكن ماذا نستطيع ان نفعل ؟

فقال جيرد مشيرا :

ـ ولكن ذلك لم يكن امساكا بالخصر ، لقد كان ذلك القاء زجاج مصباح على رأسك .

فهز هوشنغ كتفيه غير مبال . وقلت :

ـ اريد أن استدعي البوليس .

التفت هوشنغ وقال ونبرة حادة في صوته :

ـ يجب الا تفعلي ذلك ، فالسيد امير فلاح رجل جيد .

فتساءلت ، اذا كان رجلا جيدا كما يقول ، اذاً ماذا لديه ليخاف عليه من البوليس ؟ وقلت بصوت مرتفع :

ـ لايمكن لخدمه ان يمضوا في القاء المصابيح على الناس.

فقال هوشنغ مجيبا بصراحة :

ـ البوليس لن يحل المشكلة .

وكنا قد وصلنا الباب الامامي لشقة هوشنغ ، فقال جيرد وهويصافحه

ـ شكرا لمساعدتك .

بعد ذلك مشينا انا وجيرد عبر الزقاق الذي كان مايزال خاليا واستوقفنا سيارة اجرة لنذهب الى مخفر الشرطة المدنية . روينا قصتنا لرجل شرطة متجهم الوجه ، حيث لم يبد أي تعاطف نحونا ابدا . ولكنه رجع معنا بسيارة اجرة الى مكان الحادثة . ووقفنا نحن الثلاثة خارج بوابة امير فلاح ننتظر الخادم أن يستجيب لقرع الباب ، كان اكثر تحفظا في قهقهته هذه المرة ، ولكنه احتفظ بنفس الانكار وبنفس النظرة الضاحكة .

وبعد ان وصل البوليس واصبح الموضوع رسميا اكثر . تجمهر الناس حولنا في الزقاق وكانوا يبتسمون ويتضاحكون وهم يوضحون لبعضهم البعض ماحدث .

حضر فتى في طور المراهقة وتطوع للترجمة ، لم تكن لغته الانكليزية سيئة ، وعلى نحو مغاير عن الآخرين جميعا بدا مهتما اكثر من أن يتسلى . كان شيئا مثيرا للاعصاب ان يضحك جميع هوءلاء الناس وهم يشيرون الينا . كان ذلك زقاق امير فلاح وهو من المناطق المأهولة بالطبقات الوسطى والعليا الاكثر تأصلا في المدينة . لم يكن الاختلاف الطبقي هنا هو الذي يضفي علينا هذه العزلة ، فالناس المجتمعون حولنا كانوا يضحكون كما لو اننا لسنا بشرا .

– اخبروني ماذا حدث ؟

طلب منا الشرطي ذلك للمرة الثانية او الثالثة . وظهر في تلك اللحظة صديق هوشنغ الذي الذي يقتني ابنه البندقية عند طرف الجمهور فذهبت اليه وقلت :

– كان ابنك متواجدا عندما اصابني المصباح ، ربما يستطيع رواية ماحدث . ؟

فقال الرجل بهدوء :

– ولدي لايعرف شيئا .

وسألنا الشرطي انا وجيرد :

– ما اسمكما ؟

فاخبرناه .

– ماذا تفعلان في ايران ؟

واجبناه ثانية .

– نعم ولكن لماذا جئتما الى هنا ؟

فانفجرت في وجه جيرد قائله :

– انه يوجه الينا اسئلة بدلا من توجيهها الى أي شخص آخر من هوءلاء الناس . والشيء الثاني الذي سيرغب في معرفته هو كم نكسب من المال ولماذا ليس لدينا اطفال ؟ وعندما هممنا

انا وجيرد بمغادرة هذا الميدان ، سارت سيارة جيب الى الزقاق وخرج منها السيد امير فلاح ، المهيب ذو الشعر الابيض ، صاحب المنزل الذي من المفترض ان المصباح قد القي منه .

اخبر الخادم السيد امير فلاح ماحدث بسرعة . فتقدم نحونا قائلا انه متأسف لعلمه بوقوعنا في هذه المشكلة ، ولكنه ابدى ارتيابه كثيرا حول ان هذه المشكلة يمكن ان يكون منشأها وقرر الشرطي لدى حضور هذه الـ' . :مهمة انه الوقت المناسب لانهاء المشكلة برمتها .

اقترح ان يتصافح جيرد وامير فلاح ، رفض جيرد ذلك ،ثم ابتعدنا عن الحشد وجيرد يهتاج غضبا . لم يناسب ذلك امير فلاح أوالشرطي الذي طلب منا بعد ذلك أن نرافقه هو والسيد امير فلاح في سيارة الجيب في جولة اخرى الى مخفر الشرطة وقد حضر مسرعا معنا مترجمنا ايضا .

قابلنا هذه المرة في المخفر ملازما ، وقد اصغى الينا بتركيز عندما شرحنا له مرة اخرى مجمل ماحدث . التفت الملازم الى امير فلاح وسأله فيما اذا كان عازما على التأكد من أن خدمه لن يفعلوا شيئا من هذا القبيل ثانية وبدون أن يعترف امير فلاح ان هذا التصرف قد ارتكبه خادم من خدمه وعدان يلوي اذن الصبي الخادم المذنب . فهمست في اذن جيرد متذمرة :

ـ ولكن لا احد يعترف بالخطأ ، لاأحد يهتم باكتشاف من قام بالحادثة حقا .

سجل محضر بالحادثة ، ولارضاء الايرانيين الحاضرين تصافح جيرد وامير فلاح . ولكوني مجرد امرأة تخص جيرد ، فقد ضعت في هذا الخلط . بعد ذلك عدنا جميعا لرفاقنا ، حيث تصافح جيرد وأمير فلاح ثانية .

بعد يوم من ذلك ، وفي ليلة عيد الميلاد وبينما كنا

جالسين في حجرة الجلوس ، رن جرس الباب ، هناك في الاسفل ، في الزقاق كان يقف ستة من الصبيان والصبايا ، وكانت احدى الصبايا تحمل علبة من السلوفان ممتلئة بالورد والقرنفل ودفعتها الى يدي. دعوتهم ليصعدوا الى الاعلى لاحتساء الشاي واكتشفت انهم كانوا اخوات واخوة مترجمنا في ذلك اليوم . وكانت ابنة امير فلاح أيضا قد حضرت معهم لتقدم لنا امنياتها بقضاء عطلة سعيدة . كانوا يعرفون انه يوم عيدالميلاد فقط لأنني ذكرته عدة مرات خلال المباحثات في اليوم الفائت . وتحدث الصبي ذو الشعر الاجعد الذى كان قد ترجم لنا قائلا :

– والدتي تريد ان تعرف متى ستحضران لتناول الغذاء عندنا .

شكرناهم على الورود وعلى الدعوة وقال جيرد :

– ولكن لاداعي لدعوتنا لتناول الغذاء .

فقال مترجمنا :

والدتي ترغب في أن تأتيا الينا لتناول الغذاء .

– هل أنت متأكد ؟

قلت ذلك كارهة نبرة الشك القاسية في صوتي فقد كنت اشعر كأني متأكدة تقريبا من أن الدعوة ليست حقيقية . من كانت امهم ؟ ولماذا لم توجه الدعوة الي هي بنفسها ؟ من غير ريب ان هوءلاء الاطفال كانوا يقومون بالايماءات المهذبة التي كانوا قد تلقنوها .

ولكن ولدهشتي ، اصروا على الدعوة ، لذلك فقد حددنا موعد للذهاب الى منزلهم على مضض . ولدى مغادرتهم التفت الى جيرد وسألته فيما اذا كان يعتقد ان الدعوة حقيقية . فأجاب :

– لا أعرف .

في تلك اللحظات لم تكن لدي رغبة في قبول أي دعوة .

حتىانني لم ارغب في مغادرة منزلي . لقد كان واضحا ان عائلة مترجمنا لم تكن تنتظرنا فحسب ، بل كانت تتلهف لمقابلتنا . ولكن وعلى الرغم من كل ابتساماتهم وترحيباتهم الصادقة فقد شعرت بالقلق وانا محاطة بالورود البلاستيكية والحلي الرخيصة المذهبة اضافة الى صور عديدة للشاه كانت قد زخرفت حجرة جلوسهم . وتمنيت لو اني قابلت هوءلاء الناس قبل أن يلقى علي المصباح او بالاحرى لو أن الضوء لم يلق ابدا . وتمنيت أيضا لو أن هوءلاء الناس لم يزينوا منزلهم بهذا الاسلوب الموءيد للشاه .

بدا انهم يحبوننا لكوننا امريكيين بقدر ما يبدو أن اناسا آخرين في ريزاي يكرهوننا لنفس السبب .

لم يبدو لنا بعيدا جدا مصير احد المدرسين الامريكيين في كلية ريزاي الذي كان قد لقي حتفه في عشية عيد الميلاد قبل ست سنوات . فحتى الشهر الثاني كلما كنت اخرج من المنزل كنت انظر خلفي . وقد قللت من عدد المرات التي اذهب فيها لوحدي الى مركز المدينة كثيرا جدا . على الرغم من انني كنت اتسوق لساعات لوحدى في عشيات قبل الميلاد . الا انه لم تعد لي رغبة في مواجهة لمسات وتحديق زمر الرجال والصبية الذين يملوءون أرصفة مركز مدينة ريزاى . كنت أتحسس الآن أكثر من أي وقت آخر الحقد والاحتقار اللذين كانا يكمنان في ذلك اللمس والتحديق ومنذ اللحظة التي هبطت فيها مطار طهران ورأيت الحجاب للمرة الأولى أدركت أنني سأكون عرضة للهجوم في ايران كامرأة والآن فهمت أن كوني أجنبية قد وضعني أيضا في خطر مضاعف .

أما بالنسبة للاكراد فقد تراجع فكري عنهم وقد استغربت عدم ظهور أحد اللاجئين بين الحشد في الزقاق . واصلت تأجيل زيارة منزل مريم وكان من النادر أن أرى السيد خليلي في أيام الشتاء الطويلة المظلمة هذه . لم يبد الايرانيون الذين أخبرتهم عن هذه الحادثة تعاطفهم معي .وقد أبدى هوشنغ وشهرزاد على نحو خصوصي دهشتهم لاستدعائنا الشرطة للسيد أمير فلاح وقد كانوا يكررون "رجل طيب مثله" .

لم أذكر ما حدث للسيد أحمدي أبدا . فبطريقة ما اعتقدت أنه لايوءيدنا على الاطلاق . وموءخرا عندما حصلت حادثة كريهة في نفس زقاقهم عرفت أن ظني كان في محله . لقد كنت أعتبر بالنسبة للسيد أحمدي" الاخرى " حتى نهاية اقامتي في ايران تقريبا. حتى عندما فهمنا كبشر وكأصدقاء فقد كان يظن دائما أننا أغنى بكثير مما نحن عليه ، أو على الأقل مما نشعر به .كان بروده هذا موءذيا ومع ذلك فقد كان بامكاني أن اعتبره دفاعا . لقد كان أحمدي يتصرف مثل رجل راشد بينما كان لايزال طفلا .

واصلنا أنا والسيد أحمدى لقاءاتنا وكان قد تكون لدي احساس بتعلم اللغة بطريقة آلية ،وفي آخر الأمر ، افترضت أنها ستساعدني على اتمام بحثي ،ولكن ما نفع ذلك ؟ فكلما كنت أتعلم الكردية والفارسية أكثر، كانتا تبدوان لي بغير فائدة أكثر. ربما ستجعلني قادرة على أن أكون مهذبة أكثر ، أو ربما مشوشة أكثر عندما يطرح الناس علي أسئلة ، ولكن هل سأقدر على معرفة أي امرىء على نحو أفضل ؟ وقطعا يوجد أناس آخرون يتواصلون مع بعضهم البعض بالفارسية والكردية ولكن اتضح لي أن فعالية كهذه لن توءثر علي بهذا القدر ولن تفيدني في حياتي اليومية اطلاقا .

أقبلت عشية السنة الجديدة ومضت . لقد كانت كئيبة حتى أكثر من عيد الميلاد . وبما أن العطلات كانت بعيدة فقد بدأنا نفكر في الخروج من ريزاى لفترة . لقد كانت عطلة منتصف الشتاء التي تتقدم عطلة الشيعة الكبيرة ــ في محرم ، فترة الحداد على الامامين الشهيدين ، الحسن والحسين . قررنا الطيران الى طهران وان نأخذ القطار راجعين الى تبريز وبعدئذ نستقل الباص الى ريزاى .

ذهبت الى طهران وأنا أتفجّر بالانطباعات والاسئلة حول الأربعة أشهر الأولى من اقامتي في ايران . ولكني كنت أحد من قبل الطلاب الأمريكان الباحثين الذين يتابعون دراستهم بمنح تعليمية في

العاصمة. لم يبد أي منهم احساسهم الحقيقي ورأيهم في السياسة الايرانية . لقد كان معظمهم يحتقرون ايران والايرانيين ببساطة . وبعد التحدث مع هوءلاء الناس عرفت كم سيكون من السهل لي أن أكتب بسرعة وبغير تردد عن جميع الايرانيين ، على أنهم يعانون من رهبة الاجانب على نحو ميوءوس منه . لم تقدر تعليقات الأمريكيين أن تساعدني في معالجة احاسيسي الخاصة ، بل كانت تزيد في آلمها وتثيرها أكثر .

ولكوني عائدة الى شوارع طهران حديثا وخائفة من الضجة وحركة المرور فقد بدأت أكون روءية عن الأوضاع في ريزاى وفقا لعلاقاتها الصحيحة وأهميتها النسبية . بدا واضحا أن هناك أمكنة أسوأ على الأرض أكثر من العاصمة الصغيرة النظيفة الهادئة بريفها ذى المشاهد الطبيعية الخلابة التي كنا ندعوها بالوطن. عدت بعد مدة أسبوع بروح جديدة واختفت تعابيرى الساخرة . وعندما رأيت السيد أحمدى ثانية ، أكرهت على التحقق من أنني قد تعلمت الكثير من الكردية منه . لقد كنت مستعدة للخوض في مجازفات جديدة ،ولأغامر وأن أحاول التواصل مع الناس .

الفصل التاسع

كان يندر أن تجد كرديا في المرحلة الثانوية في ريزاي . لذلك لم اكن متأكدة من ان ماسمعته صحيح لدى بدء السيدخليلي بالحديث عن دكتور كردي شهير ، قد حصل على الدكتوراه في الفلسفه وهو رجل لايتحدث لهجة المدن الجنوبية مثل مهاباد او سنندج ، بل هو متحدث حقيقي بالكرمانجية مثل السيد خليلي . وانه لايتحدث الكرمانجية فحسب ، بل العربية ، الفارسية ، التركية – كلا الاستانبوليه والآزرية – الروسية ، والانكليزية وربما شيئا من الالمانية . لقد بدا هذا شيئا لايصدق ، ان يقيم رجل مثله في ريزاي وألا تكون له صلة بالكلية . الموءسسة الوحيدة في المدينة والتي من المفترض أن تكون لها علاقة مع الدراسات العليا .

لقد ذكره السيد خليلي عرضيا وبحذر شديد بنفس الاسلوب الذي كان يقول فيه معظم الاشياء لي :

– هناك دكتور كردي .

قال مقدما ملاحظته على نحو متردد ، بالاستجابة الى تساوءلاتي الملحّة عن ايجاد نساء كرديات . جرى ذلك قبل ان يودعني عند درج منزل مريم لبضعة ايام وكان آنئذ يزعم دائما انه بريء من معرفة أي نساء كرديات . على الرغم من أن الدكتور كان رجلا مهما جدا فانه ربما يوافق على أن يقدم لي المساعدة في الكردية اذا كنت محظوظة جدا .

ببساطة كان من المستحيل للسيد خليلي ان يصدق انني حقا كنت ابحث عن نساء كرديات عاديات . فمن وجهة نظره كنت دخيلة الى حد بالغ – امرأة اجنبية عالية الثقافة تبحث في القواعد الكردية،

حتى شعر اني كغربية موءهله فقط لأن اكون مدّرسة . فحقيقة أن الدكتور يعرف الانكليزية ستكون ذات فائدة عظيمة في نظر السيد خليلي . لم يكن لدى السيد خليلي الصبر والوقت ليعلمني الكردية . ولكنه يعتقد انني لا اتقدم كفاية بسبب العائق اللغوي الذي بيننا وليس لأي نقص في الممارسة والتعليمات . وحسب اعتقاد السيد خليلي فان الترجمة ستحل المسألة برمتها واني سأقدر على تعلم الكردية في فترة قصيرة .

لم يكن تفكيري يفتقر الى الشك في أن أي شخص حائز على دكتوراه في الفلسفة سيتكلم لغة الريف النموذجية التي أردت دراستها، ان شخصا كهذا من الموءكد انه سيكون متأثرا بمصادرغير كردية اكثر من السيد خليلي . ولكن حتى لو فكرت اني لا احتاج مدرسا يتحدث الانكليزية فقد اردت ان التقي بهذا الدكتور الغامض وكما الحث على السيد خليلي فقد اردت ان اقابل زوجته على وجه الخصوص . وقد قادتني افتراضاتي غير المشكوك فيهما الى تصور انها ستتكلم الروسية والانكليزية .

عندما استيقظت آمالي لتجاري فضولي ، عند ذلك فقط اصبح السيد خليلي غامضا اكثر فاكثر حول فكرة ان يعلمني الدكتور، الى ان انقطع عن مناقشتها ثانية كليا . هل كان الدكتور مشغولا جدا عن مقابلتي ؟ هل كان شكاكا جدا ؟ وهل ذكرني السيد خليلي له يوما ما ؟ ولكن بما اني قد اطلعت على وجود دكتور كردي ،فلم استطع أن انسى امره ، وذكر السيد خليلي انه كان قد درس في جامعة روسية ، وقد تساءلت الى ما لا نهاية عن موضوع شهادته .

كنت قد مررت برفقة السيد خليلي ودون علم مني ، بمنزل هذا الدكتور نفسه مرات عديدة . القى اثنان من الرجال التحية على السيد خليلي وهما ينظفان سيارة اللاندروفر في الخارج

وقد حدقا فيّ بفضول ولكن ليس بطريقة غير ودية . كانا يعملان أمام المنزل السحري نفسه الذي كنت قد لاحظته خلال اسابيعي الاولى في المدينة ـ ذلك المنزل القابع خلف الابواب المعدنية الزرقاء. أمام هذه الابواب كانت تقف عادة سيارة اللاندروفر الطويلة والرجلان بيذلتيهما الخاكيتين وعمامتيهما وهماينظران الي خلسة بعد مارآياني برفقة السيد خليلي . وبعدذلك باسبوع كنا نتجول معا ثانية قريبا منه عندما استأذنني السيد خليلي ليذهب الى الدكتور ويقدم احتراماته له . كان قد اضطر اخيرا ان يفشي سر صاحب هذه الدار . ولكنه لم يدعني للدخول معه .

بعد عودتنا من طهران بعد ايام وبينما كنت اتفحص برتقالا في كشك فواكه في شارع بهلوي ظهرت امرأة ، وقد وضعت غطاء ، على مقربة مني . ولاعتقادي انها وقفت هناك لتحدق في فقط بدأت بالانصراف ولكنها امسكت بيدي والقت علي سلاما حارا قبل ان اتمكن من المغادرة . وعندما نظرت الى لباسها البراق بكامله تحت غطائها الاسود المخرم ، ادركت انها كردية . بدا وجهها الوردي مألوفا جدا ،ولكنني لم استطع تذكر فيما اذا كنت قد التقيت بها أم لا .

وسألت :

ـ اين كنت ، خانم ؟ قلوبنا مشتاقة اليك .

بدأت اشعر بالارتباك لعدم قدرتي على تمييز هذه المرأة . وبعدئذ تذكرت انها كانت الخادمة التي رحبت بي عند الباب في المرة الاولى التي ذهبت فيها لمنزل مريم . ابتسمت لها معبرة عن شكري لودها .

ـ متى ستحضرين لرؤيتنا ثانية ؟

قالت ذلك وكانت لاتزال ممسكة بيدي بعدما انتهينا من المصافحة بوقت طويل .

راودني احساس بأن اكون غامضة . وكان ذلك فعلاً

منعكسا كنت قد اكتسبته اخيرا بالاستجابة لأسئلة من هذا القبيل كانت تطرح علي بالفارسية . ولكني سيطرت على نفسي بعد ذلك . آلم تكن هذه المرأة رقيقة وودودة معي على وجه الخصوص ؟ آلاتتكلم الكردية وليس الفارسية ؟ وبالاضافة الى ذلك كنت قد وعدت نفسي بأن اعود الى منزل مريم في نفس هذا الاسبوع . فأجبتها بأندفاع :

ـ سأحضر عصر هذا اليوم . هل هذا حسن ؟

فقالت :

ـ حسن جدا ، اذا سنراك .

بينما راقبتها تمشي مبتعدة عبر الشارع بالخطى غير السريعة المتعثرة التي تميز مرتديات الحجاب تساءلت فيما اذا كنت قد ارتكبت خطأ ما . افترض انها كانت تعني بهذه الدعوة الشكليات فقط ؟ افترض ان لا احد في المنزل الواقع في شارع بهلوي يريد أن يراني ؟ افترض انها لن تخبرهن بأنني ذاهبة اليهن ؟

هدأت مخاوفي لتوها عندما قرعت جرس الباب ، بعد ذلك بعده ساعات . وقفت خديجة بنفسها في المدخل تبتسم ابتسامه عريضه وهي تصافحني وتسألني عن سبب غيبتي طوال هذا الوقت . اوضحت لها اني كنت في طهران ، ولكني شعرت بالذنب لأنني كنت قد بقيت في طهران لمدة اسبوع فقط بينما غبت عن منزل مريم لأكثر من شهر . وقد اخبرتني خديجة بأنها قد بقيت في القرية لمدة اسبوعين فقط وعندما عادت كانت تنتظرني وتترقب قدومي كثيرا . وعندما قادتني الى الطابق الثاني الى حجرة النوم منارة بالحمامات حملت حقيبتي بيد وامسكت بيدي بالاخرى .وحالما جلست ،جلست هي ايضا بجانبي على الارض وهتفت قائلة :

ـ مارغريت ، ان لك اسما جميلا .

فابتسمت لها . وقالت لي :

- هل تعرفين مارغريت الثانية ؟

اعتقدت ان مارغريت اسم مسيحي في ايران ، مقصور فقط على الآشوريين والارمن .

- هل هناك مارغريت كردية ؟

- سأريك .

قفزت خديجة وذهبت الى الخزانه واخرجت من داخلها دفترا ضخما ذا غطاء بلاستيكي .

- دفتر صور العائلة .

في البداية بدأنا بتقليب صفحات من الصور لاكراد متجهمين ، كانوا جميعا افراد عائلة الحاج اسماعيل وعائلة مريم ، وقد كانوا مصطفين بنفس الطريقة مثلما كانوا في الصور التي اظهرتها شيرين وبروانه لي في مانوا . في حوالي منتصف دفتر الصور وفي صفحة لوحدها وجدت صورة لفتاة متمرسة ، محترفة للقتال،آشورية سمراء ، صغيرة ، تدعى مارغريت . كنت قد رأيت هذه الصورة في كتاب عن الحرب الكردية في الستينات . كانت مارغريت هذه قد قاتلت مع الثوار الاكراد في العراق . ومع انها كانت مسيحية فقد قاتلت هي وآشوريون آخرون مع جيرانهم الاكراد ضد سياسات الاضطهاد التي كانت تمارسها الحكومة العراقية . قالت خديجة :

- اسمك مارغريت ، تماما مثل اسمها .

كنت ارغب في الاطلاع على المزيد وسماع الاكثر عنها ولكن بدا أن خديجة كانت تعرف عنها فقط بقدر معرفتي وربما أقل . بالنسبة لخديجة كانت كردية وليست آشورية . على الرغم من انه لم تكن لدي نوايا في الوقت الراهن لحمل السلاح مع الاكراد فقد كنت سعيدة لأن اعتبر من ضمن جماعة تحمله .

بعد تقليب صفحات من الالبوم وصلنا الى صورة عرو س . كانت تلك صورة عائشة نفسها التي قابلتها في اليوم الذي سافرت فيه مريم الى قريتها . فأخبرتني خديجة قائلة :

ـ لقد درس زوج عائشة في بلدك ، مارغريت . انه دكتور .

تمثل في ذهني مباشرة ماكنت اعلمه عندما قابلت عائشة ذات النظرات الملوكية لأول مرة وما اخبرتني اياه خديجة الآن مع وصف السيد خليلي البعيد العهد . هل يمكن ان يكون هنالك دكتورا ن كرديان في ريزاي ـ وأن يكون احدهما قد درس في امريكا و الآخر في روسيا ؟ فكرت في احتمال ان احساس خديجة الغامض بالجغرافية قد دمج الولايات المتحدة و الاتحادالسوفياتي في مكان واحد بعيد على نحو متساو ، فسألتها :

ـ هل انت متأكدة من انه لم يدرس في روسيا ؟

فبدت عليها الحيرة وقالت متضايقة :

ـ بلدك ، اظن انه كان بلدك ، مارغريت .

ان من أهم صفات خديجة و اكثرها ابهاجا كانت اساليبها الريفية ، وسلوكها الودي الصادر من القلب ، والطريقة التي تضرب فيها على ركبتيك اوتمسك فيها صدرك . وترددها على نافذة منزل مريم وعقدها احاديث طويلة مع الجيران عبر الزقاق . آن هذا الضرب من السلوك من غير الممكن ان يليق بسيدات متمدنات ولكن خديجة كانت قادمة جديدة الى المدينة قليلة التجربة عندما قابلتها في المرة الاولى . كانت قد تزوجت منذعدة شهور فقط وهذه هي المرة الاولى التي تزور فيها ريزاي في حياتها لم تذهب الى المدرسة اطلاقا ولم تتعلم القراءة والكتابة أبدا وموءخرا لاحظت انزعاجها لجهلها القراءة والكتابة عندما لفتت سلفتها النظر الى ذلك في حضوري .

ان عدم معرفة خديجة لمواقع البلدان لم تكن غلطة من

صنعها . كان اخوتها الاصغر منها ببضع سنوات قد ارسلوا الى المدرسة الثانوية في ريزاي . ولكن خديجة كانت خجلة لافتقارها للتعليم كما لو أنها الملومة في ذلك . لم استمر في سؤالها عن المكان الذي درس فيه زوج عائشة . فخديجة المتحمسة والغالية لم تكن واحدة اريد مضايقتها .

قبل ان اغادر سألتني فيما اذا كنت قد ذهبت لرؤية عائشة :

- انها تنتظرك يامارغريت .

عند ذلك شعرت بوخز من الندم والخجل . فطوال هذه المدة كنت افترض ان مسألة الذهاب الى منزل هؤلاء النسوة مهم بالنسبة لي فقط ولم يخطر ببالي قط انهن ايضا يمكن ان يكن قد جلسن يتساءلن عن سبب عدم قدومي . وانه من الممكن انهن يتشوقن لوصولي . في طريق نزولي الى الطابق السفلي شعرت برغبة في تقبيل الخادمة ذات الوشاح البرتقالي والوجه الوردي وقد وقفت خديجة في ردهة الطابق الاول تحدق في عيني وقالت :

- انت مثل اختي يامارغريت ، تعالي الى منزلنا ثانية ودون تأخير .

لقد كنت مسحورة بزوجها لدرجة اني في البداية لم اقدّر كم كانت رائعة هي نفسها - ربما اكثر روعة ، لأنها لم تتمتع بالمزايا التي يتمتع بها زوجها بصفته ذكرا . فهي لم تكن قد تعلمت في كلية في بغداد ولم تسافر الى الاتحاد السوفياتي لدراسة التاريخ الكردي . ووالدها لم يسمح لأطفاله الاناث الذهاب الى المدرسة مقصرا تعليمهن على الدروس الخاطفة والسريعة التي يلقنها الملالي في المنزل .

عندما ذهبت الى منزل عائشة لأول مرة شعرت به مختلفا

تماما عن منزل مريم . فقد بدا اوسع واكثر تهوية ، من جهة لأن عدد الافراد فيه كان اقل ـ حيث لم يكن لدى عائشة اطفال ـ ومن جهة اخرى انه كان ذا ارضية نظيفة وسقوف عالية . لقد كانت حجرة الجلوس ، المكان الذي استقبلتني فيه في الطابق الثاني ، مغطاة بسجادتين كبيرتين عجميتين ، رائعتين برسوم الحيوانات والورود المنسوجة داخل تصميمها الفني الاجمي. كانت اصص المزروعات بأحجامها واشكالها المختلفة تكتظ على طول الرف الطويل في اسفل النوافذ الممتدة من الارض حتى السقف في واجهة المنزل كلها . ففي احدى النهايات كانت توجد شجرة تحمل ثمر الليمون وفي النهاية الاخرى كانت شجرة الفوشية السهلة الكسر ولوحات مطرزة وموءطرة كانت معلقة على الحائط . وفي الزاوية كانت تقف خزانة تلفزيون مع ابن عرس محنط فوقها والشيء الاكثر غرابة في الغربة كان خزانة الكتب الخشبية الضخمة المصنوعة من الزجاج والخشب . فحتى الجعفريون المتمدنون على طريقتهم لم تكن لديهم رفوف للكتب في منزلهم ذي الاثاث الفخم .

لدى بقائي لوحدي وجها لوجه مع عائشة جالسة في كرسي معدني موضوع على نحو غير مريح قربها في وسع حجرة الجلوس تلك ، خامرني شعور بأن شخصا مايلاحظني ويحكم على تصرفاتي بطريقة لم احس فيها بهذا الشعور وأنا مع مريم وخديجة . فعائشة لم تأخذ رفضي للكرسي على محمل الجد ، ولم تهمل امدادي بملعقة عندما أمرت باحضار الشاي وبدلا عنه شربت ماء دافئا قدمته الي بلباقة عندما سألتها ماذا كان ذلك ، جلسنا ببساطة نحدق ببعضنا وقد كانت كراسينا قريبة جدا من بعضها لدرجة أن ركبتينا كانتا تتلامسان تقريبا . بدا آن عائشة كانت تنتظرني لبدء حديث ما . كنت اظن دوما ان رغبتي الملحة هي ان امكث لوحدي مع امرأة كردية دون جمهرة تصرف انتباهي عنها ولكنني الآن لست متأكدة جدا من ذلك . نظرت الى عائشة وابتسامة مسلية

تكاد تكون ساخرة تلوح على شفتيها .

- هل تريدين ان اعلمك الانكليزية .

سألتها دون ان اعرف ماذا اقول غير ذلك . فأجابت بنعم بجرس اقل حماسة بكثير مما كانت عليه من قبل عندما سألتها السوءال نفسه في منزل مريم . حاولت اعطائها كلمات وعبارات ولكنها بدت فاترة الحماس ومرتبكة لدى تكرارها اياها ، لذلك توقفت عن ذلك . فسألتني وبدون مناسبة تتعلق بهذا السوءال :

- الا تفتقدين اهلك يامارغريت ؟

فأوضحت لها مفصّلة :

- بلى افتقدهم ولكن ليس كثيرا فايران بلد ممتع جدا وأنا سعيدة بوجودي هنا .

وفجأة انفجرت بضحكات مدوية . فحدقت فيها متضايقة .

- ماذا قلت ؟

فأجابت معلقة وهي تمسح عينيها :

- ان لغتك الكردية مضحكة جدا .

بعد ذلك مضت محادثتنا على نحو اخرق ، وقد تكلمت بهدوء وبغير تواصل لأني خشيت ان تجد لغتي الكردية مثيرة للضحك ثانية . وقد واصلت تفحصها لي بقساوة . بعد ذلك لفترة قصيرة دخلت امرأة ممتلئة الجسم ، تفاحية الخدين الى الحجرة وجلست على الارض بينما مكثنا انا وعائشة على الكراسي ، تكلمت هي وعائشة بسرعة وبلهجة مختلفة قليلا لم اقدر على فهمها . ولكن عائشة لم تنس وجودي وكانت تقحمني في الحديث قدر استطاعتها . لاحظت أن عائشة وصديقتها تقفان فجأة على قدميها حتى قبل آن ارى الرجل الطويل عند مدخل الباب ، فوقفت انا أيضا . هل كان هذا الرجل الضخم الواقف عند مدخل حجرة الجلوس هو الدكتور المشهور ؟

تقدم الى الامام وعيناه تلمعان وقال بانكليزية دقيقة :

- كيف حالك سيدة مارغريت ؟ اهلا بك في منزلنا .
أومأ ت برأسي واجبته ببعض الكلمات لقد اوقع في نفسي رهبه ليس لضخامته فحسب - فقد كان واسع الصدر طويل القامه - بل ايضا بانكليزيته وبالطريقة التي كانت تقف فيها هاتان المرأتان وهما صامتتان وتظهران فيها الاحترام البالغ في حضوره بما في ذلك زوجته نفسها . بدا انه احس بعدم الراحة التي سببها ، لذلك فقد انحنى احتراما وخرج لتوه من الحجرة متمنيا لي اقامه سعيدة في ايران . دار في خلدي تساوءل فيما اذا كنت سأراه ثانية أم لا . لقد تصرف كما لو انه زائر في هذا المنزل ولكن من المؤكد انه يقيم هنا .

اجلت بنظري في حجرة الجلوس على الابوآب المغلقة الموءدية للحجرات الاخرى وتمنيت لو اني استطيع روءيتها جميعا واعرف مايدور في هذا المنزل الغامض . وعندما اختفت عائشة لمدة عشر دقائق دون ان تخبرني عن ذهابها تساءلت فيما اذا كانت تنوه بذلك انه علي المغادرة . لربما انها كانت مشغولة جدا ولم ترغب في ان تخبرني بذلك . وعندما عادت اخيرا وقفت بسرعة وقلت انه قد حان وقت الرحيل .

فلو كان ضحك عائشة من لغتي الكردية مقرونا بغيابها الغريب غير المفهوم من الحجرة قد حدث قبل زيارتي لخديجة لشكل ذلك دافعا لي لتجنب زيارتها في المستقبل وذلك اعتقادا مني بأنها في الحقيقة لاتريد روءيتي ، ولكني ولسبب ما اعتقدت انها تريد ان تراني وانها قد وجدتني مسلية ومثيرة للاهتمام مثلما وجدتها انا ايضا كذلك . دعتني الى زيارتها ثانية متى شئت والا أتاخر في ذلك . لقد جعلني منزلها اشعر براحة اكبر للقيام بزيارته وذلك لأنه لم يكن لديها اطفال مثلي ولأن منزلها كان خاليا نسبيا .

في المرة التالية التي قمت فيها بزيارة منزلهــــــــا اكتشفت ما كانت تفعله عائشة اثناء اختفائها المفاجيء خــــلال زيارتي الاولى لها . فهذه المرة ادت صلاتها امامي ، حيث مضــت الى احدى زوايا حجرة الجلوس وخلعت سروالها الطويل تاركة اياه فـــي كومة صغيرة بجانبها ... لم ار من قبل ابدا أي من النساء غيـــر الكرديات يخلعن سراويلهن قبل الصلاة ولكن بقية الطقوس من الترتيـل والركوع والسجود نحو الجنوب صوب مكة كان عملا مكررا ودقيقـــا لسلوك يتكرر خمس مرات في اليوم في جميع انحاء الشرق الاوسط . لقد قامت بأداء كل ذلك بحضوري وحضور المرأة القصيرة الممتلئة ذات الخدين التفاحيين ، التي بدت على انها رفيقتها الدائمـــة. جلسنا كلانا في صمت ، بينما تأملت أنا الصورة المزدانه المصنعـة آليا والمعلقة قرب خزانة الكتب وكان قد رسم في هذه الصـــورة رجلان معتمران طاقيتين نسيجيتين وهما يقفان الى جانب بعـــض الثنايا والطيات السوداء يمعنان النظر في شكل بيضوي اســـود. وقد علمت انها تمثل الكعبة ، البيت الحرام في مكة المكرمة . وقـد كانت فترات العصر في منزل عائشة تفعم بالنشاط جراء تحديقـــي في هذه الصورة المثيرة للفضول . لقد استوقفني امر هو : ان الاكراد يميلون الى تعليق صور مصنعة مبهرجة على الحائط ، بينمايتركون السجاجيد المصنوعة يدويا التي لاتقدر بثمن على الارض ، بعـــد أن وجدت هذه النماذج من الصور في اكثر من منزل كردي . أن الايرانيين المتمدنين الاثرياء الذين كانت لهم القدرة اللامحدودة للوصول الــى المحلات التي تفيض بالبضائع المصنعة كانوا قد بدأوا يثمنون الصناعات اليدوية القديمة أكثر فأكثر ،بينما كان الاكراد المعزولون فـــي قراهم لايزالون يعتبرون المنتجات الجديدة لايران (العصـــــر البلاستيكي) على انها جميلة .

تطورت العلاقة بيني وبين عائشة حالما بدأت بزيارتها بانتظام وقد توسعت اكثر بكثير من علاقتي مع النساء في منـــزل

مريم . وقد سألتني عائشة لمرة واحدة فقط ، فيما اذا اجببت ايران اكثر ام امريكا بدلا من كل مرة اقوم فيها بزيارتها. وبعد ذلك سألتني بالتفصيل عن عائلتي ، عن حياتي ، عن ردود فعلي تجاه عملي في الكلية ، وعن السياسة الامريكية ، وقد ارادت أن تعرف لماذا رضي والدي بابنتين فقط ودون أولاد، ارادت ان تعرف ماذا تفعل امي الان حيث لم يعد اطفالها في البيت ، ارادت ان تعرف لماذا استقال ريتشارد نيكسون عن منصبه (وكانت الصحف الايرانية قد اوردت ان اليهود قد اضطروه الى تقديم استقالته) . ارادت أن تعرف رأي الامريكان بالمخدرات . ماكنت سأصدق ابدا ان محادثتي مع عائشة هي ممكنه . وذلك لسببين اولهما هو انني اعتقد اني لااعرف اللغة جيدا وبما فيه الكفاية . وثانيهما هو انني ولبساطه مني شككت في امكانية درايتها واهتمامها بأشياء خارج المجتمع الكردي . وعلاوة على ذلك كانت عائشة تطلق احكاما اخلاقية ، فقد سمعت ـ وذلك بعد مضي ثلاث سنوات من بعض افراد عائلتها ـ انها قد اوضحت رأيها فيّ وهو انني شخصية تتمتع بصفات جيدة . ولكني لم استغرق ثلاث سنين لاكتشاف كم يقدر بعض هوءلاء النسوة الاخريات آراء عائشة عاليا او ان اسمع عائشة وهي تخبرني عن شوءون تخص عائلتها والتي لم يرد احد غيرها الاشارة اليها .

ولكن من كانت عائلة عائشة ؟ لقد بدا أنها قريبة مريم ولكني لم افهم لفترة صلة القرابة هذه على وجه التحديد. وقد سألتني يوما فيما اذا كنت ارغب في زيارة منزل والدها في وقت قريب فأجبت مندهشة

ـ منزل والدك ؟ من هو والد عائشة .

فأضافت قائلة :

ـ المنزل في شارع بهلوي .

فصححت لها :

ـ منزل مريم .

فقالـت متسامحة :

ـ نعم منزل مريم .

لابد أن عائشة قد بذلت جهدا في محاولتها لتقبل فهمي الخاطيء بأن المنزل كان يخص مريم . ولكن عائشة كانت تتفهم اكثر بكثير من اخواتها وزوجات اخوتها اني اجنبية لاتعرف الكثير عن العادات والاعراف الكردية .

ولأن عائشة نفسها قد اقامت في بلدان لايعرف فيها سكانها شيئا عن الاكراد ، فقد ادركت امكانية عدم استيعابي لتربيتها ابدا ، بأنها قد انشئت على كره مريم والشعور بالغيره لما كان قد اعطي لها ولأطفالها . وادركت تدريجيا فقط ، أن والدة عائشة ومريم كانتا ضرتين عند والد عائشة . لقد كانت عائشة الاخت الثانية ، الاكبر سنا من بين اطفال والدها الكثيرين جدا ، ولكنها في عمر اولاد مريم تقريبا . وبينما كان لدى والدة عائشة بنات فقط ،ولدت مريم للحاج اربعة أولاد اقوياء . وهذا الشيء لم يجعل المنافسة المألوفة بين الزوجتين اسهل على ام عائشة لتتحملها. ولكن وعلى الرغم من كون الاولاد ذوي فائدة عظيمة لمريم فانهم لم يوءهلوها لأن تكون مالكة المنزل في شارع بهلوي اكثر مما كان لوالدة عائشة ، فالملكية كانت متبقية للحاج . لقد كان لعائشة مكانة خاصة عزيزة علي ، وذلك بسبب ذكائهاوحساسيتها ولكنها كانت عزيزة ايضا على اناس آخرين بسبب منزلتها الاجتماعية وليس بسبب شخصيتها . وقد كنت اتساءل قبل أن افهم هذا الوضع عن سبب ارتدائها البسة رائعة وفخمة وسبب تزينها بالذهب اكثر من اية امرأة كردية عرفتها ،وسبب تحدثها بالفارسية افضل بكثير من غيرها ، وسبب سفرها لوحدها الى انكلترة واوربا .

كانت عائشة في سن الثامنه عشر عندما زوجت من اخي مريم الابن الاكبر لعم والدها وبذلك فان مريم لم تعد زوجة ابيها فقط ،

بل ايضا .اخت زوجها . ومنذ زواجها ، ذلك الزواج الذي اخبرتني عائشة بأنها قد خشته واشتكت منه امرّ الشكوى وانها لم تغفر لأمها أبدا لأنها قد سمحت به ،فان عائشة قد ارتفعت الى مكانة ما كان لها ان تحلم بها بغير ذلك . على الرغم من اهمية والدها ، ذلك الملاك الكبير والشيخ المشهور في كردستان ،فهو لم يبد أي اهتمام ببناته اكثر من صيانة عفافهن . لقد كان قد ترك عائشة حبيسة القرية ، حيث لايعرفها احد سوى افراد اسرتها من الاناث . والآن هي زوجة رجل اكبر سنا واكثر اهمية من والدها وهو وكما اتضح رجلا — وبالأساهما — لم يمنحها أي طفل . ان مكانة عائشة كزوجة للشيخ عبد الله وبدون اطفال يحومون حولها ، ولاضرائر لتتنافس معهن ، وباقامتهافي منزل جميل مع العديد من الخدم والجواهر قد جعلها اميرة حقيقية . ان لديها نقودا تحت تصرفها ، وايضا قدرا مذهلا من الحرية بالمقارنة مع والدتها ، وزوجة ابيها واخواتها لقد كان زوجها رجلا مثقفا ، وكان واضحا من الحديث مع عائشة انه قد امضى بعض الوقت في تعليم عروسه الشابة . وقد راودني تساؤل فيما اذا كانت دائما معتزة وواثقة من نفسها كما بدت لي الان .

اتيحت لي الفرصة كي ارى عائشة وهي تقوم بدور المضيفة الكريمة للاجئين العراقيين الاكراد الذين كانوا يترددون على منزلهما ، وقد اخرجت في احد الايام جدولا مدونا فيه شجرة عائلة الشيخ عبد الله . وذلك لكي تسلي اما وابنتها كانتا تقومان بزيارتها . وقد كان اساس الشجرة هو النبي محمد (ص) نفسه ،وبسبب ذلك ، فان العائلة تتمتع بحق لقب " سيد " وقد قدم جميع افراد العائلة على الشجرة بدوائر خضراء مرسومة بدقة وبداخلها اسماء مدونه بخط حسن . وقد انطلق الجذع نحو الاعلى متضمنا الشيخ عبد القادر ، وهو موءسس طريقة صوفيه في بغداد في القرن الثاني عشر وتفرعت منه عقد ورقيه محتوية على دوائر بداخلها اسماء للعديد من الشخصيات القيادية في كردستان في القرنين التاسع عشر والعشرين.

وكان من بينهم الشيخ عبيد الله ، الذي كان قد هدد بالسيطرة على معظم منطقة ريزاي وبسط السيادة الكردية عليها الى ان خدعه مبشر امريكي ومن ثم نفي الى مكة حيث وافته المنية هناك . ومن ضمن الاسماء المدونه كان اسم زوج عائشة نفسه ،الشيخ عبد الله ، ذلك الرجل الذي كتب تاريخا منهجيا عن الثورة الكردية باللغة الروسية .

سألت عائشة :

ـ ولكن اين انت ؟ وأين اسمك ؟

فأجابتني وهي تنظر الي وكما لو ان بي مسا من الجنون :

ـ لاتوجد نساءهنا .

ومنذ هذه اللحظة كنت اتحرق شوقا للتحدث مع الشيخ عبدالله ولكني لم اره ابدا عندما كنت ازور زوجته . فقد كانت حجرة الجلوس في الطابق العلوي مخصصة للضيوف الاناث . وقد افترضت أن هوءلاء الرجال الذين يأتون مع هوءلاء النسوة لابد انهم يمكثون مع الشيخ في الطابق السفلي وعلى الرغم من اني لم أرهم ابدا فقد اثار جميع هوءلاء العراقيين الذين يقومون بزيارتهما تساوءلاتي.

كنت اعرف ان الشيخ قد عاش جزءا من حياته في العراق ، ولكني لم اكن اعلم متى وفي اية ظروف . وقد كانت اخته مريم قد عاشت هي ايضا في العراق . وكانت قادرة على القراءة بالعربية جيدا ، ولكنها كانت تقيم في ايران منذ فترة طويلة كما كان والد الشيخ . وتساءلت لماذا بقي زوج عائشة في العراق كل هذه المدة ،ولماذا يأتي اللاجئون لروءيتة ؟ .

لمحت في احد الايام اضافة جديدة لتزيينات منزل عائشة فقد رأيت تقويما معلقا على الحائط وقد كتب عليه عنوان " تقويم الثورة الكردية العراقية " بالانكليزية والكردية والعربية . وقد كان الشهر الجاري ـ كانون الثاني ـ قد زود بصورة للملا مصطفى البرزاني ورسم وجهه على نحو انطباعي بظلال زرقاء مع عمامة

حمراء . ولدى تقليبي اوراق الشهور الاخرى تأملت صور نساء باكيات مطبوعات بالطباعة الحجرية بألوان زاهية ، وصور جنود وحمامة بجرح ينزف وصورة فتاة معلقة بمشنقة معنونه ب " ليلى " وكان قد دوّن في كل شهر العديد من التواريخ الهامة في الكفاح القومي الكردي ـ منها اعدام قواد عديدين ، الانتصارات والهزائم الرئيسية في ايران ، العراق ، وتركيا خلال القرن الاخير . تاريخ معاهدة سيفر وتاريخ معاهدة لوزان التي تلتها ، والتي اسقط فيها كل ذكر ممكن للدولة الكردية .

وقد قالت عائشة في اجابتها على اسئلتي : انها لاتعرف اين تجد تقويما آخر . وقد ابديت اعجابي به عدة مرات وقبل أن اغادر اهدته الي . ولم يكن من ضمن الشكليات بل هدية حقيقية . وقد عرفت ذلك لأن عائشة كانت قد تجاوزت اعتراضاتي الشكلية والمجاملة مسبقا باعطائي هدايا عديدة غير التقويم ، اشياء رائعة مصنعة يدويا من خزانة النفائس القابعة في الزاوية . كانت خديجة ايضا قد اعطتني زوجين من الجوارب الكردية المصنعة يدويا . وقد خلصت من ذلك الى نتيجة ، وهي انك اذا ابديت اعجابك بشيء في منزل كردي فانك ستجد هذا الشيء يقدم اليك كهدية .

لم تكن طريقة الاهداء هذه شائعة بين الايرانيين ففي حين يضطر صاحب شيء مالأن يقدم هذا الشيء لك فعليا ، فانك ملزم بالمقابل ان تجاري الشكليات وترفضة . وقد تعلمت موءخرا ألا ابدي اعجابي بالاشياء التي اراها في كردستان . ولكني ضعفت امام هذا التقويم ومثل طفلة صغيرة ، بريشة ضممته الى صدري عندما هرولت الى المنزل لاثبته على حائط منزلي وقد طلبت مني عائشة ان امسكه بطريقة ، بحيث لايمكن لأحد في الشارع ان يعرف ماذا يكون .

اعتدت على القيام بزيارات قصيرة لمنزل عائشة في طريق عودتي من الكلية الى المنزل اناقش معها احداث اليوم . وفي

احدى المرات زرتها في منتصف النهار ، فدعتني لتناول الغذاء معها رفضت دعوتها وهممت بالمغادرة بسرعة خشية ان اكون قد دعوت نفسي بطريقة ما ، فدروس نظام الشكليات والمجاولة الايرانية قد ترسخت لدي بثبات . ولكني قبلت في المرة الثانية التي دعتني فيها وحثتني على دعوة جيرد ايضا. واتتني الفرصة التي كنت انتظرها منذ اسابيع دون أن ادرك ذلك فقد سألتني عندما وصل جيرد :

ـ هل تحبين تناول الغذاء مع زوجك ام معي في الطابق العلوي ؟

لقد كنا جالستين في الاسفل في حجرة جلوس الشيخ لأن المطبخ ايضا كان هناك وكانت عائشة تتناوب في دروسها كمشرفة على الطباخين وكمضيفة . كان الشيخ عبد الله يستند بظهره على احد الكراسي الفخمة المريحة المصفوفة على طول جدران حجرة جلوسهم يتكلم القليل بلغة انكليزية رسمية جدا ومهملة . وقد اجلست بنظري ونقّلته بين الشيخ وعائشة عندما اتى جيرد الى مدخل الحجرة. ها هو جيرد ، وقد شرع في لقاء الشيخ عبد الله في زيارته الاولى لهذا المنزل ، وقد كانت فرصة انتظرتها اسابيع عديدة . ولكن لو اخترت البقاء مع الرجال ، فماذا ستفعل عائشة ؟ ان عليها ان تتناول الغذاء لوحدها . وعلى نحو غير بارع ناشدت ادراكات الشيخ عبد الله الغربية وسألته :

ـ الانستطيع تناول الغذاء كلنا معا ؟

ـ طبعا نستطيع .

اجاب بلطف واخبر عائشة ان تتناول الغذاء معنا . لقد كان ذلك سهلا بالنسبة للشيخ عبد الله . اما بالنسبة لعائشة فلم يكن سهلا مطلقا . فهي لم تلمس الطعام تقريبا ، فشعرت بالاسف لأن " فضولي " فاق مشاعر آخذها بعين الاعتبار . ولكني لم استطع ان ابدي أسفي فعليا . اخيرا وخلال هذه الوجبة عرفت سبب قيام العديد من اللاجئين العراقيين بزيارة الشيخ عبد الله . واخيرا

اتخذت المقالات والفصول التي قرأتها عن التاريخ الكردي في الولايات المتحدة والدوائر الخضراء والاسماء المدونه في شجرة العائلة شكل وجه بشري.فهنا كانت اسطورة حية للثورة الكردية .

ولد الشيخ في تركيا منذ اكثر من نصف قرن مضى . لقد رأى وهو لايزال فتى يانعا اعمامه واجداده يعدمون من قبل الحكومة التركية كعقاب لاحدى ثورات الاكراد التي تلت استلام مصطفى كمال اتاتورك مقاليد الحكم . ولكن ، ماكان لعائلة عبد الله وهي احدى العائلات الرئيسية في كردستان ، ان تتخلى عن كل شيء تملكه لكي تلوذ بالفرار من الاضطهاد المستمر الذي كانت تمارسه الحكومة التركية الجديدة . فقد ذهبوا ببساطة واستقروا في بلد آخر يملكون فيه ارضا . يمكن ان تصادر الحكومة قراهم ولكن كان لديهم العديد من القرى الاخرى في العراق وايران .

نشأ عبد الله في العراق . وعلى الرغم من كونه كرديا فقد منح امتياز حضور كلية الضباط في بغداد ، وذلك لأنه سليل اسرة ذات شأن عظيم . وبعد التخرج عين ضابطا في الجيش العراقي . ولأسباب معينة غير واضحة لي ، اتى والده ، وهو شيخ موقر مع عدد ضخم من الاتباع ، ليستقر في ايران ، بينما بقي عبد الله في العراق ومن ثم وعندما اصبحت العراق غير آمنه بالنسبة للاكراد النزّاعين الى الحرية ،تبع عبد الله الشاب الملا مصطفى البرزاني الى مهاباد، حيث اصبح عضوا في الجيش الذي دافع عن تلك الجمهورية . ولدى سقوط الجمهورية ذهب عبد الله وآخرون مع البرزاني عندما فر الى روسيا، وقد تبعثر الاكراد اللاجئون الذين رافقوا البرزاني حالا في اصقاع الاتحاد السوفيباتي ، وقد قدر لهم ان يكابدوا نصيبهم من جنون العظمة والارهاب عند ستالين . وقد قضى عبد الله نفسه سنتين في سيبيريا وجزء منها قضاه مضربا عن الطعام . وقد عمل لفترة في مصنع احدى المقاطعات الشرقية ، حيث اتخذ زوجة روسية وانجبت له بنتا . واخيرا وكما وعده بعض الموظفين السوفييت

العاملين في اذربيجان الايرانية تمكن من الدراسة في جامعة لينينغراد . وقد بدت الاحداث في العراق مواتية مرة ثانية لعبد الله والاكراد الآخرين بعد مضي احدى عشرة سنة من وصولهم الى الاتحاد السوفياتي . ففي سنة ١٩٥٨ قام عبدالكريم قاسم بانقلاب في بغداد ودعا الاكراد الى ان يمارسوا حقهم الشرعي في القوى الاقتصادية والسياسية في العراق . وقد جعل الملا مصطفى البرزاني العودة المنتصرة من الاتحاد السوفياتي كيوم جديد للتقدم وكان من المفترض ان تنبثق معاهدة صداقة عرقية متبادلة في العراق . والتحق عبد الله فورا برجال البرزاني للعودة الى بغداد تاركا وراءه زوجته الروسية وابنته .

وفي سنة ١٩٦٠ عمت الفوضى العراق ثانية فقد كان الشيوعيون يقاتلون القوميين العرب . ولم يبد احد اهتمامه عدا الاكراد بقضية الحكم الذاتي الكردي . وعندما اتضح ان قاسم لن ينفذ ماوعد الاكراد به ، بدأ الاكراد المشاركون في حرب العصابات بالقتال في الجبال. وقد رد عليهم قاسم بالحرب الشاملة . وتحت ضغط هذا الانكار الجديد لحقوقهم بدأ الاكراد بتشكيل حركة موحدة .

لقد كان الملا مصطفى - وهو رجل قبيلة البرزانيين القوي الشكيمة والجنرال من ايام مهاباد - قائدا عسكريا لاجدال في ذلك . وقد كان هنالك ايضا قواد سياسيون آخرون في ح . د . ك وهذه الاحرف ترمز اصلا الى الحزب الديمقراطي الكردي ،الى ان تغير الاسم الى الحزب الديمقراطي الكردستاني ليمثل كل المجموعات المضطهدة في كردستان العراق بمافيهم - الآشوريون ، والتركمان ، والعرب ، وأيضا الاكراد . وقد توسع الجيش الكردي من المقاتلين البرزانيين غير النظاميين الى " البيشمركه " وتعني حرفيا " مواجهوا الموت " وهو الاسم الذي عُرف به الجيش الكردي منذ ذلك الحين .

لم يكن عدوان سنه ١٩٦١ مثل الحروب الاخرى ضد الاكراد

يشمل غالبية الجنود العراقيين وقد حصل الاكراد على الكثير من الاسلحة من الفارين من الجندية وكذلك من السوق السوداء وقد ترك العديد من الضباط الاكراد مواقعهم في الجيش العراقي وانضموا الى الملا مصطفى .

لقد قصف العراقيون القرى الكردية بالقنابل ورشقوها بالرشاشات ، واسقطوا النابالم واطلقوا الصواريخ عليها . وسوي الريف خرابا ، وفر الكثير من القرويين الى التلال والكهوف بحثا عن ملاجىء لهم . وعلى الرغم من هذا الهجوم الضاري ، كان الاكراد لايزالون غير قادرين على ان يتوحدوا سياسيا . وقدتحالف بعض الاكراد مع الحكومة العراقية وقاتلوا ضد اخوانهم الاكراد . وقد كان الزيباريون ، الاعداء القبليين التقليديين للبرزاني ، قد عززوا بسرعة من قبل الحكومة العراقية لمقاتلة العصيان المسلح . بعدئذ بدأ النزاع يدب بين القواد الاكراد أنفسهم ، وقد انقسم ح . د . ك . بين المصالح الاقطاعية القبلية ،التقليدية الممثلة بالبرزاني وبين العناصر الاشتراكية ، اليسارية الجديدة المتعاطفة مع جلال الطالباني . ان الحذور الاجتماعية والسياسية لعائلة الشيخ عبد الله جعلت منه مالكا للاراضي ولكنه اخذ اليسار من البرزاني لثقافته السوفياتيه . لربما ان البرزاني خشيه لأنه كان من الممكن ان يقدر على توحيد هذين الطرفين المنشقين . كان من الممكن لعبد الله ان يعارض حق البرزاني في حكم كردستان على اسس السلالة الارستقراطية فقط . فقد كان اسلافة ثوارا معروفين ، كما كانوا شيوخا موقرين . ولم تكن للبرزاني شجرة عائلة تمتد بنسبها لتصل الى النبي .

اشار الشيخ عبد الله الى البرزاني بازدراء ووصفه بأنه دكتاتور ، مع تشديد على المقطع الاخير . وحسب اقوال الشيخ فانه كان قد اطلق سراحه عملاء السافاك المبعوثون من ايران ،بعد ان سجنه البرزاني في الجبال ، وذلك نزولا عند طلب والده . فكرت كثيرا

في الجزء الاخير من القصة المتضمنة تورط والد عبد الله مع البوليس السري الايراني . لربما كانت هذه مسألة منفعة فقط بالنسبة لعبد الله ، فقد كان عليه الخروج من العراق بآية وسيلة . وفي سنوات عديدة لاحقة بدأ البرزاني بتطهير ح . د . ك ممن ارتاب فيهم على انهم شيوعيون ولكن عبد الله وهو ابن شيخ مسلم مشهور لم يعد شيوعيا اكثر من معظم الذين اختلف مع البرزاني . فقد كان يرى فقط انه حتى لوتمكن الاكراد من احراز الاستقلال الذاتي من الحكومة العراقية فان معظمهم سيظلون مضطهدين وسيستمرون في بيع قوة عملهم ومحاصيلهم لمالكي الاراضي . وقد شكك عبد الله ومفكرون آخرون من الاكراد في امكانية انتصار البرزاني كاشفين عن ولاءاته ، واساليبه الآيلة الى الزوال . وفر قائد المعارضة الرئيسي ، جلال طالباني من العراق ، تاركا زمام قيادة ح . د . ك في يد الملا مصطفى البرزاني لوحده .

استمرت الحرب الكردية تسع سنوات اخرى بعد عزل قاسم عن السلطة بعد بضع سنوات من حكمه ، وقد اعلن في البداية عن اتفاقية وقف اطلاق النار ، ولكن الحكومة الجديدة تشدقت فقط بتأييدها للاهداف الكردية . واتضح بعد مدة ليست بطويلة من تعزيز سيطرة الحكم الجديد على العراق انهم كانوا المقاومين الاكثر عنفا للاكراد اكثر من كل الذين سبقوهم . وكممثلين عن جميع العرب لم يبد هؤلاء الحكام العراقيين تعاطفا مع الآشوريين ، التركمان ، اليهود او حتى العرب الشيعيين في الجنوب العراقي . وفي سنة ١٩٧٠ وقع الاكراد والحكومة اتفاقية سلام متضمنة على خمسة عشر بنداء . وقد كان من المفترض ان يجري احصاء في شمال العراق لتحديد المناطق التي تقطنها اغلبية كردية واقرار هويتها . وبعدئذ سيعلن عن هذه المناطق على انها مستقلة . ولكن الاحصاء لم ينفذ ابداء . وفي الحقيقة بدأ العراقيون بابعاد الاكراد عن اراضيهم نفسها بالقوة وايضا كان من المفترض على البعثيين ، بموجب الاتفاقية ان يصلحوا

ـ من الناحية الاقتصادية ـ المناطق التي دمرتها حرب التسع سنوات بالاضافة الى ضمان الحقوق اللغوية والثقافية . للاكراد وحسب رأي الاكرادلم تتخذ اي اجراءات من شأنها ان تحسن المعيشة في كردستان، وفي سنة ١٩٧٤ كان من السهل على الشاه [illegible] الامريكية تشجيع الاكراد [illegible] في الوقت الذي اعتبر فيه الاكراد ان التنازلات التي قدمها [illegible] لم تحقق البنود الاصلية لاتفاقيتهم . ولكن لو كانوا يعرفون انهم سيفقدون فيما بعد حتى حقهم فى التحدث بالكردية في مدارسهم الخاصة ، لما خاضوا الحرب على [illegible]

عاد عبد الله الى ايران قبل عقد في مطلع الحرب [illegible]ة الثانية ، وجد ان ثروة العائلة ماتزال ضخمة على [illegible] اسها قد استنزفت الى حد كبير . كان الشاه سنة ١٩٦٠ . قد نفذ مشروع الاصلاح الزراعي ، الجزء الاساس مما دعاه على نحو متسم بالمبالغة بثورته البيضاء . وبموجب هذا القانون ، لم يسمح لأي مالك للاراضي ان يمتلك اكثر من قرية واحدة . واما الباقي فيجب أن يعاد للحكومة . وعلى الرغم من وجود الدليل الكافي الذي يشير الى التنفيذ غير العادل لهذا القانون على نحو فاضح في ايران فقد طبق في كردستان ، على الاقل ، بهذا الشرط وحده ، أي فيما يتعلق بابقاء قرية واحدة لكل خان (سيد) ولم التق ابدا بمالك اراضي كردي مهما كان غناه اوسلطته ونفوذه يمتلك اكثر من قرية واحدة . وقد بدا ان الاتراك من الجهة الثانية قد اصابوا نصيبا اوفر ، بعضهم على الاقل . فقد كان يظن ان امير فلاح ـ ذلك الرجل الغني القاطن في بداية زقاقنا ـ يمتلك ست قرى .

بعد ان تبع والد الشيخ عبد الله الاصلاح الزراعي ، بطلبه ابتياع احدى قرى العائلة مسترجعا اياها من الحكومة ، نجح في ذلك وكانت هذه هي القرية التي اتاها عبد الله مؤخرا ليوظف ماله ويبحث في اسباب تأمين مستقبله . كان قد وصل ايران وهو على

حافة الشيخوخة ولدى حدوث تغيير مفاجىء في غير اوانه في النهج السياسي الذي بدا واعدا بالكثير والذي من المؤكد قد اقتضى استعدادات ضخمة ومعاناة من جهته ، لم يعتمد على ثرواته او يعلق آمالا على المركز الاجتماعي لعائلته بينما بقي ابن عمه الحاج اسماعيل في [illegible] الموروثة عن اسلافه وتزوج من خمس نساء ، كان عبد الله قد قاتل في العراق وايران [illegible] في مصنع وعاش في سيبيريا . [illegible] الى ايران بعد كل هذه السنين لم يكن يملك شيئا حتى [illegible] .

عُثر على زوجة له بسهولة من بين عائلته ، اما الباقي فقد كان يقع على عاتقه هو نفسه . لم يستطع ان يتبع خطى والده لأن قضاء عقد من الزمن في روسيا لم يكن ضربا من الاستعداد الملائم لأن يكون شيخا صوفيا مزاولا للشياخة مع وجود اتباع ومريدين له . وكذلك لم يستطع الاستفادة من دراسته وثقافته الجديرة بالاعتبار. ففي ايران لاتقدر الشهادات السوفياتية غالبا ، لأنه ينظر الى الذي عاش في روسيا ـ ولو بشكل موءقت ـ بارتياب ، أي كان مايقوم به الشيخ عبد الله خلال وقته وهذا مما لم يكن جليا بالنسبة لي اطلاقا ، فقد كان واضحا من الطريقة التي يتحدث فيها انه يشعر بأن عيون السافاك كانت تراقبه دائما . فعندما سألته عن سبب عدم كتابته مذكراته اجابني وهويبتسم وكما لو انها كانت نكتته ، على ان ذلك لا مجال للتفكير فيه على الاطلاق . فحتى كتابتها وبدون محاولة لنشرها ستعرضه للخطر .

على الرغم من عدم كون الشيخ عبد الله شخصا فذا في ايران وعلى الرغم من القيود التي تربطه بمدينة متخلفة وقرية صغيرة ، فقد كان من الواضح انه ذو شأن في كردستان . وقد كان ذلك سبب مجيء اللاجئين لزيارته وسبب مارأيته من تدفق الملا لي والقواد الذين يأتون يسألون نصيحته عندما قمت بزيارة الى قريته موءخرا . تساءلت فيما اذا كانت هذه القلة القليلة من التقدير والاحترام تعوض

عما فقده بعد كل هذا .

حاولت ان ابلغ بعضا من ماهيه شعور الشيخ عبد الله تجاه ماضيه عندما كنت جالسة في ايوان منزله اتناول نباتا شوكيا مطهو مع الارز واللبن ، نظرت بفضول الى الصورة المعلقة على الجدار وقد كانت تظهر والده وهو ينحني للشاه . ان مثل هذه الصورة كانت ضرورية في أي منزل يمكن ان يفخرناسه بأي صلة شخصية مع الشاه . ماذا يعني لعبد الله – ذلك الرجل الحاصل على دكتوراه في الفلسفة من لينيغراد والذي كان قد فر لدى انهيار جمهورية مهاباد – ان يعلق صورة كهذه في غرفته ؟ تفحصت عائشة وهي تنحني نحو طبقها متضايقة عندما جلست على كرسي قاس ، بدلا من الارض التي اعتادت عليها. هل رغب عبد الله في الزواج من فتاة ريفية غير متعلمة ؟ لم تكن هذه الحجرة تنطوى على شعور بالمأساة اوعلى تضارب عنيف او مثير بين قوى مختلفة. ولاعلى شعور مفعم بما اخبرنا به الشيخ لتوه ، فقد رأيت امامي فقط زوجا وزوجة يتناولان الغذاء مع صديقين لباقة فقط . لقدكانت قصة عبد الله جديدة علي ولكنها كانت قديمة جدا بالنسبة له .

بعد ان تناولنا الغذاء بقي جيرد مع الشيخ ، بينما اخذتني عائشة الى الطابق العلوى ثانية لاحتساء الشاي في حجرة جلوسها . وبينما كنا نحتسي الشاي تأملت صورا في البوم كبير انزلته من على رف الكتب . وجميع هذه الصور التي كانت بالابيض والاسود كانت تخص عبد الله واصدقاءه في روسيا – منها مشاهد رحلات عامة واثواب سباحة لايمكن تصورها في كردستان مع وجود آلة تصوير او بدونها . رأيت صورة للزوجة الروسية بخديها السلافيين والابنه الروسية بضفائرها الشقراء الطويلة وعيني عبد الله الزرقاوين بمظهرهما الغريب . اخبرتني عائشة بجدية :

– لقد كتبت لها وطلبت منها المجيء لتعيش معنا .

– من ؟

سألتها ، متصورة انها قد عنت الابنه .

- زوجة زوجي .

لقد ادهشني ذلك . الا تتمتع عائشه بمكانتها كزوجة وحيدة ؟

وقالت عائشة بحزن :

- ولكنها لاتستطيع المجيء .

عائشة وعبد الله لم يكونا كرديين نموذجيين ، ولكني كلما كنت اعرف اكرادا اكثر ، كنت ادرك اكثر ان لا أحد من الذين التقيت بهم يمكن آن يعتبر نموذجيا ، وحتى خديجة بهيئتها الريفية لم تكن المثال النموذجي . لقد كانت ردود افعالهم جميعا تجاهي مختلفة ، ولكن بدا أن عائشة وعبد الله فقط يريان ماهو ابعد من غربتي ، ونظراتي وسلوكي الغريب . كنت اشعر مع الاخرين انهم لن يستطيعوا فهم ماكنت ارغب فيه فعلا ولكن عائشة كانت تعرف ما اريد . وفي زيارتي الثانية لايران اشارت عائشة الى حقيقة اننا - انا وجيرد - دون ريب قد عشنا معا قبل ان نتزوج ، وهذه الحقيقة لم اذكرها لكردي ابدا . وعندما حاولت على نحو واهن ان انكر ذلك ضحكت كما لو انها تعرف اكثر من ذلك بكثير. أن مثل هذه الدراية وخصوصا هذا التسامح في الآراء والمبادىء والسلوك كان غير مألوف اطلاقا بالنسبة لامرأة كردية ، او في الحقيقة لأي امرأة في ايران . فقد سمعت سيدات ايرانيات مدنيات ، وعلى الرغم من وجود اولاد لهن يدرسون في الولايات المتحدة ، انهن يشرن وبثقة الى حقيقة ان جميع الفتيات الامريكيات فاسدات .

أي مستقبل يتصوره الشيخ عبد الله وعائشة لنفسيهما ؟ هل سيغادران ايران يوما ما ؟ هل يمكن لعبد الله ان يستأنف نشاطه السابق في الحركة الوطنية الكردية ؟ لم تخطر ببالي هذه الاسئلة في الاشهر التي بدأ فيها جيش البرزاني وكأنه قد ربح الجولة في العراق . وقد بدا لي ان عبد الله كان يشكل تهديدا للبرزاني

ولكنه قد خسر ،اما البرزاني فقد ظفر . ولو تمكن البرزاني من قيادة الاكراد العراقيين نحو الانتصار ، لعنى ذلك الانتصار الاعظم لنهجـــه .

حدثت تغييرات شاملة موءخرا ، تذكرت كلمة عبد اللـــــه - دكتاتور - وهو ينطقها بانفعال اكثر مما قد اعتاد عليه لـــدى مناقشة ومجادلة مسائل متعلقة بالسافاك والحكومة الايرانية. كـــان الشيخ عبد الله مايزال وطنيا مخلصا . ولاأظن انه كان سعيدا للحظـــه لما حدث للاكراد على الرغم من الضربة التي سددت للبرزاني . ولكـــن كان لعبد الله كلمات قاسية عن قواد هذه الثورة ، فقد وصفهم بأنهـم رجال باعوا ثورتهم للحكومة الايرانية والسافاك وملوءوا جيوبهـــم بالذهب . فبعد عشر سنوات من وجوده في ايران كان الشيخ عبد اللـــه في موقع افضل من الجميع ليقدّر ماذاكانت الدوافع الايرانية الحقيقيـة في دعمها للقضية القومية الكردية .

الفصل العاشر

لايزال جزء وحيد من كردستان ، يلازم تفكيري . فلو اغلقت عيني ، فباستطاعتي ان ارى تلك الحلقة من الوجوه الشاحبة ، القلقة ،وجوه بعض المدرسين الذين يعتبرون من خيرة الاكراد واكثرهم ثقافة في العالم . كان العديد منهم يتحدث بانكليزية طليقة وكانوا جميعا يتقنون العربية . كانوا يرتدون مثلما ارتدي ،ولكونهم اكرادا لم يبدوا كالاجانب . استطيع تخيلهم فيأي مدرسة ثانوية في الولايات المتحدة . ان وجودهم في ايران وحتمية مواجهة العديد منهم التعذيب والموت كان في حدود الامكان ،لم يكن هوءلاء الناس مثلي فحسب ، بل اني كنت قد ارتكبت خطأ محاولة توريط نفسي ومواجهة نفس مصيرهم .

ان الوجه الاكثر حيوية هو وجه جمال ، ذلك الوجه الذي كنت اتخيله مرة تلو الاخرى عندما قرأت اسماء الذين اعدموا في العراق . اتخيل حديث هذا الرجل ، الودي والرقيق وعينيه الاكثر رقة والذي يمتهن تدريس الصف الاول . كنت واحدة من تلميذات صفه الاول وقد اظهر لي الاهتمام والصبر بنفس القدر الذي اظهره لجميع طلابه ــ كان يناهز السادسة والعشرين ، لم ار ابدا رجلا مثله ولم اتصور امكانية وجود رجل مثله . ربما لن يثابروا على ما كانوا عليه تحت ضغط الظروف القاسية والوحشية في ايران ، ولكن جيلا كاملا من الاكراد في العراق كان قد نشأ ودرس بلغته الام وتعلم في الجامعات في السليمانية . وقد تسلح هذا الجيل بكتبه التمهيدية لتعليم مبادىء القراءة والكتابة وكتبهم المدرسية . وكل ذلك بالكردية . كان من الصعب علي تصديق ان هوءلاء أيضا كانوا اكرادا . فاللهجة التي يتداولونها ، ويكتبون بها كانت مختلفة لدرجة كبيرة

عن لهجة اكراد ريزاي حيث كان من الصعب علي تتبعها .

حضرت الى مدرسة اللاجئين تحت رعاية العدو ـ فقد كانت الحكومة وراء قناع جمعية الاسد والشمس التي كانت تمنح المساعدة للاجئين . وعلى الرغم من ان البرزاني ومستشاريه كانوا قد قرروا ان يتركوا الايرانيين يقودون امر الثورة الكردية ، فان الاكراد العاديين لم يثقوا بالايرانيين . فهم لايتذكرون مهاباد فحسب بل انهم كانوا يكرهون العيش في ايران . لقد ذاقوا طعم الحرية في العراق ، حرية ان يكونوا اكرادا وان يحملوا السلاح عندما يشعرون انهم مضطهدون . لقد كانت ايران بشاهها الكلي الوجود بصوره وبوليسه السري اكثر من قدرتهم على التحمل .

كنت اراقب اللاجئين لفترة طويلة ، قبل ان التقي بأي منهم. كان اغلبية سكان ريزاي غير الاكراد ينعتون اللاجئين بالبرزانيين وكما لو انهم كانوا جميعا من قبيلة ملا مصطفى البرزاني . ولكن هذا النعت كان يلائم الجنود ذوي العمائم الحمراء فقط ، الذين كانوا يشكلون جزءا من مجموع اللاجئين .

لقد اتى الاكراد من كل حدب وصوب ليشاركوا في الثورة الكردية سنة ١٩٧٤ . وكان بعض المحترفين والمتمرسين الاكراد في الجيش العراقي قد اخلوا مواقعهم في بغداد لينضموا اليها . وحتى ان اكرادا من الخارج تركوا حياتهم المريحة واتوا للبرزاني واثقين من ان تكريس حياتهم لهذا الجهد الموحد للاستقلال الذاتي لن يذهب هباء .

علمت من حديثي مع امير آن هناك طبقتين في التسلسل الهرمي للاجئين . فالمجموعة الضخمة من اللاجئين كانوا قد اسكنوا في معسكرات واسعة حول منطقة ريزاي ، وكان احد المعسكرات قد اقيم في غرب المدينة مباشرة ، بينما كانت معسكرات اخرى عديدة في الجنوب . كان القرويون العاديون ورجال القبائل وكذلك سكان المدن

الفقراء من العراق قد انتظمت اسماؤهم في لوائح في هذه المعسكرات كانوا اناسا قد التقطوا اطفالهم وفروا من القصف المستمر مع اشياء اخرى قليلة غير البستهم على ظهورهم .

حتى الاكراد الاكثر غنى ، الذين نجحوا في احضار الذهب وواحد او اثنين من خدمهم من العراق ، قد عانوا القساوة والرعب في الطرق الجبلية السرية المؤدية الى ايران . كانت احدى العوائل مع اطفالها قد بدأت رحلتها في سيارتها الخاصة ولكنها خوفا من أن تكون مكشوفة للطيارين ، انتهت الى اتمام رحلتها سيرا عل ... ام. وزوجة طبيب ثري غير معتادة على بذل الجهد العضلي من كانت قد اتت لوحدها دون زوجها على ظهر حمار . ولكن مصيبة القرويين كانت هي الاكثر اثاره للحزن والاسى . ففي البداية لم ارى وجوههم الملوحة بالشمس والمسمرّه من الغبار ، ولم اشهد معاناة هوءلاء الناس الذين يشكلون جزءا من الغالبية العظمى لمجموع اللاجئين في نهاية هجرتهم الجماعية الفظيعة عبر الجبال الافي نهاية اقامتي في ايرأن تقريبا .

كان معظم اللاجئين الباقين في أواخر الشتاء من النساء والاطفال وكان الرجال يأتون بين فينة واخرى في اجازات من القتال. عند ذلك سنرى المحظوظين الذين حصلو من الحكومة الايرانية على تصاريح للقيام برحلات قصيرة الى المدينة . كانوا يزورون البازار وبعدئذ يتجمعون في سيارات الجيب المعطوبة ليسيروا عائدين الى المعسكرات

شان يقيم في المدينة نموذج آخر من اللاجئين الاكراد وهم عائلات قواد الحزب الديمقراطي الكردستاني وضباط البشميرگة " مواجهي الموت " وقد كانت جمعية الاسد الاحمر والشمس ، واجهة السافاك ، تدفع تكاليف معيشتهم ، بينما يمضي الرجال جيئة وذهابا عبر الحدود ليوجهوا سير الحرب . كان اللاجئون المقيمون في المدينة اكثر غنى بكثير عادة واكثر تعلما من الجزء المتتم لهم في المعسكرات . كانوا يميلون الى ارتداء الملابس الغربية في

الشارع على الرغم من أن البذلة الرسمية لجيش البرزاني كانت تتألف من " شلوار " خاكي مع سترة مشدودة ملائمة له ، وعمامة مثل الالبسة التي يرتديها خدمم عبد الله تماما . وعلى الرغم من غناهم والراحة النسبية لحياة المدينة فقد كانت هذه العائلات حبيسة هي أيضا . فلم يكن باستطاعتهم الذهاب الى أي مكان خارج ريزاي بدون اذن سفر .

ان جزءا من الدعم الايراني لسير الحرب العراقية ـ الكردية كان يشمل على جولات شخصية لعدد من المراسلين الغربيين الذين قدموا لزيارة معسكرات اللاجئين عبر ريزاي وبعد ذلك يعبرون الى العراق ليشهدوا المعارك . قررت ان استخدم صلتي الوحيدة لأرى اذا كان باستطاعتي أنا ايضا زيارة معسكر اللاجئين .كنت اهتم على نحو خاص برؤية المدرسة هناك . فالمدارس ذات الادارة الكردية الوحيدة في ايران كانت مدارس هؤلاء اللاجئين .كانت صلة الوصل لدي ، ذلك الرجل الذي التقينا به في يومنا الاول في ريزاي أو بالاحرى في الطائرة حتى قبل هبوطنا على الارض . لقد كان مسؤولا عن ادارة جميع المعسكرات ، لكونه مدير فرع ريزاي التابع لجمعية الاسد والشمس. ومنذ اقامتنا في ريزاي كنت قد رأيته هو وزوجته في مناسبات اجتماعية عديدة وقد عرف اني ادرس الكردية . وبما انه هو وزوجته كانا ودودين معي ، فقد كنت واثقة تماما من انه سيصغي الي على الاقل .

وعندما وصلت الى مكتبه ، افصحت عن طلبي ، شعرت بالارتياح لانه بدا مصغيا وكما انه لايوجد شيء ملفت للنظر على الاطلاق في رغبتي رؤية احد المعسكرات . كانت هناك صعوبة مخفية وحيدة وهي انه كان عليه ان يستدعي السافاك ليصدقوا على قراره لانه لايسمح لأحد بالدخول الى المعسكرات دون موافقتهم .قضيت معظم فترة الصباح في مكتبه ، انتظر رد السافاك عليه ،واخيرا اجابوه بالنفي . على أية حال حصل انعطاف غير متوقع في الموضوع . فقد عانيت القلق لعدة شهور من آن السافاك كان يراقب نشاطاتي في

ريزاي ، ولكن اتضح ـ وبغض النظر عن معرفة ماكنت منهمكه فيــه ـ ان السافاك لم يعرف حتي من أكون . وحسب أقوال مدير جمعية الاسد الاحمر والشمس فانهم كانوا قد صنفوني على اني امرأة أمريكيــة أخرى في المدينة كانت متزوجة من ايراني وكانت قد قضت وقتــا في ايران تخدم في فرقة السلام .ولكنني انكرت هذه الهوية . نظــر الي المدير الذي كان من المفترض انه يعرف اكثر وكما لو انه كـــان متأكدا من كذبي . واتضح انه على الرغم من عدم اهتمامهــم بالضبط من أكون ، فان السافاك لم يكن يسمح لأي امرأة اجنبيــة بالدخول الى معسكرات اللاجئين بدون اوراق اعتماد تظهر انهــا مراسلة صحفية . بعد ان قرأنا القصاصات التي ارسلها الينا بعض اقاربنا في امريكا من النيويورك تايمز عن المعسكرات والحــرب استطعت ان ادرك النقطة الاساسية لدى السافاك . ان المرء وبــدون معرفة للفارسية او الكردية وفي رحلة قصيرة لمدة اسبوع فـــي المنطقة من موقع رسمي في طهران او بيروت أو باريس كان يشوه ويبتعد كثيرا عن حقيقة الاحداث ، لدرجة أن معظم هوءلاء الصحفيين ماكانوا يعرفون حقيقة السافاك في ايران ومن يمثلون . ولكــن لو كنت انا أيضا صحفية قد استضيفت تحت الطلب لجعل الحــرب الكردية قضية مشهورة كان من الممكن آنذاك أن ينظر الي السافــاك نظرة مختلفة تماما .

عندما رأى مدير جمعية الاسد الاحمر والشمس كم اصبــت بالخيبة ، قدم لي عرضا مقابلا لذاك . فبدون موافقة السافاك لــم يستطع السماح لي بزيارة المعسكر ، ولكنه يستطيع ـ على حد زعمــه غير الموءيد بدليل ـ ان يرسلني الى مدرسة اللاجئين المحلية فـــي المدينة . لم يخطر ببالي أبدا ، امكانية وجود مدرسة خاصــة للاجئين في المدينة ،ولكنني وافقت مباشرة على الاقتراح وان اعـود الى مركز قيادة الجمعية خلال يومين لتأخذني سيارة خاصة الى هناك. ابتسم مدير الجمعية وكان واضحا انه قد سر لأنه استطاع عمــل شيء لي . وابتسمت انا ايضا ، وسررت لأنه لم يعد لزاما علي أن

امضي وقتا آخر في الجلوس في مكتبه اراقب مواكب المتوسلين الذين حضروا امامه يترجونه ان يؤدي لهم خدمات معينة . عندما عدت بعد يومين ولعدم معرفتي اين تنتهي سلطة الجمعية واين تبدأ السلطة الكردية ، لم استطع أن اخمن اذا كان الرجل ذو الشعر الاسود بسيارته البايك الامريكية المعطوبة كرديا ام ايرانيا . سرنا بصمت الى المدرسة وقد كانت حقا مجرد منزل قديم خلف جدار عال في احد الشوارع الرئيسية في المدينه . كان المدرسون في الطابق العلوي يجلسون مشكلين حلقة في مقاعد معدنية في حجرة هيئة التدريس . وعندما قادني الرجل السائق ـ الذي اتضح انه كردي الى الداخل توقف الجميع عن الحديث وحدقوا في .

حاولت ان اوضح سبب مجيئي بكردية خشنة ، فتغيرت تعابير الفضول على وجوههم الى حيرة . توقفت ثم بدأت وتوقفت ثم بدأت وتوقفت ثانية . لقد كنت اهذي بالنسبة اليهم وبقدر مايتعلق بهذا الامر . سألني احد المدرسين بانكليزية طليقة ، فيما اذا [illegible] . فأومأت برأسي مؤكدة ذلك. حدقوا في بعضهم البعض وهم يبتسمون وقالوا :

ـ آه ،لقد اتت لتتعلم الكردية .

كنت متأكدة من أنهم يفكرون في كيفية مجيئي من مكتب رئيس الجمعية من عند السافاك مباشرة . هل من المعقول أن يثقوا بشخص مثلي ؟ لقد استقبلوني بغض النظر عما اذا وثقوا بي أملا ، واعطوني واحدا من الكتب التمهيدية لتعليم القراءة والكتابة المهربة عبر الحدود من قبل الجيش الكردي . اجلسوني بينما كانت وجوههم تنم عن الاضطراب والخوف على مصيرهم ومصير العوائل والجيران الذين كانوا لايزالون في العراق .

رحب جمال بي بحماس كطالبة في صفه الاول . وبعد يومي الاول في المدرسة تساءلت عن مدى قدرتي على الصمود في الصف الاول ،فقد بدا مملا ومقيدا الى حد بعيد . كنت اتلوى في

مقعدي تماما مثل زملائي في الصف ، الجالسين بقربي في مقاعد خشبية ضيقة وطاولات ضيقة للقراءة والكتابة موضوعة امامهم. حدق في تلاميذ الصف الاول - المرتدون على نحو نظيف ،البسة أطفال ملونه . غريبة الطراز - وجحظت عيونهم لرؤية زائرتهم الضخمة. كنا نستدعى الى اللوح الواحد تلو الآخر لنقوم بعمل ما . كان الاطفال يضبطون بحزم ولكن لسوء الحظ لم يكن جمال يعاقبني عندما كنت اسرح بعيدا . كان يعلن عن الفرص بجرس كل اربعين دقيقة ، كنت اقضيها في حجرة المدرسين . كان يوجد مدرسون لمادة الرياضيات ، والانكليزية والعربية والجغرافية ، والفيزياء ومدرسة للتربية البدنية ومختصون لأغلبية المواد الضرورية لتعليمها في الصف الاول حتى الثاني عشر . لقد ترك في ذهني انطباع عميق ليس فقط بسبب حقيقة ان مجلس الثورة الكردية قد تحرك لتأسيس هذه المدرسة حالما قدم اللاجئون الى المنطقة فحسب ، بل أيضا بسبب تفاني المدرسين لدرجة كبيرة في عملهم . لقد علمت في كلية وليس في مدرسة ثانوية في ايران ، ولكن المدرسين هناك بدوا انانيين وغير مهتمين ليس فقط بالطلاب ، بل ايضا بالمادة نفسها . كان في مطلع كل كتاب مدرسي ايراني في المدارس الثانوية صور تملأ صفحات بكاملها للشاه وزوجته وولي العهد . لم تكن آي من الكتب الكردية تحتوي على صور من هذا القبيل . وكانت النصوص الانكليزية في المدارس الثانوية الايرانية حافلة بالاخطاء . اما مدرسا الانكليزية في هذه المدرسة كانا قد درسا في بلاد تتحدث الانكليزية وكانت النصوص التي يستخدمونها دقيقة ولو انها كانت قديمة العهد .

كانت مديرة المدرسة الكردية تحثني على المجيء كل يوم ولكن ذلك كان مستحيلا . فقد كانت صفوفي لاتزال موجودة في الكلية واعرف الانطباع القوي الذي سأخلفه لدى العميد عندما يسمع أني كنت احضر في الصف الاول في مدرسة اللاجئين المحلية . بالاضافة الى ذلك كان باستطاعتي فقط ان اوقف حضوري في الكثير من دروس

الصف الاول . وقد قررت ان افوت حصص الحساب لهذا الصف بعد أن تمكنت من مصطلحات الرياضيات الخاصة بالصف الاول بالكردية . كانت سرعة سير حصص القراءة تمضي ببطء شديد وقد كانت موءلفة من استظهار من غير فهم . وحفظ عن ظهر قلب ، والشيء الذي كان يمتعني اكثر هو جلوسي في حجرة المدرسين واصغائي الى احاديثهم بالكردية والعربية .

جلست في منطقة محايدة حيث يقابل فيها نصف حلقة النساء النصف الآخر من الرجال . لقد كان عدد الرجال والنساء في الفصل الاول من السنة متساويا تقريبا . ولكنهم كانوا يتحدثون معا عبر الحلقة اكثر مما يتحدثون وهم جالسون جنبا الى جنب . كان جمال غالبا مايأتي ويأخذ دفتر ملاحظاتي المليء بالوظائف ليريه لمدرس آخر . ويسأل مدرس الفيزياء .

ـ أليس خط يدها جميلا ؟

فأخجل معتقدة انه ليس بالضرورة على كل امرىء ان يحكم بالمبادىء المأخوذة في الصف الاول . ولكني كنت اسر لمديحهم على الرغم من ارتباكي .

قاسمني المدرسون كل ماعندهم ، الكتب المدرسية القيمة والغذاء الذي كانت الحكومة الايرانية تمنحه لجميع اطفال المدارس على نحو روتيني . وكان يشتمل على البرتقال والفستق والشاي والحليب . وقد استطاعت احدى المدرسات أن تتخطى الى المنطقة المحايدة بشجاعة لتأتي وتكلمني فعليا . لقد كانت مدرسة التربية البدنية ماري . كنت اراقبها منذ فترة طويلة . كانت فارعة الطول وذات جسم رياضي رشيق . وشعرها الفاحم كان طويلا وقد عقصته الى الوراء ليظهر وجهها النحيف والشاحب . كنت اسمعها باستمرار تقول للطلاب " يا الله ، يا الله " عندما كانت تحثهم على النزول الى الطابق الاول والى الخارج ليلعبوا في الفرصة . ويا الله ، تعني بالعربية " هيا ، اسرعوا " وقد علمت

موءخرا أنها كانت تتحدث بالعربية مع الطلاب على وجه الحصر على الرغم من أن جميع المدرسين كانوا احيانا يتحدثون مع بعضهم بالعربية .

في المرة الاولى التي غامرت فيها بالتحدث الي ،كان في يدها مجموعة من الصور بالابيض والاسود ، قد احضرتها لتريها لي . لقد كانت تلك صور حفلة زفافها . تأملتها وقد اندهشت لدى روءيتي تنورتها القصيرة وقبعتها العريضة . بعدئذ ادركت ان جميع الصور قد التقطت في كنيسة في ريزاي .

ـ هل انت كردية ؟

سألتها متشككة فيما اذا كان في سوءالي اساءة ما . فأجابتني وهي تضحك .

ـ لا ، نحن آشوريون .

كان لماري عدة اخوة واخوات يحضرون الى المدرسة ، ولكن لا أحد منهم كان يتحدث الكردية . ومع ذلك فقد كان عليهم أن يقروءوا من الكتب المدرسية المدونة بتلك اللغة .

كانت واحدة من المدرسات الاخريات تركمانية ،عراقية تتحدث بلغتها التركية الام في المنزل والعربية في المدرسة تماما مثلما كانت تفعل ماري ، حيث كانت تتحدث بالآرامية مع إخوتها وأخواتها وتحتفظ بعربيتها لتتحدث بها مع الاكراد.في البداية بدا غريبا جدا أن تجد اناسا غير اكراد من مدرسة لاجئين كردية ، حيث كان التشديد كله مركزا على استخدام اللغة الكردية كوسيط للتعليم . ولكن ذلك لم يكن لافتا للنظر ضمن محيط الشرق الاوسط . فقد كانت جماعات اخرى قد انضمت الى القتال الى جانب الاكراد ، لأن حقوقهم جميعا كانت قد انكرت من قبل الحكومة العنصرية التي كانت توءثر العرب السنيين على جميع السكان في العراق . كانت قرون من العداء بين الاكراد والآشوريين قد تلاشت في مواجهة حكومة حالية ارادت ان تبيد كلا المجموعتين .

لو كنت اعرف أن ا يام هذه المدرسة معدودة ؛ لربمـــا حضرت على نحو مكثف أكثر ولكني لم أكن اعرف . لقد كـان لد ي عملي في الكلية ،وكنت التقي بالسيد احمدي بـانتظام وكذلـــك بالنسـاء الكرديات في المدينة . ومع ذلك فقد شعرت انه علـــي المجيء ، فقط للجلوس في حجرة المدرسين . كبح اندفاعي شـــيء ما بالاضافة الى عملي والملل من منهاج الدراسة في الصف الاول علـى الرغم من اعجابي بعمل المدرسين المنجز وفقا لما يرتضيـــه الضمير وتصميمهم على تعليم لغتهم الام وسط حرب رهيبه ،تستهـدف استئصالـهم من الجذور .

كان ينتابني في بعض الايام احساس بالذي تجشم عنـاءه هوءلاء اللاجئون وما جرى لهم لدرجة اني لم اكن ارغب فـــي البقاء معهم في نفس الحجرة وكان ذلك يعود الى جـو الكآبـــة الى حد ما . قضت احدى الفتيات الصغيرات وقتا طويـــلا من يومهــا مختبئة تحت مقعدها . وكان جمال يصيح بها باستمرار أن تسـلك سلوكا حسنا ، ولكني لم استطع ان اخفي اندهاشي وتساوءلي عن ماهية الانطباعات التي تركها القصف في ذهنهم . كان المدرســـون يركضون بعصبية وانفعال نحو النافذة كلما كانت تمر طائـرة على نحو منخفض فوق روؤسهم . وقد لاحظت ان طياري الجيش الايراني كانوا يستمتعون باثارة ذعر السكان المحليين وذلك بالتحليـــق على مقربة دانية ما أمكن من سقوف المنازل في المدينة . بعـد فترة قصيرة اعتدت عليهم تماما ، ولكن ذلك سيستغرق سنيـنـا قبل أن يتغلب هوءلاء الاكراد على الخوف اللاارادي . فقد كانت كل طائرة بالنسبة لهم ميـغ عراقية . لم يكن حزنهم وكآبتهم همـا اللذان كانا يبقياني بعيدا ، بل ارتيابهم ايضا . ففي كـــل مرة — وكان ذلك نادرا — كنت أبذل فيها جهدي بشكل خـــاص لأ تتبع محادثة ما ، كان احدهم يسألني بحـدة :

— هل تفهمين ؟ هل تفهمين مانقوله ؟

وعندما كنت اجيبهم بأني لا أفهمهم تماما كما كنـــت

أفعل دائما ، كانت تبدو عليهم امارات الرضى وعلى الاغلب لايحاولون أن يوضحوا لي ماكانوا يناقشونه ، فهم لايريدوني أن افهم امورهم . كانوا يتقاسمون حزنهم وخوفهم ، ومع اني لست ايرانية فان بعضا منهم كان يعرف ان امريكا ليست افضل من ايران ، بالنسبة للاكراد والمصالح الكردية في الوقت الراهن .

بينما كنت جالسة في الصف الاول في احدى الايام حدث اضطراب وصخب عظيمين في القاعة ، فتوقف قلبي هنيهة لذلك.ماذا حدث ؟ ربما أن قنبلة قد انفجرت . انفتح الباب بقوة ونقل طالب شاب الاخبار الى جمال " وقف اطلاق النار " .

اندفع الجميع من الصف الى القاعة حيث تعانق جميع المدرسين.وقف اطلاق النار . السلام . ضجت هذه الكلمات موضحة ذلك . ابتسم لي الحاضرون وابتسمت بدوري لهم كذلك . كانت هناك اشاعات بأن ايران والعراق سيتوصلان الى اتفاق،واخيرا حدث ذلك في الجزائر تحت مظلة مصالح الدفاع عن الذات لمنظمة الاوبك . ولكن ماذا عن المصالح الذاتية للاكراد ؟ ماذا ستفعل بهم ايران الان ، بما أنها لم تعد بحاجة اليهم لتستفز بهم العراق ؟ اردت أن أسال المدرسين . ماذا كانوا يعرفون أكثر مما اعرفه ؟ لاحقا عرفت الجواب وأنا في طريقي الى المنزل. انهم يعرفون القصف ، القصف فقط . لم يكونوا جنودا . لقد خافوا على حياة الذين خلفوهم وراءهم في كل يوم منصرم وكل يوم آت . والان حيث توقف القصف وكذلك هدأت مخاوفهم ليوم أو يومين لم يفكروا بما سيحدث بعد ذلك وقد اتضح انه شيء اسوأ بكثير مما تصوروه .

اجبرت المدرسة على الاغلاق بعد ذلك بعدة أيام . وهدد اللاجئون بانذار يتضمن العودة الى العراق فورا أو أن الحدود ستغلق في وجوههم للابد وبذلك سيتحتم عليهم وعلى اطفالهم البقاء في ايران . لم برغبوا في البقاء في ايران فهي لم تشبت حتى

وضعهم القانوني كلاجئين ابدا وبذلك لن تسمح للصليب الاحمر على الاطلاق أن يعاين المعسكرات رسميا . لقد عبثت بمصير الاكراد، والان بما انه لم يعد لهم نفع فقد بدا كما لو أن العبث سيصبح أكثر قساوة .

عاد بعض المدرسين عبر الحدود في غضون الايام القليلة التالية . وقد سمعت ان احد مدرسي اللغة الانكليزية قد اعدم مباشرة . كانت العراق قد اعلنت عن عفو عام لكل اللاجئين العائدين ولكن كل شخص كان يعرف انه توجد قائمة للموت . لن يرجع والد ماري ، ووالد الاطفال الذين كانوا يقطنون خلف منزلنا ابدا فقد قضوا مسبقا فترة في السجون العراقية وكانوا معروفين جيدا لدى الحكومة . حاول البيشميركه الاكراد المعاقون الشديدو الاهتياج في الجبال أن يواصلو القتال حيث أعلن بعض الضباط عن عدم تخليهم عن القتال بالرغم من موافقة البرزاني على هدنة وقف اطلاق النار . اصدرت الاوامر للمدافع الايرانية المتمركزه على الحدود وفي اماكن اخرى التي كانت تدعم الاكراد سابقا ، اصدرت اليها الاوامر الآن لتسدد نحو الجنود الاكراد الذين لم يستجيبوا لاتفاقية وقف اطلاق النار . كان للقوات العراقية يوما مخصصا للمناورات العسكرية وللقيام بعمليات تمشيط واسعة للتطهير من بقايا الاكراد وضرب نطاق من الجنود حولهم في ممرات جبلية ممتلئة بالثلوج وقد عانى العديد منهم الجوع حتى الموت .

عقد اللاجئون في ريزاي الاجتماع اثر الاخر . ليقرروا البقاء ام الرحيل ؟ افتتحت المدرسة ثانية ثم اغلقت مرة اخرى. وقد علّمت طلاب الثانوية الانكليزية لفترة نزولا عند طلب المدرسين المتبقين ولكن لم يعد احد يواظب على دراسته . واخبرني جمال بأنه يرغب في المجيء الى امريكا وقد فكرت مباشرة في كيفية مساعدته . وقد تصادف أن القنصل الامريكي كان في رحلة قصيرة عبر ريزاي ، وهي واحدة من رحلاته العديدة التي كانت تأخذه ايضا الى اقصى الجنوب والغرب على مقربة من الحدود العراقية .

وقد تساءلت عن ماهية دوره في الحرب الكردية . ولكني لم امض في تساؤلاتي على نحو كاف عندما عقدت لقاء بينه وبين جمال وقد افترضت ان مهمة القنصل هي رؤية الناس الذين يرغبون في المجيء الى امريكا والاصغاء اليهم جيدا فحسب ، ولم يخطر ببالي ببساطة انه يمكن ان تكون لدى القنصل اولويات مختلفة فيما يتعلق باللاجئين الاكراد .

وصل القنصل الى منزلنا برفقة السيد خشيني ، وهو رجل قصير، قوي البينة،وذو ملامح بدينة وكان يتمتع بفظاظة غير مألوفة جدا بالنسبة لايراني . كنت اعرف ان السيد خشيني ، وهو مدرس في الكلية ، يقضي الكثير من الوقت يسلي خبراء الجيش الامريكي المقيمين في ريزاي . ولعلمي بقدرته على أن يكون فظا ولمعرفتي شعوره نحو الاقليات الموجودة في ايران تساءلت عما يفعله في منزلي . أي معلومات عن الولايات المتحدة كان خشيني سينقلها الى جمال .

لم يجر اللقاء بين جمال والرجلين كما توقعت أو أردت على الاطلاق . فقد بدأ باستجوابه وبما ان جمال لم يكن يعرف الانكليزية ،فقد كان السيد خشيني يطرح عليه السؤال تلو الآخر بالفارسية ، أسئلة لم تكن لها علاقة بالموضوع المتناول ـ هل كان ممكنا او مستحسنا بالنسبة لجمال ان يهاجر الى امريكا أم لا ؟ كنت قد سمعت ان لائحة بأسماء المنتظرين الراغبين في الرحيل كانت تعد وانه سيسمح لمئتين من الاكراد بالذهاب الى الولايات المتحدة ، هذا الرقم الذي اتضح انه ضئيل على نحو يرثى له على ضوء معلومات حديثة . ولكن القنصل كان متحفظا على ماورد في هذه القائمة . وانتظر حتى يسمع ماسيقوله جمال بالاجابة على اسئلة خشيني ، التي لم يستطيع جمال فهمها ، لأنه لم يكن يتحدث بفارسية أفضل بكثير من الانكليزية . حاولت ان اترجم له الى الكردية ولكن خشيني قاطعني قائلا :

ـ دعيه يتكلم الفارسية ، انه يعرف الفارسية،اليس

كذلك يا ... جمال ، هل قلت ان اسمك هو ذاك ؟

بعد مرور فترة طويلة وبعدما عرفت ماكان يجري ، لم يكن لدي حول ولاقوة لايقاف ماشرعت في تحريكه . كانا يعبثان به ويحاولان ان يكتشفا ماهيه مشاعره ودور جمال في الكفاح الكردي، يحاولان ان يعرفا رأية في ايران . شعرت كما لو ان جمال كان كبش فداء وانني انا التي قدمته الى هذا الفخ . بماذا كان القنصل وخشيني منهمكين ؟ لقد كان خشيني شخصا مرتابا فيه لدى الامريكيين والايرانيين منذ فترة طويلة . كان فضوليا جداوودودا جدا مع الجيش الامريكي وكان ذانفوذ واسع واكثر ايذاء من الكثير من أمثاله. اما بالنسبة للقنصل ، فقد اندهشت منه لأنه كان يبدو دائما انسانيا وحتى متعا طفا قبل هذا. ولكن طبعا كنت اراه من قبل برفقة الامريكان فقط . وقد بدا سلوكه مع الاكراد غير مماثل لذلك الود الشهم الذي كنت اميزه فيه من قبل . هل يحتاج فعلا الى اثارة مثل هذه المضايقات للاجئين الاكراد ؟ من المؤكد انه كان يستطيع فهم ان جمال هو مجرد مدرس ،وانه حتى لو عرف شيئا ما فلن يقوم باخبار هم به . اذا ما الغرض من هذا الاذلال ؟ لم استطع ان افهم ذلك . لربما كان المقصود منه اعطاء درس لي ، لتلك الامريكية المُضَلَلة ،وذات القلب الذي يتفطر حزنا . وكما يعلق لاحقا هنري كيسنجر ردا على اتهامات حول قساوة التورط الامريكي في المأساة الكردية ووحشيته " يجب أن لايخلط العمل السري خطأ مع العمل التبشيري " ولانهاء تلك الامسية ، حدق خشيني في ساعته وسأل جمال الذي بدأت الكآبة تلوح عليه أكثر فأكثر فيما اذا لم يتأخر الوقت . لقد كان هذا التلميح بالانصراف سمجا جدا لدرجة انه حبس أنفاسي . نهض جمال فورا وغادرنا . أما ضيفاي الآخران فقد مكثا بعده طويلا يتحادثان وكأن شيئا لم يحدث . ولم اتحدث اليهما الا قليلا .

وفي اليوم التالي ولدى ذهابي الى منزل جمال اعتذرت له عما حصل ، نظر الي وابتسم وقال : انه ليس ثمة مايدعو للاعتذار.

وبعد ذلك بعدة أيام سمعت انه قد اخذ عائلته وعاد بها الى العراق واخبرتني ماري انه كان موظفا صغيرا في الحكومة الكردية الثورية قبل الحرب .

كان أحد اللاجئين الذين لم يقاسوا مصير جمال طبيبا يتحدث الانكليزية . تكلم هو أيضا مع القنصل في منزل امريكي آخر مقيم في ريزاي . ولكنه كان قد اشترط عن دراية منه الايحضر المقابلة سواه هو والقنصل . وبعد ذلك بعدة أيام دعانا ذلك الطبيب الى منزله ، وبعد قضاء ساعة مربكة او نحو ذلك ، تفاخر فيها الطبيب باتصالاته بالبرزاني وعناصر من السافاك الايراني ، نهضنا لنغادر مقرين أننا قد سمعنا الكفاية . ولكن الطبيب اصر على أن نبقى لنحتسي الشاي معه . فجلسنا ثانية تأملناه وهو ينزل بسرعة نصف قنينة من الكونياك الايراني الصنع . وافضى الينا قائلا :

ـ هل تعرفين ؟ أنا اكره امريكا .

ـ لا ، لم اكن اعرف .

اجبته بجفاء .

ـ اعتقدت انك كنت تحاول الذهاب الى هناك .

ـ نعم ، نعم ، انها المكان الوحيد الذي يمكن أن اذهب اليه تحت ضغط الظروف . ولكن لن ننسى ابدا مافعلته امريكا بنا . انتم مسؤولون عن مصير الحرب الكردية . انتم اخبرتمونا أن نبدأ بالحرب . ماكنا سنبدأ الحرب ابدا لو لم يعدنا الامريكان بالسلاح . وليس مهمّا ماوعدت به .

قال ذلك متهما . فسألته :

ـ من وعدكم ؟ ريتشارد هيلمز ؟ كيسنجر؟ نيكسون؟

فقال الطبيب على نحو متكتم :

ـ لن اخبرك من وعدنا . لقد كنت هناك وسمعت ماكان على السي. آي . اي . ان تقوله . ربما انت لاتعرفين أما أنا فأعرف .

لقد اوقع هذا الطبيب النفور في نفسي بنفس القدر الذي اوقعه خشيني . الا أن المرء له العذر ، عندما يضطر أن يقوم بفعل أي شيء يقدر عليه لينجو بجلده ، عند وجوده في موقع محفوف بالمخاطر .

لم يكن الطبيب حذرا مثل خشيني . فقد شرب الكثير وشعرت حتى نسغ عظامي ان ماقاله كان صحيحا . ماالذي كان يحدث هنا في ريزاي بالضبط وامام ناظرنا تماما ؟ من الذي فوض الجيش الامريكي لأن يكون هنا . والى أي حد كانوا يعملون مع الاكراد؟ لماذا يقوم القنصل برحلات كثيرة الى الحدود؟ وقساوة القنصل مثل قساوة كيسنجر تخلفان لدى المرء الشعور باذانتهما .

كنا هنا في فييتنامنا الخاصة والسرية التي لم تكن قد اعدت الانباء بعد ، ولن تعدها ابدا الا بالطريقة الاكثر سطحية . هنا كنا نشهد مباشرة اسلوب كيسنجر المبني على نهج السياسة الطبيعية وكذلك السياسة الواقعية ، ولكن ضباط الجيش ، القنصل والامريكيون آخرون في المدينة استمروا في تأجيل اسئلتنا وانكار ملاحظاتنا . كنا قد اعتدنا الى حد كبير على الكلام المخادع في ايران ، حتى اننا كنا نسأل انفسنا باطراد فيما اذا لم نكن نختلق اشياء من مخيلتنا .

ولكن ثمة مايدعو للازعاج اكثر من هذا . فالبرزاني وجنرالاته كانوا قد تراوءوا من بعيد محقين وانقياء الى حد بعيد . كان وليم . او . دوغلاس . قد قارن في مذكراته عن رحلة في كردستان قبل عشرين عاما ، الوطنيين الاكراد بالوطنيين الامريكان في الحرب الثورية . وقد قال : هنا كانت قضية محضة بكل ابعادها وشموليتها واناس شجعان لامجال لاحد أن يشك في ذلك أو يعترض عليه . ولكن القضية لم تكن واضحة المعالم الى حد بعيد . لم نكن بالقرب من الثورة الامريكية ، ولكن صدف ان قابلنا عددا من القواد الاكراد . لقد كان هنالك الكثير من الاطباء ومن الثوار

الاثريـاء ينشرون ذهبهم هنـا وهنـاك في المدينـة ، بينمـا يتلمـس النـاس في المعسكرات طريقهم في حـال من الذل والهوان . وأيضا كـان هنـاك الكثير من التعـاون مع السافـاك وأيضا جرى الحديث حول منـح بترول كردستان لأمريكا . وايضا الكثير من الشك والارتيـاب وكابنـة الغرب الليبرالي ، فقد توقعت أن يكون الاكـراد أقل خـوفـا بكثير لأنني لـم استطع ان افهم حقا ماالذي كـان يخيفهم .

لم تكن اتهامات الطبيب تختلف عن تلك التي سمعتها من الايرانيين الذين يعتبرون امريكا مسوءولـة عن كل خطأ في بلـدهم . حتى أن احدى النساء ، وهي موءيدة قوية للشاه ، ادلت برأيهـا قائلـة : ان السبب في تدني قيمة الالبسة الصناعية الايرانيـة يعزى جزئيا الى أن الامم الغربية قد باعت ايران خيوطا من نـوع رديء . اما مع اللاجئين الاكراد فقد كان يسووءني ان اسمع هـذه الاتهامات كليا اوجزئيا . كنت قد تصورت اللقاء مع اللاجئيـن ومصادقتهم ، هوءلاء الاكراد الذين يقولون ان ليس لهم اصدقـاء . وكنت قد ظننت ان العائق الوحيد سيكون قانونيا اوماديا صادرا عن الحكومة . ولـم اكن اتوقع عدم ثقتهم الشديدة وامتعاضي الحاسم بسببها . ولم اكن اتوقع الثروة الاسطورية للقواد الثوريين فـي المنفى ـ رجال تفع زوجاتهم . الذهب واطواقا من الياقـوت، رجال يقدم لهم الكافيار الثمين، في حفلات العشاء التي يقيمونها .

كنت أقرأ ادبيات الحزب الديمقراطي الكردستاني منـذ وقت طويل ، حتى اني توقعت ان اجد النساء الكرديات العراقيـات اكثر تحررا وان اجد العلاقات بين الناس اكثر مساواة . وبدلا مـن ذلك فقد وجدت النموذج المألوف لمالك الارض والتابع ، للسيد والمسود تماما كما في القرى الايرانية . ان الاخت الصغرى في اسـر اللاجئين تخدم الاخت الكبرى . الاخت تخدم الاخ والزوجة تخدم الـزوج بينما حاول اللاجئون الاثرياء وبدون جدوى ان يتكيفوا مع النقـص الشديد في عددالخدم الذين يعملون لديهم . كان تعدد الزوجـات والتباهي بالتمايز منتشرا بين اللاجئين المتمتعين بامتيار السكن

في ريزاي على الرغم من التأكيدات الصادرة عن الحزب الديمقراطي الكردي بأن تعدد الزوجات قد تلاشى من بين الاكراد المتعلمين . وكان اللاجئون غالبا ما يخبروني كم كانت الحياة أفضل بكثير في العراق منها في ايران . ولكن كلما كنت اتحدث معهم اكثر، كنت افهم تماما انهم كانوا يعيشون عهدا من الارهاب في العراق ، اما دور ايران فقد كان محصورا في تكثيف هذا الرعب والارهاب .

كان الطبيب أول من سمح له بالهجرة الى الولايات المتحدة من بين الاكراد اللاجئين الذين قابلتهم في ايران . وقبل أن يغادروا رأيت صدفة حقيبة اوراق بنية ممتلئة برصاصات الرشاش في المقعد الامامي من سيارته اللاندروفر . وبما أن جميع الاكراد اللاجئين كانوا وعلى نحو طبيعي غير مسلحين عند الحدود ، فلم يكن أمامي الا أن افترض ان السلطات الايرانية قد اعطته اياها . وواضح أن الشيء الاكثر ملاءمة للحكومة الامريكية هو استقبال طبيب ثري ، كان قد تعاون مع السافاك واذلال مدرس ثانوي فقير وصده .

الفصل الحادي عشر

ان مسألة القومية الكردية في تركيا ـ ذلك البلد الذي يبلغ فيه الاكراد عددا اكبر من أي بلد آخر ـ فقصتها أكثر قدما بكثير من قصة الثوار الاكراد في العراق . لقد ترسخت القومية التركية في وقت مبكر وبالتالي فان القضية الكردية مثل القضية الارمنية كانت قد عولجت بشمولية أكثر . فللاتراك سمعة مخيفة في الشرق الاوسط فهم يعدون بدوا عديمي الحضارة ، انقضوا من الشرق ، كالمغول مثلا ، فأخذوا يضطهدون ويذبحون الشعوب المستقرة في طريقهم . وبالقدر الذي يتعلق بالاكراد فانه لاشيء اكثر جدارة بالازدراء سوى التركي . وبقدر مايهم الاتراك فان " الكردي الجيد الوحيد هو كردي ميت " . وكما صرح احد السياسيين المحنكين في ثورة كردية في تركيا " كان الجنود الاتراك قد أمروا بأن يطعنوا الاكراد بالحراب بدلا من أن يفقدوا طلقات الرصاص عليهم " .

قبل مجيئي بسنة الى ايران ، كنت قد وجدت مدرس كرمانجي في الولايات المتحدة حيث كان موظفا لدى استاذ تركي يدرس في جامعة امريكية . اشار صديق لي ، وهو استاذ في اللغات الايرانية الى أن الموظف موسى هو كردي الاصل .وبالنسبة لمستخدم موسى وموسى نفسه فان كرديته كانت تعتبر ، في الحقيقة سطحية وهامشية . فقد احضر الى الولايات المتحدة لكي يتحدث بالتركية مع الاطفال وكان يقوم بذلك على احسن وجه .وكما اكتشفت موءخرا كان يتحدث بها أفضل مما يتحدث بالكردية ، لغته الام . كان قدقضى مايقرب من نصف حياته في استانبول حيث فعل كل ما بوسعه لينسى ذكرى طفولته غير السعيدة في بلدة صغيرة واقعة على اطراف ديار بكر في فقر تركيا الكئيب .

وحالما علمت أني في طريقي الى كردستان ، ارهقت معلمي

بالاسئلة : ماذا تشبه الحياة في البلدة الصغيرة التي جئت منها ؟ ماذا يرتدي الناس ؟ بماذا يفكرون ؟ ماذا علي ارتداوءه لدى ذهابي الى ايران ؟ كانت جل معرفتي في امريكا نظرية ، غامضة ومعتمدة على اخبار ثانوية . وقد اخبرني موسى المستحي والخجل من أصله الريفي اشياء لم اصدقها . فقد اكد لي أن كل ملابسي بما فيها الصيفية ، ستكون مقبولة في تركيا الشرقية وان الناس لن يهتموا فيما اذا كنا انا وجيرد متزوجين أم لا . ومن وجهة نظره فان المواقف والعادات في كردستان التركية تكاد لاتختلف عن تلك التي في بوسطن . ولكن حتى في بوسطن لم يستطع موسى ان ينسى عقدة كونه كرديا .

في حفلة اقمتها مرة ، اخذ موسى صديقا تركيا لي الى زاوية وسأله عن سبب اصراري على كرديته . لقد كان مسرورا لكسبه مالا اكثر لتعليمي الكردية ولكن طريقتي في التركيز على ثقافته كانت تقلقه . وسأل :

ـ الم تدرك بعد آني تركي ؟

ان الاكراد الذين يرغبون في ان يفلحوا او حتى أن يبقوا احياء في ظل الحكم الذي اسسه مصطفى كمال اتاتورك " جد الاتراك " ، عليهم هم انفسهم ان يصبحوا اتراكا . لأن ماتسعى اليه الحكومة التركية وتحاول أن تثبته لبقية العالم منذ سنوات هو انه في تركيا يوجد اتراك فقط . وهذه حقيقة ذات اهمية كبيرة بما انه يوجد في ايران الجارة المتاخمة تماما اكراد وارمن وآشوريون ويهود . وهذا الخليط من القوميات والاديان نفسه يتواجد في نفس الوقت في مدن وقرى تركيا الشرقية . كان الاكراد قد استخدموا من قبل العثمانيين ومن قبل الجمهورية التركية للتخلص من الشعوب غير المسلحة . وللخزي الذي جروه على انفسهم ، فانهم قد لعبوا دورا دمويا في مذبحة الارمن . وحاليا تجري محاولات للتخلص منهم هم انفسهم . ليس عن طريق المذابح ، بما ان عددهم كبير جدا ، وبما انه لم تعد هناك عصيانات مسلحة واسعة النطاق

لتخمدها الحكومة . بدلا من ذلك ، تجري ازالة الاكراد بصهر مقاتليهم في الجيش . لايوجد اكراد في تركيا ، بل هناك فقط" اتراك الجبال" لاتوجد لغة كردية ،بل مجرد خليط موءلف ممايقارب الثلاثمائة كلمة مأخوذة من اسلاف الفارسية ، التركية والعربية يتداولها بعض القرويين الجهلة . حتى الاتراك الاكثر ثقافة وتعلما يعتقدون بذلك. ولم تعترف الاغلبية الساحقة من الاتراك ابدا بمذبحة الازمن التي حدثت في بلادهم . تركيا هي ارض الاتراك ، ولن ترتكب الخطأ الذي ارتكبته ايران الرازحة ابدا تحت وطأة تهديد التمزق بأيدي قومياتها المعادية .

ان تركيا هي البلد الذي يقيم فيه غالبية الاكراد ويتكلمون اللهجة الكردية الاقل دراسة في الحقبة المعاصرة ، ولكن الصمت المطبق الذي جابه محاولاتي في ايجاد شيء ما عن الذهاب الى تركيا لدراسة الكردية اشار الى بداية ونهاية اية محاولات حقيقية للذهاب الى هناك . فالحكومة التركية كانت تختلف عن حكومة الشاه في ايران ، فهي من الممكن ان تقبل الاسلحة من امريكاولكنها لن تتردد في القاء الامريكان خارج البلاد اوزجهم في السجن اذا ظنت انهم مصدر ازعاج فعلي او محتمل . عرفت اناسا كانوا قد اعتقلوا لاتهامات اقل اهمية بكثير من محاولة كتابة قواعد لغة محظورة قانونيا . لذلك فقد وجهت ناظري نحوالنهاية الشمالية من اذربيجان الغربية والى اللهجة القريبة جدا من الكردية المحكية في تركيا . ولكني لم اتخل عن عزمي على الذهاب الى تركيا .

كنت قد تأملت الجبال التي تشكل الحدود ، لمدة خمسة أشهر. وعندما وصلنا الى ايران في الخريف كانت الجبال مغبرة ، وذات لون بني باهت مع مسحات من اللون البرتقالي الفاتح والارجواني . وكانت الرطوبة والخضرة تنعدم كليا حتى الشتاء . كانت الاوراق قد بدأت بالتساقط في بداية آب ولكن منحدرات سلسلة جبال زاغروس كانت جرداء . فالاحراج المزالة والعوامل الطبيعية ساعدت على تعريتها منذ اكثر من قرن مضى . كان من الصعب تصديق ان موسم حصاد وفير قد جرى في وديان وسهولمنطقة ريزاي ، قبل شهر فقط من وصولنا .

ورطوبة الشتاء وامطار الربيع الاخيرة قد تبخرت دون ان تترك أي اثر . وماتبقي كان منحدرات جبلية جرداء ، لاشجر فيها وسهول صخرية ومغبرة .

ان العلامة الاولى على حلول فصل الشتاء في ريزاي هي ابيضاض المنحدرات العالية الواقعة الى غرب المدينة . وقد اتسع البياض تدريجيا من القمم المخروطية نزولا الى السفوح الجبلية ، الى أن تساقط الثلج فوق السهل نفسه . في البداية لم استطع أن ابعد نظري عن المنحدرات المبهرة ، ومن ثم وعندما تقدم الشتاء مللت من الثلج وكنت اتشوق لحلول الربيع . يقول الاكراد : في الربيع تصبح الجبال " كسك وشين " خليط من الخضرة والزرقة .

احتجت لبعض الوقت كي اعتاد على الجبال ، بعد ان قضيت معظم حياتي بالقرب من المحيط . حتى انها استحوذت على آفاق ذهني وروحي رويدا رويدا . كنت ارى الجبال المشرفة على تركيا كلما نظرت الى الغرب والشمال الغربي . والى الجنوب والجنوب الشرقي حيث كانت العراق . كان معظم معارفي من الشباب الاكراد قد عبروا الجبال في وقت او آخر ، الى العراق او تركيا ، اما هربا من الحروب او لمجرد الذهاب للصيد . كان الاكراد يميلون الى اعتبار كردستان برمتها لهم ، على الرغم من الحدود الدولية . لقد عرفوا التضاريس وعركوا الجبال وهذا ماجعل ذهابهم الى أي مكان يرغبون فيه ممكنا . ولكن دوريات الكشف المتزايدة باسلحتها وتجهيزاتها المتطورة كانت انتهاكا لهذا الحق الكردي .ومع ذلك فان الشباب الاكراد لايزالون يتباهون برحلاتهم الى تركيا . كان الاكراد الذين التقيت بهم يثيرون رغبتي في روءية المزيد ومعرفة كردستان اكثر . قالت احدى النساء :

ــ آه ، كردستان العراق. تلك هي كردستان الحقيقية. فجبالها ذات خضرة دائمة .

سألت كرديا آخرا :

ــ ولكن ماذا عن تركيا ؟

فأجابني :

- الاكراد كلاب .

يهز اكراد العراق وايران الوطنيون روءوسهم استهجانا عندما يتحدثون عن اكراد تركيا . وقد تساءل احد اكراد العراق الرفيعي الثقافة بصوت مرتفع امامي :

- هل مايزالون اكرادا ؟ انهم يطيعون الحكومة التي تدعوهم بأتراك الجبال . انهم يتحدثون التركية . ولايلبسون مثل الاكراد . لقد اصبحوا اتراكا .

كان القنصل التركي في ريزاي سعيدا باعطائنا معلومات عن التنقل في تركيا . فالى جانب تقديمه قهوة تركية جاهزة وممتازة تحدث بحماس مفرط عن أنواع الطعام وعن خدمة سيارات الاجرة الممتازة ، عن النشاطات الثقافية الرفيعة التي سنجدها في تركيا وعلى وجه الدقة في استانبول . تشكل تركيا الغربية جزءا من اوربا ، اما تركيا الشرقية ، فتشبه ايران في ايام ماقبل البترول وهذا يشكل اختلافا كبيرا بالنسبة للمسافرين . قلت للقنصل لا استطيع مقاومة ذكراني ارغب في الاقامة في تركيا اكثر من ايران فقال مبتسما :

- حسنا ، لم لا ؟ فنحن بالتأكيد نحتاج الى اناس مثلك ليدرّسوا هناك . أنا متأكد من انه يمكنك الحصول على مركز وظيفي في استانبول او انقره .

تلاشت ابتسامته عندما اضفت قائلة :

- في الحقيقية كنت افكر في الاقامة في انطاليا ، حيث يمكنني ان ادرس الكردية . ولكني اعتقد انه لايمكنني ان احوز على اذن من الحكومة التركية لمثل هذا المشروع ، لذلك فقد اتيت الى ايران . فقال معلقا وقد بدا عليه الارتباك :

- ليس لدينا مثل هذه الموءسسات في تركيا .

انتقلت المحادثة بسرعة الى خطط سفرنا . وبعد ربع ساعة من ذلك جمعنا الكراسات الجميلة الخاصة بالسفر التي اعطانا اياها ومشينا الى المنزل تحت حبات البرد الشتوية التي كانت تسقط فوق ريزاي منذ يومين .

كان علينا ان نجرب حظنا مع الحافلات المحلية ، بما أن جميع المقاعد في القطار من تبريز الى طهران كانت قد حجزت قبل أن نفكر بقطع تذاكر سفر بوقت طويل ، مما جعل اختيار عبور الحدود على الاخص أمرا خطيرا . وحالما اقترب (٢١) آذار ، تاريخ بدء السنة الايرانية الجديدة ، بدأنا نفكر على نحو مفصّل كيف ومن أين علينا ان نعبر الحدود . وكانت سيرو وهي مركز الجمارك الرسمي الاقرب ، حيث تبعد ساعة فقط عن ريزاي ومئتي كيلو متر عن وان التي يوجد فيها مطار . سيأخذنا الطريق الجبلي في سيرو عبر جزء من كردستان تركيا . وبازرگان،المحطة الحدودية الوحيدة الاخرى مع تركيا ، الواقعة في اقصى الشمال والغرب من تبريز كانت قد انشئت على الطريق الرئيسي من اوربا الى الهند . وارضروم كانت المطار التركي الاقرب الى ذلك المركز، وهي مركز ارمينيا التركية القديمة . كانت فائدة سيرو تكمن على نحو رئيسي في قربها من المكان ولكن بازركان يمكن ان تقدم امكانية اكبر للنقل العام .

نصحنا اصدقاؤنا الاكراد في ريزاي أن نتخذ طريق سيرو وأوضحوا انه اكثر راحة . وقد تساءلت لاحقا وبعد امعاني في التفكير فيما اذا لم تكن تلك النصيحة من وجْهة نظر العبور غير القانوني . من المحتمل انه توجد دوريات كشف اقل من سيرو . لم يحصل معظم الاكراد الذين التقيت بهم ابدا على جواز سفر ايراني حتى بشرائه .

حالما قررنا الذهاب عن طريق سيرو ظهرت الصعوبة الثانية وهي تشخيص الوسيلة التي سنذهب بها من ريزاي الى هناك . وفي الوقت الذي لم نكن نملك فيه سيارة وحتى لو كانت لدينا ، فانه سيعتبر

ضربا من الطيش ان نسير بها الى تركيا الشرقية وان نتركها قابعة لثلاثة اسابيع بينما نطير نحن نحو الغرب . توقعت أنني لن أرى منها شيء حتى لو ممسحة الحاجب الزجاجي للسيارة . وبما أننا لم نكن ذاهبين بالسيارة ، فقد كان واضحا اننا سنضطر للاعتماد على النقل العام . كانت هناك حافلة مخصصة للانطلاق من ريزاي الى سيرو . ابلغنا متطوع في فرقة السلام كان قد قام برحلة في السنة الماضية :

ـ لاتزعجا نفسيكما بأخذ الحافلة .

فسألناه :

ـ ولم لا .

ـ لأن الحافلة ستصل بكما الى تركيا بوقت متأخر حيث لن تقدرا على أخذ الحافلة من يوكسيكوفا الى وان في نفس اليوم .

ـ يوكسيكوفا ؟ .

قلنا ذلك باندهاش واستشرنا دليل الحافلة الذي وصف يوكسيكوفا على انها مركز الانطلاق العام لبعثات تسلق الجبال الخاصة بنا في تركيا . فقال المتطوع موءكدا :

ـ نعم ، نعم ، لكن أنساها أبدا .. انها ممتلئة بصبية صغار ذوي روءوس حليقة برداءة . ولن يدعك سكان المدينة تغيبين عن انظارهم ويوجد فيها فندق واحد مزدحم على نحو فظيع ولا انصح به للنساء على وجه الخصوص .

كانت صورة تركيا ، الموصوفة في كراسات القنصل تضمحل في ذهني ، وماتراءى لي انه سينبثق ، ويفرض نفسه ، كانت تركيا التي من المحتمل ان تكون حتى افقر واكثر عدوانية من ايران الريفية . وقد نصحنا المتطوع قائلا :

ـ لاتخبروهم ابدا ان لكما نسبة مختلفة في تركيا فهم سيفترضون مباشرة انكما لستما زوجين وان مارغي هي برسم البيع .

خلّف ذلك في ذهننا انطباعا اسوأ مما خلفته ايران التي لم يسألنا فيها احد بعد ، فيما اذا كنا متزوجين ام لا . وقد قررت على نحو حاسم انه سيكون من الحكمة ان اضع وشاحا على رأسي ولكني لم أعرف مايمكنني ان افعله اضافة الى ذلك لأجعل من نفسي أقل وضوحا . كان الحجاب في تركيا قد حظر لسنوات عديدة على نحو مغاير عن ايران ، حيث كان الغطاء لايزال سائدا لدى العديد من النساء .

ابدى السيد خليلي استعدادات لمرافقتي لمركز المدينة بالقرب من منزل دارا احمدي لينتقي لنا سياره اجرة يمكن لهنا أن تأخذنا الى الحدود . وقد شعر بثقه بأن أحد سائقي سيارات الاجرة ممن يعرفهم سيأخذنا بسعر معقول ، وذلك لما كان يتاح له دائما من فرص السفر الى قرب الحدود . وما حصل بعد عثورنا بالصدفة على خط سير الفولكات الزرقاء والبيضاء البالية بدا وكأنه نذير لما كان سيأتي في يوكسيكوفا .

تجمع حشد من رجال شبان ، مرتدين على نحو بدا فيه الفقر واضحا ، حولنا عندما مشى السيد خليلي نحو خط السير يسأل أولا أحد السائقين ومن ثم الاخر اذا كانوا يقدرون على اخذ اصدقائه الامريكان الى الحدود في الساعة السادسة من صباح الجمعة التالية . وعندما لاحظهم السيد خليل وهو في غمرة اسئلته طلب منهم المغادرة ولكن صديقي ذا الاخلاق الدمثة لم يكن يجاري هذا الحشد الذي أخذ يتزايد اكثر ويصبح اكثر عدائية في كل لحظة . بدا السيد خليلي متضايقا الى أقصى حد وهمس في اذني قائلا :

ـ لن يرضى أحد بسعر اقل مناسب . ويقولون أيضا أن السادسة صباحا ، هو وقت مبكر جدا . يعتقدون انه عليك الذهاب بسيارتك الخاصة . وصلنا أخيرا الى نهاية خط سيارات الاجرة دون ان نجد سائقا يرغب في أخذنا الى سيرو . كان الحشد قد تزايد الى حد اخذ يعيق حركة المرور في أحد اكثر شوارع ريزاي ازدحاما انتابني شعور بأن السيد خليلي كان يتمنى لو أنه لم

يعرض علينا المساعدة أبدا . خلّصت نفسي من الجمهور وركضت الى الجانب الآخر من الطريق ، فتوقفت سيارة برتقالية فجأة ،وبينما صعدت اليها ، لوحت بيدي مودعة السيد خليلي الذي كان لايزال في الجانب الاخر من الطريق . وقد سألني السائق عن تلك الجمهرة عندما تحرك بي بخفة مبتعدة الى حيث يتوفر أمان نسبي في حي من احياء الطبقة الوسطى . وبدا انه يعرف ما كنت اتحدث عنه بالضبط على الرغم من توضيحي الطفيف لذلك . ألم يكن واضحا انه في المكان الذي تتواجد فيه نساء اجنبيات سيتواجد فيه حشد من الرجال الايرانيين ايضا ؟ ولتعرف ذلك ما عليك الا أن تنظر الى مداخل دور السينما الايرانية المكتظة بالرجال عندما تعرض افلاما ايطالية عاطفية حتى الصميم .

بدأنا أنا وجيرد ،بعد أن يئسنا ـ نسأل بعض اصدقائنا الايرانيين ممن يقتنون السيارات ، اذا كان لديهم مانع من اخذنا الى الحدود . وقد رفض الامريكيون ذلك بصراحة ، اما الايرانيون فقد تنحنحوا وتلعثموا متمسكين بالشكليات وآداب السلوك . واخيرا عرض علينا كولونيل في جيش الولايات المتحدة عرضا فيه من الكرم والسخاء ، بعد ان سمع بمحنتنا ، وذلك بأن يأخذنا ضابط ايراني الى الحدود في سيارة تابعة للجيش .

مع ضوء الصباح الباكر ، ليوم رحيلنا ، عبرنا المباني الستة الضخمة متجهين نحو مقر الجيش ، لنلتقي بالسائق . كنا نتحدث مع السائق عندما انطلقت بنا السيارة الامريكية الضخمة صعودا ونزولا فوق الهضاب وحول المنعطفات الحادة لطريق سيرو . كان الهواء ربيعيا ، ولكن الثلج كان لايزال يكسو الجبال في كل الانحاء حولنا . وصلنا في أقل من ساعة وغادرنا السيارة وبدأنا بالسير بما انه لم يكن مسموحا للسيارة رسميا أن تأخذنا الى الحدود تماما . امسكنا بحقائبنا بعصبية ، بينما كنا ننظر الى السيارة . سمعنا سقسقة الطيور واصوات ذوبان جليد النهر المنتشرة حولنا . كان مركز الحدود الايراني يقع امامنا مباشرة

وخلف ذلك وعلى بعد مسافة لم نستطع ان نميز وسيلة نقل تركيـــة قط . عندما وصلنا محطة الحدود الايرانية ، لاحظت انها تشــبــه منطقة حدود واسعة بين الولايات المتحدة وكندا بموقف خــــاص مضاء جيدا وبناية ضخمة حديثة وذات تدفئة مركزية . وكل ذلــك من أجل ثلاث سيارات اوشاحنات كانت تعبر من هناك خلال يــوم مخصص لذلــك .استغرق الوقت ساعة كاملة حتى استيقظ ضابــط الجمارك الايراني ، وكانت الساعة قد قاربت التاسعة حتى ذلــك الوقت . امسكنا بجوازات سفرنا المختومة ومن ثم تصافحنـا وقلنا " خودا حافز " .بدت لنا ايران فجأة أليفة وآمنه على نحــو مدهش . وما كمن أمامنا تماما كان لغزا . لم يكن موظفــوا الجمارك الايرانيون قادرين على الاجابة على أي من اسئلتنا عما كان يحدث على بعد نصف كيلو متر من الجانب التركي .

تحولت الطريق المعبدة وموقف السيارات الايرانية فجــأة الى تراب . وبينما كنا نمشي بمحاذاة مجرى النهر المتدفق عبــر الممر الجبلي القينا نظرات على سفوح الجبال ورأينا منزليــن خشبيين من الممكن ان تنمية الاسكان الامريكية قد هجرتهما سـنة ١٩٤٠ . تبنى معظم المساكن في ايران من القرميد ، مع افنيــة محاطة بجدران ولكن هذه كانت تركيا الجمهورية الغربية التــي أنشأها اتاتورك حيث تشكل الجدران ومن المحتمل الغطاءات أيضا بقايا ماض غير منور ثقافيا .

كان افراد دوريات الجيش التركي قابعين في مواقعهــم وعلى رؤوسهم خوذ بيضاء بأشرطتها المربوطة حول الذقن ، وفــي اقدامهم احذية جزؤها الاعلى ابيض وقد كانوا يبدون مثــل جنود من الدمى اكثر مما يبدون كالجنود العديمي الرحمة الذيــن وصفهم الاكراد . ارشدونا الى مخزن اسمنتي . وفي داخلــه وجدنا ارضية صلبة جرداء ، وموقدا صغيرا يعمل على حرق الخشــب ورجلين قصيرين قويين بجسميهما الممتلئين وملامح شرقيــة ذ ات تعابير حادة ، وثوبين فضفاضين واسعين قد تدليا على اكتفافهما

وقد ادعى الرجلان انهما من باكستان ولكنهما كانا قادرين على التحدث بالفارسية . شاهدنا رجلين آخرين ايضا وقد بدا انهما ليساعابري سبيل ، الا انهما كانا فقيرين جدا بحيث كان من المستبعد أن يكونا من موظفي الجمارك . وقد علمنا بعد عدة اسئلة ان ضابط الجمارك كان لايزال نائما . على الرغم من أن كلا من ايران وتركيا بلدان ممتدان من الشرق حتى الغرب امتدادا واسعا فانهما يندرجان تحت توقيت موحد. واخيرا وصل رجل نحيل وذو عينين زرقاوين . لم يكن لقاؤنا لطيفا او ودودا مثلما كان في الجانب الايراني . فُحصت حقائبنا برمتها وبعد بضعة أسئلة اشير الينا ان نخرج من المكتب الصغير الواقع خلف المستودع . وسألنا الموظف بينما كنا نهم بالمغادرة :

– اين يمكن ان نجد الحافلة الذاهبة الى يوكسيكوفا؟

– تحدثي الى الرجال هناك .

واشار باتجاه السكيرين غير الشرقيين اللذين كنا قد رأيناهما مسبقا. وقد تلاشت رغبتي في ذلك . عندما عرفت انهما يحاولان خداعنا . فقد كانا يقولان بخليط من اللغات :

– تاكسي ، تاكسي ، نقود ، نقود .

اذا فالشائعات التي سمعناها في ريزاي صحيحة . فلن تصل حافلة مابدا لتنقلنا الى المدينة الاخرى ، يوكسيكوفا. وبدلا من ذلك علينا أن نستأجر سيارة اجرة لتعبر بنا العشرة كيلومترات هذه . وسيكون السعر عشر دولارات ، وهو نهب يمارسه سائقوا سيارات الاجرة الريفية ، الايرانية والتركية بتقد برهم لهذا السعر . وعلاوة على ذلك فان المبلغ يدفع سلفا والافلن يقوم السائق بنقلك . كان موظف الجمارك قد خرج من مكتبه ، وكان يراقب هذه المفاوضات عن كثب وباتزان .

ولكي نبدد الوقت مشينا انا وجيرد الى مقدمة المستودع واطللنا من خلال النافذه . لم تلح وسيلة نقل على مرمى البصر ،

ولو كنا محظوظين جدا ربما استطعنا ان نوقف سيارة ايراني او اوربي صديق ، لنسافر مع احدهما متطفلين . ربما يحدث هذا في الاسبوع التالي . قررنا اخيرا أن ندفع العشرة دولارات ،عرضت النقود التركية وانا اتساءل ما الذي يمكن آن يمنع الرجال من سرقة النقود دون ان يعدوا لنا سيارة .

تقدم نحونا احد حراس الحدود حيث بدا انه على علاقة طيبة مع السائقين ، بينما ادار احد سائقي التاكسي قرص الهاتف ليطلب يوكسيكوفا . لقد كانوا يتظاهرون بطلب سيارة على الاقل .

اثناء مفاوضاتنا عن سيارة الاجرة شد حديثهم انتباهي فقدكانوا يتحدثون الكردية وليس التركية . بدأت لتوي في غرفة الحارس بالتحدث مع مضيفنا بالكردية . اتسعت عيناه قليلا ولكن لم يبدر منه أي تعليق . ومن ثم ادار مفتاح الراديو بسرعة الى محطة اذاعة الحزب الديمقراطي الكردستاني في العراق. بدأنا نشعر براحة اكبر عندما تدفأنا بموقده الذي يعمل على الحطب . صب لنا مضيفنا حالا كأسين ضخمين من الشاي التركي العشبي النكهة مرفقا بقطع ضخمة من القاند . وأظهر لنا كتبا كان يستخدمها ليتعلم الفارسية ، وكان ذلك مشروعا قد بدأه ليمضي به الوقت في مركز الحدود الموحش هذا . وصلت الحافلة العمومية الصغيرة من يوكسيكوفا بعد ساعة من ذلك وبينما كنا نصعد الى المقعد الثاني سمعت الحارس الذي قدم لنا الشاي يهمس للسائق ومساعده ويقول :

ـ انها تتحدث الكردية .

سألني السائق مباشرة فيما اذا كنت اعرف الحاج اسماعيل أم لا. فقلت اني اعرف ابنته .

ـ اذا ذلك هو المكان الذي تعلمت فيه الكردية .

قال احدهما للآخر .

عاود ـي خشية من شر مرتقب حالما سرنا خارج منطقة

الحدود . دققت النظر من خلال نوافذ الحافلة ،لأقارن كردستان تركيا بكردستان ايران . بدا الطريق الترابي المتآكل والمتعرج كما لو انه في مكان ابعد من ايران التي بدت وكأننا لم ننطلق منها ولكننا وبعد ذلك لم ننتقل ابدا حول ريزاي وفي الريف بدون دليل . ها نحن قد بقينا وحدنا ، وعلى الرغم من أن معرفتي بالحاج اسماعيل قد خلقت انطباعا قويا لدى السائق فقد كنت أشك ان اسم الحاج اسماعيل سيمضي بعيدا لدرجة حمايتنا من خشونة تركيا الشرقية .

توقف السائق عدة مرات ليملأ مبرد محرك السيارة المسرب بالماء من قناة للري . توقفت الحافلة في القرية الاولى القابعة عاليا فوق منحدر تل ليأخذ السائق اناء صغيرا من اللبن الطازج. رأيت بعض النسوة على بعد مسافة وقد كن يرتدين الزي الكردي التقليدي ذا التنورات العديدة ولكن الرجال كانوا واقفين في هيئة مختلفة تماما عن الاكراد الايرانيين . فقد كانوا يرتدون قبعات مستديرة ومسطحة من الاعلى وذات حواف وسترات صوفية قديمة وسراويل . من الممكن ان تكون البذلة برمتها في طرازها وحالها امتداد للزي البريطاني السائد في الثلاثينيات . ولاتمام الصورة فقد كانوا يحملون عصوات للمشي . وقد افترضنا انها لابد ان تكون البذلة الرسمية الغربية التي اذخلها اتاتورك في السنوات مابين ١٩٢٠ و ١٩٣٠ لتحل محل الشلوار والعمامة الكرديين المحظورين وكذلك محل اللباس التركي التقليدي . وبعد نصف ساعة من الارتجاج فوق اخاديد في الطريق والالتفاف حول تراكمات ضخمة من الثلوج والصخور المنهارة وبعد اضافة الماء الى الرادياتور المسرب وصلنا الى الجزء الادنى من مدينة يوكسيكوفا . وقد ذكرنا الضباب الابيض الصاعد من الارض المكسوة بالثلج بوصف فيودور للمكان حالما ترجلنا من فوق المقعد العالي للحافلة الصغيرة . ولكننا لم نشهد أيا من السواح أو متسلقي الجبال . وبدلا من ذلك فقد تقابلنا مباشرة مع حشد من الرجال والصبية مرتدين على نحو سيء وقد اتضح انهم سكان غرفة جرداء قذرة اشار اليها السائق على انها محطة الحافلة .

خطوت صوب منضدة خشبية تقوم مقام طاولة المحـــلات وكان يجلس خلفها رجل طويل القامة وسيم وذو شعر احمر مجعـــد وشارب احمر . وقد لمعت عيناه الزرقاوان بينما كان يراقبني وانا انطق الكلمات الضرورية بالكردية ، وبدأت قائلة :

- نريد شراء بطاقات الى وان .

حدق الرجل ذو الشعر الاحمر لبرهة خارج النافذة وكان بقية الرجال يراقبون عن كثب هذا التفاعل الناشئ . واخبرني قائلا :

- لقد تأخرت كثيرا ، فالحافلة المخصصة لهذا اليـــوم قد غـادرت .

نظرت الى ساعتي ، لم تكن قد تجاوزت العاشرة بعد ، وكان صديقنـا الامريكي قد اخبرنا ان الحافلة من يوكسيكوفا الى وان لاتغـــادر حتى الساعة الحادية عشرة ، فقلت :

- لايمكن ان تكون قد غادرت ، فلازال الوقت مبكرا جدا

فقال وقد بدا عليه السرور :

- نعم ، ولكنها قد رحلـت .

نظرت خلفي نظرات عجلى الى حيث كان يقف جيرد قرب حقائبنا ويجهد لفهم ما كان يجري . واضاف الرجل ذو الشعر الاحمر استجابـــة لنظرتي القلقـة :

- نعم،لم العجلة ؟ لابد ان تبقي وتشاهدي مدينتنا .

نقلت هذا لجيرد الذي بدا متخوفا ومتضايقا . لم يكن معتـــادا على البقاء من غير اتصال بالآخرين . ففي ايران كان معظم الاكراد الذين التقينا بهم يعرفون بعض الفارسية . ولكن الآن وبما انـــه لايعرف التركية او الكردية فقد بقي مهملا . احس الحشد بهذه الحقيقـة حالا ،وقد اثار ذلك فضول الرجال . سأل الرجل ذو الشعر الاحمر مشيرا الى جيـــرد :

- من هـــو ؟

فأجبتـــه :

ـ انه زوجي .

ـ انه لايتحدث الكردية ، لماذا تتلكأين في السفر معه؟

لو لم أكن في تركيا الشرقية لربما سرني ذلك التحول ، عندما عرض على جيرد زوجة اخرى في مانوا . ولكن هنا يوكسيكوفا لم اكن في موقع يدعو للضحك . وكنت سعيدة جدا لوجود جيرد معي ولم أكن ارغب ان يظن هوءلاء الرجال غير ذلك . كنت قد سمعت أن امرأتين امريكيتين عبرتا الحدود التركية ـ الايرانية بسيارتهما الخاصة وحدهما ،كانتا قد سلبتا من قبل عصابة هاجمتهما .

تفحصت جدران ولوائح محطة الحافلة بحثا عن آي لائحة يمكن ان تخبر عن موعد مغادرة الحافلة الفعلي . وبعد ذلك سألت الرجل ذي الشعر الاحمر ثانية ولكنه استمر في تأكيده لي ان الحافلة قد غادرت في الساعة الثامنة من ذلك الصباح ولو آني فقط اكف عن القلق ، فاني سأقدر على قضاء الليلة في يوكسيكوفا وآخذ الحافلة في اليوم التالي . فكرت في نفسي ، حسنا ، لربما ان مواعيد السفر قد تغيرت منذ السنة الفائتة . ان احتمال الغاء جميع الحافلات المخصصة للاجانب في شرق تركيا لم يبد بعيدا جدا ، بعد تجربتنا عند الحدود . فسألت الرجل :

ـ حسنا ، اذا لم تكن هناك حافلة ،هل توجد سيارة اجرة ؟ يجب ان نذهب الى وان اليوم .

فكرر وهو يبتسم :

ـ تاكسي ؟ طبعا ،طبعا . ولكن اولا يحب ان نذهب ونشرب الشاي معا . ومن ثم يمكنكما ان تذهبا الى وان . اعرف شاحنة ستأخذكما الى هناك .

فسألته :

ـ هل انت متأكد ؟

ـ طبعا ، هل تظنين آني اكذب عليك ؟ انت مثل اختي .

وقد كرر هذه العبارة في غضون الساعة التي تلت عدة مرات

وغالبا ماكان يرفقها بدعوات الى منزله . على الرغم من اني في محطة الحدود كنت قد بدأت اشعر وبثقة بأن معرفتي باللغة ستقربنا من السكان المحليين او على الاقل انها ستجعلنا اقل غربة ولو قليلا ولكنها سرعان ماتحولت الى شيء بغيض . فقد كانت معرفتي باللغة الكردية تساعدني ببساطة على فضح مجونهم اكثر .

طلبت من جيرد ان نذهب الى المقهى . وبما أن الرجل ذو الشعر الاحمر قد ابدى استعداده للخدمة ، فقد قررت انه سيكون من الافضل أن نسايره لفترة . وعلى الرغم من تحفظاتي فقد كنت نصف مفتتنة بهذا الكردي الوسيم ، المليء بالحيوية والحماسه . وبتردد وضعنا حقائبنا على الارض في زاوية حجرة الانتظار. هل ستبقى في مكانها الى حين عودتنا ؟ كان حشد الرجال والصبية ينظرون الينا شزرا وكنا مكرهين لأن نتصرف وكأننا لم نثق بهم وقد ارانا الرجل الذي عين نفسه دليلا لنا شاحنة حمراء كبيرة كانت مستقرة على الطريق حالما خرجنا من الحجرة وتوجهنا نحو الطريق الرئيسي . واخبرني قائلا :

ـ تلك ستأخذكما الى وان .

فسألته :

ـ حقا ؟ متى ؟

فأجاب دليلنا بتأن :

ـ حالا ، حالا ،ولكن في البداية لابد من تناول الشاي.

دخلنا المقهى الذي لم يكن يتميز عن مقاهي ايران حتى بطاولاتها الصغيرة المربعة . لم ألمح حتى ولا امرأة فيها . وقد التفتت الروؤس جميعها نحونا ، وحالا دخلت مع الرجل ذو الشعر الاحمر وجيرد . واستمتعت لبعض الدقائق الاولى من جلوسنا هناك بجو التشويق والاثارة . ففي كل مرة تحدثت فيها ، كان يسود الحجرة ، هدوء يمكّن المرء من سماع صوت طحن قطعة من السكر. وبعدئذ تضج الجدران بهمهمات مختلفة عندما ينقل الرجال الى

اصدقائهم في الاماكن البعيدة ماكنت اقوله وذلك على مراحل متتالية . لم يكن التلفزيون قد وصل مقاهي يوكسيكوفا بعد. ولكن الشيء الاخر الاكثر اثارة ، وهو وجود امرأة اجنبية تتحدث الكردية ، كانت قد وصلت الى هذه المقاهي . بينما كنت اتحدث ، كان العرق يسير على ظهري تحت سترتي وكنزتي الصوفية وتحت معطفي المطري الثقيل . بدأت اتساءل بالحاح اكثر عن كيفية خروجنا من هنا . كان الرجل ذو الشعر الاحمر يتصرف كما لو انه يرغب في الاستمرار في عرضي الى الابد على رفاقه في المقهى متباهيا بي.

بينما كان يقدم لنا الفنجان الثاني من الشاي لمحت بطرف عيني من خلال النافذة، الشاحنة الحمراء التي كان من المفترض انها ستنقلنا الى وان وهي تنعطف في زاوية على طريقها للخروج من المدينة . وقد فزعت لدى رؤيتي ذلك ونقلت المعلومة الى جيرد . فقال الرجل ذو الشعر الاحمر متملقا :

– تكلمي الكردية ،نحن لانعرف الانكليزية .

حدقت فيه وانتفضت قائلة وتبعني جيرد ومشى مضيفنا وراءنا الى خارج المقهى مع العديد من الاحتجاجات المستاءة لعدم اتمامنا احتساء الشاي حتى . اختار عدد من السادة رواد المقهى هذه اللحظة للمغادرة . والتف حشد كالحلقة حولنا بينما شققنا طريقنا عائدين الى الشارع الى حيث المكان الذي بقيت فيه حقائبنا سليمة على الرغم من انها لم تكن غير ممسوسة. و بعد محادثة سريعة مع جيرد التفت الى الرجل ذي الشعر الاحمر خاطبته قائلة :

– كنت اظن ان الاكراد اناس طيبون وشرفاء وانهم معرفون بحسن ضيافتهم . فابتسم الجميع لذلك واتممت :

– ولكني لا أظن انك تقول الحقيقة . كنت تعرف أن الشاحنه ماكانت ستأخذنا الى وان . لماذا حاولت أن تخدعنا ؟

عند ذلك تلاشت الابتسامات وبدأ الناس باللغط . كان الرجل ذو الشعر الاحمر قد اندهش لذلك . ان الاهانات المنذرة بالسوء

في كردستان قلما تلفظ جهارا ، بغض النظر عن مدى صحة الاتهام . لم يعاملني هوءلاء الناس كضيفة ، بل كسائحة عابرة ، يمكن ان يتسلوا معها . على الرغم من أننا كنا تحت رحمتهم فهم لم يرغبوا بأن توجه لهم التهمة بالسلوك غير الحسن .

هذه الصفة المتناقضة ظاهريا ، هي حقيقة بين الاكراد حيث يحتوي تراثهم على حكاية خرافية ذات مغزى تشبه هذا الموقف . تقول الحكاية انه وقع احد الصيادين أثنا عاصفة ثلجية في حفرة دب ، وللفرج الذي نزل على الرجل ، فان الدب لم يقتله ولكنه تركه يمكث في جحره لبقية الشتاء . وكلما يجوع الرجل أو يعطش ، كان الدب يعطيه قدمه ليلعقها ، واتضح ان هذا كان شيئا مثيرا للاشمئزاز ، فقد بدأ الرجل بفقدان شهيته باطراد وعندما حل الربيع ، ساعد الدب الرجل على التسلق للخروج من حفرته وقبل ان يمضي الرجل في طريقه ، يسأله مضيفه :

ــ هل احسنت معاملتك يا أخي ؟

فيجيبه الرجل بصدق :

ــ نعم ، ولكن كان لقدميك رائحة كريهة حقيقة .

آنئذ يتوسل الدب الصياد ان يطعنه في ظهره فيتردد الرجل ولكنه اخيرا ، ونزولا عند الحاح الدب يذعن لذلك . بعد عودته الى القرية ، يتذكر الرجل الدب ويخبر عائلته بانه يرغب في تقديم زوجين من الخراف له ، تعبيرا عن شكره لابقائه عنده طوال الشتاء ، وعندما يعود الرجل الى حفرة الدب يجد ان جرح الدب بالسكين قد شفي ، فيعطيه الخروفين ولكن الدب يجيبه قائلا:

ــ انا لا اريد هداياك . انظر الى الجرح الذي سببته مديتك انه قد شفي بدون مساعدة الاطباء او الدواء ولكن جرح كلماتك البغيضة لن يبرىء ابدا .

كانت تركيا الشرقية قد فتحت ابوابها للسياح الاجانب في السنوات الست او السبع الاخيرة فقط . وقبل ذلك كان السلب

والنهب والثورات شائعة هناك . في الوقت الذي جرحتهم اتهاماتي حتى الصميم فكرت في احتمال ان معرفة الرجل ذي الشعر الاحمر بالبرنامج هي التي احثته على قبول طلبي . من ثم أعدت لنا سيارة اجرة قديمة مزودة بسائق وتفاوضنا حول الاجرة . وعلى* الرغم من أن السعر كان اعلى مما كان يجب ان يكون ، فان الخمسة* عشر دولارا لرحلة ، الثلاث ساعات الى وان كانت مقدارا أقل بكثير من العشرة دولارات التي دفعناها لرحلة النصف ساعة من الحدود . حشر اثنان من المحليين نفسيهما في المقعد الامامي مع السائق لانه سيعتبر ركوبا مجانيا بدون شك .

تجمع الرجال حول سيارتنا ليودعونا ، بينما سأل الرجل ذو الشعر الاحمر نحو النافذه . وسأل :

— هل ماتزالين تظنين ان الاكراد اناس سيئون ؟

فأجبته :

— لا

لقد كنت سعيدة لمجرد مغادرتنا يوكسيكوفا .

فقال :

— حسنا . لاتنسينا . وتذكري انك اختي . عودي وزوريني .

فأجبته من خلال مقعد السيارة الامامي :

— شكرا جزيلا .

بعدئذ تقدم نحوي العديد من الناس وصافحوني من خلال نافذة السيارة .

بعد ذلك ، لمحت المرأة الوحيدة التي شاهدتها في يوكسيكوفا فقد مرت على بعد ما يقارب خمسة اقدام مثل شبح عبر حقل مكسو بالثلج . كانت تضع على رأسها قماشا أسود سميكا ، يصل حتى ركبتها ، وبانت تحته ساقان عاريتان ، وكاحلان مكسوان بجوارب بيضاء داخل حذاء اسود مسطح . بدا انها تحدق باتجاهي واستغربت لقدرتها على الروءية من خلال القماش . كان علي أن اعرف

قبل ان افكر ان الغطاء بكل اشكاله غير المستحبة قد حرم في تركيا .

بينما انطلقنا خارج مركز المدينة ، انعطفت حافلة في الزاوية وانطلقت بسرعة ، مارة بنا ولكنها لم تكن بالسرعة المفرطة ، فقد استطعنا ان نقرأ كتابة عليها من الخارج " بحيرة وان " . نظرت الى ساعتي وكانت تشير الى الحادية عشر الابضع دقائق ، كما كان قد اخبرنا متطوع فرقة السلام .

بدا ريف مقاطعة هكاري في تركيا اكثر اخضرارا ولكن أقل كثافة بالسكان من غرب اذربيجان . وحالما شققنا طريقنا في منعطفات في الجبال ،رأينا رعاة ومعهم كلاب ضخمة .

كان بعضهم يرتدي العمامات الكردية والسراويل الفضفاضة وكان اغلبهم يرتدي لباسا من الطراز البريطاني يعود لسنة ١٩٣٠ . بعد عدة ساعات انطلقنا الى بوشقالة وهي مدينة كردية ممعنة في القدم ذات شوارع مرصفة بالحجارة ، مبنية على جانب جبل . تناولنا عشاءنا فيها مع السائق وركابه الآخرين . ابديت ملاحظتي لحقيقة انهم دفعو بدلا منا ، ولكن جيرد اشار متشكيا الى آن من الطبيعي ان يكونواكرماء جدا بالنقود التي نهبوها منا .

بعد العشاء تحول الطريق شمالا مباشرة باتجاه وان ، وبدانا بالتسلق نحو الالسنة الجبلية العالية لزاغروس . اختفت الشمس وراء الغيوم وكان قد حل الجليد والثلج ، محل العشب الاخضر الباهت في مطلع الربيع . وقد سرنا نحو عاصفة ثلجية صغيرة في قمة رحلتنا وبدأت السيارة بالانزلاق ، بينما كنا نغالب المنعطفات الحادة . اغلقت عيناي محاولة الا افكر في كيفية عدم ملامسة عجلات السيارة الارض،هذا اذا تجاوزنا ذكر السلاسل الجبلية .

بينما كنا نهبط من فوق الجبل ، حدقنا عاليا الى حافة الجرف وشاهدنا هيكل واجهة حصن قديم . سررت لانه لم يعد

مأهولا . ان أي امرىء كان يقدر على انتزاع مايرغب فيه كضريبة على العابرين ، بسبب موقعها السيطر على الطريق . كان الاكراد حتى بدون هذه القلاع قد بسطوا سيطرتهم على الممرات الجبلية في تركيا الشرقية ، الى ان اوقفهم الجيش المرسل من انقرة عن ذلك .

غادرنا الجبال تدريجيا وبدأنا باجتياز الحقول . كانت قد أنشئت في ضواحي وان مساكن مشابهه بالمباني التي رأيناها عند الحدود وكانت هذه ايضا ذات افنية غير محاطة بجدران وقادنا طريق عريض تكتنفه الاشجار لمركز المدينه بينما كنا نلقي نظرة عجلى على كتاب الدليل السياحي بحثا عن اسم فندق ما . وافق السائق على اختيارنا لفندق بيش كارديش ، وبينما توقف امام مبنى كبير ذي مظهر مهمل بساحته المفروشة بالحصى والمزينة بمجموعة تماثيل ، كتب احد المسافرين ـ كانت قد جرت بيني وبينه محادثة ودية ـ اسمه واسم قريته بسرعة على قطعة ورق وناولني اياها . وقال موءكدا :

ـ عندما تعودين الى الحدود ، اتمنى ان تزوريني .

شكرته وانضم الي جيرد بتوديعه توديعا حارا بعد ان كانت معنويات جيرد قد انتعشت بعد نجاحنا في الوصول الى وان برغم كل شيء .

دخلنا الى حجرة الانتظار في الفندق ومشينا بجانب بعض الكراسي الرثه المحشوة وحوض سمك مغبر . سألت الموظف الشاب الانيق الجالس الى مكتبه :

ـ هل تفهم الكرديه ؟

فقلت بالكردية بأننا نريد غرفة ، معتبرة ان صمته هو تصديق لذلك . فابتسم دون أن يتفوه بكلمة وناولنا استمارات لنملأها بالمعلومات المطلوبة ومن ثم ناولنا المفتاح.

اخذنا حقائبنا الى الاعلى وتفحصنا الغرفة . لقد كانت بالنسبة لسعرها ذي الثمانية دولارات ، صغيرة وغير نظيفة جدا ولكن التواليت الى الجانب الاخر من القاعة كان أسوأ حالا .

بعد بضع دقائق خرجنا الى الشارع الرئيسي لصرف النقود في مصرف ما ولشراء تذاكر سفر بالطائرة الى استانبول ولتناول العشاء . وفي طريق عودتنا من المطعم ، دنا منا شخص في زقاق معتم وبادرنا بالكلام وبعد ان القى علينا التحية كما لو انه يعرفنا قال الغريب :

- اين تقيمان ؟
- في ايران .

اجبته بذلك بما انه كان يتحدث بالكردية .

- اوه ، حقا ؟ في اي مدينة ؟
- في ريزاي .
- ريزاي ؟ اعرف اناسا عديدين هناك . هل تعرفان السيد فيلاني ؟

لم استطع فهم الاسم الذي لفظه جيدا ولكن وجودي لخمسة اشهر في ايران كان قد جعلني متيقظه لهذا النوع من اللقاءات غير المتوقعة . وكنت قد حذرت ايضا ان تركيا الشرقية تعج بعناصر وعملاء البوليس السري . تمتمت بشيء مجيبه على هذا الرجل ومن ثم تفادد يناه ولم يلاحقنا هو أيضا بدوره .

لدى عودتنا الى الفندق جلسنا في حجرة الانتظار بجانب حوض السمك وطلبنا فنجانين من الشاي بعد أن رأينا انه يقدم لكل شخص حولنا . بدا ان كثير من الاعمال تنفذ في حجرة الانتظار هذه ولكني لم اكن قادرة على اكتشاف ماهيتها تماما .

حصلت في اليوم التالي وفي الصباح الباكر على فكرة افضل عن تخطيط وان وانا في الطريق اليها ، فهي تقع قرب

بحيرة ملحية كبيرة وتحيط بها الجبال وتشبه ريزاي الى حد كبير بما ان تركيا تفتقر الى بترول يحقق لها ازدهارا اقتصاديا كما تفتقر الى لاجئين عراقيين حيث كانت الحدود مع العراق قد زرعت بالالغام لتبقي الاكراد في الخارج . فقد كان عدد سكان وان يقارب حوالي ثلث سكان ريزاي فقط . واذا كان ثمة مجتمع اجنبي في وان ، فهو لم يكن واضحا ، وعلى الرغم من هذا ، فقد كان من النادر ان يحدق بنا احدوكان ذلك يوفر لنا راحة عظيمة بالمقارنة مع ماكان يحدث في ايران . وكان السكان ينظرون الي وكأنهم لم يروني من قبل ابدا بغض النظر عن المرات التي كانوا يشاهدونني فيها . كانت بعض النسوة في الخارج مرتديات نوعا من الغطاء المستعمل كبديل موءقت للذي رأيناه في يوكسيكوفا ، ولكن بشكل عام بدا ان النساء كن قد حللن مسألة الحجاب المحظورة بعدم الظهور في الشارع مطلقا . وطالبات المدارس كن يمشين يدا بيد مرتديات البسة على الطراز الغربي مع السراويل ولفاعات على روءوسهن. وجدنا آنا وجيرد مقهى وجلسنا لنتمتع باحتساء الشاي وفي ذلك الحين لاحظت ان رجلا يراقبنا عن كثب من طاولة كانت بقربنا . كان ثمة شيئا ما في نظرته لم ارتح له . انهينا شاينا بسرعه وخرجنا نازلين فوق الهضبة وانعطفنا حول زاوية لننهي تناول فطورنا في محل معجنات . وبينما كنا جالسين هناك فتح الباب ودخل نفس الرجل وجلس بالقرب منا .

عند العودة الى الفندق جلست في غرفة الانتظار بقرب مجموعة من الرجال . كنت متأكدة من أن السكان في وان هم من الاكراد . ولكني كنت قد سمعت ، مصادفة، بعض الناس في المدينة يتكلمون التركية مع اطفالهم . بدا الناس هنا راغبين عن التحدث معي بالكردية على نحو مغاير عما كان في يوكسيكوفا . ولكن عندما اخذت السرعة التي وضعت فيها تحت المراقبة بعين الاعتبار، لم يبد خوفهم شيئا غريبا .

على كل حال كانت حجرة الانتظار في الفندق ممتلئة

بنماذج ريفية شبيهة باليوكسيكوفين . فقد كانوا جميعهم يتحدثون بالكردية فيما بينهم .

التفت الى الرجل الجالس بجانبي والقيت عليه التحية وسألته عن صحته . كانت اجابته ودية وحالا عقدت محادثة مع مجموعة كاملة من المهربين الاكراد . سألتهم :

ـ ماذا تهربون ؟

فنظر الرجل حوله ومن ثم اجابني بصراحة :

ـ اغنام ، سيارات ، أي شيء .

فكررت متسائلة :

ـ آغنام ؟ .

ـ أوه ، نعم يمكنك ان تحصلي على سعر افضل بكثير للغنمه الواحدة في ايران اكثر مما يمكن ان تكسبيه هنا ، اكدوا لي ذلك وسأل احدهم :

ـ هل اتيت من ريزاي ؟
ـ نعم ، هل تعرفين اين هي ؟
ـ طبعا ، ذهبنا الى هناك عدة مرات .

وانفرجت وجوههم المغبرة بتأثير العوامل الجوية عن ابتسامات عريضة مسلية .

ـ هل تعرفين الحاج اسماعيل ؟

ـ نعم .

اجبت بذلك مندهشة الى المدى الذي قد وصلت اليه شهرة الحاج اسماعيل الغامض هذا .

كان مطار وان بالنسبة لمطار ريزاي نفس ماكان يعنيه مركز الحدود التركي قرب سيرو بالنسبة للجانب الايراني . كان مبنى مطار وان ذا كلفة باهظة ، اذا اخذنا بعين الاعتبار ، ان كلا

من ريزاي ووان كانتا تقومان بثلاث رحلات اسبوعيا لعاصمة البلاد. لم يكن البناء يحتوي على ناد ليلي او على رخام مزيف . وقد تجولنا خارجا في الجو المشمس والبارد بردا قارسا لنراقب وصول الطائرة من استانبول عندما مللنا من صور اتاتورك المعلقة في مكتب المدير .

بعدما ترجل الركاب انزل تابوت خشبي غير مزخرف على السلالم من الطائرة وتحركت مجموعة من الرجال المرتدين الحطية ذات طراز كردي لاستقباله . لم نشاهد في أي وقت آخر في تركيا الشرقية مجموعة من الناس مميزين بهذه السهولة على انهم اكراد. رفع الرجال التابوت وحملوه الى مجموعة اضخم من الرجال الذين كانوا ينتظرون ويبكون خلف البوابات . واخيرا شرعنا في الطيران ونظرنا نحو الاسفل الى تضاريس تركيا الشرقية الملتوية والملتفة على بعضها وقد ضرب زلزالان هذه المنطقة بعد سنة ونصف من ذلك الحين ، نشر الاكراد العراقيون تقارير عن المعانات الرهيبة التي تلت هذه الهزات ، وعن المساعدات الدولية المرسلة التي لم تصل الضحايا ابدا . ونقلت الصحف الكردية العراقية عن تصريحات لمسوءولين اتراك يقولون فيها " على كل حال ،هم ليسوا الامجرد اكراد " .

وصلنا الى استانبول بعد ست ساعات . وقد بدت لنا كما لو انها ستة قرون . استانبول هي مدينة جميلة تضج بالتجارة والصناعة بالاضافة الى التباين بين المباني القديمة والحديثة الجميلة . في وان ، البنايات القديمة الوحيدة هي الكنائس الامريكية التي كانت قد انتهكت قدسيتها لعقود مضت . ومنذ ذلك الحين كانت الحكومة قد انشأت الشيء القليل من المباني الجميلة والممتلكات في وان . ولماذا تتجشم عناء ذلك ؟ فالذين يقيمون هناك هم منْ الاكراد فقط .

يبلغ عدد الاكراد القاطنين في استانبول خمسين ألفا اوما يقارب ذلك ، وقد قدموا اليها لايجاد عمل فيها وتبددوا في زحمة هذا الحشد . لم اقو على التغاضي عن سماع الكردية

لدى تجوالنا في شوارع وازقة المدينة عندما اخذنا موسى الـــذي عاد من امريكا لروءية معالم المدينة . وقد اصبت بذهول عندمـــا اكتشفت انه لن يتحدث معي بالكردية في استانبول على الرغم مـــن انني كنت قد قضيت سنة في الولايات المتحدة اتعلم الكرديـــة منه، والان بعد كل تجربتي في ايران استطيع التحدث بلغته افضل مـــن أي وقت آخر ولكن موسى كان يفضل الانكليزية المكسرة .

سألته فيما اذا كان سيذهب معي الى البازار للبحث عن كتب وبيانات كردية مسجلة ، حيث كانت تظهر بين فينة واخـرى على الرغم من ضغط الحكومة . فأجابني بلطف ولكن بحزم :

ـ لا يامرغريت ، لا أظن ذلك .

ـ هل تظن انني سأقدر ان اجد كتبا من هذا القبيل ؟

فأجاب بحـــذر :

ـ ربما ، لا أعرف .

وفي اليوم التالي كنا نشق طريقنا من بائع كتب الى آخر في البازار ، الى أن انتهينا الى شارع ضيق مدّرج موءد الى ســـاحة يتفرع منها شوارع . وقد حصلت على نسختين من قاموس كـــردي ـ تركي واربعة اشرطة موسيقى كردية ، ذات الخمسة والاربعين دورة في كل دقيقة . كان البائعون ينظرون الي نظرات ثاقبة وتساءلـت فيما اذا كانوا ينتظرون اجنبيا ليتلقف هذه الكتب غير القانونية من اياديهم . او لربما تكون لديهم غرف خلفية مكدسة بمـــواد كتابية كردية ولكنهم ولانهم لايثقون بي ، لم يقدموا على بيعـي اياهـا .

وبعد ان امضينا اسبوعا في تركيا ذهبنا الى مصر وقـد قرأنا المزيد عن نهاية الثورة الكردية في صحف القاهرة . وقد ورد في احدى المقالات ان الجنرال البرزاني كان يطلب حق اللجـــوء السياسي في الولايات المتحدة . فكرت في المدرسين في مدرســـة اللاجئين . فكرت في مدى اختلاف نهاية الحرب عن توقعاتهم كانـوا

يعتقدون أن نصرا كرديا هو ممكن ، وكنت آمل ان تتاح فرصة لأزور كردستان العراق . وتساءلت فيما اذا سيبقى اللاجئون في ريزاي حتى عودتنا .

وقد طرنا من القاهرة الى بيروت ومن ثم الى انقرة واخيرا الى ارضروم . وهي مدينة قديمة ذات ابنية وجدران حجرية وشوارعها المعتمة ايضا كانت حجرية . لقد رحل الارمن عنها منذ زمن بعيد فقد آبيدوا في مذابح جماعية في مطلع القرن العشرين وشتتوا في ارض اجنبية . لم اجد احدا في ارضروم يتحدث الكردية معي . لقد بدا ان الاختلاف قد تلاشى ، فقد كان الجميع يرتدون نفس نوع الالبسة الغربية وطبعا كان كل شخص يتحدث التركية .

واخيرا ، بعد رحلة طويلة ، مغبرة وخطرة في الحافلة من أرضروم وصلنا الى الحدود الايرانية مارين عبر بازركان أولا ومن ثم عبر ماكو ، واخيرا وصلنا الى تبريز . وقد بدت لنا ايران اكثر جمالا حتى على الرغم من مشهد الجماهير المثير في بازركان . فهنا كان البوليس السري قد رآنا من قبل على الاقل ولم يتجشم عناء مضايقتنا بالحديث معنا في ازقة معتمة . كان الاكراد هنا يتحدثون ، ويرتدون مثل بقية الاكراد أما هناك ، فقد كان الاختلاف موجودا بدلا من النظام . ربما كان علينا ان نبتعد منذ زمن أبعد لنكتشف بعجلة اكثر ان ايران كانت موطننا . لم احتمل انتظار الوصول الى كردستان حيث كنت قد سمعت اسم حاج اسماعيل في تركيا على شفاه كل مهرب اغنام . وقد اعتدت على التفكير بأن الاكراد الحقيقيين يقطنون في مكان آخر . في تركيا، في العراق في مهاباد وليس في ريزاي . لم يبارحني التفكير بأن الاتراك الآزريين سيستوقفونني وان السافاك سيرحّلوني من البلاد بسبب بحثي في اوضاع كردستان . كان علي الذهاب الى وان التي يتحدث فيها اطفال الاكراد بالتركية ، لكي اكتشف اني عشت في كردستان ، وان الحاج اسماعيل كان ينتظرني في ريزاي طوال هذا الوقت .

الفصل الثاني عشر

كان يقف في مدخل حجرة الجلوس الفخمة شخص طويل القامة ، يميل الى النحافة ، ببذلة سوداء ، وذووجه شاحب وعينين زرقاوين غائصتين ، وهو يتكلم مع مريم حيث كانت جالسة مع نساء عائلتها في يومها الاخير في المدينة . لقد ظهر للحظة ومن ثم اختفى الى حيث لا ادري . وعندما عدت موءخرا الى شارع بهلوي لأرى خديجة كنت ادرك بين الفينة والاخرى حضور هذا الرجل ولكن بطريقة سطحية جدا وبعيدة عن زاوية نظري . لم يدخل الغرفة التي كنت اجلس فيها ابدا ، او يعطي أي اشارة تدل على انه يعلم بحضوري، لذلك ، تساءلت عما اذا كانت النساء قد اخبرنه بزياراتي .

عندما أقبل الربيع ادركت تماما ان رجلا قويا جدا ، يسيطر على حياة هوءلاء النسوة اللواتي قضيت معهن الكثير من الوقت . كن يتحدثن عنه دائما بهمسات تقريبا او بقهقهات مكتومة . " قال الحاج ذلك " أو " الشيخ يريدنا ان نفعل ذلك " وعلى الرغم من انه لم يقدم الي رسميا ، فقد ثبت لقب الحاج على ذلك الشخص الغامض الطويل القامة الذي لمحته في الخريف .

وبصدفة غريبة كان اليوم الذي التقينا فيه انا والحاج وجها لوجه ، هو نفس اليوم الذي اخترته ، لألبس متباهية اللباس الكردي الذي كان جيرد قد اوصى به لي في البازار . وقفت وحدي أمام مرآة حمامنا الصغيرة محاولة ان اسوي الوشاح البرتقالي لكي لاينزلق عن رأسي ، مشبتة الفستان الاحمر الساتين الضارب الى الزرقة بدبوس امان ضخم ، فوق " الكراس " الابيض والاحمر والاصفر الذهبي . لم ألبس ثيابي الكردية بنفسي من قبل ، على الرغم من اني كنت قد ارتديتها في مانوا وفي قرية السيد شيخ زاده ، و كان علي أن اجهد في وضع " الكراس " علي وان ألف حزام هذا

اللباس الداخلي حول خصري واسحب نهايات الاكمام الطويلة الرفيعة خارجا لكي استطيع ان اربط اكمام " الكراس " عندما ارتدي الفستان ، ولالقيها من فوق رأسي لتأخذ مكانها فوق ظهري واثبت الفستان المفتوح أسفله من الامام بدبوس امان ضخم . عندما نظرت الى بذلتي ، ادركت ان مظهري هومثل مظهر معظم النساء الكرديات تماما ولكنني لم أكن على وشك ارتداء فستانين ، مثلما كانت تفعل خديجة . كان الثوب القطني الذي يدعى فستانا داخليا يشكل غطاء كافيا لي بدون " الفستان " او " الكراس " والصدارة المنطبقة عليه . تحت ثقل كل هذا القماش ، كنت اشعر كما لو ان السروال الفضفاض ، الساتين سينزلق من خصري ، وقدتساءلت الى أي مدى سأقدر على المشي في الشارع ، قبل ان ينزلق ساقطا حول كاحلي. لقد كان صعبا للغاية . اردت الجلوس ونسيان هذا الشيء برمته ولكنني كنت اخاف ان اجعد البستي الجديدة . فوقفت في حيرة من امري . ألم أكن انا التي رغبت في اظهار نفسي بهذا الزي وارتديت الالبسة الكردية في الشارع ؟ لأفترض أن الاتراك عرفوني ، عندئذ ستصبح الالبسة الكردية تسليتهم المفضلة وستعني لهم الكثير . استطيع ان اتخيلهم يحتشدون حولي ، ويتبعونني . وقد حثني على الخروج فقط تفكيري بمنظر خديجة المندهشة والنساء الاخريات . ولو كنت اعلم ان الحاج اسماعيل سيكون موجودا او ينتظرني فلا أظن ابدا اني كنت ساستجمع شجاعتي وتخوفي معا ، لأخطو بحذر نازلة على الدرج المؤدي الى الفناء . لدى خروجي، اندفعت والدة شهرزاد فجأة من الدار وتفحصتني من قمة رأسي حتى قدمي . كنت قد القيت غطاء اسود مخرما على البذلة بكليتها ولكن اللباس الكردي كان يرى من خلالها بوضوح .

ـ مبارك .

غمغمت بطريقة جافة وهي تهنئني اما على بذلتي الجديدة ، أوعلى اعصابي وتحملي ارتداءها وهذا الاحتمال كان وارد اكثر .

خرجت بلباسي المهفهف ، عبر الفناء وفتحت البوابة

ووضعت نظارتي في محفظتي لأني لم ار امرأة بغطاء ، تضع نظارة ابدا . وأملت فقط لو اني استطيع ان اجد طريقي خلال الازقة الى الطريق الرئيسي بدون الاصطدام بشيء . ولحسن حظي اعطاني ثقل ملابسي زخما في حركاتي ، حيث كانت تدفعني الى الامام على الرغم مني . بدا غطائي كأنه يتلاطم كالموج حولي وبدا كل شيء ينزلق وينزلق . وفكرت في نفسي ، اذأ هذا مايفعله الحجاب فهو يبقى المرأة منشغلة كليا بامساكه . ان الاغطية العربية الاكثر جدية لها فوائدها ، فهي على الاقل تبقى ثابتة بنفسها ولاتنزلق .

مر بي راكب دراجة ، فالتفت لأنظر اليه ولكنه استمزفي طريقه حتى دون ان ينظر نظرة باتجاهي . عرفت انه لم ينظر وراءه لانني انا ذاتي نظرت باندهاش . ما الامر ؟ ففي الاشهر الخمسة الفائتة لم يمر بي صبي على دراجة دون التحديق وراءه . كان من المستحيل تقريبا ان او فق بين شعوري الغامض بالروعة مع مظهري الجدي غير الجلي . كنت سأصل لبيت خديجة دون أن يلحظني احد ابدا لولا ارتكابي خطئي المشؤوم . فقد حدقت في عيني بائع الخضر وات وانا في طريقي ، بينما لاتحدق امرأة ترتدي غطاء ابدا في عيني رجل في الطريق . وقد فغرفاه البقال اندهاشا عندما عرفني ، فاسرعت باحثة عن جرس باب البيت التالي آملة ان تجيب خديجة قبل ان يبادر بالكلام .

هنأتني خديجة بصوت مرتفع ، عندما رأت ملابسي واجتمعت النسوة حولي في الطابق العلوي ليبدين اعجابهن بها . كان جميع الاكراد الذين رأيتهم يفتخرون حقا بملابسهم . فقد كانوا يظنون ان ملابسهم أعظم قيمة من الملابس الغربية وكانوا يسرون لرؤية الاخرين يرتدونها . ان هذا تقليد حي بين الاكراد وهم يفتخرون به . وليس بالضرورة ان تنعدم لديهم ، الثقة بالنفس ليروا انفسهم كما يراها الاتراك والفرس .

تقدمت زينب نحوي وهي تضحك ، وفكت دبوس الامان الكبير وتركت الفستان متدليا :

ـ مارغريت ، ليس على هذا النحو .

عدلت لباسي ، مغلقة " الكراس " الداخلي ،حيث رفعته ولفته حولي لكي تبقي السحاب من الامام وليس من الخلف . ان السحابات ودبابيس الامان يمكن أن تعتبر رديئة في الغرب ولكن دبوس الامان في كردستان له فعالية عند الاكراد ، فهو وكما اكتشفت موءخرا يفيد تماما في طرد " الخِلْبليك " هذه الارواح الكردية الشريرة التي تظهر عند المغيب متنكرة بشخصيات اناس حقيقيين ، وتنزل الخراب على ضحاياها . لااعرف اذا كان للسحابات خاصية سحرية ، لكنها من الموءكد ليست غير مرئية .

عدلت زينب ايضا وشاح رأسي الذي كان يظهر نصف شعري وهذا شيء لاتظهره المرأة الفاضلة . وحالما بدآت التعديلات والاوه والآهات بالتوقف تدريجيا ، ظهر الرجل النحيل الفارع القامة عند المدخل بنفس البدلة السوداء . كانت قد ارتسمت ابتسامات عريضة شيطانية على محياه ، بينما كان يخلع حذاءه نهضت حالا وانما انقل نظري بينه وبين النساء الاخريات وتحول حدسي الى صدمة ، كان كما لو ان مصيبة حلت على الحجرة او كما لو أن ميدوزة قد اتت الى الباب ، بدلا من رجل يبتسم بخبث . كانت وجوههن قد شحبت وصمتت اصواتهن . بدا كما لو انهن تحولن الى تماثيل وهن يقفن بلا حراك . توقفت عن الابتسام ولكن حالما خطا الحاج اسماعيل نحو الحجرة ورفع يده ليصافحني بثبات ، لم استطع مقاومة الابتسام ثانية :

ـ تفضلي بالجلوس ، تفضلي .

بقي يردد هذا لي ، ولكني بقيت واقفة . ماكنت سأجلس وجميع النسوة منتصبات حولي وقد تجمدت حركتهن . فسأل زينب مستفيئا :

- ماذا لا تجلس ؟

فأجابت زينب وعيناها مسدلتان :

- انها تعرف عاداتنا .

انحنى الحاج اسماعيل نحو الارض بسرعة ، وتبعته اسما ولكن بدا لي وكأن النساء الاخريات ينكمشن بدلا من ان يجلسن بحيوية . امر الحاج زينب بأن تحضر طبقا كبيرا من الفواكه، فقفزت وخرجت بسرعة ، وظهرت ثانية بعد دقيقة اودقيقتين وهي تحمل طبقا مزخرفا مصفولا من الموز . بعد ذلك قدم لي الحاج واحدة والتقط بعضا منها لنفسه . وكانت النسوة لايزلن بدون حراك .

- شاي ، هل قدمت لها الشاي .

سأل زينب التي نهضت ثانية بصمت لتحضر الشاي نزولا عند رغبة الحاج . ومن ثم لمحت خديجة التي بدت كما لوأنها كانت تتجشم معاناة تجربة زلزال .فهي حتى لم تجلس ، بل قرفصت الى جانب الحائط تماما فوق الارض على مشمع بارد ، مفروش وراء طرف السجادة قرب الباب . كان لفاعها قد انسحب فوق وجهها المتجه صوب الجدار .

كان الحاج لايزال يتحدث معي ، كما لو انه ليس ثمة خطأ على الاطلاق ،لذلك حاولت ان اتجاهل الآفة التي اصابت كل النسوة حولي،وبعد عدة زيارات كانت مقتصرة على النساء فقط بدا ان هناك شيئاغير طبيعي ابدا ، حتى بالنسبة لي في اللقاء مع رجل وجها لوجه في هذا المنزل . قال الحاج مبتسما :

- حسنا ، لقد اخبروني انك تتعلمين لغتنا .

أومأت برأسي مؤكدة ذلك . فسألني وهو ينظر الى النسوة اشباه التماثيل :

- ماذا تعلمت لحد الآن ؟ ماذا علمنك ؟

لم أعرف بماذا أجيب ، ولكن الحاج اطلع على دفتر ملاحظاتي الذي كنت احمله معي في كل مكان وسألني :

ـ ماالكلمات التي كتبتيها عندك ؟ اقرئيها لي .

فتحت دفتر ملاحظاتي وانتابني شعور كما لوأني على وشك خوض اول امتحان لي في الكردية . قرأت ببطء مادونته . فطلب مني الحاج ان احدد معنى كل كلمة وعندما لم يوافق على ماقلته بدأ بتقريع نسائه . وقال مذكرا اياهن :

ـ يجب ان تعلمنها على نحو صحيح . انها مقدمة على تأليف كتاب .

شعرت بالذنب لأنهن حوسبن بسبب اخطائي ، ولكن زينب وخديجة لم تظهرا اي علامة تدل على اعتراضهن على هذا اللوم غير المنصف . لقد كانتا ارفع بكثير من آن تظهرا أي علامة من هذا القبيل .

بقي الحاج اسماعيل ينظر الي وعلت وجهه ابتسامة عريضه . بدا سعيدا لانه اخذ يقاطعني بالانتقادات والاسئلة ، وكان ابتهاجه معديا فقد شعرت انا أيضا بالابتهاج لأنني اتعلم الكردية وكنت سعيدة لاني اتحدث معه . ولو ان النساء فقط لم يبدون كما لو انهن قد اصبن بصدمة لكنت اكثر سعادة . بعد حوالي عشرين دقيقة استأذن الحاج اسماعيل ليذهب للصلاة في الحجرة المجاورة ، وحالما غادر عادت النسوة الى الحياة .

ـ ما الامر ياخديجة ؟

سألتها شاعرة بالراحة لرؤيتها تبدو وقد انتعشت من جديد وعادت الى طبيعتها . ضحكت صديقتي بمرح . كانت تعرف ما أتحدث عنه على وجه الدقة .

ـ انها عاداتنا ، مارغريت . على المرأة ان تكون محتشمة في حضور حميها . وتحركت بسرعة صوب المدخل ،فناديتها :

ـ الى اين انت ذاهبة ياخديجة ؟

فأجابتني :

ـ سأقوم ببعض الاعمال .

من الواضح انها قد شعرت بالراحة لقدرتها على الفرار. في ذلك الحين ، خشيت أن ابقى وحدي مع هذا الحاج ،ساحر الجماهير . لقد اصابني بعض من خوف النساء . كانت خادمة خديجة ايضا قد ذهبت في الوقت الذي عاد فيه الحاج . وزينب فقط هي التي بقيت معنا .

كان الحاج اسماعيل قد استمع لتوه للاخبار من المذياع واراد ان يعرف كل آرائي عن حادث مايا غوز . وبما اني كنت افتقر الى سماع معظم الاحداث الدولية خلال اقامتي في ايران ، فلم اعرف ما اقوله ، ولكن الحاج جلس مبتسما لي ، كما لو أن أي شيء سأقوله سيفتنه . نجحت في قضاء نصف ساعة اخرى في الحديث معه ، بذلت فيه قصارى جهدى وقد ارهقتني مقدرة الرجل وكذلك الجهد الذي بذلته لكوني الوحيدة في الحجرة التي تقوم بمحادثته . شعرت ان كرديتي هي قيد الاختبار ، لذلك كنت اختار كلماتي بحرص متخوفة من ارتكاب خطأ ما . واخيرا استنفذت معظم قدرتي لهذا اليوم وخاصة تلك المجسدة في مجموعة من المواد التركيبية ، التي تطلبت جهدا مضاعفا . فاخبرت الحاج انه علي ان اغادر ، ولكن هذه المرة وعلى نحو مغاير عن تلك المرة الفائتة ، في احدى فترات العصر ، عندما كنت مع مريم ، حيث جهدت على ان اعرب عن رغبتي بالمغادرة على نحو لبق ومهذب .

ـ هل تسمح لي بالمغادرة ؟

نظر اليّ مبتسما ، رافضا ان يجيب على مثل هذا السوءال فجربت طريقتي القديمة .

ـ علي ان اذهب للمنزل واحضّر الغذاء .

ـ لابد ان تمكثي وتتناولي الطعام معنا .

لقد سرني ذلك ، وجعلني حذره في نفس الوقت . كيف يمكن أن ابقى واتناول الطعام ؟ سنكون أنا وهو الشخصين الوحيدين في الحجرة ، نتناول الطعام . فأضفت قائلة :

ـ ان زوجي ينتظرني .

ـ زوجك ؟

كرر ذلك ونظر الى زينب للتأكد من ذلك .

ـ هل هي متزوجة ؟ اطلبي منه ان يحضر الى هنا .

كان الحاج قد اثار اهتمامي لدرجة اني عزمت على أن يشاطرني جيرد في معرفته . اخذتني زينب الى حجرة نوم الحاج حيث هتفت الى منزلنا ، ودعوت جيرد ليأتي ويأخذني . لقد شعرت حقيقة بالراحة ، لأنني لن اتجاوز عقبات الطريق الى المنزل لوحدي في بذلتي الكردية .

حالما دخل جيرد للحجرة ، امر الحاج باحضار كرسي معدني له . وتصافح الرجلان ومن ثم جلس جيرد في كرسيه ، بينما جلست انا والحاج على الارض . وقد دعانا الحاج وهو يبتسم طوال الوقت ، للذهاب معه الى قريته دستان في نهاية الاسبوع . نظرنا انا وجيرد ، احدنا الى الآخر . ماذا علينا ان نقول ؟ فقبل ثلاثة اشهر كنا سنقبل مباشرة ، ولكننا لم نعد نقبل اي شيء فورا في ايران . فقلت :

ـ شكرا . ولكن لن نقدر .

سأل الحاج :

ـ لماذا ؟

فأجاب جيرد :

ـ علينا ان نعطي دروسا بعد غد .

ـ سأعيد كما الى دروسكما .

فأجبته :

ـ ولكن ذلك سيشكل ثقلا عليك .

ـ ولكني اريدكما ان تأتيا ؟

أجاب الحاج بالحاح

نظرت الى جيرد متسائلة ، ولكن جيرد هز راسه

ـ لا ، لن نقبل .

لم يتخل الحاج عن دعوته مباشرة ولكنه عندما رأى اصرارنا ارتسم تعبير في نظراته ، متعذر فهمه . وعندما عدت الى المنزل لاحقا ، أجتذبت السيدة الكردية والرجل الاجنبي بعض النظرات المستغربة . وسألنا انفسنا عما اذا كنا قد تصرفنا على نحو صائب برفضنا دعوة الحاج . وعندما عدت الى منزله بعد عدة أيام لرؤية خديجة اخبرتني ان الحاج قد استاء كثيرا من رفضنا لدعوته . وكررت زينب نفس المعلومة ، مضيفة ان الحاج قد احبنا كثيرا . عند ذلك افعمت بالندم ، ولكن كيف كان لنا أن نعرف أن هذه الدعوة حقيقية ؟ هل سيدعونا ثانية ؟ لربما قد انزعج لدرجة انه لن يكرر الدعوة ثانية .

لقد اصبح الحاج الآن حقيقة جلية بعدما رأيته ، وتحدثت معه فعلا . تحدثت عنه الى السيد خليلي ، وقد ادلى ببعض التعليقات التهكمية الموضوعية الى حد ما .

ـ أوه ، الحاج اسماعيل . هل تعرفين ان له خمس زوجات ؟ خمس زوجات ، تصوري ذلك .

قال ذلك ومن ثم ضحك ضحكة مكتومة .

ـ خمس زوجات ؟ .

كنت قد رأيت وسمعت عن ثلاث فلماذا خمس زوجات ، تشكل زوجة زائدة عما يسمح به القرآن . كيف يمكن لرجل متدين مثل الحاج ، يصلي الفرائض الخمسة كل يوم ، ان يتخذ خمس زوجات ؟

في احد الايام ، كانت امرأة ذات ملامح حادة ، ووشم

ازرق باهت فوق حنكها الصغير المدبب ، تجلس بين النساء في منزل شارع بهلوي . نظرت اليها بفضول . فالمرآة الكردية الوحيدة التي رأيت وشما ازرق على وجهها كانت لاجئة عراقية . ان الوشم وخزام الانف التي تستخدمها النساء في اجزاء اخرى من العالم الاسلامي لتزيين انفسهن ، يعتبران عادة عتيقة الطراز ، وقد بطل استعمالها لدى العديد من الاكراد اليوم . وموءخرا سألت خديجة عن تلك المرآة الموشومة ، فأخبرتني خديجة قائلة :

— انها والدة احدى زوجات الحاج . لا احد يحبها .

ومن ثم هزت كتفيها غير مبالية .

شقت لمعرفة كل شيء عن جميع هوءلاء الزوجات . أين يسكنّ ؟ هل لديهن منازل منفصلة ؟ هل يقضي الحاج اسماعيل وقتا متساويا مع كل واحدة منهن كما يأمر القرآن . لقد كان ذلك شيئا غريبا حقا بالنسبة لي . كانت الزوجات يعشن في القرية ، عدا زينب التي كانت قد عينت لتعتني بأولاد الحاج الذين قد بلغوا السن المناسبة لدخولهم المدرسة في المدينة . بدا لي أن كل امرأة مستقلة بذاتها . وبدا أن مريم لديها القليل مما يربطها باسماعيل . لقد أدركت الآن كنه الدعاية الموجهة اليها والتي تقول ان زوجها سيبحث عن زوجة آخرى اذا تركت المدينة . كان قد اتخذ ثلاث زوجات بعدها ،مسبقا ،ولكن اتضح أن ذلك لا يكفيه فقد بدا أن زينب وحدها كانت تتصرف كزوجة في المدينة ،فقد كانت تنام في حجرة نومه معه . والزوجات الثلاث الأخريات كن غامضات كليا بالنسبة لي . حتى والدة عائشة التي قابلتها مرة والتي أكاد لا أستطيع تذكرها . ربما يكون الحاج معروفا في كل أنحاء كردستان بتجاوزاته المتعلقة بالزواج ،ولكني لم أستطع فهم هذا الجانب من شخصيته بسهولة . فهو لم يظهر لي سوىالأدب والود والاحترام خلال كل الوقت الذي عرفته فيه . أما علاقته مع نسائه فكانت شيئا آخر . وقد حصل بيننا صدام مباشر ،لمرة فقط ، فقد كنت طلبت من خديجة وزينب بالاضافة الى أولاد الحاج الصغار أن يأتوا في رحلة الى قرب البحيرة ، وكانت زينب قد ردت علي وهي

تضحك بعصبية أن علي أن أستأذن الحاج ، فعلت ذلك ولكن الحاج رفض طبعا وقال ونبرة الانزعاج في صوته :

— لماذا ؟ لماذا تريدين الذهاب الى البحيرة ؟ اذا أردت أن تذهبي لمكان ما ، اذن تعالي الى القرية . ذلك هو المكان الوحيد الذى أريدهم أن يذهبوا اليه .

اخبرتني خديجة انه ماكان علي ابدا ان اطلب منه ذلك مباشرة ، وانها كانت ستجد طريقة لاقناعه . لم يكن زوجها طه ابن الحاج الاكبر صارما لهذا الحد . واثبتت موءخرا انها موفية لوعدها في تحديها حكم الحاج . ولكن زينب رفضت أن تتزحزح وقالت انها لن تسمح لنا بأن نصورها ابدا مدّعية ان تلك هي رغبة الحاج . وعندما سألت الحاج عن قرار عدم التقاط الصور قال انه ليس لديه أي اعتراض . ماهي حقيقة المسألة ؟ كان الحاج اسماعيل — وهو زوج لخمس زوجات مستاءات ، ووالد لدزينات عديدة من الاطفال ، رجلا سارا جدا . لم يك هناك شك ، في قدرته او ذكائه ، ولكني استغرقت وقتاً طويلا لكي افهم كم كانت علاقتنا معه تتمتع بامتيازات . لاحظت في احد الايام بينما كنت اناوجيرد جالسين معع طه وابن عمه رحيم في حجرة ضيوف والده ان طه ذا الاربعة والعشرين عاما ، ورحيما ذا العشرين عاما كانا يتهامسان كتلاميذ المدارس . فهما لم يتحولا الى حجر كما حل بالنسوة في حضور الحاج ولكنهما لم يجروءا على ان يتحادثا على نحو مباشر مع والدهما وعمهما . لقد كانت كلمة الحاج قانونا لمئات عديده على الاقل من الرجال الاكراد المسلحين . لقد كان مشهورا في كل انحاء كردستان . فضلا عن ذلك فقد اتى زمن نجح فيه الحاج بقوته نجاحا عظيما . انه لأمر مقبول لدى ابناء الحاج وموءيديه ، ان يهزأ بالقوانين الايرانية بالقدر الذي يريد لو شاء ذلك ، فهم معه حتى النهاية . ولكنه عندما حاول ان يهزأ بالقانون الاسلامي معرضا شرف وخير عائلته للخطر فقد توقف طه عن الهمس في حضوره .

لدى عودتنا الى كردستان بعد ثلاث سنوات من مغادرتنا

اياها `شعرت ان شؤون عائلة الحاج اسماعيل لم تكن على مايرام على الرغم من أن اهتمام مضيفينا واشتغالهم فيما اذا كنا نقضي وقتا طيبا لم يتغير ابدا ولو للحظة واحدة . كلما كانت تطول اقامتنا هناك كان يصعب عليهم اكثر اخفاء حقيقة ان امرا ما كان يجري ، امرا كان يجعل مريم في حالة قلق لاتصدق . امرا كانوا يتوقفون عن الحديث عنه ، عندما ادخل الحجرة .

رأيت مريم في احد الصباحات ، وهي تكتب رسالة على قطعة من الورق ، كانت قد مزقتها من دفتر ولدها الاصغر . انه امر غير مألوف بالنسبة لامرأة ريفية ان تكتب رسالة ، لذلك فقد راقبتها وهي تطوي الرسالة وتسلمها لطه وتطلب منه ان يأخذها الى منزل الحاج اسماعيل . وبينما كانت تعطي الرسالة لطه ، سمعتها تقول شيئا عن " العار " والكثير من الاطفال ، ولكني لم استطع ان استجمع هذا اللغز الذي كان قد بدأ يقلقني . وفي وقت لاحق في المدينة ، كنت جالسة بين مجموعة من نساء العائلة ، عندما سمعت مناقشة غريبة لم تكن مفهومة تماما . كان شخص ما مقبلا على الزواج والنساء كن غير موافقات على الاطلاق . من يمكن ان يكون. ظننت انها العروس التي كانت زينب زوجة الحاج الثالثة على وشك ان تزفها لابنها الاكبر . وحسب معرفتي لم يكن شخص آخر مقبلا على زف عروس في القرية . ولكن النساء لم يكن يرغبن في اطلاعي على ما كن يتحدثن عنه . ويقين يتحدثن بايجاز اكثر فأكثر واخيرا اقلعن عن الموضوع كليا .

ومؤخرا عرضت عائشة الموضوع معي وحدي ،هل فهمت ما كن يقلنه ؟ لقد أخطأت في افتراضاتي وانا اراقب وجه عائشة الذي كان يوحي الي بأنني مخطئة . لقد كانت حاسمة في تأكيدها على صحة ماتقوله . فلم يكن هناك مايعيب الفتاة التي كانت ترغب فيها زينب عروسا لابنها . لقد كانت فتاة طيبة ولم يكن لأحد اي شيء ضدها . . اذاً ماهي المشكلة ؟ اريد ان اعرف ، قرأت عائشة هذا التساؤل على وجهي ؛

— يريد والدي ان يتخذ لنفسه عروسا اخرى .

— زوجة سادسة ؟ .

قلت ذلك ، وانا الفظ كلمتي لاهثة . .

— نعم ، يريد ان يتخذ من الاخت الصغيرة لزوجته الاخيرة زوجة له .

الآن ، اتخذت اشياء كثيرة اماكنها وقد ذهلت لدى تفكيري بالاضطراب الذي لابد من ان العائلة تعانيه ، بينما كنا نحن نمضي معهم بمرح ظانين انه ليس هناك . مايشغل بال مضيفينا سوى تسليتنا . استطيع ان اقدر مقدار الاضطراب والحقد الذي تسبب الحاج في اثارتهما . لقد اغاظ مريم والزوجتين الكبيرتين الاخريين. ان الحاج قد اتخذ زوجته الرابعة ومن ثم الخامسة اللتين كانتا تعتبر ان كخادمتين والاخيرة التي قد حرمها القرآن كزوجة اضافية على الاربعة اللواتي حددهن القرآن لكل رجل . ماذا يمكن ان يكون رد فعلهن تجاه السادسة ، وخاصة انها اخت الخامسة ، مضيفا بذلك الخطيئة الى الاخرى التي سيرتكبها الحاج امام مرأى الله ؟

جلس الشيخ عبد الله الى الجانب الآخر من عائشة . وكان تعليقه الوحيد :

— ان لدى الحاج العديد من الأولاد ، لدرجة انه لايعرف أسماءهم .

واضافت عائشة قائلة :

— نعم ، والدي مصاب بمرض ما . انه مرض رهيب .

جلست مستغرقة في التفكير ، محاولة ان افهم . تراءت امام ناظري صورة كنت قد رأيتها من قبل . كانت تلك والدة الحاج بين مجموعة من الصور ، كانت قد التقطت في تركيا ، قبل أن تفر العائلة لتنجو بحياتها . كان الحاج اسماعيل في ذلك الوقت لايزال صبيا صغيرا ، وكانت هذه الصورة القديمة من تركيا الشرقية قد أظهرت والدته امرأة جميلة على نحو أخاذ ، ذات ملامح

رقيقة . امرأة أجمل من كل النساء اللواتي رأيتهن في دستان .

ذات يوم حضر رجل لزيارة مريم وعلمنا منه أنه ابن مرضعة الحاج اسماعيل الكبيرة التي كانت تخدم عند والدة الحاج منذ ما يزيد على نصف قرن مضى في تركيا الشرقية . قال ابن المرضعة:

– لقد كانت والدة الحاج لا يصدق أن يوجد لها مثيل . لم ير رجل وجهها قط .

اذن ، ذلك هو تعريف المرأة التي لا يصدق أن يكون لها مثيل. فكرت بصمت مع نفسي . هل يعرف هذا الرجل أنه قد التقطت لها صور ، ودون شك ان الذي التقطها هو رجل ؟ كانت السلطات التركية قد أعدمت والد وجد الحاج قبل أن يبلغ العاشرة من العمر . وكان لدى والده زوجتان . احداهما رحلت الى استانبول ورعت ولدا لا يتحدث الآن حتى ولا كلمة كردية . وعلى الرغم من أنه هو والحاج يعتبران نفسيهما أخين وأنهما قد قاما بزيارة بعضهما ، فهما لا يقدران على التواصل بيسر . كان الحاج اسماعيل وأخته قد نشأا في ايران كأكراد ، تحت وصاية شخص غير معروف ، ومن المؤكد أنه كان قد حل محل الأب والجد .

ما هو مصدر مرض الحاج اسماعيل ؟ لا شك أن ذلك المصدر كان أيضا منشأ قدرته الحياتية ، الحياة التي جعلته صوفيا ، باحثا ومحبا للأجانب . كان الحاج اسماعيل رجلا جذابا ولكن على الرغم من ذلك فقد أوقع الحزن والنفور في نفسي بسبب معاملته السيئة لزوجاته وأطفاله . لماذا يتجاهل قوانين الزواج في الاسلام ، في الوقت الذي يبدو متفانيا له ؟

سلكت مسألة اتخاذ الحاج زوجة أخرى له سبيلها ببطء، ووصلت ذروتها قبل رحيلنا تماما . كانت عائشة قد أخبرتني أن عائلة الفتاة التي يريد الزواج بها ، كانت تحاول على نحو جنوني أن تزوجها لرجل آخر قبل أن يتزوجها الحاج . كانوا قد وجدوا لها عروسا مناسبا اكثر ولكن ليس قبل أن يتخذ أولاد الحاج الكبار خطوة يائسة وذلك بالذهاب لوالدهم فى احدى

الليالي وتهديده بالقتل اذا مضى نحو تحقيق ما يريد . ما كنا سنعرف شيئا عن هذا اذا لم تخبرنا عائشة به . غادرنا طه في تلك الليلة المقدّرة الى ريزاى قائلا أن لديه بعض الأعمال في القرية فحسب . عاد في اليوم التالي وقد أضناه التعب وقال لنا انه كان يقوم ببعض الاعمال طوال الليلة الماضية . وقد افترضت أنه لا بد أن يكون شيئا متعلقا بالحصاد الذى كان يجرى في تلك الفترة .

لأنني عرفت الحاج اسماعيل شخصيا لم أستطع مطلقا أن أحتقره لا يقاعه الظلم بالنساء اللواتي يسري نفوذه عليهن . لربما كان ذلك بسبب معاملته لي بلطف . ربما لأن أجداد الحاج كانوا قد سحروا السواح الأجانب الذين وجدوا أنفسهم في كردستان. كانت بعثات تبشيرية قد قدمت من الغرب في القرن التاسع عشر لتخفف من قساوة عيش الآشوريين المسيحيين . كانت القبائل الكردية ونصف المستقرة في منطقة ريزاى ترهب هوءلاء الآشوريين باستمرار . وكان بعض المبشرين قد " استشهدوا " عندما خاضوا هذا النزاع وهو في أشده . ومع ذلك فقد نقل العديد من الغربيين اعجابهم بهوءلاء الاكراد الاباة والنزاعين الى الحرية ورفع القيود عن أنفسهم . على الرغم من وجود أمل ضعيف في استمالة المسلمين الى المسيحية ، فقد درس المبشرون الكردية وكتبوا قواعد اللغة . وقد تزوجت احدى المبشرات من كردي وقد كانت ممرضة ، ومكثت في مهاباد ، في حين غادر رفاقها . يمكن أن يثير اختيارها مثل هذه الحياة ، استغراب النساء الغربيات، ولا غرو ، فهن لم يذهبن الى كردستان .

الفصل الثالث عشر

احب أن أصغي الى لفظ أصوات النساء الكرديات . لم أمل من الاستماع الى الاسطوانات المسجلة لهذه الاصوات حتى بعد ايام واسابيع وشهور من اعادتها ، بل كنت احن الى العودة الى هؤلاء النسوة : صاحبات هذه الاصوات . كلما كنت اصغي الى الاشرطة التي سجلتها في ريزاپي وفي القرى كنت ادرك خاصية اصوات النساء الكرديات : وهي لفظ ذو صوت خفيض ، يخرج من الحنجرة ، وغني لايشبه مطلقا ما تصفه عدة لغات بطبقة الصوت والخاصية المثالية للصوت الانثوي . ليس فيه مايسمى بالصوت الخافت او المرتفع ، فالصوت ينبثق بكامل قوامه من الحنجرة . انه ليس مثل الصوت الحاد ، ذي النغم الرتيب للغه الفارسية او الشبيه بهمس الفتيات لبعض النساء الامريكيات . انها اصوات نساء عرفن القساوة ؛ فهذه الاصوات تنطق عن الخبرة والسيطرة على الذات . انهن يتحدثن عن حالات ولادة ، حالات موت ، عن الخرافات المعمنة في القدم ، عن مجريات احداث حالية ، وعن الزواج .

كنت قد اصغيت للاسطوانة التي سجلتها خديجة وهي تصف يوم زفافها لطه احيانا كثيرة . ومع ذلك لم اصغ اليها دون أن اتمنى لو أنني هناك حاليا ، او لو انني كنت هناك في كل من الماضي القريب لمشهد التسجيل الذي حضرته ، وفي الماضي البعيد لمشهد الزفاف الذي لم اشهده ابدا . تُسمع من خلال التسجيل اصوات كؤوس الشاي وهمسات اولاد زينب الصغار في منزل الحاج وهو المكان الذي جرى فيه التسجيل . ولكن خديجة هي التي تملأ الشريط بصوتها الصادح ، الرائع ، بضحكتها وارتباكها عندما سئلت عن يوم زفافها وسعادتها لدى تذكر عظمته . فتبدأ خادمة خديجة بتصحيح خطأ سيدتها التي ذكرت بأن خمسين وساطة نقل وصلت الى القرية عند بداية الافراح فتقول :

- مائة سيارة وثلاثمائة ضيف .

تستمر الحفلة لمدة عشرة أيام بلياليها . وحسب أقوال خديجة وخادمتها وصبيان صغار لم يقم احد بأي عمل . بل كانوا يرقصون ويرقصون فقط . سألت :

- هل الرجال والنساء يرقصون معا ؟ ام منفصلين ؟

فأجابوا :

- بل يرقص الرجال والنساء معا .

تنبثق في خيالي صورة لصخب رائع . حيث يحلق هؤلاء الاكراد الذين لم أر هم يغنون او يرقصون أبدا في لهو معربد عاصف . تحضر العروس من قريتها ويصعد العريس الشاب الى سطح منزله ويطلق النار من بندقيته ليعلن عن وصولها. تقول الخادمة :

- تاك ، تاك ، تاك .

ولكن انتظر . هناك ماسنضيفه الى القصة وهو ذو اهمية خاصة لخديجة . فقد اتضح انها ليست جزء من الحفلة بل انها مسببتها فحسب . لقد احضرت مغطاة بخمار أحمر من مسافة عدة كيلومترات من منزل والديها في الجبال الواقعة قرب الحدود العراقية الى قرية الحاج اسماعيل . وكالعادة بكى والداها بمرارة ، لأن ابنتهما أخذت منهما ولم يحضرا الزفاف .وكانت خديجة نفسها تبكي . لم تكن قد رأت طه أبدا الا في صورة له فحسب . ومع هذا ، فقد كانت قد خطبت للولد الأكبر للحاج العظيم ، لأن أحد أقاربها كان قد تزوج من فتاة من عائلة الحاج من قبل .

تفتخر خديجة لحقيقة أنها لم تر طه أبدا قبل أن تحضر الى القرية . وهي فخورة بالآلاف المؤلفة من الدولارات التي منحتها اياها مريم ، وذلك وفق التقليد الديني المؤدى أمام الملا وهذه النقود لا بد من اعادتها اذا حلت رابطة الزواج والمعتبرة

أيضا كمهر لها ٠ وقد دفع لوالدها حيث يمثل ثمن اطعام الفتاة الى آن تبلغ السن المناسب للزواج ٠ كان الخوف والألم اللذان تجشمت خديجة عناءهما لدى أخذها معصوبة العينين وتسليمها لرجل غريب ، لتمنح نفسها له في قرية لم ترها من قبل أبدا قد تناسبا مع الفخامة التي رافقت ذلك ٠ كان مهر العروسة ضخما، والضيف كان يعد من اللامعين ، والعائلة التي كانت ستتزوج أحد أفرادها هي عائلة عريقة وقوية ٠ وقد اكتشفت في وقت لاحق فقط ، انها كانت عائلة العدو وان خديجة وعلى نحو مغاير عن فتيات كرديات عديدات لم تتزوج من ابن عمها ٠ وبدلا من ذلك فقد تزوجت من وريث عشيرة ضخمة كانت في حرب ناشطة مع قبيلتها ، عندما كانت لاتزال صغيرة قبل ما يقارب عشر سنوات ٠ لماذا كانت خديجة سعيدة لهذه الدرجة وهي محاطة بأناس لم تعرفهم من قبل أبدا ؟ كانت قد اقحمت رسميا ولكن على نحو مفاجئ وسط محيط غريب لتقوم على خدمة حماة ولتسعد زوجا لم تختره أبدا ٠ تعجبت كثيرا لامتلاء خديجة بالحيوية وتحررها من الارتباك وسط جميع هوءلاء الناس الذين كان من الممكن أن يفزعوها ٠ مما لاريب فيه أن خديجة كانت دمثة ، حسنة العشرة وهادئة في بدء تعاملها معهم ٠وبالاضافة الى ذلك ، كانت قد أنشئت وفق تربية لاتتوقع فيها زواجا بغير هذه الطريقة ٠ ولكن ثمة سبب ثالث آخر لموافقة خديجة ، وهو الاكثر اهمية ،فهي الآن تقيم في ريزاي محاطة بكل وسائل الراحة ولهو حياة المدينة التي كانت تحلم بها في القرية ٠ لم يكن يعني لها الكثير أن الثلاجة في منزل الحاج اسماعيل هي معطوبة دائما ، فهناك مخازن ممتلئة بالاغذية تقع على بعد خطوات فقط من بابها الامامي ٠ من يهتم اذا كانت الاضواء العارية ، المعلقة وسط كلحجرة مجرد مصابيح رديئة ، ذات اضواء خافتة ، وانها ذات اربعين واطا فقط ؟ ان الفرق بين المصابيح الزيتية والكهربائية جعل اي قوة كهربائية معجزة ٠ فبالنسبة لخديجة لم تعد هناك مطابخ معتمة مكسوة بالسخام ، وقدور فوق النار لتجشم عندها،

لم يعد هناك مزيد من الغبار والحشرات . والاهم من ذلك كله انها تخلصت من المعاناة من الوحدة .

ربما كان التشابه الذي بيني وبين خديجة هو نتيجة لحقيقة ان تلك السنة كانت خاصة لكلينا . فقد كانت بالنسبة لي تحقيق حلم استغرق سنوات من الاعداد له . وبالنسبة لخديجة كانت فرصة للعيش في المدينة . ولم تكن خاصية السنة حقيقة زواجنا الحديث ، بل بالاحرى الحياة التي ترتبت عليه . فقد منحني زواجي جواز سفر الى زاوية نائية من ارض بعيدة ، كنت سأغامر بالمجيء اليها لوحدي .

اما زواج خديجة فقد شكل لها انقاذا موقتا من القرية التي عرفتها طوال حياتها . لقد كانت هذه سنة الحرية والاستكشاف وممارسة السلطة في منزل محتشد بالاطفال وبالزوار القرويين، وبالنسبة لخديجة كانت هذه هي السنة التي ذهبت فيها الى السينما المحلية لمشاهدة افلام هندية وتحدثت فيها من خارج النوافذ مع جاراتها وذهبت الى الحمامات العامة وتنقلت في الريف مع الامريكان . لم اعرف كيف وبأي سرعة سيمضي هذا الوقت بالنسبة لخديجة ومالذي هربت منه في الماضي ، وماذا ستواجه في المستقبل ؟ وهي ايضا فترة كانت فيها قراراتها نافذة المفعول، لقد كانت بالنسبة لكلينا مغامرة وتحديا .

كنت امضي معظم وقتي مع خديجة في حجرة الجلوس اوحجرة النوم التي كانت هي وطه يتقاسمانها في الطابق الثاني من منزل الحاج اسماعيل . كانت حجرة النوم ، تلك الحجرة البهية المكتظة بألوان قوس قزح التي جلست فيها لأول مرة مع نساء الحاج اسماعيل ، تخص خديجة . كانت قد زينتها برقة ونسجت المناديل الملونة التي تغطي كل واجهة ، وقد اهديت اليها صور نسيجية مزدانة بالرسوم ، حيث علقتها على الحائط .

ومن حسن حظ الكثير من سكان هذا المنزل ومنازل كردية اخرى ان سكان المدينة كانوا يتدفقون باتجاه القرية كلما اصبح الجو اكثر دفئا . وقد شعرت بالسعادة لأن خديجة كانت تقضي فترة الصيف في المدينة . كان زوجها ذو الاربع والعشرين سنة لايزال طالبا . وكان قد آمن لنفسه عملا صيفيا في ريزاي .وعندما غادرت زينب مع الاطفال وانشغل الحاج اسماعيل اكثر بمحاصيله الزراعية ، بقيت خديجة في منزل شارع تبهلوي ، وتقوم اسماء على خدمتها . كنا ثلاثتنا نجلس ونتحدث ونشرب الشاي . كانت خديجة تتحدث معي بعفوية وتلقائية كما لو انها تعرفني منذ سنين عديدة . كان واضحا انه لايمكن لأي موضوع ان يزعجها . تحدثت عن تحديد النسل وعن حقيقة انها هي وطه قررا ألاينجبا طفلا مباشرة لانه لم ينه دراسته بعد . على الرغم من ان العديد من افراد العائلة كانوا يضغطون عليهما لانجاب طفل حسب التقاليد . سألتني بخبث وهي تتحدث عن الجنس :

ـ مارغريت ، كم مرة في الاسبوع تستحمين ؟

فأجبت على نحو لم اشك فيه بشيء .

ـ لاأعرف ، مرة اومرتين .

فقالت وقد بدا عليها المكر والعبث :

ـ أما انا فأستحم يوميا .

انتابتني حيرة لذلك ، لأنني نسيت ما اخبرني به رفاقي في فرقة السلام في مهاباد . فقد كانوا يذهبون الى الحمام العام في المدينة بسبب عدم وجود حمام في منزلهم . وبعد فترة قصيرة ، عرفوا ان العامة المحليين كانوا يهتمون على نحو غير عادي بعدد المرات التي يذهب فيها الامريكان الى الحمامات .

اخبرتني خديجة عما كانوا قد تعلموه ، فقالت :

علينا ان نأخذ حماما في كل مرة نقترب فيها من ازواجنا . كانت ابتسامتها عريضة ، لدرجة انها تراءت كما

لو انها تكذّب تعبيراتها عن المواقف التي عرفت انه من المفروض ان تتخــذها .

اقترحت خديجة ان نذهب جميعا الى البازار في احـــد الايام التي زارتنا فيها إمرأة من القرية . ولشعوري بالابتهاج للخروج من المنزل ، وافقت على مرافقتهما في حملة تسويق ، كي تشتري المرأة الريفية بعض الاحذية . عدلت المرأتان الكرديتان سترتيهما أمام المرآة ، بينما كنت انتظر مستعدة مسبقا للخروج للشـــارع ، ببنطالي القطني الاصفر المضلع المتناسب مع ســـترة صفراء ذات ياقة عالية . لم نر في الخارج سيارات اجـــرة ، لذلك شرعنا في المشي ولكن خديجة بدأت تقلقني ، قائلة بأني سأتعب كثيرا . أكدت لها اني لن اتعب ولكنها استمرت فـــي القلق . واكتشفت حالا حقيقة المسألة ، انها نفس مسألة اليـــوم الذي تخلت فيه نبازي عني . كان جميع الرجال الذين نمـــر بهـــم يرمقونني بنظرات غرامية ، يضايقونني بأسئلة مزعجة وشـعرت المرأتان الكرديتان بالانزعاج بسبب اعتيادهما على لامبـــالاة الآخرين بسبب أغطيتهن . ولكنهما لم تتخليا عني . اسرعنـــا في خطانا اكثر فأكثر ، لذلك ، وصلنا البازار في زمن قصـــير جدا . كانت خديجة طوال الطريق تنقل نظرها من جانب لآخـــر منزعجة وتصدر التعليقات عن كيفية تحديق الرجال في .

ازداد الانتباه الموجه نحو المرأتين الكرديتيـــــن المغطاتين والمرأة الاجنبية المكسوة بالاصفر وشعرها الســـافـــر داخل البازار ذي السقف المقنطر . احتشد الناس حولنا ليحدقـــوا فينا والبائعون يحاولون ان يوقفوهم عن ذلك . قدرت خديجـــة حجم الموقف بلمحة ذكية . ألقينا نظرات عابرة واصرت خديجـــة على ان تشتري لي قفاز حمام ليبقى ذكرى لهذه المناســـبة . ومن ثم قادتنا خديجة الى سيارة اجرة منتظرة ، وبعد ذلـــك بأيام علقت على حقيقة أن :

– كل الرجال في الطريق كانوا يحدقون بمارغريت .

ولكن هذا التعليق ، كان مثار تساؤل اكثر منه استهجانا .

كانت حرية خديجة نسبية ومحدودة جدا بالمقارنة مع الحرية التي تسلم بها معظم النساء الغربيات ، فقد كانت تتصرف بموجب ضغوط وقيود قاسية . فهي لم تكن تخرج دون مرافقة خاصة معها ، ودون حجة مقنعة . لم أربط أبدا بين ذهاب وإياب الحاج وقيام خديجة بالزيارات ، ولكن مما لا شك فيه ، أن زياراتها لمنزلي كانت تتوافق مع غيابه . وعلى أية حال فقد سرني كثيرا أنها أخذت تدعو نفسها لمنزلي . كانت أحيانا تهتف لي مسبقا وعادة حوالي السادسة صباحا ، حيث كانت ساعتها المفضلة لتهتف لي فيها .وأحيانا تحضر مع أي كان من الحاضرين في منزل الحاج في اليوم الذى تزورني فيه . كانت خديجة تأخذ راحتها تماما لدى حضور زوجي أو أي مخلوق لا يؤمن جانبه في منزل المرأة الأجنبية ، بينما كانت خادمتها أسماء تبدو عصبية ، فقد كانت تلف سترتها وتشدها حول نفسها اكثر مما تفعله عندما تكون في الشارع ، بينما كانت خديجة تدع خمارها ينزلق عنها . ولكن أسماء لم تكن متزوجة بعد ، بينما كان عفاف خديجة قد بيع مرة وللأبد .

رافقت أخت خديجة " گلنام " الفاتنة ذات الخمس سنوات أختها لحفلات الشاي هذه في منزلي لفترة من الزمن . وقد أخبرتني خديجة أن عائلتها قد أرسلت گلنام من القرية لتبقى برفقتها في المدينة . كانوا قلقين بسبب اختهم الكبرى المعتادة على أن تكون محاطة بالعائلة أو بأناس آخرين في القرية وكانوا يخشون أن تهزل صحتها بسبب الفراغ الصيفي الذى يمكن أن تتجشمه في منزل الحاج اسماعيل في المدينة . سألت خديجة عما اذا كان والداها ، قد قاما بزيارتها ، فأجابت بالنفي ، فلكونها عروسا جديدة لم يكن يسمح لها بالعودة الى قريتها ورؤية والديها الا بعد سنة على الأقل وبعد أن ينعم عليها زوجها بالموافقة على قيامها بزيارة العودة . وبدون هذه الموافقة يمكن أن تقضي بقية حياتها دون الذهاب الى منزل والديها ثانية .

لأنني أصبحت أقضي الكثير من الوقت مع خديجة ، فقد التقيت مصادفة زوجها طه الذي كان يبدو في مزاج حسن معظم الوقت ، مثل خديجة تماما ، بعد مجادلتي مع الحاج اسماعيل التي رفض فيها السماح لي بأخذ نسائه في رحلة طلبت من طه ، رسميا ان يأذن لي بأخذ زوجته الى اماكن شتى . وافق طه مباشرة وهو يقلد طريقتي الرسمية وبريق يلمع في عينيه . كان طه مثل والده ساحرا ولكن كانت تنقصه قوة اعصاب والده وتزمته المحافظ . واظن ان حياة طه سهلة ، بالمقارنه مع حياة الحاج اسماعيل على الرغم من أن الراحة لم تكن تعني كل شيء مع والد متقلب المزاج مثل الحاج اسماعيل ، حيث اكتشفت فيه هذه الصفه موءخرا . كان طه لايزال يتمتع بامتيازات عديده لكونه الابن الاكبر . فقد انفقت ثروة للحصول على عروس له . كانت له ولخديجة حجرة نوم خاصة ، حيث لا احد سوى طه والحاج الكبير يمكن ان يتباهيان بسريرين قابلين للنقل في هذا المنزل . ان مشكلة طه الوحيدة هي في كيفية بروزه وكيفية ان يصبح قويا . فقد كان لايزال طالبا في الكلية بسبب الخدمة العسكرية والتأخير في الذهاب الى المدرسة . ولكن حتى لو لم يكن طالبا ، فقد بدا انه قد انعدمت لديه الوسيلة في المجتمع الكردي ، ليحرر نفسه من والديه .

عندما توقفنا أنا وجيرد عن العمل اخيرا اشترينا سيارة جديدة خاصة بنا ، ايرانيةالصنع ، ذهبنا الى منزل الحاج اسماعيل لنحتفي بها . كنا نعرف ان من رغبات طه الملحه هي اقتناء سيارة خاصة به . وقد نزل مباشرة ليتفحصها ويبدي اعجابه بها بينما كانت خديجة تبتسم وهي واقفة امام مدخل الباب . منذ ذلك الحين ، شرعت خديجة بالتخطيط للا مكنة التي سنذهب اليها في نهاية كل اسبوع .

كانت رحلتنا الاولى الى وادي يقع جنوب ريزاي ، حيث

يقوم الناس الذين لا يميلون الى الاحتشاد أو التجمع برحلاتهم اليه . اقترحنا أنا وجيرد القيام بالرحلة ، وجهزنا السيارة، بينما عرضت خديجة وطه مرافقتهما لنا . كان هذا أول اختبار لنا في تسلية أصدقائنا الاكراد وبأسف وأسى أقول اننا فشلنا .

فالخطأ الأول الذي ارتكبناه هو أننا تصورنا أن خديجة وطه هما وحدهما سيأتيان . لأننا دعوناهما وحدهما . كنا قد تبادلنا الآراء حول الرحلة على أنها مؤلفة من أربعة أشخاص، ولكن عندما أتى صباح يوم الجمعة ، صعد أخو خديجة الى سيارتنا، وكان طالبا في الثانوية ، ولم أكن استسيغه أبدا ـ جاعلا المقعد الخلفي المريح يعج بالازدحام ،مما تسبب في جعل المحرك يشد الى أقصى مدى وبقوة في المنحدرات الجبلية التي كنا نعبرها .

خطئي الثاني كان مرتبطا بالأول . فقد كنا قد اشترينا سندويشات كافية ومشروبات غير مسكرة لأربعة أشخاص فقط ، ليس أكثر . لم نقدّر الدرس الذي تعلمناه من كل تلك الطاولات التي تئن تحت ثقل الاطعمة التي شاهدناها في حفلات الغذاء الايرانية فلا احد من الذين يستحقون لقب المضيف ، يقدم مقدار الطعام الكافي واللازم لعدد الضيوف المدعوين . فليس من المناسب أن تقدم ضعفي أو ثلاثة أضعاف مقدار الطعام الذى يمكن أن يتناوله الشخص فحسب بل أيضا أنت ملزم به .

خطأنا الاخير الذي لم يكن ممكنا لنا تجنبه ، كان معرفتنا الشيء القليل عن قواعد التشريفات وآداب المعاشرة بين الضيف والمضيف في كردستان . فقد وجدنا أنفسنا تقريبا ، منذ بداية ركوبنا السيارة الى حين عودتنا الى المدينة داخل هذه المحادثة الدورية وكنا نسأل :

ـ هل لنا أن " نقف هنا ؟ نأكل الآن ؟ نذهب هناك؟ الى آخره .

فيجيب ضيوفنا :

ـ " كيفاته " .

وقد تعلمنا حالا قول " كيفاته " التي تعني كما تحبون . كان نتيجة هذا السلوك أن القرارات كانت تؤجل الى أطول وقت ممكن الى أن نضطر جميعا وكالعادة الى خيار يكاد لا يرضي الجميع.

تجولنا في الريف ، وقمنا بزيارة نبع من المفترض أن شيخا مبجلا كان مدفونا عنده ومن ثم ذهبنا الى مدينة كردية صغيرة تدعى " شنو " واشترت خديجة من بازارها زوجا من الصنادل البلاستيكية بلون ارجواني باهت . وبعدئذ ظهرت المشكلة . فقد بدأنا نشعر بالجوع ، لذلك اقترحنا على ضيوفنا أن يختاروا مكانا لنأكل فيه . وبينما كنا نمر عبر عدد من البقاع الخالية الرائعة شعرت أنه ليس لدى هؤلاء الناس معايير خفية توجه سلوكهم هذا .

كان الحماس ينقص قولهم " كيفاته " لكل مكان اقترحه ، وأخيرا عندما أتينا الى المكان الأول المحتشد بالناس مع دزينات من السيارات الواقفة ، اتخذت " كيفاته " خاصية مشوقة. أوقف جيرد السيارة ونزلنا منها ، وشرعنا بالسير ، كان المكان يعج بالحشود وتنتشر فيه ركام النفايات ، لدرجة أنه تطلب نا أن نمضي بعيدا حداقبل أن نجد بقعة نظيفة لنجلس عليها . ولكن لدى جلوسنا هوجمنا بروائح كريهة لم تكن بالحسبان . ومرة ثانية مضينا ضمن حلقة " الكيفاته " قبل أن نقدر أن نتخذ قرارا جماعيا بالمغادرة .

عندما قدم لنا الغذاء أخيرا كان كل شخص منا قد شعر بالجوع لدرجة أن قلة السندويشات بدت واضحة وملحوظة الى حد أكبر مما لو كانت غير ذلك . كان الجميع ظمآنين ومغبرين ، حتى أن جميع قناني الكوكا وكازوز البرتقال التي أحضرناها معنا ، لم تكف لارواء عطشنا .

مضيت مع خديجة للبحث عن نبع ، وانضم الينا أخوها ،وعندما شاهدنا قطيع أغنام على سفح الجبل الذي كنا نتسلقه ، أصر على

أن التقط صورة للحيوانات وهو يحمل واحدة منها . وذكرني قائلا:

- سيكون هذا ممتعا حقا في أمريكا .
- لقد رأوا الأغنام في أمريكا من قبل .

أجبته بحدة ، متمنية على نحو بغيض أن يتحول الى واحدة منها ، لكي لا يقدر على العودة معنا .

قررت أن أنتظر ، عندما بدأت خديجة باثارة مخاوفي حول امكانية وجود الأفاعي ، بينما واصل جيرد وطه وحدهما المضي الى النبع عند قمة التل . وعندما عادا ، وصفت خديجة ما رأته من وجبة الطعام المؤلفة من الكباب والبيرة التي تتناولها مجموعة من العجم . فحتى العجم قد تناولوا غذاء أفضل منا .

على الرغم من النقص الواضح في ضيافتنا ، أراد طه وخديجة وأخوها أن تستمر حملتنا أكثر . ولكن كل ما كنا نفكر فيه أنا وجيرد ، كان في كيفية عزل الأخ غير المرحب به ، وتركه في المدينة والانسحاب لبقية فترة العصر الى منزلنا الى حيث الوفرة في الماء المتدفق النظيف ، حيث لم نجلب منه المقدار الكافي للشرب . وفي طريق عودتنا الى المدينة توقفنا في احدى محطات الاستراحة ذات الطراز القديم ، والواقعة الى جانب الطريق ، حيث يشكل علامة على أننا في الريف ، واشترينا كازوز البرتقال لكل واحد منا ، ولكنها كانت حلوة جدا . وأخيرا وصلنا ريزاى وأنزلنا ضيوفنا من السيارة ومضينا .

لم تتضاءل رغبة طه وخديجة في القيام بنزهات في سيارتنا ، حتى بعد فشلنا ذاك . لذلك توجهنا في الجمعة التالية نحو البحيرة . كان الجو عليلا ودافئا . وبالطبع ما كان لأحد أن يسبح ، لأن فصل السباحة ما كان ليبدأ الا بعد شهور عديدة . شرعنا أنا وخديجة في الحديث عن الخوض في الماء ، بينما جلس جيرد وطه فوق الصخور يشربان البيرة التي كنا قد أحضرناها معنا . رفضت خديجة أن تمس المشروبات الروحية ، وشربت أنا مقدارا ضئيلا منها على مرأى من نظرات طه المتسلية

الضاحكة ، والمشدوهة . لم يكن معظم أفراد القرية يتعاطون المشروبات ،ولكن القليل الذين كانوا يتعاطونها ، كانوا من الذكور .

أكد لنا الرجال أنهم سيتبعوننا في الخوض في الماء ، لذلك مضينا أنا وخديجة حول المنحني ، وبدأنا بخلع ملابسنا خلف بعض الصخور . وبينما كنا نخلع ملابسنا التحتية توقفت فجأة سيارة على الجرف المطل على شاطئنا الصخري ونزل منها زوجان مع طفلين ، وشرعوا بالمشي نحو البحيرة . وحتى قبل أن أدرك أنهم كانوا ناسا أعرفهم من الكلية ، بدأت بالنظر حولي، باحثة على نحو يائس عن مأوى في الشاطئ الاجرد . كانت توجد صخرة ضخمة فقط ، ولم تكن تؤمن لنا ستارا أفضل مما يوفره لنا الجرف . تصورت أن خديجة قد ذعرت ، ولكني عندما نظرت اليها تصرفت بانفعال اكثر مما لو كانت فزعة . في الحقيقة بدت أقل ارتباكا مني . بكثير . وعندما سمعت أن المرأة التي فوق الجرف امريكية ، تملكها الفضول لدرجة انها نسيت حالة العري التي كانت فيها . كانت المسافة بعيدة تماما ، حتى اني لم اتأكد فيما اذا كان يقدر الزوجان على أن يريا وجهينا ، ولكن اتضح انهما ادركا وجودنا لانهما اسرعا مع طفليهما بالعودة الى سيارتهما والسير بعيدا . وبعد ان خبرت البحيرة جيدا ، ادركت كم كنا محظوظين أن هؤلاء الناس اللطفاء ــ وليس بعض الاتراك ــ هم الذين فاجؤونا.

وعندما اصبحنا وحيدتين ثانية ، خرجت من خلف الصخرة التي كنا جاثمتين بقربها ، وارحت جسدي بالخوض في الماء المالح الدافئ . بدا الماء مبهجا ، الى ان رششت بعضا منه في عيني . خضنا انا وخديجة في ماء ضحل ، لما يقارب من العشرين دقيقة ومن ثم خرجنا .

جف الملح على شعرنا وجسدينا اللذين أبيضا وتشكلت عليهما قشرة ملحية صلبة ، عندما عدنا ثانية واقتربنا من

المنحنى، حيث وجدناهما بكامل لباسهما بدا انهما لم يعزما ابدا على الخوض في الماء . لم نستطع السير بالسرعة الكافية التي تناسبني الى المنزل . فقد شعرت أن مسامات جسدي تكاد تختنق. حاولت خديجة ان تراني عارية ، عندما نزلت هي وطه عند منزل الحاج اسماعيل ، حيث سألتني :

ـ الا ترغبين في الدخول واخذ حمام معي ؟

فأجبتها :

ـ لا ، شكرا .

اظهرت خديجة قمة جرأتها ، في يوم وافقت فيه على المجيء معي الى البحيرة ، وحيدة ، او بالاحرى وحيدة بقدر ماتستطيع . لم يأت طه معنا ، بل رافقتنا خادمتها أسماء وماراز ، وهي امرأة آشورية كانت قد اعتادت على التردد على منزل الحاج اسماعيل . استحممنا هذه المرة في الماء المالح، واغتسلنا بماء عذب كنت قد احضرته معي في السيارة ، وبعدئذ توجهنا عائدات الى المدينة . وحالما توقفنا امام منزل الحاج اسماعيل ، بدا ان خديجة ترتعد خوفا وهي في مقعدها . وهمست بذعر :

ـ استمري في السير يامرغريت ، استمري .

وحالما عبرنا المنزل ، نظرت خديجة خلفها وتنهدت براحة ، بصوت مرتفع عندما رأت ان اللاندروفر الذي توقف وراءنا لم يكن لاندروفر الحاج اسماعيل . و همست قائلة :

ـ كنت سأشعر بالخجل الشديد لو أن الحاج رآني.

حقيقه ان خديجة لم تكن تحتفظ بمخاوفها وافكارها وآرائها لنفسها . كانت ذات فائدة عظيمة لي . فبينما كانت الاخريات يبقين صامتات ، اما بسبب الآداب العامة او بسبب الارتباك ،كانت خديجة تصرح بكل شيء . وبفضلها تعلمت الكثير عما هو مناسب بين الاكراد . عرفت في احد الايام ماكان يفكر به الجعفريون بضيفاتي من النساء الكرديات. فقد تحدثت عنهم

خديجة باحتقار وعن كيفية اغلاقهم بابهم الداخلي بعنف ،في كل مرة يرونها تصعد الينا . وفي يوم آخر علمت سبب تمعن مجموعة النساء في صورة لي ولجيرد ، كنت قد اريتها لهن فقد سمعت خديجة تدافع عني وتقول للاخريات :

— أن يد زوجها ليس حولت خصرها تماما . مارغريت لاتفعل ذلك .

ارتكبت مرة غلطة مروعة في سلوكي الاجتماعي هناك وذلك بأن قلبت فنجان شاي ضخم من البرسلان رأسا على عقب بدلا من أن يكونعلى جانبه حدقت كل النساء في برعب مضحك وهن يرفض اخباري عن حقيقة الخطأ . وقد اعلمتني خديجة من بينهن ان تلك هي علامة على أن المضيفة امرأة ردئية . بوجودي مع خديجة ، كنت محمية من أن اصبح دخيلة ،والنساء الاخريات قد لاحظن ذلك عليها . فقد قالت امرأة اخي زوجها مستغربة :

— خديجة تحب مارغريت فعلا . انها تخبرها عن كل شيء .

في المرات التي ذهبت فيها الى منزل الحاج اطلعت على دستان وسمعت الكثير عنها . فقد كان يأتي من ذلك المكان الغامض اشخاص مختلفون وذوو ملامح غريبة .

التقيت في احدى المرات بگلبهار ، العديمة الاسنان ، والداية العجوز التي كانت قد حضرت ولادة العديد من أولاد الحاج. وفي مرة اخرى تعرفت الى هاجر وكانت امرأة في بداية الثلاثينات ، اتت الى المدينة لتقلع اسنانها المسوسه جميعها ، ولتضع مكانها طقما من الاسنان المصنعة . وأيضا التقيت بالمرأة ذات الوشم الازرق ، والدة زوجة الحاج اسماعيل الخامسة ، وكذلك بعدد من النساء الاخريات لم اكن اعرفهن ابدا . ومن جهة اخرى وعلى مستوى مختلف تماما التقيت بنساء مثل ناديا كنة مريم الاخرى ، ونسرين ابنة مريم الوحيدة . كانت هوءلاء النسوه

يأتين لبضعة أيام لروء ية الطبيب ، أو للذهاب في رحلة قصيرة في عمل مهم ، ومن ثم يجبرن على العودة الى القرية الى حيث حياتهن الحقيقية . اما حقيقة حياة خديجة السابقة فكانت تختلف قليلا . كان ذلك سبب سخرية زينب ونادية القاسية والمستمرة من خديجة في ذلك الشتاء عندما اخذت على مضض الى القرية للعمل .

كنت افكر دائما بدعوة الحاج اسماعيل لنا الى دستان فمنذ ذلك الحين لم اره لاتحدث اليه ثانية . ولكن خديجة وطه كانا ودودين معنا ، لدرجة شعرت فيها ان الحاج لايمكن أن يكون قد انزعج منا .ومع ذلك فلم يذكر احد شيئا عن الذهاب الى دستان . وفي احد ايام الجمع وفي فترة الظهيرة ، اثار طه الموضوع ، بعد ان تناولنا الغداء في بيتنا .

ـ متى ستأتيان الى دستان ؟

فقلت :

ـ لااعرف . في الوقت الذي ترغبون فيه .

ـ مارأيكما لو اننا نذهب في الاسبوع القادم ؟

سأحاول ان استعير سيارة لاندروفر ، ويمكننا جميعا ان نمضي ظهر يوم الخميس .

فقلت :

ـ لاارغب في ذلك كثيرا .

لكن جيرد لم يتفوه بشيء . وبعد ان غادرنا ضيفانا ، قلت لجيرد .

ـ اليس ذلك شيء عظيم ؟ واخيرا سنذهب الى هناك . سأرى مريم والحاج اسماعيل كلهم . وبما أن الربيع قد حل ، فان الجبال ستكون " كسكوشين " . تلفت حولي بسعادة وأنا افكر بذلك .

نظر الي جيرد دون ان يبتسم وقال محذرا :

ـ لاتعيري ذلك اهتماما كبيرا . لربما ينسى طه

ذلك . ولربما لن يقدر على استعارة لاندروفر . أوربما انه يقول ذلك من باب آداب السلوك فقط . يمكن أن يحدث أي شيء من الآن حتى يوم الخميس القادم .

أولا لن ادع جيرد يثبط معنوياتي المرتفعة . فهو لا يعرف ، خديجة ومقدار صراحتها . فهي وبالقدر الذي اعرف لم تكن تتعامل بطريقة تلتزم فيها بالشكليات والآداب السلوكية التقليدية . كان جيرد ، الاكثرحساسية مني اتجاه الدعوات ، قد عانى من حالة سيئة من هذه الشكليات الخادعة . كان يكره ان يصدق احدا . وحالما اقترب اليوم ، اصبح جيرد اكثر تشككا ، وذلك تحسبا للموقف الذي يمكن ان يحدث . شعرت بالشك يتعاظم في تفكيري أنا ايضا . لم أكن متأكدة بعد من هذه العلاقات لأطردها من تفكيري . ففي لحظة احلم بالقرية وافكر بما سأرتديه هناك . وفيمن سأتحدث اليه . وفي لحظة اخرى اقرر في نفسي الا ابتهج كثيرا .

كان احد اسباب التشاؤم لدى جيرد معرفته بأهمية هذه الرحلة بالنسبة لي . فهي ليست فترة ترفيهية كما حدث في مانوا ،التي لم استطع التحدث فيها بالكردية بأي وسيلة . لم تكن عائلة الحاج قد اصبحت وسيلة اتصالي بالاكراد فحسب ، بل أيضا اصبح افرادها اصدقائي المفضلين في ايران . واذا لم يعنوا هذه الدعوة بجدية ، فماذا اذن لي في ايران لأتطلع اليه ؟ وعندما اقبل اليوم الذي وعدنا فيه طه بالمجيء لأخذنا جهزت نفسي على نحو يعوزه الحماس ودون ان اخصص الكثير من الوقت لذلك ، كان جيرد قد اضطجع ليأخذ سنة من النوم وقد غلبه الخوف من رفض آخر . هل كنا على وشك المضي في رحلتنا القصيرة الاولى للمكوث في قرية كردية أم لا ؟ كانت شقتنا جرداء ، صامتة ، بينما كنا ننتظر طنين جرس الطابق السفلي .

الجزء الثالث
داخل كردستان

الفصل الرابع عشر

— هذه هي كردستان ، يا مارغريت .

قالت ذلك نسرين ، أخت طه وابنة مريم الوحيدة . تتبعت بنظرى القوس الذى رسمته بيدها ، عندما مدتها باندفاع لتشمل الوادى المستدير برمته ،كان قاع الوادى المجوف والجبال التي تشكل حوافه مغطاة بخضرة لطيفة . ان فصل الربيع هو الفصل المفضل لدى الأكراد ، فصل نوروز ، السنة الجديدة حيث تكون فيها الجبال في أتم خضرتها والقطعان تتكاثر بالمواليد الجديدة . سألتني نسرين على نحو أبدت فيه ازدراءها :

— انهم يطلقون على هذه المنطقة اسم أذربيجان ، ماذا يعني ذلك ؟ هذه كردستان .

أثرت في كلمات نسرين حتى الصميم في أرض لا يتحدث فيها أناسها بعلنية عن الاضطهاد الذى يمارس ضدهم . لم أكن أعرف بعد كم كان أكراد القرية وخصوصا نساوءها ، يصرحون عما يجول في فكرهم بحرية . ما قالته لي نسرين كان صحيحا لدرجة أني اندهشت ان أحدا لم يقله من قبل . تطلق الحكومة الايرانية اسم " كوردستان " على مقاطعة صغيرة في ايران . وتقع جنوب مهاباد تماما . تبدأ كردستان ايران الحقيقية على بعد أميال جنوب مقاطعة " كوردستان " وتمتد بعيدا الى الشمال من مهاباد ، حتى الحدود الروسية .

اذن ، لقد حضر طه ليأخذنا الى قرية والده ، وقد وصل مبكرا ، ووجدنا غير مستعدين بعد ، مما أوقعنا في الارتباك. ولكن ، وبما أنه طه المحب فقد انتظرنا طلق المحيا في القاعة الخالية من الاثاث ، بينما اسرعنا نحن للاستعداد للذهاب . صادفت فترة العصر تماما ، في الوقت الذي وصل فيه اللاندروفر وسائقه

جنبا الى جنب مع خديجة وگلنام وابن عم طه وطه وجيرد وأنا .
والشيء الاول الذي لاحظته كان الصمت المطبق . بعد ذلك ظهرت مريم مرحبة بي وبجيرد رسميا ومعانقة طه . وكالعادة كانت مكسوة باللون الازرق من قمة رأسها وحتى اخمص قدميها . اخذت اتصفح نسرين وهي فتاة قصيرة ، ممتلئة الجسم ، ذات حنك طويل بارز الى الامام وعينين ضاربتين الى الزرقة كعيني والدتها تماما وقبل ان اعرف ماذا حصل لخديجة ، كانت قد اختفت وراء خلفية المنزل ولم ترى ثانية حتى وقت متأخر من ذلك المساء .

اقحمنا انا وجيرد بسرعة في الفعاليات الرئيسية التي تؤدى للضيوف في القرية ، من شرب الشاي والجلوس والتحدث والتجول وعلى نحو تقريبي ضمن هذا الترتيب . اخذت نسرين على عاتقها مهمة السير معي في كل جولاتي ، بينما مضى جيرد مع الرجال . تجولنا أولا في الخارج امام منزل والدتها الواقع في مقدمة القرية كان يطل على مشهد فسيح وعريض من الوادي . تنزهنا متجولتين بين الاغنام والخراف والماعز والجداء المتبعثرة عبر منطقة رعي واسعة . كانت نسرين تجاهر بقلقها باستمرار ،بانها تتعبني ، لذلك عادت بي حالا لاحتساء المزيد من الشاي ، ولا أظن أن ساعة مرت دون قدح من الشاي على الاقل . فقد كنا ننظر في دفتر الصور الخاص بمريم ونحن نحتسي الشاي ، وكنا نتحدث ونحتسي المزيد منه ، جلسنا نحدق في بعضنا بصمت ونحن نشرب الشاي .

في آخر النهار ، حيث امتدت الظلال ، اخذتني نسرين في جولة اخرى ، افضت بنا الى القرية الحقيقية ، بأزقتها الترابية المكتظة بالسكان ، وجدرانها الطينية . صادفنا الحاج اسماعيل وجها لوجه في بداية الزقاق الذي يشق القرية متلويا ، وكان يتوجس منه المرء شرا على نحو غريب وهو ببذلته السوداء تلك وهيئته الفارعة النحيلة ، ولكن لم يكن ثمة ما ينبىء بالشر في عينيه اللتين شعتا بالسعادة عندما رآنا . قال لي :

— أهلا وسهلا، هذه قريتك . تعالي الى هنا متى شئت .

شكرته ، وشعرت بالارتباك لكثافة معاني كلماته .
وعندما غادرنا الحاج طفحت نسرين بالسعادة لهذا اللقاء المبشر بالخير مع والدها . ومن ثم كررت الكلمات لوالدتها واختها وابن عمها . خلقت لدي شعورا بأنها كانت نادرا ماتتحدث الى الحاج وانها كانت تنظر اليه باجلال كما لو انه ملك وليس والدا فحسب .

شققنا طريقنا عبر الزقاق المؤدي الى قلب القرية بهدوء وعلى بعد ميل تقريبا ، من منزل مريم . كان منزل الحاج اسماعيل قد شيد فوق منحدر وعلى مسافة من منازل عامة القرويين. لم ادرك العظمة التي تضفيها عزلة ارستقرا طيي دستان عليهم الا بعد ان خبرت اهتمام الاكراد ، القرويين العاديين، الفقراء بهم . لم يكن مضيفونا اكثر الناس غنى ، في قرية مزدهره نسبيا فحسب، بل كانوا ايضا الاكثر ثراء في جميع انحاء كردستان .

عتمة الغسق جعلت كل شيء يبدو باليا واشد تعتيما مما هو عليه عندما تفرست في الممرات الضيقة المتعرجة بين الجدران الطينية المحيطة بالمنازل الطينية . ربما كان وقت النهار ، ولكني شعرت فجأة بالكآبة والغربة مثل زائر من المستقبل ، يشهد قذارة القرون الوسطى الممكن تفاديها . حيث مجموعة من النساء ، والاطفال يحومون حولهن وكانت نسرين واقفه في هذا الجو الطيني المعتم مثل نجم في فستانها التفته ،ذي اللون الكرز . ردّت نسرين بابتهاج استجابة لتحياتهن الرسمية والتي يلوح فيها الخضوع . اقتربت النساء الواحدة تلو الاخرى من نسرين ، امسكن يدها ، وقبلن ظهرها وانحنين حتى لامست يدها جباههن . تأملت هذا المشهد باندهاش بينما مضت النسوة بعد ذلك ،بعيدا، نظرت الى احداهن كما لو انها تتساءل فيما اذا كنت انا ايضا جديرة بهذا الاحترام . ولكن اتضح انها قررت عكس ذلك . ولكني عندما ظهرت في دستان بملابس كردية بعد شهر من ذلك تقريبا كانت النساء يمسكن يدي ايضا ويقبلنها .

هذه النظرة الاولية المعتمة لمنشأ القرية الاصلـــــي ، افسدت المشهد الريفي الذي كنت قد تخيلته في ذهني عن دستان، مضت فترة الظهيرة بسرعة في محادثات ضبابية لانهاية لها ،وفي ابتسامات واسئلة وشاي يقدم فوق سجادة فارسية جميلة وجديدة، حيث كنا جالستين مقابل جدران مبيّضة ونوافذ ذات اطارات معدنية انيقة . لم افكر مليا بمسكن الخادمات في منزل مريم ومن كان يعتني فعليا بذلك القطيع الضخم من الاغنام المنتشـــرة في تلك المنطقة الرعوية . كنت قد أرهقت أيضا من حماس ونشاط نسرين ، فقد كانت قد اخذت على عاتقها دور المضيفة بمقـــدرة كافية لارشاد وتوجيه عشر نساء على الاقل ضمن انحاء قريتهـا . واصلت تساؤلاتي عما يمكن ان يكون قد حدث لخديجة . كنـــت اعرف ان جيرد يمضي وقته مع طه واولاد عمومته وبعض شـــباب القرية . ماسبب وجود خديجة معي ومع نسرين ؟ شعرت بالراحـــة في نهاية المطاف عندما قادتني نسرين بعيدا عن القريـــــــــة المظلمة واخذتني باتجاه منزل والدتها ، حيث استطعت ان أرى بصيص الضوء من الفوانيس المضاءة للنسوة . وبينما ذهبت الى حجرة الضيوف التي كنت قد امضيت الكثير من فترة العصر فيها ، غادرت نسرين الى مكان آخر . كانت الحجرة ممتلئة بالرجال والصبيـــان وكان من الموجودين جيرد وطه واخوان لطه وابن عم طه رحيـــم . وكنت انا المرأة الوحيدة هناك .

ثبط همتي شعوري بالارهاق عندما جلست اتحدث مـــع المضيفين واشرب الشاي . وعندما اشارت نسرين الى انني منهكة احتججت على ذلك . ولكن كان ذلك صحيحا فقد كنت تعبه جدا مع اننا لم نمض يوما واحدا بعد فقد قمت بجولات كثيره مـــع نسرين والالبسة التي كانت ترتديها نسرين لم تكن تصلح للتجول ابدا ربما كانت اللغة هي التي اتعبتني . فحتى الآن و لـــدى جلوسي مع جيرد ايضا كنت اتحدث بالكردية . ولكن ماتطلبـــه وجودنا هنا بالذات من الجهد قد اتعبنا اكثر من الجهد الذي كنا نبذله في التحدث بالكردية ، آخذين في اعتبارنا التناقضـــات

المبهمة ونتساءل دوما عما هو متوقع . والان وبعد ان حل الليل شعرت بالضيق لبعد القرية . بدت المجموعة التي كانت تحيط بنا اصغر واكثر هشاشة . وكأنها ستختفي بين ومضة من المصباح وخبوها . لاحت الجبال في الافق مجسّمة اكثر ، لم استطع رؤية أي من الاضواء البعيدة في السهل لدى تحديقي من خلال النافذة . كان الظلام والصمت المطبق قد غمر الطريق الذي سرنا عليه للوصول الى هنا . تشكل القرية في الليل ملجأ وتجمع كائنات بشرية لأخذ قسط من الراحة والدفء والضوء . ولكنني كنت حديثة العهد بالنسبة للقرية لانتزع منها هذا الشعور بالمؤازرة. وكانت اقل غربة بقليل من صمت السهل المطبق فحسب . ظهرت فجأة مجموعة من الرجال عند مدخل حجرة مريم ، مد هدوء لا ء ظلالهم عبر الارض . نهض الجميع عندما دخل الحاج اسماعيل وحاشيته الى الحجرة . كان الحاج يبتسم ويصافحنا بحيوية ولهفة وحالما جلسنا جميعا ، لاحظت ان رجاله كانوا يحاولون متعمدين الا ينظروا الي . كان الحاج يفيض بجاهزية عالية كالعادة ، وكان ممتلئا بالاسئلة والتعليقات الموجهة الينا . ومما كان يهمه الى حد كبير هو اكتشافه عدم حلولنا ضيوفا عليه. لم اعرف في البداية ماكان يتحدث عنه ، فدستان هي قريته . ومريم هي زوجته وطه هو ابنه . وفي سلسلة التبعية فمن المؤكد اننا ضيوفه هو ايضا . قال مشيرا :

– في منزلي كهرباء . في المرة القادمة التي ستأتيان فيها الى دستان ، يجب . تمكثا معي .

أومأت برأسي على نحو مهذب ، متسائلة عن سبب وجود الكهرباء في منزله فقط ، ومندهشة اكثر لهذا الفصل بين الضيوف . لم اكن ادرك بعد اننا نخص مريم . ولم ادرك بعد كم كان مجيء الحاج الى هنا وراءنا الى منزل مريم ذا اهمية عظيمة . لقد كانت حركة السير العادية بين المنزلين تصعد الى منزل الحاج فوق الهضبة ولاتنزل الى مريم في طرف السهل . لم يمض وقت طويل قبل أن تتلاشى فارسية جيرد عندما لاحت

على عينيه غشاوة تدريجية شبه زجاجية نتيجة الارهاق . فاضطررت الى متابعة المحادثة مع الحاج الذي ابدى اعجابه لتمكني من الكردية ، بينما كنت اتلعثم خلال ذلك بسأم محاولة ان اتابع ماكـــان يتحدث عنه . اراد الحاج ان يريني كيف علم نفسه كتابة اللغة الكردية بالحروف اللاتينية المستخدمة في التركية . نسخ الحروف على علبة سجائرة الامريكية ووعدني ان يكتب لي بحروف لغتي عندما اعود الى الولايات المتحدة . عندما كان الحاج يتحدث ،لم يكـــن احد ينبس ببنت شفة ، ملقين بذلك ثقل نصف المحادثـــة علـــى كاهلـــي . ولكن هذه المرة لم أكن استطيع ان اركـــز انتباهي جيدا ، على نحو مغاير عما كنت عليه في المدينـــة فقد كنت منهكة القوى لدرجة كبيرة .

اخيرا حضرت مريم الى مدخل الحجرة . وارادت ان تعرف هل سأتناول عشائي مع الرجال ام مع النساء . وعندما لاحظـــت عدم قدرتي على الاجابة على هذا السؤال البسيط ، قادتنـــي بسهولة الى الطرف الاخر من منزلها . على الرغم من ان المنـــزل كان مؤلفا من اربع حجرات فقط ، كل حجرتين في طـــرف ووراءهما مخزنان ،فان نصفي المنزل لم يتصلا من الداخـــل . قادتني الى حجرة نوم اخرى حيث كانت مريم وخديجة ونســـرين ونادية يتأملنني وانا ألتهم الغذاء من الصينية الكبيرة الموضوعة امامي . وعلى الرغم من احتجاجي فانهن لم يقتربن من الطعـــام الى ان انتهيت منه . وبعد العشاء حاولن ان يرينني اشـــكال الرقص الكردي حيث و ضعن شريطا مسجلا وشكلن صفا في الفـــراغ الضيق بين السرير المزدوج والجدار . وكنت لا اكاد اقدر على فتـح عينـي .

ـ مارغريت تعبه .

ابدت مريم ملاحظتها واسرعت باخراج الفتيات من حجرة النـــوم الى الطرف الآخر من المنزل ، حيث كان الحاج اسماعيل وبطانتـــه قد غادروا لتوهم . اخرجت بندقية ضخمة بسرعة من تحت الفراش

المزدوجومن ثم عدلته ثانية . وضعت خديجة طبقا كبيرا من الفواكة وطبقين صغيرين لخدمة المائدة ، مع سكينين للتقشير وابريق ماء وكأسين ومسجلة مع حافظة اشرطة محبوكة فوق عتبة النافذة قرب الفراش . وحالما وضع كل شيء كما رغبت تمنت لنا مضيفاتنا بقضاء ليلة سعيدة واغلقن الباب . تركنا انا وجيرد لوحدنا ، لنتأمل احداث وسبب وجود تلك البندقية بما أن هذه كانت الليلة الاولى لوجودنا في القرية ، فقد كان تأثيرها علينا قليلا نسبيا . كنا نعرف ان الحاج اسماعيل وابنه كانا صيادين متحمسين ولم يخطر ببالنا مباشرة ان هذه البندقية تخص مريم . فهي لاتذهب للصيد . وموءخرا وبعد أن انتهت اقامتي في كردستان ادركت انني لم اكن اخطو عشر خطوات في القرية دون ان اكون مرافقة بأحد ما للحماية، والاهم من ذلك لم ننم ليلة واحدة دون وجود حارس يحرسنا. لم يكن الاكراد الايرانيون مسلحين من الناحية النظرية ، ولكن سيطرةالضغائن الدموية وسفك الدماء جعل ذلك موضوع نقاش . ايا كان نوع القانون ، فقد كان واضحا ان العديد من الاكراد يقتنون اسلحة نارية .

نظرت الى الساعة الضخمة المعلقة على الجدار وكانت تشير الى التاسعة والنصف . وفجأة لم أعد أشعر بالتعب . تناهى الى سمعي في الجانب الآخر من المنزل احاديث وقهقهات ، ونظرت خارجا من خلال نافذتنا الى حزم الضوء المنبعثة من نوافذ حجرة نوم ناديا . لم يكن السرير طويلا بما فيه الكفاية لجيرد ليتمدد بكامل طوله . وكان كل شيء يتدلى مثل ارجوحة شبكية ، حاولت المضي للنوم ، لمعرفتي مدى التعب الذي سأتجشمه في اليوم التالي. وبعد نوم متقطع وقلق استيقظت على فجر بارد اخضر ، سديمي يمتد بعيدا حتى اطراف الجبال . تلاشى شعوري بالنعاس عندما سمعت سقسقة الطيور من خلال النافذة المفتوحة . وحالا وصلت خادمة الى الباب وهي تحمل طبق المنيوم مستدير ضخم ممتلىء . بطعام الفطور المكون من الخبز الطازج المنبسط

المصنوع من القمح الخالص مع جبنه بيضاء ولبن خاثر وعسل وكؤوس من الحليب الحار التي يتصاعد منه البخار . حضر رحيم ليبقى برفقتنا وحالا بدأ يوم جديد . جاءت نسرين بعد الفطور لتأخذني لألتقي بأختها امينه .

بعد مشي مايقارب ربع ميل صعودا نحو الهضبة ، اقتربنا من المنزل من خلفيته وسرنا نحو موقع حجرة الحريم . لم ارى في هذه المرة الجدار ذا العشرين قدما الذي يفصل حجرة الحريم من ديوان خانة الحاج اسماعيل ، حجرة الجلوس تلك ، الطويلة والمعتمه المبنية جانبا ، للرجال الذين يقومون بزيارة القرية . رأيت هذه المرة فقط خادمة مرتدية على نحو يلوح فيه الفقر واضحا وهي تجد مع مجموعة اواني كبيرة ، معدنية وزيتية المظهر ، مدعمة بركائز عند الحنفيات خلف المنزل . صعدنا انا ونسرين الدرجات الصلبه عند مدخل حجرة الحريم وخطونا فوق قشور خيار وبرتقال مرمية بالقرب من كلب رعي ضخم في القاعة المعتمه . وبعدئذ افلتت نسرين يدي عندما توقفنا كلانا لنخلع احذيتنا امام الباب المعدني. نهضت نصف دزينة من النساء لدى دخولنا بقيت المرأة الثقيلة المقعدة التي تذكرتها وبغموض منذ ذلك اليوم البعيد ، في حجرة جلوس مريم ، جالسة فوق سجادة وعكازها الى جانبها . حيت نسرين اولا المرأة الاكبر سنا ومدت عنقها الى الامام باتجاهي وابتسامة تجعد ثنايا وجهها . فهمت اخيرا ان المرأة ذات العكاز هي سوسن خانم والدة عائشة . وأمينه الطويلة القامة ذات الشعر الاسود والعينين الرماديتين التي عرفتها نسرين الي كانت اخت عائشة الصغرى ، وكذلك اخت نسرين بما آن اللغة الكردية لاتفرق بين الاخت الشقيقة و الاخت .

عندما جلست جلست جميع النساء ، بدأن بسؤالي فيما اذا احببت القرية أم لا. وهذا السؤال كان يتردد على شفاه نسرين اكثر من الجميع بما انها قد دارت بي في انحائها

في اليوم الفائت . قدمت الشاي المرآة ذات الوشم الازرق على حنكها ، التي اشارت اليها خديجة على انها والدة احدى زوجات الحاج الاخريات . تساءلت أين يمكن ان تكون الزوجات الاخريات ومن كانت النساء الجالسات امامي ، وخيل الي كما لو انهن يقضين النهار جالسات في حجرة نوم سوسن خانم . اليس لديهن ما هو افضل للقيام به ؟ شككت في انهن قد اجتمعن خصيصا لشرب الشاي . وانهن قد تعطلن لوفادتي . وبعد أن مضت نصف ساعة فقط وانا برفقتهن ، بدأت اشعر وكأنني قد سمرت بسير الحياة البطيء . تخيلتهن جالسات يوما بعد الاخر في هذه الحجرة الداكنه ، المعتمه حيث يحوم فيها الذباب فوق فتات الطعام المرمي ارضا فوق السجاد . بَدَوْنَ متبلدات بسبب وجودهن في القرية كما لو انهن لايعرفن ما يتحدثن عنه لي سوى فيما اذا احببت القرية اكثر من المدينة ام لا. بالطبع زال الآن عنهن الملل قليلا ، بسبب حضوري ،، حيث أشكل وجهها جديدا بالنسبة لهن ليحدقن فيه . ما كنت سأستشف ابدا من هذا اللقاء مع سوسن خانم زوجة الحاج اسماعيل الكبرى انها كانت قد تورطت منذ زمن بعيد في فضيحة ومغامرة . كل ما استطيع ان اخبره الان انها كانت تجلس من يوم لآخر تتلمس مسبحتها بأصابعها وعقلها ــ والله اعلم ــ ممتلىء بأي مشاعر من الندم وبأي افكار عن السنوات الاربعة السابقة المتتالية او عن الزوجات الاخريات اللواتي كان عليها أن تتحملهن او عن بناتها الاربع .

شرعت نسرين ، التي بدت وكأنها لم تتأثر بجو الحجرة المثير للوهن ، تتحدث عني بسرعة كما لو أني لست موجودة اخبرتهن عن عملي في الكلية ، وعن انواع الاطعمة التي اجهزها للغذاء وعن كيفية تزييني منزلي . كانت معظم هذه المعلومات ثانوية نوعا ما . سألت النساء عن زوجي، فأوضحت نسرين انه فارع القامة ، والاهم من ذلك انه كان شابا . كنت صامته ، وقد تملكني شعور شابه قدرة نسرين

على تحمل الكدر . حاولت امينه بين فينه واخرى أن تفسح المجال لقول كلمة او اخرى ولكنها فشلت . استمرت آلا ل ابنة اخ الحاج - ذات المظهر الطائش في القهقهة والذهب يتلألأ ، في ثغرها ذى الخمسة عشر ربيعا . فهمت من هذا أن نسرين معتادة على عقد مجالس كهذه في حجرة جلوس سوسن ، وتساءلت عن شعور اختها الصغرى وابنة عمها نحوها .

صرحت لي نسرين موءخرا ، عندما أتت الى ريزاى في زيارة، انه ليس لديها صديقات في القرية .

— ماذا تعنين ؟

سألتها وأنا أفكر بالوقت الذى تقضيه مع آمينة وآلال .

— ماذا عن اختك وابنة عمك ؟

فأجابت بازدراء :

— أوه ، انهما ليستا صديقتي . كيف يمكن لأمينة أن تكون صديقتي .

ولكني خلال زياراتي الاولى لدستان لم أستطع آن أكوّن رأيا عن هذا التوتر في علاقتهن . كان العمل العدائي الذي شعرت به آنئذ ، هو التنافس على امتلاكي ، أنا الزائرة . كانت نسرين قد كسبت النزاع مسبقا ، ووضعت يدها علي ، لأنه كان واضحا للجميع آنني ضيفة مريم ولست ضيفة حريم الحاج اسماعيل . عندما ناشدتنا سوسن على نحو مثير للشفقة ، للبقاء لتناول وجبة غذاء الظهر ، كانت نسرين حاسمة تقريبا بالطريقة التي نهضت فيها وأخذت بيدى نازلة فوق الهضبة باتجاه منزل والدتها .

تساءلت فيما اذا كانت أهمية نسرين تنبع جزئيا من حقيقة كونها ابنة مريم . لقد عاشت مريم في السنتين الاخيرتين منفصلة عن جناح الحريم المثير للملل . بدا في وقت زيارتنا آن مجموعة من الابنية تنشأ في دستان . حيث كانت گلاويز ، اخت الحاج اسماعيل ستنتقل الى خارج مساكن

النساء المشاعة في ذلك الصيف . كنت متأكدة تماما من أن سوسن كانت ترغب بالمغادرة هي ايضا ، ولكن ليس بيدها حيلة ، فهي عجوز مسنة ومريضة جدا . وبما انها لم تنجب اولادا وبالنتيجة لم يكن لديها كنائن ، فقد كانت تعتمد على الزوجات الشابات كي يطبخن لها . يمكن فقط للنساء اللواتي لديهن اولاد شباب مثل مريم ان يسكن وحدهن وهذا فقط ماسيبدو معقولا .

لم يبد لي أحد على عجل في تجهيز نفسه على الرغم من انني سمعت انهم سيأخذوننا في رحلة الى نبع حار في الانحاء القريبة . قدم لنا في البداية غذاء عامر ، وافر ، ومن ثم شعرنا بالنعاس . واخيرا اتضح اننا سنصعد الى اللاندروفر . وبما انني كنت قد تناولت غذائي مع الرجال والصبيان ، لم أر النساء لفترة ، لذلك عندما صادفت خديجة في جانب المنزل ، سألتها فيما اذا كانت ذاهبه هي ايضا الى النبع الحار . فقالت وهي تبتسم :

ـ لا أظن ذلك يامارغريت .

ـ ولكن لم لا ؟

تلاشت هذه العبارة على شفاهي ، بينما اختفت ثانية وراء المنزل في مكان ، أظن انه المطبخ .

عندما حان الوقت ، اتضح ان جيرد وطه ورحيم ، وأحد اخوة طه الصغار وأمينه ونسرين وأنا فقط كنا ذاهبين . أخذ طه بندقيته المنقشة وعلق حزاما عريضا من الرصاص حول صدره ، كانت نسرين تقفز من الفرح جيئة وذهابا ، عندما بدأنا بالخروج متتبعين الطريق والسلك الكهربائي باتجاه الحدود العراقية ؛ تساءلت بصوت عال فيما اذا كانت كهرباء الحاج اسماعيل تستمد من هذه الاسلاك ، ولكن الجواب من طه كان انه لا يسمح لأي قرية ان تستمد من هذه الطاقة . وان استخدامها والافادة منها يقتصر على الجيش المتمركز على الحدود فقط . كانت كهرباء الحاج

اسماعيل مجهزة بمولد يعمل بقوة مادة نفطية .

قبل ان نغادر بساعة او ساعتين كانت نسرين وامينة تتحدثان عن هذه النزهة ، كما لو انها نزهتهما الوحيدة لهذه السنة . فقد انفجرتا بالحديث عن اوهام مع بعضهما ومعي عن توقعهما مدى روعة هذه الرحلة . كنت اشك في ذلك ولكن " درمان آفا " والتي تعني حرفيا ـ الماء الشافي ـ كانت لافتة للنظر اكثر مما تصورت بكثير .

كان جزء من جمالها يكمن في حقيقة انها لم تمس تقريبا ، ولا عجب في ذلك ، فقد كان علينا ان نعبر بحرا مكشوفا من الوحل لكي نصل الى هذا الممر الضيق الذي يقطعه نهر يجري من خلال صخرة صلبة . وقد نجح اللاندروفر بعبورها بصعوبة . ولكن المشهد وحده كان يستحق السير نحوه . كان لون النهر اخضرا باهتا وقد زاد على ذلك الخضرة القليلة المحيطة بنا . بدا الماء دافئا لذيذا عندما تسلقت الجرف الصغير لأضع يدي في احدى البرك المتدفقة . اخذت نسرين وامينه بيدي ومضينا نتجول في انحاء النبع . كانتا تبديان قلقهما باستمرار على اني قد تعبت . فكرت في سبب قلقهما وقررت انه يمكن أن يكون جراء انسحابنا في وقت مبكر جدا في الليلة الفائتة ، عدا ان نسرين كانت تفترض انني متعبة منذ اللحظة التي وصلت فيها الى دستان. ربما كان ذلك سبب ارهاقي الشديد . ومن عادة الاكراد ان يفكروا في حتمية شعور الضيف بالتعب لانه ليس معتادا على الجبال .

حالما مضى الرجال الذين سبقونا الى النبع كيفت خطواتي مع نسرين وامينة وتوقفت معهن عندما تحدثنا مع عائلة بدا انها قد عسكرت تحت صخرة بجانب الجرف . كانت هوءلاء النساء مرتديات لباسا غريبا وحلى ذهبية مثل الاكراد . تصورت انهم لاجئون عراقيون غير مسجلين لدى السلطات المحلية ، ولكن ، عندما سألت مضيفتي عن امرهم ، أبلغتني انهم عجم . فكرت في نفسي انه من الغريب ان يتحدث العجم بالكردية ولكني لم ألاحق الموضوع .

كان رجلان آخران جاثمين ، بدا بوضوح انهما كرديان بشلواريهما الفضفاضين وعمامتيهما ، كانا جاثمين على صخرة اخرى يدخنان السجائر ويراقباننا . استغربت لكيفية وزمن وصول هوءلاء الناس . فقد كانت سيارتنا اللاندروفر هي وسيلة النقل الوحيدة التي ترى على مرمى البصر .

شرع طه فيالصيد جديا ، ودوت الطلقات عاليا . ركضت الفتاتان لتراقبان أخا طه الاصغر حسين وهو يخوض حتى وسط بنطاله الجينز المستورد، وقد ابتهجت لدى اكتشافي ان بنطاله الداخلي هو شلوار طويل من الموسلين ، متجمع عند الكاحلين ، بينما كانت الفتاتان ملتفتين من قمة رأسيهما حتى اخمص قدميهما . بالملابس الكردية التقليدية ، كان الرجال الثلاثة جميعهم مكسوين بملابس مريحة اكثر منالطراز الغربي ، العملي . كانت اللغة واللباس الداخلي فقط يحددان هويتهم على انهم اكراد .

رجتني أمينه ونسرين ان اطلب من طه ان يأخذنا جميعا الى معسكر اللاجئين الاكراد قبل أن يتم رحلة صيده فيفوت علينا هذه الفرصة . لمحنا أسقف ثكنات المعسكر المعدنية الواسعة وهي تلمع من على بعد مسافة بجانب القمم الجبلية المكتسية بالثلوج . عندما انعطفنا عن الطريق الرئيسي المؤدي الى حقل موحل . ونحن نتجه نحو درمان آغا وقد رغبت أنا أيضا في روءية المعسكر ولكنني لم افكر ان ذلك ممكن فقلت وقد لاح فضول في كلامي :

– لماذا لاتطلبان ذلك منه بنفسيكما ؟

– لن يأخذنا من أجلنا ، ولكن لو طلبت انت ذلك يامارغريت فأنا متأكدة انه سيأخذنا .

وافقت ان اطلب منه ذلك لأجلي بقدر ما لأجل نسرين وامينة . في صباح اليوم الفائت كانت نسرين تحلم بالسير

الى العراق على ظهر حصان برزاني ، وهو يرعى في دستان تماما. بأحلام كهذه ماذا يمكن أن يكون اكثر اثارة من رؤية بعض الرجال اللاجئين المعاقين داخل المعسكر ؟

قدم حسين طيور الحجل المصطادة لطه الذي وضعها على الارض . ابتسم استجابة لكلمات المجاملة العديدة التي صدرت عن اختيه وسأل :

ـ ماذا سنفعل الآن ؟ ربما علي ان احصل على المزيد منَ الطيور ؟

سررت لان نسرين أعطتني المبرر لأقترح انهاء هذا الصيد ، فسألته :

ـ هل تظن انه يمكننا ان نسير بمحاذاة زيوا وان نلقي نظرة على المعسكر ؟ فأجاب طه :

ـ طبعا ، اذا كان ذلك ماترغبين القيام به ؟
ارتسمت لذلك ابتسامتان عريفتان على وجهي نسرين وامينه سرنا بهدوء نحو السيارة ونسرين تتمتع بامتياز حمل الطيور الميته . عندما وصلنا الى الطريق الرئيسية ، اتجه طه نحو الاسقف المعدنية . كان باستطاعتي ان اسمع امينه ونسرين وهما تتهامسان بابتهاج في خلفية سيارة اللاندروفر .

بعد كل مداولات السافاك ، عما اذا كان سيسمح لي بزيارة زيوه ام لا ، لم أقدر أن اصدق اننا سندخل المعسكر بهذه السهولة فعلا . لم تكن ثمة اسيجة ولاحراس . عبرنا بسهولة جسرا صلبا ووجدنا انفسنا في طريق مع صفوف الشكنات الضيقة في أحد الجوانب وخيم الجيش في الجانب الاخر . كان يقف بجانب الشكنات نساء وأطفال بألبسة كردية ، بينما كانت زمرة من الرجال قد اجتمعت أمام ما اتضح فيما بعد انه مطعم . بدأت بالتقاط صور من خلال النافذة وقد امتع ذلك طه كثيرا . ولم يبد خائفا من السافاك على الاطلاق . تقدم رجل بألبسة

كردية وحياه من خلال النافذه وأخيرا بعد عدة دقائق تقدم جندي وسأل طه عما نفعله هناك . أخفيت آلة التصوير بسرعة وأجاب طه بأننا عابرو سبيل فحسب . كان الطريق المار عبر المعسكر هو الشريان الرئيسي للمواصلات من الشمال الى الجنوب في غرب اذربيجان الكردية . لوح لنا الجندي بيديه وعندما نظرت خلفي ، تلألأت الشكنات ثانية تحت ضوء الشمس . ولكنها ظهرت مغبرة وموحشة عندما كنا بالقرب منها .

مضت بقية فترة العصر بسرعة وبمزيد من الشاي والحديث في منزل مريم . وعندما آن أوان الرحيل ، ظهرت خديجة من وراء المطبخ أخيرا . كانت قد قضت معظم نهاية الاسبوع وهي تطبخ وتقوم بالاعمال المنزلية الروتينية غير المحببة لحماتها. تجمع بقية أفراد فريقنا عندما حضر الحاج اسماعيل متخبطا وهو يهبط الهضبة في سيارته اللاندروفر ليأخذنا ويعود بنا جميعا الى المدينة . وبعد أن وصلنا الطريق العام الحكومي تماما خطا شرطي من مخفر الدرك الواقع قرب دستان نحونا على الطريق ، واشار الينا بالوقوف وسأل مشيرا نحونا :

ـ من هوءلاء ؟

فأجاب الحاج اسماعيل :

ـ أنهما ضيفاي .

أومأ الدركي برأسه وتراجع القهقرى ، وواصلنا السير في طريقنا.

كان الضوء المنور للطريق يبهت رويدا رويدا ، وبدا الحاج تعبا . وبقي ينظر بعينين طارفتين نصف مفتوحتين ، ومن ثم يفتحهما على وسعهما ، كما لو أنه لم يكن يستطيع الروءية . كان الطريق في بداية باند مكتظا بسيارات سكان المدينة الذين قضوا يومهم قرب وسائل نقلهم ، وعلى نحو عرضي في الهواء الطلق خلف باند تماما كان هناك متسع كاف من المكان لكل شخص ليفترشه ، ولكن مثلما ذكرتني نسرين ذلك المكان هو كردستان ، وليس للعجم مكان فيه .

رجونا أنـا وجيرد الحاج اسماعيل أن ينزلنا على بعد عدة مبان قبل أن نصل الى منزلنا ، بما أننا قد تعرفنا جيدا على الشكليات التقليدية الملائمة لهذه المناسبة . فقد كنا قد رأينا لمرات عديدة ان الايرانيين يقفزون فعلا من سيارات متحركة محاولين انقاذ السائق من بذل المزيد من الجهد لأخذهم الى المنزل تماما . ولكن كان واضحا أن الحاج لن يتوقف الى أن يطمئن الى أننا امام منزلنا . ارشدناه مكرهين الى فناء دارنا حيث نزل من سيارته لكي يصافحنا. ومن ثم امر طه ان يقدم لنا اثنين من طيور الحجل التي كان قد اصطادها . ولكنه عندما حملها ليقدمها لنا ، رفضنا أن نأخذ هذه الطيور البالغة الصغر ، ليس من منطلق سلوك " التعارف" التقليدي ، بل لاننا لم نكن نرغب فيها أصلا . على كل حال، أصر الحاج على أن نأخذها . فبالاستناد الى سلوكنا السابق ظن أننا نفعل ذلك لمجرد انه سلوك مهذب نسلكه معه . وبعد أخذ وعطاء معه ، استمر الحاج اسماعيل في رفضه تصديق اننا كنا نرد مثل هذا الخيار مراعاة للذوق واننا من جهة اخرى لم نكن نرغب في نتف واخراج احشاء هذه الاجساد الصغيرة من أجل قليل من لحم الطير . واخيرا قال جيرد :

– ان اعطاءنا طيور الحجل هذه هو مثل القائها في المزبلة ، فنحن لن نأكلها .

بدا الحاج اسماعيل مذهولا ولكنه عاد الى وضعه السوي حالا. لقد كنا غرباء . وقد قبل منا ذلك . وقبل أن يسير مبتعدا تمنى لنا قضاء ليلة سعيدة وعودة سريعة الى قريته . بقي انقياد وداعه الحار و وداعات البقية في السيارة ، و وداعات نسرين ومريم المحبة عند مغادرتنا القرية وحسن الضيافة الذي استمتعنا به في دستان ، بقي كل ذلك معنا الى أن وصلنا أمام باب دارنا . ومن ثم اكتشفنا ان الباب مقفل من الداخل واننا قد بقينا خارجا .

كنا نقتني مفاتيح لبوابة الفناء ولباب شقتنا في الطابق العلوي فقط . لم نجد الباب الامامي للبناية مغلقا أبدا خلال أشهر اقامتنا في ريزاي كلها . ولكن لم يحدث أن كان هوشنغ وشهرزاد في الخارج . كانت اخت هوشنغ الكبرى قد حلت محلهم لتعتني بالشقة والطفلين . كانت تلمح بغموض وفي أكثر من مناسبة الى جميع الجرائم في المدينة ، لذلك لم تعد أبواب الفناء والشقة تترك مواربة كما كانت لدى وجود شهرزاد في المنزل . أما الآن فقد اغلقت العمة باب البناية الامامي بمفتاح لم نكن نعلم بوجوده . وبما أن منزلنا لم يكن مضاء ، فقد ظننا انها قد رحلت الى مكان ما ، وربما لوقت طويل .

تجولنا في البداية في الزقاق بحثا عنها . ومن ثم مكثنا ننتظر عودتها ببساطة وقد انهكنا التعب في الساحة المظلمة . وأخيرا عادت والطفلان في رعايتها ، دون ان تقدم لنا أي اعتذار عندما اوضحنا لها انها قد اغلقت الباب وتركتنا خارجا . كان تعاملنا معا أقل من أن يكون عداء علنيا بقليل ، لذا فقد صعد جيرد الى الطابق العلوي مباشرة ، تفاديا للمزيد من المناقشة . وحالما فتحت باب شقة الجعفريين قالت لي العمة وللمرة العاشرة أو مايقاربها منذ ان التقينا " بفرمايييد، خانم " رجاء تفضلي بالدخول لتناول الشاي .

عندما كانت تقوم بهذه الدعوة من قبل ، كنت اتفادى قبولها دون معرفة مني فيما اذا كانت تعنيها حقا أم لا . ولكن هذه الليلة كنت في حاجة لبعض الشاي وبالاضافة الى ذلك لم ارد ان ارفض دعوتها وان ابدو غير ودودة اكثر بعد المحادثة المنفعلة عن القفل . قبلت الدعوة دون ان افكر في حقيقة ان المرأة كانت خارج المنزل وان السماور من الممكن الا يكون ساخنا . وحالما دخلت الردهة معها ، وقفت وهي تنظر الي دون ان تدعوني للجلوس واخيرا قالت :

ـ رجاء تفضلي بالجلوس .

بعد ذلك مضت الى المطبخ . وعندما عادت ناولتني تفاحة طرية ضخمة وقالت :

- هذه من بستان عمي . يجب أن احمم الطفل .

حصلت وقفة قصيرة فظة ، ادركت فيها ببطء انها تصرفني بذلك وان التفاحة هي تعويض عن الشاي الذي عرضته علي والذي لم تعني ان اقبله من المرة الاولى على الاطلاق . نهضت بسرعة ممسكة بالتفاحة و وجهي يتوهج من الانفعال . ونجحت في صياغة بعض الكلمات وقلت :

- اعذريني ، على أن امضي الآن . ليلة سعيدة .

فردت خلفي :

- ليلة سعيدة خانم .

عندما قفلت عائدة الى الطابق العلوي ممسكة بالتفاحة ، لم أفهم في البداية كيف ارتكبت مثل هذا الخطأ. متى كانت المرة الاخيرة التي قبلت فيها دعوة بمعناها الظاهري ونسيت آن اعطي الشخص الذي دعاني فرصة لقبول رفضي على نحو لبق ؟ بعدئذ ، ادركت حقيقة المشكلة . كنت قد قضيت اليومين الاخيرين مع الاكراد في كردستان . وهي بلد آخر وذو مستوى ثقافي آخر فهناك كانت كل دعوة ، كل وجبة غذاء تدعم بتأكيد قوي للقبول . وفي طريقنا للمنزل اوقعنا الحاج في حيرة اوربما ارتكبنا خطأ بحقه ، برفضنا الشبيه بالتمسك بالشكليات والرسميات التقليدية ولم يدرك كم كنا مضطربين . فمن جهة ، ارتكبنا خطأ ممارسة نظام الشكليات مع الاكراد ومن جهة اخرى نسينا ان نستخدمها مع الفرس والاتراك . حينئذ توجب علينا اكثر من أي وقت آخر ان نسأل انفسنا الى من ننتمي في ايران ؟ فقد عرض علينا مكان في كردستان لقد قالها الحاج :

- هذه قريتك .

ومع ذلك مكثنا في ريزاي . لقد كان عملنا هناك . ومنزلنا

كان هناك . ولم اكن متأكدة تماما من انني مستعدةللانتقال الى القرية الا في بعض خيالاتي المجهدة .

كانت الحرب الايرانية الواسعة ، غير المعلنة قد غمرتنا على الرغم من جهودنا المبكرة لتفاديها . لقد كنا في وقت ما غرباء كليا ، نمضي هنا وهناك ببراءة وجهل وبين فينة واخرى نقضي الوقت مع الاكراد اذا استطعنا ان نجدهم واحيانا نعقد علاقات اجتماعية مع ايرانيين آخرين اذا دعينا فعلا او قبلوا دعواتنا . لقد شارفت فترة سدا جتنا وعدم قدوم الاصدقاء الى عتبة دارنا على الانتهاء .

ــ هل لديك اصدقاء من العجم ؟

سألتني خديجة هذا السؤال وهي تضيق عينيها في اكثر من مناسبة :

ــ لماذا تذهبين الى القرى الكردية ؟ انها اماكن مثيرة للاشمئزاز والقرف .

ارادت والدة شهرزاد ان تعرف ، فسألتني ذلك . لم يكن مفهوما بالنسبة للاتراك المتمدنين اننا ، نحن الامريكان المثقفين نختار رفقة قرويين وسخين ومتخلفين . ومع ذلك فقد خلصنا الى رأي مفاده ان الاكراد او على الاقل الحاج اسماعيل وعائلته يتصرفون بغرابة أقل من الايرانيين . أن غياب نظام الشكليات والتأكيد على الشرف الشخصي والاهم من هذا وذاك الافتخار العرقي هو الذي يميز الاكراد عن معظم الايرانيين الذين التقينا بهم . ربما كانت ميزة الافتخار هي الغالبة . ان الاكراد اوبالاحرى ، اكراد القرى الحقيقيون ، لم يشعروا بعد بحاجة الى تقليد الغرب ، لذا فقد قابلونا كأنداد دون استياء ؛ ولكنني لا اقوى على التغاضي عن هذا الصراع بيسر بتلك التعميمات الصرفة التي سبق الحديث عنها . كنت على وشك اكتشاف القرى الكردية التي لا يشعروني فيها بشيء سوى ب " الاخرى " وكان لايزال يوجد بعض الاتراك والفرس ممن رغبت فيهم كأصدقاء لي .

لم تحل المسألة قط . لقد كان الحقد والخوف رابضين هناك لقرون قبل وصولي لهذا المشهد ، ولم اتعلم قط كيفية تقبله كنت اعتقد اني قد اتيت الى بلد واحد ، بينما كنت في الحقيقة اجول واتنقل بغير نظام عبر حدود اكثر من نصف درزينه من القوميات . فالاتراك لم يقووا على فهم صلتي بالاكراد، والاكراد ، لم يقدروا على فهم ماالذي كنت افعله ع العجم اما انا صديقتهم . كان الارمن المسيحيون والآشوريون وكذلك يهود ريزاي قد ذهلوا ى بما كانوا يرونه بالمجموعة المسلمة الاكثر وحشية في المنطقة . هذا بالاضافة الى الفرس الذين كان يشعرون ان ريزاي هي مركز حدود بعيدة ، الى حد لايطاق عن طهران ، مدينتهم المفضلة وعن مشهد او شيراز. ينظر الفرس الى الاتراك على انهم حمير ، والى الاكراد على انهم مجرمون متوحشون وانهم يشكلون تهديدا على آي بلد متمدن .

ولكني حسمت الامر في ذهني مسبقا . وهو ان كردستان كانت غايتي وانني بلغتها اخيرا . لقد تلاشت كل الاضطرابات التي شعرت بها لتجسس جيراني على ضيوفي الاكراد . وكذلك الغضب والخوف اللذان كانت تثيرهما اوامر العميد وتهديداته المتسترة ، وحتى قلقي الذي كان يسببه السافاك . كل ذلك قد تلاشى . لقد قالتها نسرين : (هذه هي كردستان) .

الفصل الخامس عشر

ان بعضا من غرابة قرية الحاج اسماعيل دستان وماثوا يكمن في الطين المنتشر في كل شبر فيها . ففي كردستان تكاد تكون جميع القرى مشيدة بصورة رئيسية من الطين ، هذا ان لم تكن قد وقعت فترة من الفترات بيد الآشوريين . فمنازلهم . وجدرانهم وافنية دورهم كلها طينية . والمصدر الرئيسي لوقود الشتاء هو كتل صلبة من روث الحيوانات . وهذه ايضا تخزن في مخازن طينية .

وبما ان الحاج اسماعيل رجل ثري ، فقد بنى منزله من القرميد الاصفر المصنع في المدينة ، وكان منزل مريم قد بني حديثا من احجار مصنعة ، ومعدة لذلك دون استخدام الملاط . كان الحاج اسماعيل بمحصول قمحه وحصادته وسيارته اللاندروفر قادرا على ان يبني قلعة . كان بامكانه انشاء منزل ذي طابقين بدلا من طابق واحد ، وان يشغل ثلاجة اوتلفزيونا بقوة مولده الكهربائي وان يشتري اثاثا اجنبيا غاليا . كان يمكن لمنزله ان يكون نظيفا وخاليا من الذباب لو أنه اراد ذلك . لم يكن يعيش بمستوى يختلف عن جيرانه الفقراء فقرا مدقعا . فقد كان يغزو منزله مثل منازلهم الذباب وحشرات الاغنام . وكانت وجوه اطفاله مثل وجوه اطفالهم مغزوة بالذباب . اخبرتنا اخت الحاج انه وضع في احدى المرات حاجزا منخليا على نوافذ ديوانخانته ودار الحريم ، ولكنها اوضحت ان هذا قد زاد المشكلة فحسب ،لأن الذباب صار يحبس في الداخل ، لذلك امر بنزع الحواجز . لقد وضع الآن قضبانا حديدية لتمنع اللصوص والناهبين من الدخول وتركها دون حواجز منخلية . كان ركام من النفايات والفضلات يتبعثر عادة في فناء منزله الطيني المطروق . لم يكن ثمة مايدعو للتخوف من تراكم

[illegible] والزو [illegible]
[illegible] الحالمة ورقية [illegible]
أو غسل [illegible] حوض [illegible] الماء . فأنهم [illegible]
في المكان الذي [illegible]

كان الحاج اسماعيل لسبب ما لم ادركه يسرف في صرف كالونات من الماء . ولكونه سيد القرية ، فهو يمتلك النبع الواقع في اسفل الجبل حيث كان الماء يجمع ويمد خلال انبوب الى صنبور مفتوح يصب في بركة في فناء ديوانخانته . كان الانبوب متصلا آيضا بصنبور مفتوح فوق بركة اخرى في فناء دار الحريم ومن ثم يجري هابطا على الهضبة نحو صنبور في فناء منزل مريم . كانت هذه الصنابير الثلاثة تترك مفتوحة ليل نهار . فيتحول الطين المطروق في الافنية المحيطة الى وحل زلق . ولكن ذلك لم يكن يزعج الفراخ أو الاطفال الصغار الذين كانوا يتراكضون في تلك الانحاء القذرة . كان الماء يجعل القمامة تثبت اكثر وتصبح جزءا من الارض . لم يكن ثمة اشجار او مزروعات لتمتص الماء عدا بعض الاشجار النامية في مواقع بعيدة عن المنزل وكانت تقطع حالما يمكن بيع اخشابها . والمزروعات التزيينية لم يكن لها وجود مطلقا .

اصطحب الحاج اسماعيل جيرد في احد الايام الى ديوانخانته بينما كنا في زيارة لهم لفترة الظهيرة والهى نفسه بأن رسم حلقة للتدريب على الرمي على الجدار الملصق باللون الاخضر الغامق ،المتسخ قليلا . فزع جيرد من ذلك وسأل :

- ولكن ماذا عن جدار منزلك ؟
- آوه ، انوي ان اعيد لصقه وطلاءه .

قال الحاج ذلك وهو ينظر بلا مبالاة الى الفجوات الرديئة التي احدثتها الرصاصات .

- سأفعل كل ماتقترحه علي .

وعد الحاج بذلك مانحا جيرد امتياز التفرد باختيار الالوان .

وتحت [illegible]

[illegible] منزله في الـ [illegible]

وادى العمل اثنان من العمال النشيطين [illegible]

آقل من اسبوع . مع كل ذلك لم تنتد الاوساخ وكانت [illegible] الطين وفتات الطعام تلتصق بالسجادات ، حيث يحقق الذباب فوائد عظيمة بآلاف الوجبات منها . كانت فضلات الخضرة مبعثرة فوق الارضية القرميدية في حجرات دار الحريم ، كانت حجرة كل امرأة هي قلعتها . بدت حجرات النوم التي لاتخلو من العيوب ، مثالا للنظافة ، بالمقارنة مع الارض العامة ذات القذارة المطلقة التي كانت تسود القاعة وافنية الدور الخارجية . كانت النساء مسؤولات عن جميع هذه المناطق من الناحية النظرية ولكن في الواقع لم تكن واحدة منهن تعترف بها .

اما بالنسبة لنا فثمة سحر في لامبالاة الحاج بالراحة . فبينما كان الاتراك والفرس يشترون وسائل الراحة الغربية بأقصى سرعة ممكنة لدى استيرادها الى ايران ، كان الحاج اسماعيل يعيش في منزله بأسلوب مشابه جدا لجده الثالث . كنا متخمين في المدينة بالراحة لدرجة اننا كنا نعجب بالناس الذين لايتضايقون من الطين . وقد حسب الشيخ عبد الله وهو واحد من الذين شهدوا اساليب العيش الغربية انه قد اصابنا مس من الجنون لمجرد اننا قضينا وقتنا مع الحاج اسماعيل . ولوانه عرف بأي طريقة رومانسية صورنا أسلوب عيش ابن عمه ، لأثار ذلك اشمئزازه تماما . فقد سألنا في اكثر من مناسبة :

ـ ماذا ترون فيه ؟

حاول جيرد ان يوضح له الانجذاب المتبادل بين الاجانب المثقفين المعتادين على مقاومة الفساد العام وبين مالك الاراضي القبلي ونزوعه الى الحياة التقليدية .

ـ انه يعود للقرن الخامس عشر تماما .

قال الشيخ عبد الله ذلك بازدراء . وقد وافقناه على ذلك ، ولكننا كنا مفتتنين بالديناصورات على نحو مغاير عن عبد الله .

ولد الشيخ عبد الله ايضا في القرن الخامس عشر ، ولكنه تعلم في القرن العشرين وكان يعيش مثل العديد من الايرانيين المتمدنين في قرن متأخر ، بينما حاول الشاه ، دون طائل أن يعطل سنوات الاهمال بانفاق فوائد البترول الضخمة على نحو هائل في فترة أقل من عقد واحد . كان الشيخ عبد الله قد رأى وقرأ ، وتعلم اشياء لايقوى الحاج اسماعيل على تصورها ، ولايرغب في تصورها ، ولكن الحاج اسماعيل كان كلا متكاملا منسجما ، بينما كان الشيخ عبد الله ـ وهو نجل شيخ صوفي يعود لأزمنة عتيقة ـ كتلة من التناقضات .

كنت سأدفع عمري من أجل القاء نظرة على قرية عائشة وعبد الله ، خوشخان ، ولكنني في نفس الوقت خشيت من رحيل عائشة الى المدينة ، لأن ذلك سينبئ بنهاية تقربها مني والافادة من المحادثة . هذه المحادثة التي اصبحت لدي رغبة ملحة ، عندما اخذ الموقف في الكلية يتطور الى حالة أسوأ تدريجيا . اتضح الفساد المستفحل في التعليم العالي الايراني اكثر فأكثر ، عندما انقضت السنة الدراسية الاكاديمية . حدثت اضرابات ومقاطعات خفيفة لبعض المدرسين في نصف السنة الدراسية الربيعية بعد نوروز . تضاعفت هذه الاضرابات تدريجيا الى اضراب ضخم تصادف مع الاعلان المتضمن ان جميع الطلاب الذين يرغبون في اتخاذ موقف جيد من الحكومة ، مطلوب منهم أن ينضموا الى حزب الشاه الجديد ، " رستاخيز " والذي يعني " النهضة " . كان الشاه يأمل النهوض ببلده ، باجبار اكبر عدد من الناس على المضي في الانغماس في بعث الشوفينية والخضوع له . وبالطبع فان الطلاب لم يجرؤوا على شجب رستاخيز علنيا لأن ذلك سيشكل خطرا عظيما عليهم وقد طالبوا باقالة العميد والعديد من المدرسين غير الشعبيين ، وكذلك تأجيل او بالاحرى التخلي عن جميع امتحانات السنة . وعندما بدأ الاضراب جديا ، تخلى جميع الطلاب عن الدروس ومضى معظمهم ببساطة في عطلة مديدة ، مبتهجين للراحة التي نالوها بعيدا عن ازعاجات الدراسة . وقد شارك في الاضراب

الفعلي ، عدد ضئيل من الطلاب وذلك بأن مكثوا في حرم الجامعة وجلسوا بسلام على الارض وهم يرددون الاناشيد ، بينما كان الجنود ببنادقهم الرشاشة يراقبونهم من على بعد ياردات منهم. لقد ترك الطلاب ، هؤلاء القلة الشجعان ، كي يقرروا مصيرهم ويتجشموا عناء النتائج .

قدمت الى عملي في الكلية ، الموقع التعليمي الاول بالنسبة لي ،وأنا مفعمة بالمثاليات . في البداية قضيت ساعات في اعداد وتنظيم كل صف وكنت اقلق باستمرار لكيفية خلق دافع نحو الدراسة لدى طلابي المتململين . وقد ادركت تدريجيا أن ذلك مجرد وهم . لم يكن أحد يهتم بالتعليم بدا ، لا الطلاب ولاالمدرسون ولا الهيئة الادارية . وقد شعرت بالمرارة على الرغم من تبين ان الفساد قد بلغ النظام كله ، وبلوغ طالب اوطالبين من أصل مئات عديدة من الطلاب لم يكن كافيا لي . بدأ السؤال يلح علينا اكثر فأكثر عما نفعله في ايران ؟ لا أعرف لماذا اخترت ان ابوح بشكواي الى عائشة . فهي لم تذهب الى كلية على الاطلاق . ولا حتى الى مدرسة ثانوية . ولكن كانت تتمتع بالاولويات على نحو مغاير عن اناس متعلمين آخرين . بدا انها تتعاطف مع خيبة رجائي وغضبي . لم تكن التعابير عن المشاعر تبدو غريبة لعائشة بنفس الطريقة التي كانت تبدو فيها للعديد من الايرانيين . كنا أنا وعائشة قد تجاوزنا بسرعة مرحلة الشكليات والرسميات التي ستبقى علاقاتي في ايران محصورة ضمنها الى الابد .

لم اختر أن اتحدث مع عائشة لأنها كانت الوحيدة التي تهتم أو تعرف شيئا عن الموقف في الكلية . فالكلية كلها كانت تضج بالاخبار عن الاضراب . وفجأة وعلى نحو لم اعهده بها ، بدأت شهرزاد غير المهتمة والمفتقرة الى الاخبار تستوقفني وتسألني عن تطورات الموقف كل يوم . سألتني وهي مقطوعة الانفاس :

ا صحيح ان الجيش دخل الحرم الجامعي البارحة وضرب
... ... !

... بالنسبة لشهرزاد والايرانيين
الآخرين ... الوسطى من الذين يقدمون ولاء كلاميا كاذبا
للشاه شيئا ... وممتعا . اصبح اضراب الطلاب حدث الساعة
... المدينة تقريبا ... كانوا ... الى وسائله
... كل ... معي ... كانت
... روشني . وصارت فكرة معارضة الطلاب
للشاه ... للساية . فحتى الناس الذين حاولوا ان يظهروا الولاء
للشاه بادانه الطلاب ، اظهروا تكافوء الضدين في انفسهم بمناقشات
... عن الاضراب . لم يكن يهتم الاكراد بها كثيرا ،
فليست لهم صلة بهذه الكليات . اما عائشة فكانت تهتم بما
اقوله لها عن الكلية لأنها كانت تهتم بي ليس لرغبتها في
... على آخر الاشاعات ومايقال عن حفلة الكوكتيل الثالثة
التي اقامتها .

... ما يتعلق الامر بي فقد اسفر الاضراب عن نتيجة
ثانوية ... علي ألا اذهب الى الكلية ، فالصفوف لم تكن
... وبالتالي لم نكن ندعى الى الجلسات ذات المستوى الرفيع في
... التي كانت تدرس كيفية اجبار الطلاب للعودة الى التزاماتهم.
... عائشة قائلة :
— ... ان تأتي الى القرية . سنذهب الى هناك حالما
يذوب ثلج الجبال .

... رأسي على نحو مهذب وانا افكر بالمدى الذي لا
... الى قريتها . فقد كنت اريدها ان تبقى
... مدينتنا . حيث يمكنني أن آتي اليها واراها
باستمرار أقوم بزيارات قصيرة لها لأتحدث عن امور تهمني
فهناك القليل من الناس العزيزين علي في ايران وفي العالم
من الذين يمكنني ان اتحدث معهم وان يشاطروني مشاعري .

[illegible] با [illegible]

[illegible] حيث

[illegible] كان تدعو

اللاجئين [illegible] وزوجه عادوا

الى [illegible] ولكن حضور [illegible] في [illegible]

[illegible] لا [illegible] معسكر [illegible]

[illegible]

السابقة لمدرسة [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] اهانة

[illegible]

[illegible] البه [illegible]

[illegible] مر بل [illegible]

[illegible] يوم رحيل عائشة الكئيب ، قمت في [illegible] بزيارة قصيرة لمنزلها ، فوجدت عائشة [illegible] نحو [illegible] الغم في احدى كراس [illegible] الموضوعة [illegible] الطابق السفلي . كان المنزل يضج بالاثاث المتبعثر في انحائه ، [illegible] المراحل الاخيرة من الاستعداد للانتقال الى خارج الباب الامامي [illegible] عائشة [illegible] معظم مقتنياتهم من المدينة الى منزلهم [illegible] في القرية . اصغت عائشة البغظة [illegible] التي جلبتها من الكلية بعدم انتباه كلي . لدى [illegible] وهي تحاول التغلب على المصاعب المتكدسة لعشر سنوات في المدينة ، ادركت ان حياة الترحل لاتسري في دمها حتى لو أن اجدادها كانوا سكان خيم ، يتتبعون الفصول مع قطعانهم وسوائمهم . كانت عائشة قلقة مثلي تماما . وبما انها

اكدت انه لا سبيل الى مساعدتها ، فقد غادرتها متسائلة فيما اذا بقي لي احد في ريزاي بالاضافة الى جيرد يمكنني ان اتحدث معه بحرية .

بما اننا الآن قدَ تفرغنا من واجبات التدريس ، فقد ازدادت لهفتي للذهاب الى المزيد من القرى ، ولكني كالعادة انتظرت دعوات محددة لذلك . كان الحاج اسماعيل وعائشة قد طلبا مني الذهاب اليهما متى شئت ، ولكني لم آكن اشعر بعد بالراحة الكافية للقيام بذلك . واخيرا كوفىء صبري بوصول صاحبة عائشة ، القصيرة الممتلئة الجسم الى باب منزلي في احد الايام الربيعية الدافئة مع مرجل كبير من " اليوغورت " اللبن ، بعثته عائشة من القرية . وبرفقة هذا اللبن كانت ثمة دعوة تقول " تعالي " . اعطتنا المرأة القصيرة المكتنزة التعليمات للوصول الى خوشخان.كانت توقعاتي عن خوشخان ـ القرية التي استرجعها والد الشيخ ـ وذلك بأن اشتراها من حكومة الشاه ـ تعتمد على زيارات سابقة قمت بها الى ثلاث قرى وهي قرية مانوا ، قرية شيخ زادة ودستان . طبعا حصلت مناقشة حامية في دستان عن اي القريتين أفضل ، دستان ام خوشخان . اتخذت عائشة واخيها موقف الدفاع عن خوشخان واعتبراها هي الافضل ، بينما كان الآخرون جميعا يوءيدون دستان ولكن سوسن خانم شرحت باسهاب ان خوشخان هي اكثر جمالا وهذا جلي للكل ، لأن الماء يتوفر فيها آكثر . ان اروع الالوان في العالم بالنسبة للاكراد هي " الكسكوشين " خضرة الربيع الضاربة الى الزرقة ، ومصدرها الوحيد هو الماء .

المنطقة التي تقع فيها خوشخان هي الجزء الاكثر تروية في كردستان التي رأيناها خلال اقامتنا . فالنهر المنحدر من جبال العراق يقطع ممرا ضيقا عبر الجبال ويسقي بذلك السهل برمته ، حتى انه يمكّن الشيخ عبد الله من زراعة بعض الحقول من الارز ذي الحبوب الصغيرة . ولكن ليس فقط وفرة الماء هي التي تلفت النظر في خوشخان . فالماء يتوفر في قرى اخرى أيضا ،

فلايوجد في أي مكان آخر من كردستان ايران مايشبه منزل الشيخ .

شاهدنا من على بعد بناء ضخما من القرميد الاحمر قابع في قمة الهضبة المشرفة على النهر ، بينما كنا نجهد بسيارتنا عبر وحل السهل . وقد ظننت انه يخص الحكومة . ربما هو احد مخافر الدرك او احد المعسكرات الحكومية الصيفية المنشآة لطلاب الثانوية والجامعة لغرض الحفاظ على الهدوء ، عندما تغلق المدارس . و لكننا حالما دنونا اكثر فأكثر استغربنا لعدم روءيتنا أي بناء ذا حالة متوسطة بين البناء الضخم ذي المظهر الرسمي وبين الكوخ الطيني ، عندما مررنا بمحاذاة قرية صغيرة مغبرة . تساءلت اين يمكن أن يكون منزل عبد الله ؟ . انه بالتأكيد لايعيش مثل قروي عادي وعندما توقفنا لنسأل راعيا واقفا قرب الطريق اشار الى البناء ذي القرميد الاحمر واتضح انه ، منزل عبد الله .

لقد وصلت الى خوشخان حقا ،وفي ذهني توقعات مسبقة خاطئة ، كانت واضحة من الطريقة التي نظر فيها عبد الله الى ملابسي عندما خرجت من السيارة . سألني وقد علت وجهه ابتسامة خفيفة :

ـ ماذا تفعلين بهذا اللباس ؟

نظرت الى فستاني المطرز الذهبي والابيض الذي يغطي " الكراس " المصنوع من قماش الفوال الاحمر الفاتح والقرمزي وشعرت فجأة بثقة عالية بالنفس وبشيء مثير للضحك . اعتقدت أنني سأشعر براحة اكثر بارتدائي للملابس الكردية في القرية بعد ان قضيت نهاية الاسبوع في دستان . فقد قضيت معظم وقتي في دستان وانا جالسة على الارض في حجرة الحريم حيث كانت الثنايا الكثيرة للكراس الكردي الفضفاض تجعل جلوسي وفي حالات مختلفة اكثر راحة بكثير مما لو كنت مرتدية الجينز الضيق . ولكن الامر يختلف هنا عن الروتين اليومي في مجالس حريم الحاج اسماعيل . فمن الاشياء المميزة انه لم يكن يوجد حريم هنا .

نزلت عائشة على الدرجات المؤدية الى خارج حجرة
مارة بجميع اصص مزروعاتها ، المتكومة في التساء حول الجدار
المرصوفة . رحبت بنا ومن ثم ابتعدت قائلة انها ستب
بعمل ما . حدقت فيها بفزع . فقد حثت كل هذه المساعدة
ريزاي والفكرة الوحيدة المسيطرة علي هي التحدث معها ولكنهـا
بدت خاوية الوفاض . بعدئذ قادنا الشيخ عبد* الله الى شرفته
المطلة على نهر وممر ضيق . رأينا حديقة ذات مساحة منبسطة
عند جانب المنحدر وكان قد زرع حول جميع انحاء المنزل الذي
لم يكمل بناؤه بعد ، نبات من فصيلة الباذنجان وورد ونبات
القس ونبات السمكة ذي الزهر الابيض والاحمر في مساكب محفورة
حديثا . بدا حقل الشيخ كأنه قطعة من سويسرا ، بعد فوضى
النفاية المنتشرة في افنية الحاج اسماعيل . وجدنا كوخ ارانب
مغمورا في احد جوانب الطريق الداشري الخاص الممتد الى البناء ،
وفي بداية هذا الطريق شاهدنا بستان لوز وتفاح وبستان كرم،
وخلية نحل مصنعة . وضع جهاز غير مستعمل لتفقيس البيض على
الشرفة قرب حجرة النوم . وفي الشرفة المطلة على الممر الضيق
سندت مغسلة بورسلين غير مركبة بالقرب من الحائط . لدى
الانتهاء من تجهيز كل شيء ، سيحتوي منزل الشيخ عبد الله على
تواليتين داخليين مثبت كلاهما بالبورسلين . كان ثمة مطبخ
داخل المنزل ، وكان دون نوافذ ومعتم وذا ارضية مثل مطابخ
القرى الاخرى . ولكنه لم يكن يحتوي على فجوة مفتوحة لنار
الفرن والمدفأة . لقد كان لديهم فرن غاز للطبخ وفوقه قدر
ضغط جديد تماما ، الماني الصنع والشيء الاروع من كل هذا ...
حجرة الطعام الرسمية في الطابق الثاني ، المكملة بالبوفيه
والطاولة والكراسي . كانت هذه هي القرية الوحيدة التي ...
فيها على الطاولة لتناول وجبة الطعام .

انتابني الاضطراب للطريقة التي اختفت فيها عائشة .
على الرغم من انني كنت قد انبهرت بالترف المادي وبنظافة
منزلها . لم استطع فهم سبب اجهاد عائشة نفسها في العمل

[illegible] . حاولت

[illegible] سها في

[illegible] ـــزة

[illegible] وعندما

[illegible] الانتظــــار

[illegible] أن

[illegible] دسي علي [illegible] مبتعدة .

وفي وقت لاحق ، عندما عرفت ان عائشة قد غادرت المطبخ وذهبت لتتفقد حقل باذنجان ، عزمت على الذهاب اليها . ركض خلفي هذه المرة الخادم محمد ذو العمامة المتدلية الحواف محاولا منعي من الذهاب ، ولكني واصلت المضي على الرغم من جهوده لايقافي . كنت قد مللت من الجلوس في الشرفة مع اثنين من الملالي يتجاهلاني عمدا ، بينما يلعب جيرد لعبة شطرنج خاسرة مع الشيخ . اردت أن اجد عائشة واتحدث معها . هذا ماكنت اتشوق اليه في خوشخان . ولم أكن اتوقع ان انفى الى شرفة الشيخ مع اثنين من الملالي الكارهين للنساء . لم تبد عائشة سعيدة برؤيتي ابدا . كانت واقفة وسط حقل مروي كبير ، بينما بدأت اشعر بالوهن حالا من وهج الشمس . انزلقت في احدى الحفر المروية الخفية تحت الخضار النامية فأصبحت أطراف فستاني الكردكا كلها موحلة . سألت عائشة محمد متجهمة واشارت الي :

ـ ماذا تفعل هنا ؟

ـ أنا آسف خانم . حاولت ان اوقفها .

بعد ذلك قادني الخادم امامه مثل طفلة مشاكسة وأنا افكر طوال الطريق بأمر عائشة . هل كانت تتجنبني ، أم انها ملزمة حقا بالعمل بمثل هذه المشقة ؟

تناول الجنسان عشاءهما منفصلين . جلس جيرد مع الشيخ بينما بقيت أنا مع عائشة اتناول من صينية وضعت فوق

بساط بجانب سريرها المركب المزدوج ، ذي الطراز الغربي . حالما كنا سنبدأ بحديث فعلي مع بعضنا ، ظهر الشيخ عند نافذة حجرة النوم معلنا ان الوقت قد حان ليأخذ كل منّا سنة من النوم .لم يبق لدينا أنا وجيرد الخيار ، فقد قادونا ببساطة الى حجرة الضيوف داخل الباب المؤدي الى شرفة الشيخ . ومن ثم تركنا لننام نوما خفيفا في ذلك الجو الحار والذباب يطن على الحاجز المنخلي للنافذة . بعد ان افقنا في عصر ذلك اليوم من النوم وبعد أن قدم لنا الشاي ، لم احاول ان اجد عائشة ولكني جلست بهدوء مع الرجال في اشرفة . عادت عائشة في المساء ، عند المغيب تقريبا الى المنزل ولاحظت الكلف على بشرتها الشاحبة . ابديت تعليقا عندما وضعت الخادمة اثنين من كؤوس الشاي بدلا من واحد ة ، على الرغم من أن عائشة قد شربت الشاي لتوها لتبقى متيقظة طوال اليوم ، لتقوم بأعمال المنزل الروتينية . سألتها عندما جلسنا لنحتسي الشاي :

– هل كنت تعملين عندما كنت عازبة في دستان ؟

فأجابتني وهي تضحك :

– آه لا ، ابدا .

تحدثت عائشة عن مدى استمتاعها بعمل المزرعة المتطلب جهدا كبيرا وعن مدى اهمية العمل بالنسبة لها. حيث قالت :

– علي ان اعمل . فأنا بحاجة الى النقود .

تعجبت لذلك ، فقد خيل الي انه بامكانها ان تجعل النهايات تلتقي دون ان ترفع بنانها . لم يبد على زوجها انه يبذل جهدا كبيرا في العمل ، ولكن ربما كانت عائشة تحتاج العمل لاسباب غير النقود . لم يكن بقربها اناث من مركزها الاجتماعي في خوشخان لتقيم علاقات اجتماعية معهن ولا أطفال لتعتني بهم . وقد لاحظت انها كانت قلقة على طفل ولد حديثا لزوجة احد سائقي الشيخ ، ولكن ذلك هو مجرد تسلية ولايمكن أن يمثل حياة عائلية ، عملية خاصة بها . اقترحت مرة على عائشة انه يمكنها هي والشيخ ان يتبنيا طفلا ، فنظرت الي

كما لو أنها لاتفهم ما اتحدث عنه .

ـ أليس هناك اطفال يتامى ؟

سألتها وقد علمت أن الحكومة قد احدثت دار للايتام في مركز مدينة ريزاي .

ـ ماذا عن الحرب في العراق ؟ من المؤكد انه يوجد أطفال دون والدين او عائلة .

ـ لا ..

أجابت عائشة بذلك وبدت وكأنها صدمت لفكرة امكانية وجود أطفال في كردستان دون أن يعتني بهم احد .

قمت أنا وعائشة في ذلك المساء في خوشخان بجولة بين الازهار البرية قرب الجبال . ومن ثم عدنا الى حجرة نومها المضاءة بالكهرباء . سطعت الاضواء وبدأ التلفزيون بعرض جماعات من سلاح الفرسان التابعة لأوليفر كرومويل ، منقولة بالفارسية . وحالما انتهى العرض ، أعلن عن موعد النوم وأخذنا أنا وجيرد ثانية الى حجرة الضيوف . وكان قد تمركز رجل مع بندقيته في موقع قرب بابنا لأن عددا من الجرائم كانت قد وقعت حديثا في الجوار . حتى لو كنا ضيوف في قصر مالك مزرعة فخمة ، فهذه كانت لاتزال امتدادا لكردستان .

ان وقوع خوشخان ضمن حدود كردستان ، هو أقصى ماكان يحلم به الشيخ عبد الله . وفي كل مرة نأتي فيها الى منزله كنا نجد تجهيزات جديدة ووسائل ترفيهية لم يسمع بها في قرية اخرى . ومع ذلك فقد ظلت القرية هي نفسها . لقد كانت أصغر من دستان بكثير وحتى انها بدت اكثر فقرا ، ربما يعزى ذلك الى التباين الواضح بين منزل الشيخ وبقية المنازل . فهي لم تكن تشتمل على مزارعين ميسورين آخرين على نحو مختلف عن قرية الحاج اسماعيل فلا أحد غير الشيخ عبد الله يقتني سيارة أوجرارا أو حتى مسكنا حديثا . شعرت فيها بعدائية القرويين لي أكثر ولم أر هنا أبدا احدا من مقبلي الايادي مثلما كان شائعا في دستان. أشار الشيخ عبد الله الى انه لايمارس امتيازه بمطالبة القرويين

... ...ون ...
... هذا ...
... الشيخ ...
...شع ... ...دروييون على بناء منزله وزرع حقوله وقد ... خوشخ... ...ون حياتهم في ذل وهوان . ولم يقدر اطفالهم على الذهاب الى المدرسة ولم تكن فرق تعليم القـــــراءة والكتابة ... .واقرب نقطة للعناية الطبية كانت تقع على بعد أميال . اظهرت سائشة بعض الاهتمام بمعاناة عوائـــل مختلفة ولكن ذلك ، كان اهتمام سيدة توزع الصدقة على الذين هـم دونها . غالبا ماكان الشيخ عبد الله يشير باحتقار الى الحـــاج اسماعيل واسلوبه في ادارة قريته . ولكني تساءلت عما اذا كان أهل خوشخان في وضع أفضل في ظل ثقافة الشيخ عبد الله الاشتراكية. ان هذه القرية بعيدة حتى عن الديمقراطية ، هذا اذا تجـــاوزنا ذكر الاشتراكية .

ان المسافة بين خوشخان ودستان تبلغ ساعتين تقريبـــــا بالسيارة وقد رفض عبد الله في المرات التي رغبنا فيها ان نذهـب مباشرة من خوشخان الى دستان . ورفض عبد الله بصراحة وهو فـــي طريقه الى ريزاي أن يسير الى المدينة عن طريق قرية الحـــاج اسماعيل وبذلك، تحتم علينا السيرلما يقرب ثلاثة ارباع المسافـــة ، لنتجنب عبور دستان،حيث قال :

– اذا كنتما تصران على الذهاب الى القرية ، اذا سأنزلكما في ريزاي وبامكانكما ان تستقلا الحافلة اليها .

لم ارتكب خطأ ارتداء البسة كردية ثانية في قريـــة عبد الله وكذلك لم احاول أن التقط صورة لأحد أو لأي شيء داخـل القرية بعد زيارتي الاولى . فقد كنت قد آثرت فضولا عدائيـــا كبيرا بالتقاط صورا للقالـق قد عششت فوق أسطح بعض المنـــازل القشية واسقف أكواخ قد اقيمت لحفظ روث الحيوانات المستخدم للوقود.

في المرة الاخيرة التي ذهبنا فيها الى خوشخان ، أرانــــا الشيخ عبد الله صورا خاصة بأسرته كان قد التقطها خلال حفلـــة

زفـ[illegible] [illegible]ئشة . [illegible] [illegible]ء الحظ لـم تكن بينـها صور للعروس . ولأن ال[illegible] [illegible] [illegible]له يدرك [illegible] [illegible]أيد كمـا ينبغي ، فقد كـان خجلا جدا مـن [illegible] [illegible] [illegible]روسه بنفسه [illegible]خا[illegible] الخـادم الذي وثق بـه ، في اعطائـه الكـاميرا ، قد اتلف ذلك الجزء من الفيلم . ولـكن ومع ذلك فقـد رأيت المئـات من الضيوف المجتمعين في قرية والد الشيخ، والآلاف مـن ارغفة الخبز المفروشة على الارض لتبرد ، والكثير من الخيـام المنصوبة للضيوف . وجدنـا صورة للحاج اسماعيل وهو شاب وقد ابتسم للكاميرا وصورا لقرية دستان التي احضرت منها العروس . كـان الشيخ عبد الله قد اعطى طبيبا ، صديقا له من منطقة تتحدث بالفارسية ألبسة كردية ايرانية ليرتديها وفرسا ليركبها أمام الكاميـرا . ولدت الصور لدي انطباعا بأن الشيخ عبد الله هو مجرد متأمـل اوساخ في حفلة زفافه بالذات .

على كل حال ، لم يكن مفهومي عن الشيخ عبد الله كرجل مثقف قـادر على النظر الى ثقـافته الخاصة بنظرات غير متحيزة وكشخص محايد لم يكن دائما في مكانه الحقيقي . في احدى المرات بينما كانـت عائشة وعبد الـلـه يتفحصان سلسلة من الصور كنت قد التقطها فـي خوشخان ،سمعتهما يبديان ملاحظة لبعضهما وبنبرة ضاحكة ، كيـف اني كنت قد التقطت صورا لخدمهم فعلا . كان لدى الشيخ العديد مـن الكاميرات ولكنه لم يستخدمها ابدا في التقاط صور لخدمه . كـان الشيخ هو الوحيد الذي قد سمع عن الحركة النسائية الداعية الـى المساواة ، في الغرب ، من بين جميع الاكراد الذين التقيت بهم .كان يصغي لاذاعة الـ ب . ب . سي بانتظام . وعندما حضر هو وعائشـة لتناول الغذاء في منزلنا شكرني مرات كثيرة على الوجبة ، لذلك اوحيت اليه متعمدة الى أن جيرد كان هو الطاهي . عند ذكر هـذه الملاحظة قهقه الشيخ بعصبية وتمتم بشيء عن " الحركة النسائية " في الغرب . لم اتفوه بشيء ، ولكني تعجبت وتساءلت فيما اذا كانـت بهذا الشكل في الاتحاد السوفياتي ، وفيما اذا كانت نوعية النساء هناك تزعجه . ماذا ستقول زوجته الاولى عن عائشة التي لم تتجرأ

على تناول الطعام مع الرجال في نفس الحجرة ؟

كيف يمكن للشيخ عبد الله ان يدمج بين مراحل حياته غير المتصلة ؟ من السهل ان تشتري طاولة حجرة الطعام ، ولكن ليس بوسعك ان تجعل ضيوفك يشعرون بالراحة بنفس السهولة بجلوسهم على كراسي ذات خلفية مستقيمة . انه لشيء مألوف جدا في كردستان ان تتزوج ابنة عمك التي تصغرك بثلاثين سنة ، ولكن ليس من الطبيعي أبدا ان تتوقع منها ان تكون رفيقة لفكرك في سنك المتقدم هذا .

اعتقدت لفترة طويلة ان عائشة وعبد الله يعيشان متفاهمين الى حد مذهل . وعرفت من تعليقات عائشة عن نشأتها ، انها كانت تشعر بالمرارة تجاه والدها وانها تشعر بتكافوء الضدين تجاه والدتها وانها سعيدة بفرارها من دستان . ولكن ثمة جانب آخر يتعلق بها وقد افشته بعد فترة قصيرة من تعرفنا الى بعضنا جيدا وهو اوجاع رأس وأرق كانت تعاني منهما . وتشوق بدائي للاطفال والرومانسية . من المدهش ان تسمع امنيات من هذا القبيل اوحتى تلميحا عنها من امرأة كردية . ان المصير في ايران وفي الاسلام هو" سرنفشت " أي مايقدر على الانسان منذ اليوم الاول من ولادته . لقد كان قدر عائشة في السماء قبل ان تولد . ومع ذلك لابد انه قد ادهشها ان تجد نفسها في انكلترة في سن الثامنة عشرة وان تستضيف مواكب متدفقة من اللاجئين العراقيين في سن الثامنة والعشرين .

اخبرتني عائشة والشيخ عبد الله نفسه ، بأنه اراد وبرغبة بالغة ان يرحل ثانية . لقد مضت عشر سنوات على رحلته الى اوربا مع عائشة بعد زفافهما . ولكن الحكومة الايرانية هددت بمصادرة ارضه وكل املاكه التي يتركها وراءه حالما يعبر الحدود .تساءلت عن ماهية شعور عائشة بالسفر معه . فهي لم تكن بعد قد تعلمت الانكليزية او أي لغة اوربية اخرى .

كانت عائشة تجعلني اشعر بالرعب الذي يعاني منه الاكراد

اكثر من اي شخص آخر . عندما عدنا الى ايران قبيل انهيار سلطة الشاه ، حدثتني عما حدث في الربيع الذي مضى ، عندما قامت الحكومة العراقية باحراق مجمل القرى الكردية بانتظام في نطاق خمسة وعشرين كيلومترا من الحدود العراقية ، ولم تكن هذه الحدود بعيدة عن خوشخان وانه قد فر مئات من الاكراد العراقيين الى جبل قريب داخل الحدود الايرانية . لقد ساعدالجيش الايراني العراقيين العرب هذه المرة ووقف ضد الاكراد . وقد حاصر الايرانيون والعراقيون معا اللاجئين البائسين ، يقصفون هوءلاء الذين يرونهم ويحاولون عزل وتجويع البقية الباقية .

– يقولون ان بعض المهجرين اتوا الى منازل اناس من هذه الانحاء ، وانهم ملؤوا افواههم بالدقيق من شدة وطأة الجوع الذي كانوا يعانونه .

قالت عائشة ذلك وقد علا وجهها تعابير من الرعب . ونقل أن اكثر من خمسمائة شخص منهم لقوا حتفهم .

حلمت حلما غريبا بعائشة قبل سنتين من عودتي لروءيتها . فقدرأيتها تعذب وسمعت صرختها بالكردية " أنا خائفة " استيقظت من الحلم متأكدة من أن شيئا فظيعا قد حدث لصديقتي . اردت أن اهتف لها ولكني لم أفعل طبعا . فلا يوجد هواتف في القرية ، وبالاضافة الى ذلك ، فحتى لو اعتقلت وسجنت فليس بمقدوري أن أفعل لها شيئا . لم اذكر حلمي لعائشة بعد أن رأيتها ثانية بعد مرور سنتين على ذلك . لقد بدت في حالة جيدة ، حتى ولو انها كبرت قليلا واصبحت اكثر تشككا وسخرية . ماكان لأحد أن يعذب هذه السيدة الكردية المرتدية على نحو فاخر وزوجة الشيخ عبد الله الشهير . ومع ذلك فقد احسست في لاوعيي بقابلية سقوط عائشة بيد الاعداء . فليس ثمة رادع يمنع حكومة الشاه عن تعذيب امرأة مثلها . ولاشيء يوقف الاتراك اذا عزموا على المضي وراءها . كان سينتج عن ذلك عداء دموي مع عائلتها ، ولكن ماذا كانوا يشكلون بالمقارنة مع الجيش الايراني ؟

كان هذا هو التقلقل الفظيع الذي يبطن الحياة برمتها في ايران ، وعلى وجه الخصوص ، حياة الاكراد . لقد كانوا غرباء وأعداء في أرضهم الام . وكانت الحكومة تسدد النار الى الاشخاص الذين تعتقد انهم قواد مستقلون ، فترديهم واحدا تلوا الآخر . حدثتني عائشة عن عم لها كان قد اعتقل لمدة عشرين سنة متهما بكتابة رسالة الى شخص ما في روسيا . وعرفتني خديجة الى مالك حمام المدينة الذي يذهب اليه جميع الاكراد وذكرت لي قائلة :

— انه رجل طيب يامرغريت . هل تعرفين انه قد خرج لتوه من السجن ؟ لقد اعدموا والده .

كان من الصعب ان يكون هوءلاء الناس ثوريين طوال الوقت ولكن يفترض أن جميع الاكراد في ايران وربما لسبب وجيه ، هم مناهضون للحكومة الطهرانية . لم تكن الحكومة الايرانية ترغب فحسب ، بل كانت تتشوق الى ارسال طائرات مقاتلة لتقصف القرويين العراقيين العزل . ولو حدث وسقطت الذخائر على القرويين الايرانيين أيضا فهذا أفضل بكثير . فكلهم كانوا أكراد .

الفصل السادس عشر

لم يكن احد يخيف دارا احمدي ، لا ابن اخته الاكبر ولاعميد الكلية واقلهم انا . وبقدر ما استطعت فهمه ، لم يكن ثمة سبب واضح يدعولاظهار صبي كردي فقير مولود في القرية كل هذا القدر من التباهي وخاصة في ايران ، حيث الهرم الاجتماعي والشكليات والرسميات تجعل من التملق تقليدا اجتماعيا . في احد الاحاديث المتبادلة بين جيرد وعامل فقير في وزارة التعليم الايرانية في طهران ظهرت طبيعة التملق المطلقة ، على حقيقتها . فقد سأل جيرد ذلك الرجل الضخم الجثة المرتدي على نحو يبدو فيه الفقر واضحا :

– كيف حالك ؟

توقع جيرد ان يجيبه هذا بـ " شكرا" وهذا هو الجواب الفارسي المألوف . ولكن بدلا من ذلك اجابه العامل " أنا غير رفيع المنزلة ".

وقد اكد لنا اصدقاؤنا الايرانيون مؤخرا انه مناسب تماما لهذا الرجل ان يوحي ان مكانته الاجتماعية بالمقارنة مع جيرد لاتؤهله لأن يكون رجلا ذا منزلة رفيعة .

كانت كل الدلائل تشير الىعلاقة اجتماعية غير متكافئة بيني وبين السيد احمدي . فأنا اعتبر امرأة اجنبية مثقفة وصاحبة مال وموقع في الجامعة . وكان هو لايزال طالبا قد نال منحة ليدرس في مدرسةثانوية محلية . لقد قام في حياته كلها بزيارة واحدة الى طهران والى تبريز ربما بقدر نصف دزينة من المرات . كان يعرف القليل ومع ذلك فقد كان يتصرف كما لو أنه يعرف كل شيء. كانت هيئته وجرأته وتعابيره تنم عن ثقةبالنفس

غير متناسبة مع سنّه . كان يتصرف دائما كما لو أنه مساو لــي وان لم يكن ارفع مقاما في بلد سادت فيه فكرة المنزلة الرفيعة .

عند نهاية السنة الدراسية . شعرت بالتعب قليلا من السيــد احمدي . فقد اثبطت كبرياوءه المصطنعة همتي ،لأني لم استطــع التغلب عليها ابدا . وبدأ يخيّل اليّ أنه يحتقرني ففي كل مــرة انوه فيها ويغموض للقيام بزيارة قريته كان يبدي حرصه الشديد وشعرت انه سيحاول جاهدا ألا أتسلل الى ذلك المجال من حياتــه وبالطريقة التي عرفت فيها منزل اخته على الرغم من ان معرفتــي بأن زيارة منزل اخته يمكن ان تكون أسوأ من عدم زيارته علــى الاطلاق ، فقد واصلت الحاحي كي يوجه اليّ الدعوة . وحالما تحسنت لغتي اكثر وازدادت ساعات تواجدي مع خديجة وعائشة وبقية النساء شرعت بالتفكير بعدم حاجتي للسيد احمدي . لقد كان يشكل تطفــلا على حياتــي لماذا يحيط نفسه بهذه السرية والغموض ؟ هــــل هو جاسوس ؟ صرت اشكك أكثــر بكل سلوك ينحرف عمــا هو متوقـــع كأي شخص آخر فــي ايران . ولكني عندمــا طلبت من السيد احمــدي ان ينقــل شريطا كنت قد سجلتــه ، الى كتابة بنظام الاصـــوات الكلامية الكردية انجز هذه المهمـــة الصعبة بدقة وبسرعة بالغة ادركت فيها انــي لن استطيـــع التخلي عنه مهمــا سبب لي مــــن مضايقــات . واستمر في المجئ الى منزلي يوميا .

حضرت ذات يوم نانا ـ تلك المرأة التــي كانت تقوم بتنظيف منزلنـــا مرة في الاسبوع ـ مع ابنتهــا ، بينما كنــت انـــا والسيــد احمدي نسجــل شريطـــا معــا . عنــدمــا جلسـت محاولـــة ان اركز انتباهي على نظام الاصوات الكردية ، لاحظت ان الفتـــاة ذات الثماني عشرة سنة تتفحص كل حاجاتي ،وتضحك على نحو مكتوم من صوري . والأسوأ من كل هذا انها كانت تفتش في الصنـــــدوق الخشبي الطويل الذي كنت قد احتفظت فيه بـ ١٥٠٠ ورقة حيـــث كانت عبارة عن مسوّدة لقاموس كردي ـ انكلــيزي . كان هــــذا الصندوق يجسد ساعات وساعات من العمل . وعندما واصلت العبث

به ازداد اندهاشي اكثر ، والشيء الذي كان من الممكن ان يشكل ازعاجا ضئيلا غير ذي اهمية تنامى وبلغ حدا غير مناسب . لم استطع ان اتواصل مع نانا بأي لغة ،لذلك فقد اتجهت الى السيد احمدي طالبة منه المساعدة . هل احضار نانا ابنتها معها دون استئذاني هو تصرف لائق ؟ كان موقف مساعدي ملتبسا وغير محدد. كيف له ان يعرف ؟ طلبت منه ان ينقل انزعاجي بالتركية الآزرية ولكن الابنة استمرت في الركض في الانحاء والعبث بحاجاتي بعدما اوضحت نانا استجابة لما نقله السيد احمدي أن زوج ابنتها قد سمح لزوجته بالخروج هذه المرة فقط كي ترّفه عن نفسها قليلا. لقد كانت تمتع نفسها حقا بالدوران في شقتي وحجابها متدل حول الجزء الاعلى من سترتها المقورة الياقة . هل كان علي ان امحق فرحة هذه الفتاة الفقيرة الوحيدة ،بعيدا عن زوجها وسيدها في رحلتها هذه ؟ .

تحتم علي لأشهر عديدة ان اتحمل سلوكا فظا كانت توجهه الي في الشارع ، نساء ايرانيات مغطيات . وهاهي ذي واحدة منهن موجودة في منزلي نفسه ، تبدي التعليقات على صوري بصوت عال وتدعو والدتها لتأتي وتنظر الى الصورة التي اعتبرتها ذات اهمية خاصة ، ومن ثم تتفحص كل ماهو من صنعي من بعض اثاث حجرة الجلوس حتى البستي الداخلية . ولكنني مع ذلك ضبطت نفسي فأنا لم امض كل هذه المدة في ايران عبثا . حاولت ثانية ان احصل على نصيحة السيد احمدي لأسلك السبيل المناسب . هل من الصواب ان اطلب من نانا ان تأمر ابنتها بالمغادرة ؟ هز مساعدي كتفيه غير مبال . لماذا لم اتمكن من الحصول على المعلومات التي احتاجها لأتصرف بنجاح في هذا المجتمع ؟ لماذا طلبت منّا شهرزاد ان ندفع لسائق التاكسي في المطار مايريد عندما حاول ان يغشنا ؟ ولو كانت هي صاحبة الشأن لما فعلت ذلك . لماذا يتصرف السيد احمدي وكأنه امر طبيعي ان يقوم خادمك بتخريب منزلك امام عينيك ؟ .

اعلمت السيد احمدي ان يطلب من نانا بطريقة مهذبة قـــدر استطاعته بأن ترسل ابنتها . وفي غضون لحظة حضرت امامـــي الأم الشبيهة بالطير والابنة الضخمة الجثة ذات الشعر الدهني وهمـــا ترمقاني بتعابير يلوح فيها الاتهام وتنظران اليّ شزرا وتحركـان رأسيهما يمنة ويسرة . ونقل السيد احمدي عن نانا قولها:

- تقول انه ليس ثمة مايدعو للقلق . وان ابنتها لن تسعـى وراء زوجك .

حدقت صوب السرير الخالي الذي كان جيرد قد تركه ، تـرددت للحظات غير مصدقة ما اسمع . هل ظنت ابنة نانا حقا اني اردتها ان تغادر البيت لأني كنت خائفة من امكانية اغوائها زوجـــي؟ طلبت منها ان تخرج . وكان ذلك كل ما استطيع قوله بالتركية .

لم تغفر لنا نانا ابدا ،وفي وقت لاحق اصغى الي السيـــــد احمدي بسلوكه السفينكسي المعتاد عندما ابديت قلقي حــــول احتمال تصرفي على نحو خاطئ . هل ثمة شيء في الكون يمكـن ان يجعله يتكلم معي كانسانة لها مشاعر واحاسيس يوما ما ؟ .

بعد عدة اسابيع قبلت دعوة كانت تتطلب مني ان اكون خـارج المدينة ، في موعد كنت قد حددته مع السيد احمدي . سرت مــع جيرد في تلك الليلة الى " كوجّاسنيّا" زقاق السنيين ، تذكـرت ان منزل اخته يقع في هذا الزقاق . عندما وصلنا الى هناك لـم يبد لي اي شيء مألوفا تحت التوهج الضبابي لضوء الشارع وعلـى الرغم من اني لم ارغب في الوقوف وحدي في هذا الشارع الغريـب فقد اتفقنا انا وجيرد انه من الأفضل ان يذهب هو وحده الـــى مقهى كانت قريبة منّا ليستفسر عن الطريق . لم أر خلال اقامتـي كلها في ايران امرأة تدخل مقهى ابدا .

انتظرت بقلق الى ان خرج جيرد وقد بدا عليه الاضطراب فأردت ان اعرف منه سبب ذلك فبادرته بالسؤال :

- هل سألتهم اي زقاق هذا ؟

ـ نعم ،وقالوا انهم عمال .
ـ ماذا ؟
ـ سألتهم هل هذا " كوجّا سنيّا " فأجابوني " نحن عمال "
ـ نحن عمال ؟ ! .

عندما وقفنا وسط الزقاق المعتم الظليل نفكر بهذه الاجابة بدأت اشعر كما لو اننا كنا مراقبين . وقبل ان يمضي الكثير من الوقت دنا رجل مني وسألني اذا كان باستطاعته مساعدتنا وحسب ارشاداته رجعنا الى سيارتنا وسرنا نحو الشارع الرئيسي المرصف قليلا ، ولكننا حالما عبرنا العديد من البنايات ، تأكدت انه يقودنا الى طريق خطأ على نحو مقصود . فقفلنا راجعين الى المقهى وتوقفنا في نفس الزقاق المسدود . بعدئذ ،سبقت جيرد عبر الزقاق الملتوي الموحل ومررنا بجدران فناء مصمتة ، الى ان وصلنا الى باب بدا لي مألوفا نوعا ما . قرعت جرس الباب فأجابني رجل نحيف فارع القامة مرتد سروالا كرديا فضفاضا وعلى عينيه نظارة . وسألت بالكردية :
ـ هل دارا احمدي هنا ؟
حدق الرجل وقد ارتسمت على وجهه تعابير تنم عن الاندهاش كما لو اني احد سكان المريخ واني اتكلم لغة غير مفهومة . كررت اسم السيد احمدي بكامله عدة مرات وكان الرجل يهز رأسه الى الاعلى نافيا ذلك :

ـ لا ،لا يوجد شخص بهذا الاسم هنا . ياله من اسم غريب ! .

عند ذلك استسلمت وشرعنا بالعودة . وحالما انعطفنا انا وجيرد بالسيارة ،اتى السيد احمدي راكضا مقطوع الانفاس .

ـ قال اخي ان اناسا قد حضروا لرؤيتي وفكرت انه من الممكن ان تكونا انتما .
فأجبت :
ـ اخوك ؟ هل كان ذاك اخاك ؟ قال انه لايعرف احدا باسم دارا احمدي .

- لم يستطع فهم ماكنتما تقولانه .

فقال جيرد :

لقد فهم تماما . فقد كررت مارغريت اسمك اربع او خمس مرات على الاقل .

فسأل مساعدي :

- ماذا تريدان ؟

لدى طرحه هذا السوءال كان علي بالفعل ان افكر لدقيقة. فقد بدت مهمتنا سخيفة وتافهة فجأة . هل حقا جئنا كل هذه المسافة ومررنا بكل هوءلاء الناس الذين - من الموءكد انهم فكروا في انفسهم ، ان اثنين من الاجانب مرتدين على نحو فخم لاعمل لهما في جوارهم - فقط لنجنب السيد احمدي عناء السير الى منزلنا؟ اخبرته بذلك فبدا دارا متحيرا . لقد لاحظ ودار بخلده هو ايضا اننا قد جئنا الى مكان لاننتمي اليه . وتبادلنا كلمات وداع باردة . بعد ذلك عرفت انه ليس لي الا ان اهتم باطروحتي فقط، وهذا افضل من محاولة فرض نفسي على حياة السيد احمدي.كنت قد بدأت أوءمن بوجود لهجات كردية مختلفة بقدر ما يوجد من اكراد. فهناك قبائل متمايزة ، ولها طرق مختلفة في الكلام . فالاكراد الذين قضوا فترة من الزمن في المدينة لايلفظون الكلمات بنفس طريقة الاكراد القاطنين في القرية . والرجال يتكلمون على نحو مختلف عن النساء . ومعظم هذه الاختلافات يصعب وصفها او فهمها لدقتها ، الا اني لم اقو على تجاهلها . كنت مدركة تماما اني لا أزال اجهل معرفة اي من الاكراد العاديين . فالحاج اسماعيل وعائشة وعبدالله وبقية عائلتهما كلهم ينتمون الى الطبقة الارستقراطية . لم اقم بزيارة حتى الى قرية واحدة لقضاء وقت مع اناس فقراء ليسوا قوادا قبليين ولامعلمي مدارس مثل السيد شيخ زادة . وعندما ابلغني السيد احمدي ان والدته لاتتحدث اي لغة سوى الكردية رغبت في لقائها وتسجيل اشرطة لها . كان جميع الاكراد الذين التقيت بهم يعرفون بعض الفارسية ، وبعض التركية ،ولكني كنت متأكدة من ان الغالبية العظمى من

النساء يستخدمن لغة واحدة . فهن لم يذهبن الى المدرسة ولم يمضين في اسفار او يطلبن الى الجيش .

عندما اخبرت السيد احمدي عن رغبتي في لقاء والدته فقط لأنها تتحدث الكردية ، اصغى الى كلامي ، ولكنه لم يجب عليه . وعندما اقترحت انه بامكاننا ان نسير جميعا الى قريته يوما ما قال بفظاظة :

– ولكن عند ذلك سيتحتم عليك ان تتناولي طعامك هناك .

تسآلت في نفسي هل المشكلة هي في عدم توفر الطعام الكافي لاستقبال الضيوف ؟ فعرضت عليه قائلة :

– يمكننا ان نحضر معنا طعامنا .

فأجاب متفكرا :

– ربما سيكون هذا افضل ،لأنه من المحتمل ألا تحبي ما سنأكله نحن هناك .

لم يغب عن بالي انه ليس لدى دارا اية فكرة عن سلوكنا لدى حلولنا ضيوفا على والدته . فهو لم يرني مع خديجة وصديقاتها ولم يكن يعرف شيئا عن رحلاتنا القصيرة الى دستان وخوشخان والشيء الذي كان يشغله من غير ريب هو اننا سنتصرف على نحو غير لبق ، مثلما كان مع ابنة نانا او لدى محاولتنا ايجاد منزله . غير ان ماخيّل الي هو ان رفضه لنا ناشيء عن خجله من فقره ،ولكني بعدئذ ادركت انه كان يخشى ان تخجله تصرفاتنا نحن الاجانب – امام عائلته وجيرانه . من يدري اي مشهد مربك يمكن ان نؤديه امامهم لو قدمنا الى قريته ؟ .

واخيرا سنحت لنا فرصة . لقد تراكمت لدي اعمال كثيرة للسيد احمدي ، وبينما كانت الاسابيع تمضي لم اكن اعرف كم بقي لي من الوقت في ايران . لذلك فقد قلقت واستعجلته لينهي كل شيء بأقصى سرعة ممكنة . حاول السيد احمدي هو ايضا ان يزيد في اشغال وقته ،لأنه بذلك سيكسب مالا اكثر . وفي احد الايام

ونحن في معمعان واجبات ضخمة اعلن عن اسفه لعدم استطاعته الاستمرار لأنه قد وعد والدته بأن يقضي اليوم التالي ، يوم الجمعة في قريتها ، وانه اذا لم يلحق بالحافلة المغادرة مركز مدينة ريزاي فيغضون ساعة ،فلن يقدر على الذهاب الى هناك .

عندما عرضت عليه ان آخذه في سيارتنا في وقت مبكر من صباح اليوم التالي لم يجبني مباشرة،لذلك سألته :

ـ هل سيكون الأمر على مايرام مع والدتك اذا زرناها ؟

فأجابني :

ـ طبعا ،اذا اخذتيني الى هناك ،ستكون سعيدة .

اخذت مني هذه الدعوة المضنى بها علينا الاهتمامالذي تستحقه، اخيرا سأرى هذه القرية والتقي بمصدر كل هذه الحكايا الشعبية التي سمعتها لأشهر عديدة .

كان موقع قرية السيد احمدي متميزا نوعا ما . فهي لم تكن تبعد عن المدينة الا بضعة كيلومترات ومعظم الطريق كان معبدا ولكن كان يتم بلوغ الستة كيلومترات الاخيرة اليها بالسفر بمحاذاة مجرى نهر وينتهي بطريق منحدرة تدريجيا الى سهل واسع مرتفع . لذا لم تكن اي حافلة تسلك ذلك الطريق الاسفلتي المؤدي اليها ، فقد كانت تعتبر بعيدة عن المدينة . كانت الطريق الترابية المطروقة صعبة حتى بالسير فيها على الاقدام في الشتاء والربيع لأن النهر كان ممتلئا بالماء .

عندما وصلنا بازدو اخيرا ،كانت والدة السيد احمدي،واختاه الصغيرتان وحشد من اولاد الجوار بانتظارنا . قبّلت صلحية ابنها ومن ثم قادتنا الى منزلها الطيني بعد ان نصحتنا بايقاف سيارتنا داخل جدران بستان اللوز التابع لمنزلها للتأكد من ان الاطفال لن ينتزعوا شيئا منها . كان المنزل صغيرا ومبنيا على نحو غير متقن ومع ذلك فقد بدا انيقا جدا واكثر نظافة من

مساكن الحاج اسماعيل المنفق عليها بغير حساب . بدأ السيد احمدي باعداد الشاي مباشرة ، بطريقة لم ارها من قبل ابدا كان الخدم في منزل الحاج اسماعيل يحضرون الشاي الينا من قسم خفي من المنزل . ولكن في منزل صلحية لم تكن ثمة اجزاء مخفية ،بل فقط الحجرة الوحيدة بكومات الوسائد والفرش وصندوق الثياب الخشبي القابع في الزاوية ،وآلة الخياطة وبعض اللوحات المرسومة بخطوط قلم رصاص غير متقنة ،كانت تزين الحائط الطيني بملاطه المجبول بالقش .

حضر الشاي مسبقا وكان ينتظرنا حارا في ترمس انزله السيد احمدي من فوق رف في الحائط ،وقبل ان يخففه باضافة الماء اليه ملأ كأسا بالماء المغلي من السماور وصب الماء في صحن فنجان مقعر ودحرج الكأس فيه . ومن ثم صب ماء طبق الفنجان الذي كان البخار يتصاعد منه في الكأس الشاي الموجود في الطبق الكبير وبعمله هذا ،بخفة ورشاقة نظف جميع الكؤوس الموجودة على الطبق قبل ان يبرد كأس الماء الممتلىء . ومن ثم صب قليلا من محلول الشاي من الترمس في كل كأس وملأ بقية الكأس بماء من السماور . وبعد ان قدم الشاي سألتني صلحية عن سبب تجميعي قصص كردية . فقلت :

ـ لآخذها الى امريكا . واضعها في كتاب .

أومأت صلحية برأسها متفهمة ، وعندما جلست مسكت بعلبة فضية مسطحة من التبغ الاذربيجاني اللاذع واوراق السجائر في يدها تلف السجائر وهي تدخن بغير انقطاع . كانت تسعل بين الفينة والاخرى . كان صوتها اخفض من اي صوت انثوي كردي آخر سمعته ولم يكذب دارا عندما قال انها لاتعرف حتى ولا كلمة بالفارسية لأن جيرد استسلم حالا من محاولته التواصل معها .

كنت اعرف ان صلحية تتأملنا وتكون رأيا عنا . كانت هيئتها برمتها تختلف جذريا عن هيئة خديجة او نسرين او حتى مريم . فعندها انعدم الاسراف في التعبير عن العواطف والقهقات

ولا حتى الماحات ضئيلة تنم عن الشكليات . كانت مهذبة تماماً تتأكد من وجود وسائد وراء ظهورنا ، وتقدم الشاي لنا أولا وتقع كميات كبيرة من القائد امامنا لكي لانتعرض لخطر تذوق اي شيء مر ، ولكنها كانت متحفظة تماما وحتى مقتضبة في حديثها . في البداية تحدثت الي على نحو مبهم ، وذلك عندما كانت لاتزال تكوّن رأيها عني . لم يك هناك ادنى ريب في انها كانت والدة السيد احمدي .

بينما انقضى الوقت رويدا رويدا ،هدأ الجو في الحجرة. اعلنت صلحية انها ستروي قصة" الدموع الذهبية". امتلأت الحجرة بالمستمعين من بناتها وكنتها التي كانت ترضع ولدها في الزاوية وبعض الجيران . لم ينبس احد ببنت شفة حالما بدأ صوت صلحية الاجش بالصيغة التالية : " كان ياما كان ، وما كان سوى وجه الله " ومن ثم دخلت بغتة في حكاية طويلة معقدة عن فتاة تدعى منوّر فعندما تبكي ،منوريتساقط الذهب من عينيها ، وعندما تضحك ،فانها تضحك ورودا .

الحكاية تبدأ كمايلي : يحكى انه كان هناك رجل فقير مع زوجه وابنه " ولكن والد منور يتلاشى تدريجيا من الصورة عندما تموت زوجته الاولى ويتزوج ثانية ،ويخبو حظ منور مع وصول زوجة الاب والاخت من زوجة الاب ،رغب الامير المحلي في الزواج منها لجمالها وحسنها ولكن زوجة الاب تقلع عيني منور وتسجنها ، وتستبدل بها ابنتها لتحل محلها في ليلة الزفاف . وبعد سنوات عديدة من السجن تنجح منور في الهرب مع بائع متجول كان قد مر بالقرب من قبو المؤن الارضي الذي حبست فيه . ولأن زوجة الأب كانت تحتاج الى ورود منور وذهبها لتحافظ على تنكر ابنتها فقد استأجرت عجوزا ساحرة لتبحث عنها فتطير هذه على ظهر فرس هرمة ،الى ان تعثر على الفتاة في منزل البائع المتجول. يمضي البائع المتجول ،الذي كان قد اصبح مثل اب لمنور ، في بحثه عنها سبع سنوات قبل ان يجدها ثانية وهذه المرة في كهف

كانت زوجة الاب قد خبأتها فيه . ولكن منوّر لاتجتمع بأميرها الى ان يصل ابنهما بعد سنوات عديدة اخرى . كان ذلك هو نفس الابن الذي وضعته منور بعد ان حبستها زوجة الاب بتسعة اشهر في قبو المؤن .

شكل ولد منور صدمة ليّ وذلك لأن ممارسة الحب قبل الزواج محرّم لدى الاكراد . ولكن الاختلاف الطبقي الواسع بين منور والامير ربما يوضح خضوعها " لعدم صبره " كما عبرت عن ذلك راوية القصة . ان ممارسة الحب قبل الزواج لم يكن الشيء المدهش الوحيد في " الدموع الذهبية " فعندما يعثر الابن المفقود منذ زمن طويل بغير معرفة منه على امه ،وهي تقيم في كوخ وسط غابة مع " والدها البائع المتجول " يقع في حب هذه الفتاة العمياء الحسناء ، ويقرر ان يتزوجها . تعرف منورهويته ولكنها تستمر في اقامة مراسيم الزواج كوسيلة للوصول الى الامير لتخبره بما حدث لها . وتسرد منور في حفلة الزفاف حكايتها على الضيوف المجتمعين . والامير الذي يعترف بأنه قد خامره شك غامض بأن زوجته ليست منور يمتلئ ابتهاجا بعثورة على خطيبته المفقودة لزمن طويل . ويمّن الله عليهم باعادة البصر لمنور وهي معجزة صعبة التحقيق ، وذلك لأن زوجة الأب قد انتزعت عينيها من رأسها تماما . ومن ثم تُشد زوجة الاب وابنتها الى زوج من الاحصنة حيث يجرانهما الى خارج المدينة فيسحق جسداهما ،وتتبعثر اشلائهما في جميع انحاء الريف . تمكث منور في المنزل وتحيا حياة مرفهة دون ان تقع في ايدي المضطهدين ثانية .

وفي النهاية اهدت صلحية سردها للقصة لي بهذه الكلمات " بصحة وسعادة الخانم " بقي الصمت مخيما على الحجرة. لا اعرف بماذا كان المستمعون الآخرون يفكرون . من دون ريب انهم قد سمعوا القصة عدة مرات من قبل ، ولكن" الدموع الذهبية" كانت مفاجأة مثيرة لدهشتي . فمن جهة كانت راوية القصة هي صلحية

ومع ذلك فقد سردت مغامرات منور كما لو انها كانت تقرأها في صفحة كتاب او بالاحرى مغامرات معذبيها ومنقذيها ،بما ان منور كانت سلبية اساسا . بدا الجزء الاول من القصة شيئا لايصدق فكيف نجحت اخت منور من زوجة ابيها القبيحة ان تمثل شخصيتها لعقود عديدة من الزواج ؟ ولكنني عندما فكرت بالمدى القليل من الزمن الذي يرى فيه الحاج اسماعيل زوجاته ، بدت لي القصة معقولة . وكيف لم يعرف الامير منور ، حبيبته السابقة ، عندما زارها في الغابة خلال مفاوضات زواجها من ابنهما ؟ وهذا شيء بسيط للغاية ، لقد وضعت غطاء . ان الوحشية في القصة هي امر واقع مثل حكايا " جريم " قبل ان تطبع لأجيال من الاطفال الامريكيين المحميين ، ولكنني لا أزال أنكمش خوفا لدى التفكير بكيفية اقتلاع زوجة الأب عيني منور دون رادع من ضمير . فعندما تضع ابنة زوجة الاب ابنا قبيحا في نفس الوقت الذي تحمل فيه منور على نحو اعجازي طفلا ذهبي الشعر ، بعد تسعة اشهر من الاسر العسير ،تضطر زوجة الاب لأن تدع ابن ابنتها ببساطة دون غذاء ، الى ان يفتك به الجوع ، ويعيش ابن منور لأنه ضروري للحفاظ على مظهر ان الامير قد تزوج من منور الحقيقة . وفي الخاتمة لاتنال زوجة الاب وابنتها الا ما تستحقانه . كان طريق العودة من " الدموع الذهبية" الى حجرة صلحية الطينية طويلا. فاحت رائحة الغذاء عندما قدمته كنة صلحية . خلت الوجبة من اللحم ولكنها كانت وجبة ممتازة مكونة من اوراق العنب المحشوة الى جانب البيض والبندورة المغلية.لقد تناولنا هنا ولأول مرة طعامنا من طبق شعبي ، بدون صحون او آنية مائدة فضية ، بل نلتقط الطعام بالخبز فقط . اكلت قليلا جدا ،لأني كنت قد عانيت من نوبة إسهال في الليلة السابقة . عند ذلك سيطر عليها القلق فجأة فقالت :

– ألا تحبين الطعام ياخانم ؟ اخبريني عما تحبين كي اعده لك في المرة القادمة التي ستأتين فيها .

اعترضت على ذلك قائلة ان الطعام لذيذ وكل ما في الامر انني متوعكة قليلا . بعدئذ التفتت الى دارا تسأله عما احب مضيفنا في محادثتنا الى ان اكدت لها اني احب " الدولما" الكوسا المحشوة ، عندما تكون معدتي في حالة سوية . ولكنها كانت قد اقتنعت اني قد جاملتها فقط . لاحظت ان احترام صلحية لي كان يتنامى اكثر كلما سمعت كيف كنت اتحدث الكردية واني كنت اعرف كيف اعبر عن نفسي على نحو مهذب ، اتسعت عينا دارا عندما رآني اقلب كأس شايي على جنبه ، لأشير الى اني قد اخذت كفايتي لم يكن قد مر ببالة قط انه قد تكونت لدينا حتى ولو فكرة غامضة عن الاتيكيت الكردي .

كانت صلحية جدية كابنها اكثر مما ينبغي وكانت تعامله ليس كما هو صبي ذو خمسة عشر عاما ، بل كند لها ، قامت جارة لها بزيارة قصيرة لتسأل دارا المساعدة في تصفية حسابات دكان القرية الصغير الذي كانت تديره ، وصلحية ايضا اخذت ابنها جانبا لتطلب نصيحته حول امر لم استطع سماعه . ابديت ملاحظتي لصلحية قائلة :

– ان ولدك ذكي جدا !

فقالت متباهية :

– نعم ، اعرف . انه ذكي منذ طفولته . لقد مشى وتكلم جميع اطفالي في السنة الاولى من عمرهم . الاكراد اذكياء جدا .

كانت صلحية تدير منزلها وحياتها بنفسها مستقلة عن اي رجل، لم تكن تشبه مريم في طبيعتها . كان لصلحية ستة اطفال وثلاثة منهم كانوا شبانا . كانت الاخت الكبرى قد تزوجت واقامت في قرية اخرى . وصلحية هي مدبرة منزل جيدة . فبستانها المنظم ومنزلها وطبق الطعام الذي قدمته وفناء دارها النظيف ، كل هذا يشهد بذلك . كانت ابنتاها الصغيرتان تحضران مدرسة القرية وهناك دارا ايضا جوهرتها . كان دارا قد نال منحة للدراسة في مدرسة ثانوية في ريزاي . سينتسب الى كلية ما وسيهتم بوالدته عندما تبلغ من الكبر عتيا .

عند فترة العصر تناقشنا حول مصدر جميع الحكايا التي تعرفها صلحية ،فقالت :

- لقد تعلمناها انا واخوتي من والدتي . انهم يعرفون الكثير من القصص . فأخوتي مشهورون بحكاياتهم .

لقد سحرني ذلك ،فالدموع الذهبية كانت قد اثارت رغبتي في المزيد من الحكايا . هل يمكننا الذهاب الى قرية اخوتها. ابتهجت صلحية لهذه الفكرة وقالت :

- لم اذهب الى هناك منذ سنوات عديدة .

عند ذلك تخيلت اتحادا عائليا بعد غيبة طويلة ،فحذرتها قائلة :

- تعرفين اننا لن نقوى على البقاء هناك طويلا . ربما ليوم او يومين فقط .

فأجابت :

- هذا مناسب جدا لي . اذا كان لابد لك ان تذهبي فسأذهب انا ايضا . لن تتوقع امي مني البقاء

تأملت الخدود المسطحة ، المسمّرة لتعرضها للشمس والعينين السوداوين الحادتين . كيف نجحت صلحية بعدم العودة الى قريتها لتقيم مع اخوتها وامها عندما توفي زوجها ؟ كيف دبرت امرها في العيش ؟ لقد اثار فضولي تصور رؤيتها وسط قريتها الأم. هل ستبدو صريحة ومستقلة هناك كما بدت لي هنا ؟

قررت ان نعود الى بازدو بعد بضعة ايام مع دارا ، نأخذ صلحية ونواصل طريقنا الى زيّلا ، القرية التي شهدت شباب صلحية، حيث سأجمع الكثير من القصص واسجلها .

تحدثنا انا وجيرد ودارا في طريق عودتنا الرئيزاي عن الرحلة القادمة . وبدون ان يبدي دارا اي تعليق لاحظت ان موقفه تجاهنا قد تغير . فلم يبدر منا اي تصرف سخيف . وقد تقبلتنا

صلحية . وفي الواقع اصبحت والدة دارا مهذارة تقريبا قبيل مغادرتنا .

— رجاء تعالي وامكثي معي متى شئت .
قالت ذلك وهي تصافحني بشدة بيدها النحيفة المرنة .

بعد هذه الرحلة اتى دارا الى المنزل في مواعيد دقيقة ،كما كان من قبل ، يعمل بجد وينجز عمله بما يمليه عليه ضميره كما كان يفعل ذلك ابدا . شرعنا في محادثات طويلة من القلب الى القلب فجأة .

حصل تفاهم بيننا للمرة الاولى . وادركت ان حرصه لايشير بالضرورة الى عدم ودّه او الى احتقاره لي . وادرك هو ايضا انه يمكن للاجانب ان يتكيفوا مع الاساليب الكردية ،وان تخبطاتي لاتعني بالضرورة انني شخص بليد ميئوس منه . شعرت انه يحترمني وشعرت اني احبه بالقدر الذي كنت اريده في البداية . لقد كان صبيا مدهشا ، يختلف عن أي امرىء آخر التقيت به في ايران . وبعفوية مني ، وبعد ذلك اليوم في بازدو ودون أن أستأذنه توقف عن كونه السيد احمدي ، وجرى اسمه على لساني واصبح ببساطة دارا فقط .

اكلني الشوق لزيلاّ ، لاعتقادي ان الرحلة الى قرية والدته يمكن ان تفشي المزيد عن دارا وعن مصدر قوته ، كانت زيلاّ القرية الكردية الاولى التي حددت موقعها على خارطتي كانت هذه الخارطة اكتشافا نادرا اعطاني اياها ضابط في الجيش الامريكي عندما رأى مدى رغبتي في اقتنائها . وحتى ذلك الحين لم اكن اعلم بوجود مثل هذه الخرائط ،فكل الخرائط التي عثرنا على شرائها كانت تظهر ايران مثل امة ذات مدن متناثرة هنا وهناك ولاشيء يتوسطها . ولكن هذه الخارطة التي رسمها الجيش البريطاني سنة ١٩٤٠ كانت مغطاة بأسماء قرى وجبال وانهار فصلية صغيرة فهي — كما اخبرونا — لاتعرض للجماهير للبيع ،وهي غير قانونية

ولاتجوز الا للاستخدام العسكري فقط .

بعد ان افاق دارا من دهشته لاقتناعنا اياها استغرقنا - ثلاثتنا - في التحديق فيها ، محاولين العثور على الطريق الاسرع والاقصر الى زيلا . رأينا خطا رفيعا يتجه صوب الغرب فوق الجبال من بازدو، وكانت المشكلة الوحيدة ان دارا لم يسبق ان ذهب عبر هذا الطريق الجبلي ابدا . ربما كان هذا الخط فوق الخريطة درب بغال مهمل . قام دارا بتوجيه اسئلة عديدة ولكنه لم يكتشف شيئا محددا . لم يكن احد من الذين يريدون الذهاب من بازدو الى زيلا يقتني سيارة . كانوا يضطرون الى اخذ الحافلة التي تسير فوق الطريق المعبد فقط ، الذاهب للشمال باتجاه مدينة شاهبور حيث يمكنهم ان يأخذوا حافلة اخرى تقودهم نحو الجنوب والغرب على طول الطريق الحصوي الى سهل سوما .

في صباح يوم رحلتنا اقنعت جيرد بضرورة محاولة السير عبر الطريق الجبلي . ان خطا على الخريطة ، بالنسبة لي ، كان يشير الى طريق ، والطريق في الجبال كان اقل بقدر ثلث المسافة من الطريق المعبد والحصوي المنحدر ولكني اضطررت بعد ساعتين من اخذنا صلحية من بازدو ، للاعتراف بأن الخط ليس طريقا فبعد كل هذا الوقت لم نكن قد اجتزنا سوى اربعة كيلومترات وقد حصل ذلك برفقة كل المسافرين - من صلحية ودارا واخت دارا الصغيرة وانا - ونحن نتمشى ، بينما حاول جيرد ان يتغلب بالسير على حفر وتشققات ما بقي من هذا الطريق الوعر . وعلى الرغم من انني كنت الوحيدة التي اصرت على السير في هذا الطريق المختصر كنت الاولى ايضا التي رغبت في التخلي عنه . كان الاكراد مستعدين لأي شيء فالسيارة لم تكن لهم وكان جيرد يستمتع بتحدي السير فوق درب البغال . وعندما اختفى في منعطف لم يكن جليا لنا، مالت السيارة كثيرا الى الجانب المنحدر العمودي من الطريق حيث تأكدت عند ذلك من انني سأجد جيرد في اسفل الوهد في الطرف الآخر . ولكن الطريق انتهى ببساطة عند الزاوية تماما

لذلك كان علي ألا احاول اكثر من ذلك . وكان لابد لنا من ان نعود ادراجنا .

ما استهللنا به كبداية مبكرة جميلة تحول الى حملة استغرقت فترة الصباح كله ، بينما ارتفعت الشمس في السماء وصار الجو حارا . لم يكن هناك فراغ للسير بالسيارة من ذلك المكان لأن الطريق كان ضيقا ومائلا الى حد بالغ . كان علينا ان نديرها باليد ، نرفع النهاية الخلفية عن الأرض وندير النهاية الامامية في الاتجاه المعاكس . وقد كسبنا الكثير من الوقت عند انحدارنا نحو الطريق الى شاهبور على الرغم من انه كان على كل شخص منا – عدا جيرد – ان يمشي معظم طريق العودة الى بازدو . يلتقي الطريق الجانبي بالطريق المنحدر الذي يعبر النجد السهلي الى الغرب من البحيرة ، تماما قبل ان يصل الطريق المعبد الى شاهبور . قادنا هذا الطريق الترابي الى اكثر البقاع جدبا وفقرا من مجمل الاراضي التي مررنا بها في اذربيجان على الرغم من ان اعيننا كانت قد تعودت حينئذ على الغبار غير المنقطع في المناطق الريفية الكردية ،حتى اننا عندما وصلنا الى منطقة فيها شلالات رقيقة جدا ، ظننا اننا قد وصلنا شلالات نياغارا . خرجت والتقطت نصف درينة من الصور . لم توءثر في نفسي هذه الصور ولم تذهلني لغرابتها المفرطة الا بعد عودتي الى الولايات المتحدة .

كان بمحاذات الشلال مجرى نهر قليل الماء وارض مشجرة باشجار قزمة ،ضئيلة خضراء رمادية ، نمت بشكل عشوائي في ارض متآكلة بفعل التعرية وعوامل الطبيعة . كان عدد مثير للدهشة من الاغنام يلوك هذه الخضرة الجافة ، بينما كنا نعبر القرية تلو الاخرى . اندهشت لكيفية امكانية هذه الارض جعل تيرغساوار وميرغاوار تبدوان مثل جنائن عدن ،وان تمد هذا الكم الهائل من الناس بالخيرات . ولكن المكان برمته بالنسبة لصلحية كان مغمورا بتوهج ذهبي للذاكرة . اشارت بابتهاج الى احدى القرى ومن ثم الى واحدة اخرى باسمها.هنا تقيم صديقة وهناك يقيم ابن

عم وفي قرية اخرى كانت لها ابنة شابة لم ترها لسنوات عديدة. لم اصدق اننا كنا فوق الجبال وعلى بعد عشرة اميال فقط من منزلها الحالي . كان الخط القاسم بين حاضر صلحية وماضيها نهائيا وحاسما لدرجة ان القرى التي شهدت طفولتها والأخرى التي شهدت حياتها الزوجية بدت وكأنها في بلدين مختلفين. اخيرا انحرفنا عن الطريق وتسلقنا صاعدين نجدا موءديا الى قرية واقعة فوق هضبة على شكل رغيف طيني . ترجلنا تحت نوافذ منزل طيني كبير ذي طابقين . عندما خرجت من السيارة تيقنت من ان الخضرة مسألة نسبية . فقد كان السهل الذي تجاوزناه اكثر خضرة بالمقارنة مع هذه القرية ، فهنا لم يكن يوجد حتى اشجار ذات خضرة رمادية ، بل محض تراب لاتلمح فيه حتى ولاورقة عشب على مرمى البصر .

قادتنا صلحية ودارا بلهفة صعودا نحو الطابق العلوي من المنزل ذي الطابقين ومررنا بالحيوانات المتجمعة في الطابق الارضي في حجرة كبيرة حيث التقينا فوقها بموسى اخي صلحية الاكبر وصاحب المنزلومضيفنا. حالما دخلنا امتلأت الحجرة بسرعة على سعتها بذكور واناث مراهقين مصطفين بجانب الجدران مع اطفال قد تكتلوا عند المدخل يمدون اعناقهم الى الامام ويحدقون ليروا الاجانب . ألقت ام صلحية التحية على ابنتها وبدت مسنة بفكها العديم الاسنان وجلدها الرخو الجاف . كان الاخوال اخوة صلحية يبتسمون ويحاولون التحدث معنا . بينما كان البقية يحدقون فينا وفي النهاية احس مضيفونا بأن الفوضى ازدادت عند الباب ، فذهب احدهم الى حشد الاطفال الممزقي الثياب وطردهم بعيدا . ذهبوا بأسرع مما كنت اتوقع ورجع احد الاعمام ونقل انه اخبرهم بأنني طبيبة جديدة وقد اتيت لاحقنهم بالابر . ذهبت مجموعة من الاطفال المحبين للمغامرة من الذين اخرجوا من الردهة الى سقف احد المنازل المجاورة التي كانت في مواجهة احدى نافذتي الحجرة التي كنا في داخلها واستأنفوا تحديقهم فينا بجرأة . كانوا واقفين مثل الاصنام مستعدين تماما لالتقاط صورة

لذلك أمسكت بآلة التصوير ووجهتها نحوهم ، عندها فرّ جميعهم فزعين . ضحك جميع الموجودين في الحجرة . فأوضحت احدى النساء قائلة :

ـ لو انك اخبرتهم فقط انها آلة تصوير وانها ليست بندقية لما فروا هاربين .

توقفت مستغربة من ذلك . اي نوع من القرى هذه، حيث يبدو فيها الاطباء اشباحا مرعبة ويتوقع فيها الاطفال ان يسدد الغرباء النار اليهم ؟ .

ولكن ثمة حقيقة واحدة مؤكدة وهي ان هذه ليست دستان. كان عدد الجالسات من النساء تقريبا يعادل عدد الرجال في حجرة الاستقبال الطويلة هذه ، بدا ان حضور جيرد لم يسبب حتى ولو قدرا ضئيلا من الاختلاف . فلم تضع اي منهن خمارها فوق فمها وكانت جميع النساء يتحدثن بصوت عال وبعفوية مثل الرجال . لم يقدم الشاي خادم ،بل صبي صغير من العائلة .

فكرت بسيارتنا بقلق . فقبل ان نغادرها تماما ،كنت قد لاحظت ان حشدا من اطفال القرية والماعز يصعدون فوقها والأطفال يحاولون دون شك ان ينزعوا كل اللواحق المثيرة ،التي لم تكن ذات وصلات ملتحمة ،والماعز تبحث عن الظل . قام جيرد الى النافذة ليتفقدها ويبلغنا محذرا انه يبدو له كما لو ان سيارتنا ستجرد خلال ساعة او مايقاربها . فطلبنا من مضيفينا ان يبعدوا الاطفال عنها ، ولكنهم نظروا الينا بارتياب . ماذا نتوقع ؟ بما انه لاتوجد سيارات في زيلا وباب الفناء لم يكن واسعا على نحو كاف لنسوقها الى الداخل ،فان على سيارتنا ان تبقى في ميدان عام . ولكي يظهروا احترامهم لنا ،فقد صرخ احد مضيفينا بالاطفال ولكن في الحقيقة ، لم تكن هناك وسيلة لابعادهم . كنا هذه المرة وسط قرية ، وبين اناس عاديين بدلا من ان نكون في الاعالي فوق الهضبة مع " الخانات " . ولكن صلحية اهتمت برغباتي اهتماما شديدا ،فبعد ان انتهت من السؤال عن

اخبارهم وعن الاشاعات شرعت تردد كيف انني قد جئت الى هنا لاجمع قصصا لآخذها الى امريكا ، بعد تناول غذاء مكون من الارز المطبوخ مع القليل من قطع اللحم الغضروفية المتناثرة بينه لتعطيه نكهة لذيذة ، رتبت صلحية جلسة لسرد القصص وكان ميكروفوني ينتقل من يد مسمّرة بالشمس الى اخرى ،بينما امتلأ شريط المسجلة بقصص الجان الطويلة الشبيهة بالدموع الذهبية. وكما لو ان سحرا حل بالحجرة حيث كان كل شخص يصغي بعناية الى القصص ناسيا اياها – نحن الاجانب – وربما حتى تلك الأرض الخالية من الاثاث والشمس الحارة ومشكلة تجميع الغذاء ، فلم يكن يشغل تفكيرهم حينئذ سوى الاميرات والتنانين والساحرات والفرسان لم اصدق كيف امتلأت مسجلتي بهذه السهولة ،ونظرت الى صلحية بامتنان . ابتسمت لي هي ايضا . ولكن التسجيل والقصص لايمكن ان يستمرا الى الابد . فقد سألني احدهم :

– هل صحيح ان الامريكان يكسبون الكثير من المال ؟

لقي هذا السوءال تقبلنا اكثر ،فقد اعتبرنا صيغته افضل من الصيغة الاخرى وقد كان يطرح بهذا الشكل : كم تكسبون من المال ؟ ربما ان طريقة السوءال هذه كانت ملائمة اكثر لزيلا التي لم يكن يسود فيها النظام الاقتصادي المقدّر بالعملة . تقفل مضيفونا الحاليون على موءونتهم القليلة من الارز في حجرة صغيرة كما لو انها كانت جواهر . من الواضح انهم لايأكلون اللحم . كان غذاوءهم الرئيسي موءلفا من اللبن المصنوع من حليب الغنم والخبز المصنوع من القمح الحكومي . لم يكن هناك حتى شخص واحد ممتلىء الجسم في الحجرة .

– هل تعلم انه بامكان العمال في امريكا ان يكسبوا مالا اكثر من استاذا في الجامعة .

تطوع جيرد بالجواب على سوءالهم . وساد السكون ثانية فالاجانب الآن على وشك سرد بعض القصص عن بلادهم واناسهم . وسأل احد الرجال الجريئين :

- كيف يمكن ذلك ؟

فأجابه جيرد :

- حسنا ،لااحد يعطيهم الكثير من النقود . اما العمال في امريكا فهم يطالبون بالمزيد . انهم يحدثون اضرابات .

عند ذلك نظر مضيفونا الى بعضهم بقلق وقال آخر :

- كان قد قام بعض العمال في ريزاي باضراب .

وسأله جيرد :

- كم استغرق من الوقت ؟

- ربما يوما او يومين .

- هذه المدة ليست طويلة بما فيه الكفاية .

- ولكنه خطر ،خطر جدا .

قالوا ذلك وهم ينظرون الى جيرد بامعان كما لو ان لديه الجواب الذي يحتاجونه فقال جيرد معلقا :

- لقد كان خطرا في امريكا ايضا . فقد قتل بعض الناس بعد الاضراب .

لم يتفوه احد بكلمة . وكانوا ينقلون نظرهم بيننا وبينهم. أومأت لجيرد برفع حاجبي لتحذيره ، فان مجرد تقرير عن هذه المحادثة سيكون كافيا لطردنا من ايران . ولكن المجادلة لم تمض الى ابعد من ذلك . كان واضحا ان هؤلاء القرويين بوجوههم ذات المسحة الترابية ،يريدون سماع المزيد ولكنهم كانوا خائفين .

ازدادت عتمة الحجرة اكثر ، فقد لاحت لنا مظلمة لدى وصولنا تحت اشعة شمس الظهر العديمة الظلال ، وبدأت أتساءل عن وضع سيارتنا ثانية . كانت امرأة تدعى خيال ،قد التقطت ميكروفوني لتروي مراسيم زفاف عروس لابنها . ولكني نسيته بعد ذلك فقد كان الوقت قد حان للرحيل ومع ان السير في ذلك الصباح كان مرهقا ولكن الطريق لايمكن السير فيه في الظلام .

حدث شيء غريب لدى نزولنا قرب السيارة ،فقد بدا كما لو ان القرية كلها قد تجمعت لتودعنا . شعرنا كما لو اننا قد قضينا الاشهر الخمسة الاخيرة في زيلا ، بدلا من الخمس ساعات الاخيرة . طالب الحشد بصخب بالتقاط صورة له ، لذلك فقد التقطت صورة له اظهرت الصبية فيه مصطفين في المقدمة وهم يلوحون للكاميرا ، وفي خلفية الصورة كانت الشمس تأفل خلف الهضاب القاحلة وهي تشكل تخوم السقوف المستدقة لاكواخ السماد المخزون كان من المستحيل صعود السيارة مباشرة مع مثل هذا الحشد وبينما كانت صلحية تودع اقاربها بدأ كل شخص يسألنا عن سبب عدم بقائنا وسمعت صوت خيال يقول :

– ألا تريدين ان تحضري حفلة زفاف ولدي ؟

التفت اليها وقد لاح على وجهي التردد واللهفة . احس العديد من القرويين ان حفلة الزفاف قد لقيت اهتمامي . فرددوا قائلين :

– نعم العرس . العرس . من المؤكد ان المرأة الاجنبية لاتريد ان يفوتها العرس .

لقد كانوا محقين في ذلك . ولكني نظرت حولي الى الوجوه الهزلة والغريبة الملوحة بالشمس المحيطة بي . وشعرت بحيرة في نفسي . قال شيرو احد اخوة صلحية :

– ابقي ،ابقي . يجب ان تبقي .

اثيرت دوامة من الابتهاج والخوف في عقلي . والحقيقة كل ماكنت اريد ان افعله هو الخروج من زيلا الى الأبد ،ولكن كيف مع وجود عرس كردي ؟! . لو انه فقط كان في قرية الحاج اسماعيل حيث يمكن لسيارتنا ان تكون بأمان ،كما سنكون نحن ايضا. وبينما كنت واقفة احاول ان اقرر ، كانت هناك امرأتان على مقربة مني تمسان شعري باصابعهما وسمعت احداهما تسأل الاخرى :

– هل يمكن ان تكون امرأة متزوجة حقا ؟ انظري الى شعرها وبشرتها ، لابد انها فتاة عازبة .

بدأت اناقش جيرد من فوق الرؤوس . هل يمكن ان نعـــود لنحضر هذا العرس ؟ فقال جيرد مجيبا وترك القرار لي :

- تقولين دائما انك تودين رؤية عرس كردي .

فالتفت الى صلحية قائلة :

- متى سيبدأ العرس ؟

التفتت بدورها الى اخوتها وسألتهم وقالت مجيبة علـــى مراحل :

- ربما اليوم هذه الليلة . ربما اليوم الذي يليه . أو حتى ربما اليوم الذي بعده .

اقلقني عدم التحديد في ذلك ،لماذا لايعرفون متى سيبـــدأ العرس ؟ ربما انهم قد اختلقوا كل ذلك لاغوائي بالبقاء . كنـــت اعرف ان هذه ليست تركيا ،ومع ذلك فان المشاعر التي اثارتهـا فيّ زيلاً ذكرتني بيوكسيكوفا . لقد كنت اعني بالنسبة لهـــؤلاء القرويين المنعزلين " الاخرى " وهذا امر مفروغ منـــه . اردت الذهاب ولكني لم ارغب في تفويت رؤية عرس كردي . اخبرتنـــي صلحية قائلة :

- يمكننا العودة . لا اظن ان العرس يبدأ في هذا الحين .

اتخذت قراري مع فكرة اخذ فترة من الراحة بعيدا عنالقريـة. سنعود للعرس . ولكن سيكون في غضون يومين ،بعد ان اكون قـــد اخذت كمية جيدة من الطعام والنوم ،وبعد ان تكون قد سنحـــت لي فرصة لارتداء ملابسي الكردية ، ربما لن يحدق في سكان زيـلا كثيرا لو اني لبست مثل كردية .

كانت معنويات صلحية وفناز اخت دارا الصغيرة مرتفعـــة عندما التقينا بهما في البازار في ريزاي بعد يومين من ذلـــك. تمتعتا برحلتهما بعيدا عن بازدو وذلك بقضاء معظم وقتهمـــا ملطختين بوحل السهول الملحية والحديدية قرب البحيرة . كانـت خديجة قد ضفرت شعري في ذلك الصباح اربع عشرة ضفيرة وربطتهمـا بشريط ملون . لقد احدث التغيير الذي نشأ عن ملابسي وتسريحـــة

شعري بالطريقة الكردية شعورا بالروعة والرهبة لدى صلحية ودارا. نظر اليّ دارا بامعان كما لو انه لم يرني منقبل ابداء. سلكنا طريقا آخر الى زيلا اوصلنا في اقل من ساعتين وعندما وصلنا تجمع حشد كبير ثانية . رحبوا بنا كاصدقاء قدامى، ولكن الجواب على سوءالي المباشر كان : لا ،لم يبدأ العرس بعد . ومتى سيبدأ ؟ حالا ،الآن تماما ،عرضوا الخبر موءكدين ذلك. كنت لا ازال غير قادرة على فهم سبب عدم معرفتهم بتوقيت عرسهم. وفي غضون فترة العصر واصلت سوءالي متى سيبدأ العرس ،بغض النظر عن مدى محاولتي في التماس الراحة . قدم الينا الشاي والغذاء وقمنا بجولة الى بركة مياه شيرو السطحية الواقعة بجانب بستانه حيث كان قد زرع اشجاره في اخاديد محدثة بتأثير مياه المطر بعيدة عن مركز القرية . وبما ان موسى كان يمتلك البركة وبستان اشجار اليتولا في مكان ناء في الجانب الآخر من القرية ، فقد تأكدت من انه لابد من ان اخوي صلحية هما من بين الرجال الميسورين في القرية ، ولكن ملابسهم كانت رثة واسنانهم متفرقة واجسادهم نحيفة الى حد كبير ،فاذا كان هوءلاء هم الاسياد ، اذا فكيف يعيش البقية ؟

واصلت سوءالي عن العرس تقريبا حتى المساء عندما نظر جيرد من خلال نافذة الحجرة الكبيرة في الطابق الثاني ورأى مجموعة من اربعة رجال يرقصون كتفا لكتف على طول ازقة زيلا الطينية . وقد ابلغنا مضيفينا ان هذه تمثل دعوة تقليدية للقرويين ليأتوا الى الاحتفالات . بعد ذلك بفترة قصيرة ظهر رجلان غريبان جدا عند مدخل باب حجرة الاستقبال الطويلة التي كنا نقضي فيها يومنا . نصب موسى مضيفنا ،كراسي معدنية قابلة للطي لهم حالا . كان كلا الرجلين يرتديان بذلات خضراء فاتحة على الطراز الغربي . ولم يرفع الرجلان اعينهما عني منذ اللحظة التي دخلا فيها الحجرة الى ان غادراها . شعرت ان اعينهما كانت تتوهجان نحو الزاوية المظللة ، حيث كنت جالسة هناك بجانب صلحية . ولسبب ما انتهزت صلحية هذه الفرصة لتعيد ترتيب

اغطية رأسي ودون ان تستشيرني اخذت وشاحي البرتقالي عن رأسي ببساطة وبذلك انكشف شعري برمته • وقد افتن هذا المنظـــــــر الرجلين وسمعن احدهما يقول للآخر عبر الحجرة :

– لماذا لاتخلع كل ملابسها ؟

استمرت صلحية بالعناية بوشاحي بافراط مضيفة وشاحا اسود من عندها وبذلك اصبح لدي اثنان منها • كانت تتصرف كما لـــــو انها لم تسمع ملاحظة الرجل ولكنني لم اقو على طردها عـــــــن تفكيري •

اصبحت زيلا مروعة في الليل اكثر منها في النهار حتـــى، ولم امل الى هذين الرجلين الجالسين هناك وهما يرمقاننـــــي بنظرات الغرام • وتساءلت في نفسي عما اذا كنت ارغب في الذهاب حقيقة الى العرس بعدما اتضح ان هذين هما مضيفانا • ما كـــان مني الا ان اتمنى ان سلوكهما لن يكون نموذجا عن سلوك الرجال في زيلا ،لأنهما كانا يعيشان في مدينة شاهبور وليس في القريـــة.

نهض كل امرئ في الساعة العاشرة ومشى نحو فناء دارخيال، وحالما وصلنا الى المدخل ذي الحائط الترابي ،شاهدنا صفا من الكراسي المنصوبة باتجاه زمرة محتشدة يبلغ عددها تقريبـــا اربعين من ضيوف العرس المبتهجين وهم جالسون فوق ارض عـــراء• وحالما قادونا الى الكراسي المخصصة لنا ،بدأ حشد النــــاس الجالسين على الكراسي بالتحديق فينا ، كان كما لو اننا كنــا فوق المسرح ،لم تكن هنالك اضواء موضعية مسلطة ، بل كان يوجد فانوسان يصدر عنهما طنين ويشتعلان على نحو متقطع بالاضافة الــى ضوء القمر ، ليجعل كل شخص من حولنا منظورا على نحو غريب •

كان يقبع في مكان مرتفع اثنان من " الدنغ بيج" وكلاهمـــا يرتديان قبعات شتوية صوفية ثقيلة ، يتبادلان الغناء وقد انحنت يد كل منهما حول احد خديه او تكورت حول احد اذنيه• كان ايقـــاع الطبل عاليا ورتيبا • نهض بعض الرجال والنساء للرقص ولفـــت

نظري ثلاث فتيات مرتديات على نحو فاخر ،من المحتمل انهن كن اخوات العروس ،كن قد لبسن قماشا مطرزا مع احزمة معدنية رنانة وعريضة وعروات ذهبية تزيينية للأنف .

رغبت فقط في الجلوس لأصغي ولأراقب بابتهاج هذا المشهد الرائع ، القمر ، الطين الجاف ،حلقات تزيين الانف والمغنيان ولكن ذلك لم يكن ممكنا ،فالانتباه كان ينبغي ان يكون منصبا على الراقصين والمغنين وعلى الاخص على عائلة العروس ، ولكن بدلا من ذلك كان الانتباه مركزا علينا . لم يقو بعض الأولادالصغار على ابعاد اياديهم عنا . واستمر احد الرجال وفي يده عصا غليظة بالمجيء والضرب على رؤوس الصغار الاكثر اساءة ولكنهم حالما كانوا يبتعدون ، كان يحل محلهم اطفال آخرون .

سحب شيرو ودارا جيرد لينضم لحلقة الرقص ،ولكني بقيت في مكاني بجانب صلحية . لم ارغب في النهوض لأرقص امام هذا الحشد ولم ارد ان اقترب من الرجلين ذوي البذلتين الخضراوينالفاتحتين، فقد انضما ايضا للرقص وفي فم كل منهما سجائر ملفوفة باليد على نحو رخو ، وقد علت وجهيهما تعابير تنم عن الانتشاء.وعندما عاد جيرد من الرقص ابلغني انهما كانا يدخنان الحشيش ، هذا ما فسره سلوكهما الغريب ولكني لم اتيقن انهما يتعاطيان المخدرات . فقد اكد لنا الاكراد في ريزاي انه لم يمس كردي المخدرات ابدا ، حتى ولو انهم يهربونها بين الفينة والاخرى " انها للعجم فقط " كان السيد خيلي قد ابدى ملاحظته بازدراء، تساءلت عما اذا كان الرجلان المرتديان الخضراوين الفاتحتين هما الوحيدان في حالة الانتشاء تلك في زيلاً تلك الليلة . من المؤكد تماما ان اناسا في هذه القرية قد قضوا وقتا في السجن بسبب التهريب .

بدا ان التحديق والرقص سيتواصلان لساعات . كنت انظر بعينين نصف مغمضتين ومطرفتين من الارهاق ." هذا شيء عجيب جدا

قلت ذلك موجهة كلامي لدارا الذي كان قد جلس ثانية . يمكن لكلمة " عجيب " ان تعني غريب ،متضمنة معنى " الدهشة " او يمكن ان تعني مجرد الغرابة . اختار دارا المعنى الأول ،وابتسم قائلا:

ـ تعنين ان الراقصين رائعون جدا .

عند هذا تجهمت ملامحي . لماذا نكون انا ودارا على كوكبين مختلفين دائما ؟ وحاولت ان اوضح :

ـ كل امرئ يشدد في تحديقه اليّ،ذلك هو الشيء العجيب .

فقال :

ـ طبعا . الناس هنا غير معتادين على روءية امرآة اجنبية، وبشكل خصوصي امرآة اجنبية بلباس كردي . نظرت الى دارا مستاءة من ذلك . ربما ان ارتدائي البسة كردية كان شيئا غير عادي بالنسبة له ولكن هب اني كنت هناك جالسة بلباس الجينز ، حيث يمكن لكل امرئ ان يرى شكل فخذي او بلباس يكشف عن ساقيّ؟ من الممكن ان دارا قد عاش في ريزاي لفترة طويلة لدرجة ان اللباس الكردي لم يعد يبدو طبيعيا بالنسبة له .

لاحظت صلحية المتآلفة مع اضطرابي اكثر من ابنها ،انني مرهقة وانه ينبغي علينا المغادرة . آومأت برأسي ممتنة وسرنا ببطء الى خارج الفناء مشكلين رتلا ، وبعد ان شكرنا مضيفينا دعينا للعودة لحضور احتفالات اليوم التالي عندما تزف العروس فعليا الى المنزل . والمسألة المهمة التي فرضت نفسها لدى عودتنا الى فناء موسى هي مكان نومنا . فقد كنت انا وجيرد قد ناقشنا هذه المسألة طويلا قبل المجيء الى زيلا ،كانت فكرتنا هي ان ننام فوق السطح مستخدمين اكياس النوم التي كنا قد احضرناها معنا . ولكن صلحية كانت قد حددت مكان نومنا مسبقا منذ ذلك الصباح حالما صعدت الى سيارتنا فقالت مشيرة :

ـ منزل والدتي نظيف جدا . نظيف مثل منزلي ليس فيه بق الفراش .

كان بق الفراش على وجه الدقة هو مايقلقني ،ولو اني كنت سأتغاضى عن ذكرهم . عندما قالت صلحية ان منزل والدتها نظيف مثل منزلها اثر ذلك في نفسي لأن صلحية كانت مدبّرة منزل دقيقة واكثر دقة من اي امرأة التقينا بها في كردستان . ولكن زيلا لم تكن على مستوى مقاييس صلحية . فقد كان لابنة شيرو المغيرة التي كان عمرها يناهز عمر ابنة عمتها فنار ،شعر اشعث معقد بدا رمادي اللون من تجمع الغبار والتراب عليه . اما شعر فنار فقد كان يسرح يوميا بغرتها الطويلة وجديلتيها الكثيفتين، وكانت ترتدي دائما البسة نظيفة . لم تكن المسألة مسألة نقود بل اعتزاز بالنفس . فقد كان دارا وصلحية معتدين بنفسيهما الى حد بعيد . ولكن حتى لو ان نساء زيلا كن مدبرات منازل مدققات في مسألة النظافة ،فان التخلص من بق الفراش هو صعب عليهن. كان في زيلا اغنام اكثر من بارزدو . وفي ارضية حجرة الجلوس الكبيرة التي اراد موسى وعائلته ان ننام فيها يوجد حيز واسع لآلاف من بق الاغنام لتزحف خلاله من الاسطبل التحتي. حاولنا ان نصر على النوم على السطح ولكن مضيفينا كانا عنيدين . فلابد لنا من اخذ افضل حجرة لديهم . وكانت هذه الحجرة تتسع على الأقل لنوم درزينة منهم في الليل ولكن مضيفينا اصرّا على ان ننام وحدنا واشارت صلحية قائلة :

ـ مثل عروسين .

بعد ان عادت بنا صلحية وزوجة اخوها الى الطابق العلوي، سوّي فراش ملون بألوان زاهية وبسط فوق الارضية على نحو يجذب فيه المرء . ناولتنا النسوة سراجا وتركننا وحدنا لنتمتع بفخامة هذا المكان الفسيح المتروك لنا وحدنا . وحالما اطفئت الانوار بدأ البق يغزونا . كنت نائمة ببذلتي الكردية بتمامها ونهاية الاكمام الطويلة ملتفةباحكام حول رسغي والنسيج الممزوج بالمطاط فينهاية سروالي قد سحب الى اسفل ، فوق جواربي، حتى اني كنت قد تركت وشاحي مربوطا حول رأسي . ولكن البق كان ينجح في الاختباء بين ثنايا لباسي . وبعد مرور خمس عشرة دقيقة تأكدت بأني لن انام خمس دقائق تلك الليلة .

ـ علينا ان نحضر اكياس النوم

همست قائلة ذلك لجيرد الذي كان النعاس يغالبه ، ولسبب ما بدا ان البق يهمله .

اضاءت المصباح المدخر الذي كنا قد احضرناه معنا واريت جيرد اسراب البق الصغير ذي اللون الاسود ،فوافق على الخروج على مضض ، ولكنه عاد لتوه خاوي الوفاض . وقال موضحا :
ـ جميعهم نائمون في الفناء ، لاننا اخذنا حجرتهم .

بعد عدة ساعات صحوت على فجر رمادي بارد ،من نوم يتخلله شعور بالحشرات وهي تزحف فوق جسدي . وبعد ساعة من ذلك قدم لنا فطور مكون من شاي ثقيل وخبز قمح مسطح . ونحو مايقارب منتصف الصباح مضينا في جولة اخرى ؛ هذه المرة الى بركة شيرو.

لم يكن شيرو مثل اكراد آخرين التقينا بهم في زيلا وفي اماكن اخرى في كردستان . لقد كان اعز اخوة صلحية عليها . وكان له وجه متطاول كوجه صلحية وبشرة ضاربة الى الحمرة . ولكن بينما كانت عينا صلحية سوداوين ، كانت عينا شيرو خضراوين وبينما كانت صلحية تتصرف بجدية ،كان شيرو يتصرف وكأنه خال من الهموم . ان الحياة بالنسبة للاكراد هي كفاح مستمر وبالنسبة للبعض هي النضال من اجل القومية الكردية ،وبالنسبة لآخرين مثل سكان زيلا هي صراع من اجل البقاء . اما بالنسبة لشيرو فلم تكن حياته تتسم بسمات من الكفاح ،فقد بدا انه يتمتع بالحياة .

في كردستان لايغني الناس ولايرقصون عادة . لقد كنت اطلب من الناس باطراد ان يعلموني اغانيا وقد رفض جيمعهم ذلك تقريبا ان الاغاني كما افهموني هي من اختصاص المحترفين"الدنغ بيز" الذين يغنون في الاعراس . كنت اكاد لااعتبر شيرو دنغ بيزا بصوته الاجش الذي اتلفه الدخان . ومع ذلك فقد احب ان يغني وقد غنى لي العديد من الاغاني عندما كنت في زيلا . وكذلك كان

يستمتع بالرقص واصر على ان يتعلم جيرد الرقص بدقة . لقد سُرّ شيرو في الحقيقة لأني اردت ان اتعلم كلمات كردية جديدة وبينما كنا نجاري السير مع خطواته المرحة على طول الطريق الى بستانه المشجر التقط من الارض نباتات شائكة وفطور النفاث الاكثر تميزا واخبرني عن اسمائها .

عندما وصلنا الايكة تبادل شيرو والصبي الذي قدم لنا الشاي الادوار في غناء السلسلة التقليدية من اغاني الاعراس لأسجلها . امسكت صلحية بالمكرفون لأخيها الى ان بلغ اغنية ملأت عينيها بالدموع ونهضت ثم مضت في سبيلها . استمر التسجيل وفي آخر الامر عادت ادراجها . واوضحت موءخرا قائلة :
- ان الجزء الذي اتوا فيه ليأخذو العروس ذكرني بعرسي لقد كانت فترة كئيبة ومليئة بالاسى .

اضطربت لدى روءيتي صلحية تبكي . فهي لم تكن خشنة ولا قاسية بل عاطفية جدا . ولكن خيّل الي انها كانت قد تركت مشاعرها وراءها . والا فكيف استمرت في العيش مع الحظ الذي جعلها زوجة ، رجل مسن وتركها ارملة مع ستة اطفال ؟ تساءلت عما اذا كانت تبكي لفراق زيلا على الرغم من ان بازدو كانت مبهجة اكثر بكثير . ولكن بالطبع ما كان لها ان تعرف ذلك وكأي عروس تقليدية لم تكن قد رأت زوجها المستقبلي ولا منزل المستقبل ايضا .

بعد وصلة الغناء تلك ، قرر شيروا ان يعلم جيرد الرقص. شكل الرجال صفا تحت الشمس الحارة ،بعيدا عن الاشجار وتماسكت الايادي وبدوءوا بهز اكتافهم ،وتمايلو في مشيتهم ،قفزواء من ثم جثموا في ذلك الرقص السريع الذي يوءديه الرجال الاكراد . كان شيرو يلوّح بوشاح في يده والصغير يغني . وعندما انهكنا هذا اللهو قفلنا عائدين الى القرية .

عند العودة الى الحجرة الكبيرة المحتشدة بدأت الحاجة

الى النوم وبدأ قرص البق وشعور عام بالخوف بازعاجي . لقد عدنا للجلوس ثانية ،والى مرات لاتحصى من احتساء الشاي . وبين فترة واخرى كنت اسأل عن بقية حفلة العرس . متى ستزف العروس؟ لقد فهمت منذ برهة قصيرة انها موجودة في القرية مسبقا . كانت هذه العروس قد فرّت من والدها منذ شهرين مضيا ،واتت لوحدها الى زيلا مع زوجها المفترض ، لأن والدها كان يطلب مهرا أعلى من اي مهر كان يرغب في دفعه اي شخص ،فسألت صلحية :

ـ هل يعني هذا انه لن يكون هناك مهر ؟

فأجابت :

ـ لا ،ينبغي على العريس ان يدفع شيئا ما او ستنشب حرب بين العائلتين .

بينما حاولت ان افهم مايجري في الطريق ،سألت عما اذا كانت العروس ستزف على حصان من المنزل الذي تمكث فيه في القرية. لقد كانت الاحصنة هي الوسائل التقليدية لاحضار العروس . على الرغم من ان سيارات الاجرة الريفية كانت قد حلت محلها الى حد ما .

نظر القرويون الى بعضهم . لقد قرروا مسبقا ان سيارتنا هي التي ستحضر العروس ولكنهم لم يخبرونا عن هذا حتى ذلك الحين . خرجوا الآن وسألوا اذا كان بامكانهم استخدام سيارتنا القرمزية الفاتحة . وقبل ان اقدر على الاجابة ،اقترح دارا ان يستخدموا حصانا هذه المرة بما ان الحفلة ستكون موضوع صور مثيرة . كان يعلم اني ارغب في اخذ الصور ،ولكن رغبة دارا اهملت . كان الجميع في زيلا ،عدا صلحية ،يعاملون دارا كما هو تماما ، صبي ذو خمسة عشر عاما .

شرعت في النظر من خلال النافذة ، بينما بدأت المحادثة تنحرف عن موضوع العرس رويدا رويدا . لقد تلبدت السماء بالغيوم وبدأ المطر بالهطول . نبأت القطرات المائية الضخمة بوابل صيفي . وكان بامكاني تماما ان اتصور ما سيحدث لهذه الارض القاحلة

بعد بضعة انشات من المطر . فالمسيلات التي عبرناها ، كلهـــا ستتحول الى انهار متدفقة ، تجعل الطريق غير ممكن عبوره . ربما لن نقدر على السير الى المنزل . وقد اثقل علي شعوري انـــي سأبقى في زيلا الى الأبد .

بدأت أسأل مضيفينا عن التأثيرات التي تتبع السيل،وقالوا موءكدين الإحتمال الأسوأ : نعم يمكن للطريق ان تضبح غير سالكة. انتفضت واقفة لدى سماعي هذه الاخبار ومشيت الى جيرد وقلـــت بالانكليزية :

ـ لقد سئمت انتظار هذا العرس . دعنا نذهب ، ستعوقنـــا المياه اذا جرفت الطريق .

نظر اليّ جيرد فزعا.لم اتحدث معه بالانكليزية امام الاكراد ابدا تقريبا ،بل كنا نستخدم الفارسية لكي نكون مفهوميـــن وهمس قائلا :

ـ ماذا تفعلين ؟ ارجعي واجلسي .

ذعرت لهذه الاجابة غير المتعاطفة معي . وبدا كأن كل انش مربع من جسدي قد اهتاج غضبا . كان المطر يهطل بغزارة وسرعـــة رهيبة . والاجزاء المتعددة من لباسي ذي الطيات الكثيرة قـــد تصلبت من العرق ،وكان بقية الاشخاص في الحجرة ينظرون الـــيّ بفضول اكثر منذي قبل عندما وقفت قرب جيرد وانا اتكلم بعصبية بلغة اجنبية . فكرت اني لن اقوى على البقاء حتى ولو لحظـــة اخرى في زيلا . واذا لم يغادر جيرد ، فسأغادر انا . ما كنـــت سأقيد نفسي في انتظار عرس لن يحدث إبدا ، بهذه الافكار خرجـــت بمشية بطيئة من الحجرة وهبطت الدرجات . الى ان وصلت خارجـــا تحت المطر الهاطل بغزارة . وهناك فتحت باب السيارة بحركـــة سددت ضربة لقرون معزة واغلقته علي . وبدأت بالنشيج. لقـــد كانت تلك ، هي الدقيقة الوحيدة التي انعزلت فيها مع نفســـي خلال ست وثلاثين ساعة . حتى اني لم اكن قادرة على التبـــول

بمفردي في زيلا ، بسبب عدم وجود مراحيض خارجية في القرية حيث كانت صلحية ترافقني وتقف حارسة في كل مرة .

ظهر جيرد بعد دقيقة عند نافذة السيارة وهو يهتف من خلال المطر . حدقت فيه بغضب وبعدئذ وقفت صلحية امامي فجأة وهي مبتلة وقد علا وجهها امارات من القلق . فتحت لها الباب لتدخل فسألت :

ـ ما الأمر ؟

شعرت بشحوب في وجهي الذي بللته الدموع واوضحت لها على نحو واه :

ـ انا وجيرد نتناقش حول امر .

وقالت بلطف :

ـ عودي الى الداخل يامارغريت . لايمكنك السير تحت هذا المطر الغزير .

خرجت بهدوء من السيارة عائدة ، واخذت صلحية بيدي . وقادتني الى الداخل ومن ثم الى الطابق العلوي . شعرت بالراحة بعد بكائي وبعد ان اختليت لدقيقة مع نفسي ،ولكني كنت خائفة من مواجهة الناس فوق . ماذا سيظنون ؟ سيعرفون جميعهم انني كنت ابكي .

لكني عندما نظرت الى سكان الحجرة ، موس وزوجته ، شيروة دارا وكل الاعمام وابناؤهم ،بدوا مختلفين . فبدلا من ان يظهر عليهم الاندهاش أو الانزعاج كما توقعت ، بدوا قلقين وإكثر ألفة مما بدوا لي من قبل . ربما انا ايضا بدوت اقل غرابة لهم . وتبادلنا الابتسامات . بعدئذ تكلم موس قائلا:

ـ عليك ان تنتظري الى ان ينتهي المطر قبل ان تسيري الى اي مكان . عندما يكون الجو على هذا النحو ،فان السواقة خطرة جدا .

بعد مضي نصف ساعة على ذلك ،توقف المطر وبدأ العـــــرس. ذهبت في البداية انا وصلحية الى كوخ صغير لانوافذ له ، حيـــث كانت جميع النسوة قد تجمعت فيه ،وتنوراتهما تخشخش ، وتصطدم الهدايا الواحدة بالاخرى وهن يرمينها الواحدة تلو الاخرى فـــي سلة مستوية موضوعة على الارض وسط الغرفة . كانت معظم الهدايـــا قوالب صابون او اوشحة،ولكن كان هناك فساتين واحذية ايضا مـــن قريبات العريس.

بعد ذلك شكلت النساء رتلا وهن يخرجن من الغرفة . وشـــكل القرويون حلقة وبدوءوا بالرقص التقليدي بالتناغم مع ايقـــاع الدنغ بيز . اقحمنا انا وجيرد نفسينا الى جانب صلحية وشيــرو واثنتين من اخوات العريس الى السيارة لنقوم برحلة من مئتـــي متر الى المنزل الذي كانت تمكث فيه العروس. وتسلق بقيـــــة الضيوف مقطورة مسطحة يسحبها الجرار الوحيد في القرية .

وصلنا بعد عدة دقائق الى منزل ارشدنا اليه لذخوله لاحتساء الشاي . شكل ضيوف العرس حلقة ورقصوا حول سيارتنا الــــى ان قادت الحماة كنتها الى خارج الحجرة الواقعة الى جانب الفناء، كان قد لفّ وشاح برتقالي حول وجهها ، لذا فكل ما كنا نقـــدر على روءيته كان فستانها الساتيـن الاحمر وحذاوءها ذو اللـــون الاسود والابيض المزين بالازرار على الطراز الحديث وكان يلـــوح من تحت اهداب اطراف فستانها . عند هذا حاول عشرة اشخـــاص صعود سيارتنا الصغيرة . وحدثت مشاجرة خفيفة عندما رفضت صلحية وشيرو ان يعطيا مكانهما لجماعة من طرف العريس. وصعـــدت العروس فقط معنا . رفعت صلحية الغطاء عن وجهها لتريني ايـــاه ولكن كل ما لمحته قبل ان تصعق العروس وتعيد الوشاح الى مكانه، كان عينين سوداوين . سرنا في الانحاء لفترة قصيرة حسب تعليمات شيرو ،لنتوءكد اعتقاد اننا كنا نزف العروس من مكان بعيد ومـــن ثم عدنا الى منزل العريس ، حيث كان ينتظر هو ورفاقه فـــوق السطح ليرمي جرة ممتلئة بالسكاكر على رأس العروس قبل ان تعبر

عتبة الباب . ارتطم السكر برأسها بضربات كتومة موءكدا انهـا ستكون زوجة حلوة ومن الموءكد انه سبب لها صداع رهيب ومن ثـم ستقضي العروس بقية الامسية جالسة في الحجرة الصغيرة العديمـة النوافذ مع هداياها ،بينما ستستمر الحفلة بدونها .

على الرغم من ان العروس زفت وان الشمس ستأفل حالا ،لـم اعد اشعر باليأس لمغادرة زيلا . ولكن هناك سبب آخر للمغـادرة ليس له علاقة مع مخاوفي السابقة ، فطالما اننا باقون ،فان ذلك لن يعدّ عرسا ، بل عرضا لاثنين من الاجانب يحضران عرسا .

بينما كانت صلحية وشيرو يزودانننا بتعليقات متواصلة عـن العادات والتقاليد الكردية ،لم يستطع بقية القرويين رفـع انظارهم عنا . فاخوات العريس ما كن قد ارتدين ملابسهن وحليهـن المبهرجة وبذلك اتيح لكل امرىء ان يحدق في الزوجين الغريبيـن. لقد حان الوقت كي نعيد العرس الى خيال . عندما التفتنا نحـو مضيفينا لنودعهم توقف العرس تماما ولم يبدأ ثانية الى ان سرنا بعيدا . وعندما ابتعدنا وبلغنا السهل غطت فناز في نوم عميـق وبدا كل شخص شاردا وسارحا في عالم خاص به ،غادرنا في بازدو فناز، صلحية ودارا وسرنا انا وجيرد عائدين الى ريزاي وحدنا.

حالما اتجهنا شرقا صوب البحيرة حولت الشمس الآفلة حقـول القمح حولنا الى ذهب متوهج . وعلى مسافة قريبة ظهر لـون البحيرة الفيروزي وظلال عديدة اكثر كثافة من زرقة السمـاء الفاتحة. قبعت القرية خلفنا في الظل . وحالما وصلنا المدينـة عند الغسق كانت المحلات التجارية قد أضاءت انوارها للتـو. انطلقنا بسرعة مارّين بالسينما وبنوافذ البوتيكات البلوريـة الكبيرة ذات الاطارات المطلية بلون الكروم ،نظرت الى كـل ذلك بعينين قروية . كم بدت حديثة وملونة بعد لون زيلا البنـي الشامل . هل حقا اننا لازلنا في نفس السنة وفي نفس اليـوم؟ بماذا يشعر سكان زيلا عندما يغادرون قريتهم ويأتون الى مـدن

مثل شاهبور وريزاي ؟ هل يكرهون الاتراك لسيطرتهم على هذه الواحات ؟ هل يقبلون الاختلاف على انه مقدّر من عند الله ؟ .

قضيت الكثير من الوقت وانا افكر بزيلا وبالسلوك الذي انتهجه الناس هناك.لم استطع ان اجزم اذا كان هنالك شيء حقيقي لاخشاه . من المحتمل ان يشعر بعض الطهرانيين أوالزيزانيين المتمدنين بالراحة في زيلا . لم تكن المسألة اننا لسنا ايرانيين ، بل اننا كنا من المدينة واننا ننتمي الى الطبقة الوسطى . كان صدى كلمات العمال في شارع السنيين لا يزال يطن في ذاكرتي.نحن عمال ، نحن عمال .

كانت زيلا هي تجربتي في صميم واعماق كردستان . وعلى الرغم من ان اراضي دستان وخوشخان ومانوا اكثر غنى من زيلا فان معظم اهالي هذه القرى لايعيشون مثل الخانات الذين زرناهم هناك . لم يكن لديهم جرارات او سيارات لاندروفر او مولدات كهربائية مثلما كان لدى الحاج اسماعيل . انهم لايمتلكون الارض التي يعملون فيها او يسيطرون على مصدر المياه الذي يحتاجونه لانماء الحبوب ،حتى ان معظم الاكراد القرويين هم اشد فقرا من شيرو وموسى ، كانوا سيستمتعون بتفكيك سيارتنا في دستان وخوشخان ومانوا ،وفي زيلا ولكن مضيفينا منعوهم عن ذلك بطريقة موءثرة .

كانت زيلا تمثل كردستان وهي مجردة من الاوهام والصور الخادعة . لم ار هناك سوى ارض طينية قاحلة تثير الرهبة في النفس ، ومساكن طينية موشكة على السقوط ،وضربا من اليأس يدفع الى آخذ الأحصنة الى تركيا لبيع اي شيء في ساحات اسواق ايران التي تعاني من التضخم.لدى عودتي الى ريزاي المريحة وبعد ان اصغيت الى القصص التي جمعتها ادركت ان اناس زيلا كانوا اغنياء بطريقة واحدة ولو انهم كانوا فقراء ووسخين باقسى ما يمكن ان تحمله المعاني . كانت ارضهم فقيرة لاقيمة لها ولكن تهريب المخدرات يمكن انيفضي بهم الى السجن . وحتى ان تبادل الاحاديث

الثورية عن كيفية عدم تقديم الحكومة المساعدة لهم كانت اكثر خطورة .

كل ما ترك لهم كانت الحكايا . في المساء وتحت ضوء الكيروسين او في ايام الشتاء الطويلة المعتمة، نسج القرويون هذه الحكايا. كانوا يتبادلونها ويوشونها كأنفس الإنسجة . لقد استغرقت اسابيع من العمل مع ذارا قبل ان افهم كل الحبكات المعقدة والحوار . ولكني عندما فهمتها تمنيت لو انه باستطاعتي ان إذهب الى زيلا ثانية لافتش عن المزيد .

اردت ان افهم على نحو افضل من اين اتت هذه التنانين والاميرات الشجاعات والساحرات . تثير القصص التي جمعتها الذهول بالكلام غير المحتشم وبالمبالغة والخيال الذهبي الذي تتضمنه . لقد اجبرتني على أن ارى هوءلاء الرجال نصف الجائعين تحت ضوء روءية جديدة على انهم كائنات بشرية تنتصر على بيئة عدائية ، وانهم استطاعوا الاحتمال ليس بمعونة السماد او تجهيزات المزرعة بل بمعونة اخيلتهم الخصبة .

الفصل السابع عشر

من الواضح ان السافاك قد قضى فترة في التفكير مليا في صورة غامضة كان صديق في الولايات المتحدة قد ارسلها لنا . وعندما تلقينا الطرد البريدي بعد اسابيع عديدة من وصوله الى ريزاي ، تفحصناه لدقيقة او اثنتين مقلبين اياه لنلقي نظرة عليه من جميع الزوايا ،محاولين بذلك ان نكشف فيه الشيء الذي اثار اهتمام البوليس السري . ومن ثم حدد جيرد بدقة البحر الازرق الغامق المشكل على هيئة حصان في الزاوية اليمنى عاليا. بعدئذ اعطت البقع البيضاء الظاهرة في التغضنات السوداء البادية مثل اوردة ، شكلا جليا لدى تمييزنا التلال المغطاة بالثلوج الواقعة عند سفوح الجبال وقمم زاغروس في الشتاء . لقد كانت صورة لكردستان مأخوذة من قمر اصطناعي . والبحر الازرق الغامق الشبيه بالحصان كان بحيرة ريزاي الداخلية العريضة التي تعوم على نحو غامض في الزاوية الشمالية الغربية المغمورة في مساحة واسعة من الارض المعروفة بايران .

يحكى أنه كان في ايران اكثر من بحر ملحي داخلي واحد ، لكن هذه البحار قد تحولت الآن الى صحارى ، وعلى الرغم من أن بحيرة ريزاي لازالت واسعة ، فانها تجف ببطء . وعلى الرغم من احتوائها على نسبة عالية من الاملاح المهلكة ،فان البحيرة تعتبر بحرا سخيا في منطقة ينقصها الماء مثل ايران ، يسمي الاكراد المنطقة الواقعة بين المدينة والبحيرة ب"عجمستان" ،أي ارض العجم وكانوا عبر القرون قد قاموا باكثر من محاولة للسيطرة عليها . يقع قسم من اخصب الاراضي في اذربيجان الغربية قرب البحيرة ، ولكن في الوقت الراهن ـ ومثلما كان من قبل ـ لازالت الارض في ايد غير كردية من اتراك وكذلك بعض الارمن والآشوريين ويقتصر الاكراد الساكنون في الجبال على القيام برحلات سنوية

ما استطاعوا الى ذلك سبيلا للانتجاع في مياه البحيرة الصحية ووحلها الكبريتي الدوائي .

ان الاكراد ليسوا الناس الوحيدين الذين يترددون على بحيرة ريزاي في الصيف ، والمسماة الآن" بحيرة اورميا". لايمكن ان تجد الاتراك والاكراد ،الرجال والنساء ،المسيحيين والمسلمين من الذين يستحمون في البحيرة في يوم حار في شهر تير الايراني بهذا القرب الشديد في اي مكان الا في البازار ، ولكن في البازار يكون كل شخص مغطى او بالاحرى متسترا جيدا . ليس هناك مكان في جميع انحاء اذربيجان الغربية شبيه بهذه البحيرة ،فهنا ، وللامانة ، تصل ايران الى اقصى حالات عريها .

كنت انا وجيرد نشكو مثل بقية السكان غير الموسميين من الازدحام في حركة المرور في فصل الصيف ومن تضخم الاسعار التي يسببها السياح ولكن الحقيقة الأسوأ من ذلك هي ان البحيرة لم تعد تخلو من الناس . بذلك لم يعد باستطاعتنا الخروج الى الشاطئ دون ان نرى احدا مثلما كنا نتجول على الهضاب نلتقط الخشخاش او خارجا فوق الرصيف الممتد في البحر لنراقب وصول المركب القديم المسمى " نوح " من رحلته الى تبريز . كان حشد الحافلات وسيارات الاجرة والسيارات الخاصة يشغل هذا الطريق ما يقارب العشرة كيلومترات . وقد تبعثرت على الطريق العام المعبّد الذي يحاذي معامل اللبن والخمر وسجن ريزاي حيث تجد جثث كلاب واغنام بائسة مبعثرة هناك . ومع ذلك فقد كنا لانزال انا وجيرد ننجح في الاجتياز بسلام في الذهاب الى مكان ابعد . فقد كنا نسير بجانب شاطئ المدينة الرملي العام ،وشاطئ بوي سكوت ونادي الضباط المقتصر عليهم فقط ،الى ان نخرج الى جانب صخور حيث كان ينعدم في تلك المنطقة الرمل والسباحون . كانت خديجة تعاتب شاكية من ان الخوض نحو الداخل الى منطقة الصخور ليس سليما وذلك لعدة مرات عندما كنت اذهب معها . بما ان الاكراد لم يكونوا سباحين ماهرين فقد كان سطح الشاطئ المنظور مهمّا

لهم اكثر مما كان بالنسبة لي . ولكن السبب الحقيقي لاعتراضات ومخاوف خديجة ونسرين ايضا كان يكمن في شيء آخر .ولم إكن اعلم اين، الى ان قضيت اخيرا يوما لاينسى في مدينة .ريزاي .

بدأت الرحلة من منزل في المدينة كانت عائشة وعبدالله يخزنان بعضا من اثاث منزلهما فيه . وكان الوقت آنئذ اواخر حزيران وقد بلغ ذروته الموسمية في البحيرة وكان الاكراد الذين تسمح لهم قدراتهم وظروفهم ينزلون من الجبال للاغتسال وليس بحثا عن المتعة . وعائشة وعبدالله كانا يزوران المدينة اكثر من اي كردي آخر ،وكان الترف يلوح عليهما في اسفارهما. فعندما وصلنا الى مكان لقائنا معهما وجدنا ما لايقل عن نصف دزينة من الخدم يساعدون في تحميل سيارة اللاندروفر الكبيرة . كان هنالك العديدمن القدور المعدنية الضخمة الملفوفة في مناشف وابزيق شاي صيني وكوءوس شاي صغيرة مع اطباقها وكذلك سلال محشو فيها إغذية غير معروفة وادوات واواني اخرى . كان هنالك بالاضافة الى الخدم ستة اشخاص ،عائشة ، عبدالله ،خديجة ، جيرد وانا ونسرين التي كان الحاج اسماعيل قد سمح لها بمغادرة دستان لهذه المناسبة الخاصة .

لدى وصولنا الى البحيرة حصل موقف ينم عن التهذيب ، حيث سُئلنا انا وجيرد عن المكان الذي نرغب ان نسبح فيه ،وبما انه كان لدي احساس داخلي بما يمكن ان يكون عليه الشاطىء العام ، فقد اقترحت البقعة المعزولة التي كنا نذهب اليها عادة ، راق اختياري للشيخ عبدالله ولكن تعابير من الفزع صدرت عن صديقاتي فقالت نسرين :

– ان المكان الذي تريد مارغريت الذهاب اليه مكان رهيب .

وقد وافقتها على ذلك خديجة . لذلك سرنا عبر ممرات شاطىء ريزاي العام الضيقة حيث اقترب منا بعض الاتراك ذوي الملابس الرثة ، بينما كانوا ينتظرون السيارة لتتوقف . تفاوض الشيخ

عبد الله معهم على استئجار ثلاثة اكواخ اذا صح التعبير، لقد كانت أسوأ نوع من المنتجعات ، فقد كانت مبنية من الـــواح خشبية مع الخيش وارضيات من الورق المقوى القذر . وبعد ان توزعنا على اكواخنا على هذا النحو : الخدم في احد الاكواخ وانا والنساء الاخريات في كوخ آخر وجيرد والشيخ في الثالث ، قررنا ان نمضي نحو الماء مباشرة . ذهبت النساء في اتجاه والشيخ وجيرد في اتجاه آخر . ومكث معظم الخدم في اماكنهم لاعداد الطعام . عندما وصلنا بقعة اعتبرتها عائلة مناسبة ، بدأت النساء جميعا ،بخلع ملابسهن وصولا الى القمصان الداخلية القطنية او النايلونية الرقيقة . كانت جميعها تحت" الفستان والكراس." وبما اني كنت قد ارتديت لباس السباحة تحت فستان طويل فقد انتهيت من خلع ملابسي قبلهن . وبينما وقفت انتظر ،رأيت عددا من الذكور الكاملي اللباس يجوبون الشاطئ على مهل ذهابا وايابا ، على الرغم من اننا كنا لانزال في مطلع الصباح ولم تكن المكاتب في المدينة قد توقفت عن العمل بعد في هذا النهار. ماذا كان يفعل جميع هؤلاء الرجال ؟ .

اخيرا تقدمت النساء صوب الماء بخطى وقورة ،يغطسن انفسهن تدريجيا . وفي رأيي ان اللباس المبتل ،كان فاضحا اكثر من بذلة السباحة التي ارتديتها ، ومهما يكن فان ذلك لم يبد متناقضا لاحد غيري . ولا أظن ان احدى هؤلاء النساء الكرديات قد فكرت بارتداء لباس السباحة والذي يقال له " مايلوت " بالفارسية لأن ذلك سيكشف عن سيقانها العارية والأسوأ من ذلك كان سيشير الى انها تمارس السباحة كرياضة ولن تعتبر مجرد زيارة سنوية للبحيرة ،لاغراض علاجية بحتة .

بينما كنا نعوم جميعا ونبلل انفسنا في الماء الضحل، سبح بالقرب منا شابان ذوا شعر اسود ويتحدثان التركية ،كانا يرتديان بنطلونين اسودين قصيرين للرياضة ،نظرت اليهما وقد ملأني الرعب ، وتساءلت عما يمكن ان تقوله النساء ،توقعت ان

يهمل الرجال ببرود على اقل تقدير ، ولكن ومما اثار دهشتي، ان نسرين بدأت تضحك معهما وعلى مايبدو مشجعة الرجلين لـلبقاء قربنا . وتصرفت خديجة على نحو ابدت فيه المودة ،وحتى عائشة المتكلفة بالجد والاحتشام والتي اضطرت لأن تتناول طعامها في نفس الحجرة التي كان فيها زوجي لم تبد متضايقة من اقتراب الرجلين التركيين ، وهما في وضعهما المشترك من العري ، من الصعب علي تصديق ان هوءلاء النسوة اللواتي كن يمضين عادة متسترات في شوارع ريزاي كن الآن في البسة فاضحة وبينما كان الرجلان التركيان الغريبان يسبحان بالقرب منهن .

التفت وبدأت بالسباحة مبتعدة عنهما وبقيت النساء في اماكنهن ينادينني كي اعود ،فقد كان الماء خطرا وبالتأكيد سأغرق . كانت صديقاتي يفزعن من الغرق ،على الرغم من ان نسبة ملوحة مياه البحيرة كانت عالية بحيث تجعل جسم الانسان مثل فلينة . كان سهلا عليهن ان يمشين بجوانب الوهاد الشديدة الانحدار ، والتي كانت تجعلني ارتعد من الخوف ،ولكن الماء لم يكن المحيط الملائم لهن . بدأ الرجلان بالسباحة متقدمين صوبي وكنت متأكدة تماما من ان دافعهما الى ذلك لم يكن الخوف على سلامتي . لقد كان امرا طبيعيا ان يعبثا مع جماعة من النساء الكرديات ولكن الباعث الحقيقي كان وجود امرأة غربية في لباس السباحة المثير للغريزة الجنسية .

بحثت عن جيرد عبر الماء وسبحت مسرعة باتجاهه ، وبذلك خلفت الرجلين ورائي تدريجيا . وعندما وصلت قرب جيرد جهرت بشكواي . لم يكن هذا الشاطىء مليئا بالرجال الذين كان غرضهم الوحيد يكمن في القاء نظرة على جسد انثوي فحسب وهو غاية مفهومة ، ربما بعد السأم من الحجاب السائد في الشارع ، بل ان الماء نفسه كان قذرا . فقد كان من الضروري السباحة بعيدا جدا لتجنب النفايات التي تلقى قرب الشاطىء تماما . ولم تكن النفايات تلقى على الصخور التي اعتدنا الذهاب اليها ابدا .

عندما خرجت من الماء انطلقت بسرعة نحو الشاطىء الى حيث تركت ملابسي . كنت اعرف ان الركض قد جعلني اكثر وضوحا ولكن كل همي كان هو ان اختصر الوقت الذي يظهر فيه جسدي في لباس السباحة فقط . لقد اثارت نظرات الرجال المسلطة على جسدي، عصبيتي لدرجة اني لم ألاحظ اجساد النساء المكشوفة على طول الشاطىء . وفي وقت لاحق فقط ،وبعدما اخذت قسطا من الراحة وقبلت التحديق على انه شيء محتم وواتتني الفرصة لأن أشاهد على نحو جلي الصدور العارية ،البارزة من خلال العباءات او الالبسة الداخلية المبللة التي كانت تظهر بوضوح سطوح وتعرجات هذه الاجساد الانثوية الطبيعية المخبأة ، عادت النسوة الكرديات الى الاكواخ وهن يضحكن بابتهاج . ولدى اقترابهن منها اسرعن بالدخول اليها مبتعدات عن نظرات جيرد . ولكن اقتراب الرجلين منا على الشاطىء ، وعبث نسرين معهما خلق لدى شعورا مثيرا للسخرية ازاء هذا التمايز الفاضح والعفيف بالنسبة لهن . لقد كان من الصعب علي كامرأة اجنبية استيعاب كيف يمكن لبنات الحاج اسماعيل وكنته ان يبررن مجيئهن الى هذا الشاطىء بعد الاهتياج الذي كن يظهرنه عندما كن ينكشفن امام رجال غرباء في اي مكان آخر .

بعد تناول وجبة غذاء ثقيلة وكبيرة وقد تلاها فناجين شاي يتصاعد منها البخار ،شعرنا بالنعاس وبعدئذ حان الوقت لتحدي الشاطىء ثانية . في ذلك الحين وعند العصر تماما كانت الحركة على الشاطىء في ذروتها . فقد كانت حشود الرجال تتحرك بشكل فوضوي ذهابا وايابا ليسترقوا النظرات على نحو يعوزه الذوق بينما ، كانت النساء العجائز والشابات على نحو مماثل يتسكعن عند طرف الشاطىء في الماء الضحل ،بعضهن مع اقربائهن من الرجال وبعضهن كن وحدهن . كان من النادر ان تجد سباحين يغطسون على رؤوسهم والبعض القليل الذي كان يقوم بذلك كانوا ذكورا ،ولتعاسة حظي ،ولدى انضمامي الى جيرد معتقدة انني سأبتعد عن الحشد الزاحف على الشاطىء ، بدأت زمرة من الرجال

بالسباحة قربنا ، محاولين ان يلقوا نظرة عليّ عن قـــــرب ويخاطبوننا بانكليزية بسيطة ومكسرة .

حالما خرجنا من الماء ثانية وقد كستنا قشرة من الملـــح اشتكت خديجة من ان دورتها الشهرية قد بدأت ،هذا هو ما كنـــت افتش عنه ،فاقترحت ان نسير بها الى المنزل حالا . كنت ابحـــث عن اي مبرر لكي نغادر . قبلت خديجة عرضي ممتنة ، ولكن اصوات غامضة تعبر عن عدم الموافقة صدرت عن نسرين . وقد تركت لـــدي انطباعا بأنها تعتقد ان على خديجة الا تسافر وحدها مع امـــرأة اجنبية وزوجها الخطر ،او انها ربما ارادت فقط مبررا لتذهـــب معنا ، على اية حال صرّحت انها هي ايضا ستغادر ، نظر الينـــا الشيخ عبدالله ، وقد بدا عليه الاحباط ،لماذا سنذهب بهـــــذه السرعة ؟ كان من المستحيل ان نوضح السبب الحقيقي .

ها نحن الآن ،غربيون رغبوا في السباحة ،وكثيرا ما عبـــروا عن مدى السرور الذي تثيره البحيرة في نفوسهم ،هانحن بالقـــرب من البحيرة او بالاحرى عند شاطئ المدينة نواجه مشهد اجتماعـي ايراني وهو في قمة فظاظته ، كان المشهد يبدو كما لو آن احـــدا قد قلب شوارع ريزاي رأسها على عقبها ، وجعل باطنها ظاهرهـــا. كانت النساء في شوارع المدينة متسترات ،بينما كان الرجــــال يرتدون مايرغبون فيه . اما هنا فالرجال كانوا بكامل لباسهـــم بينما كانت النساء نصف عاريات . ولدى عودتنا الى القرية كـان مهمّا لنسرين ألا يقول احد عنــها انها قد ركبت السيارة وحدهـــا معي ومع جيرد ، ولكن لا احد سيظهر قلقة عن كيفية ظهورها امـــام سباحين تركيين .

- دعينا نتمشى لبضع دقائق .

اقترحت نسرين وخديجة ذلك تماما ، قبل ان نهم بالمغـــادرة وبما ان جيرد والشيخ عبدالله بدوا مستغرقين في محادثة ، لـــم يكن لدي مبرر للرفض ، تجولت معهما على مضض يدا بيد ، اشاهـــد الناس وهم بدورهم يرونني ، لقد كان هنا لقاء الاكراد والعجـــم

الحقيقي ألذي شهدته خلال اقامتي في ريزاي . كان فيه شيء من الموضوعية ،مثل الاختلاط في الكلية ،مشهد اجتماعي نشأ من باطن اليأس ،مشهد عذراوات وزوجات كرديات ما زلن تحت الوصاية وقد تركن للخروج من قراهن لبعضة ايام ،ورجال يعيشون في مجتمع لايقدر العديد منهم على تحمل أعباء الزواج الى ان يبلغوا الثلاثين او الاربعين من العمر .

كان كل شيء ممتعا جدا ومنورا للعقل عدا شيء واحد ،وهو انني لم أقو على البقاء مجرد متأملة متحفظة . وكما هو الحال دائما ،فان سلوكي الحقيقي وملابسي لاعلاقة لهما بالموضوع .ففستاني الطويل وبذلة السباحة الشبيهة ببذلة عمل لم تكن تشير الى شيء الا الى امرأة اجنبية غربية . فاذا كانت النساء الكرديات قد مضين الى ذلك الحدوهن على الشاطىء فالى أي مدى يمكن لامرأة امريكية ان تمضي.بالنسبة لي، فقد آثرت مياه " درمان آقا" غير غير الملوثة بالنفايات ولظوها من الاتراك البلهاء غيرالبقين. اما بالنسبة لخديجة ونسرين فدرمان آقا تفتقر الى ماهو مدهش ومثير ، وتفكيرهما هذا ينطوي على الهزل اذا قارناه مع حياتهما اليومية الرتيبة . اما ريزاي فهي حلم قد انبعثت فيه الحياة ،كنت قد شعرت بالتناقضات الجنسية في المجتمع الايراني حتى منذ مطلع اقامتي في ريزاي . فلأن الجنس محرم بشدة لذا تراه قابعا في فكر كل امرىء على نحو مستمر . وبغض النظر عمن كنت أتحدث معه فقد كنت اشعر به مستفحلا .

كان هوشنغ وشهرزاد يعلمانني ذات يوم لعب الورق ودعاني هوشنغ لأكون شريكته ، ومن ثم بدأ بالضحك المكتوم واضاف "فقط في اللعبة " ،ويمكنني ألقول ان طلابي الجامعيين كانوايقهقهون على نحو هستيري لدى ذكر اي شيء يمت بصلة ولو بعيدة الى الجنس او عند ذكر المواضيع الجنسية او معالجتها في الادب . ولكن من جهة ثانية هناك جانب رومانسي في هذا الهاجس . فالايرانيون يحبون الشعر والاغاني اكثر من اي شعب آخر قيض لي اللقاء به.

فحتى رئيس الشرطة في ريزاي كان قد علق قصيدة للشاعر الفارسي الكبير سعدي ،على حائط مكتبه. ان قصائد الحب والمآسي تخلق متنفسا للاحباط الجنسي بطريقة ما ويتحقق هذا على نحو مماثل في الحي الاحمر ، وعدا ذلك فهنالك النساء الاجنبيات بأخلاقهن المعروفة جيدا منذ عقود من الهوليود والافلام الاوربية التي تعرض في ايران .

يقول الاكراد مفتخرين انه ليست لديهم كلمة اصلية مرادفة لكلمة " داعرة" فهذه العبارة المألوفة مقتبسة من العربية. ان القرى ليست كبيرة بحجم كاف ليسمح فيها ببيوت للدعارة. ولكننا لو اخذنا كردستان الاكثر طهارة من الناحية الاجتماعية من ايران المتمدنة ، على حدة ، فقد شعرت بأن الجنس كان أقل استحواذا على تفكير الرجال الذين التقيت بهم . ربما كان ذلك نتيجة الزيجات المبكرة او بسبب قبول تعدد الزوجات ،على الرغم من أن الحاج اسماعيل كان يتوق للحديث معي ،فلم اشعر ابدا بأن ذلك الاهتمام الداعر الذي ينم عن سلوك الرجال الايرانيين يصدرعنه ،ولكن ما هو شعور زوجات الحاج نحوه ؟ هل كن محبطات وممتعضات منه ؟ لطالما راودني ذلك السوءال .

جرت المحادثة التالية في احد الايام بيني وبين طه وقد بدأت سلسلة اسئلتي بهذا السوءال :

- هل صحيح ان اتخاذ اكثر من زوجتين في ايران هو عمل ضد القانون وان الزوجة الاولى يجب ان تدلي بموافقتها على الثانية ؟

أومأ طه برأسه موءكدا ذلك ، وقد ارتسمت ابتسامة خفيفة على وجهه ، كنا كلانا نعرف اني قد طرحت سوءالا بلاغيا ،بما انني وطه كنا مدركين تماما لقانون حماية الاسرة الذي كان الشاه قد سنّه ، وكان ذلك جزءا من المراسيم التي شُرّعت لمنح النساء حقوقهن التي لايتمتعن بها تحت ظل الشريعة الاسلامية . فقد سمح القرآن للرجل باتخاذ اربع زوجات وطلاق يمكن ان يحدث في أي لحظة . كانت السبل تنعدم امام المرأة في الماضي لاحراز الطلاق

اذا لم يرغب زوجها بتركها . وكان الشاه قد غيّر كل ذلك نظريا. سألت طه على نحو جدي :

ـ ماذا ستفعلون اذا اتى الدرك الى دستان وسألوا والدك عن كل زوجاته ؟ .

فكشف عن ابتسامة واجاب :

ـ سندعوهم الى الديوانخانة ونقدم لهم الشاي .

ـ وبعد ذلك ؟

ـ وبعد ذلك سيمضون في طريقهم .

لم تشكل كلمات طه مفاجأة مثيرة للدهشة ،بعد قضاء اشهر عديدة في ايران ،لم يكن لقانون حماية الاسرة وحقوق النساء الأولوية، بل بالاحرى كان قد ورد في آخر قائمة القوانين التي ارادت الحكومة فرضها على ايران . ومع ذلك فقد كنت قد سمعت من العديد من الايرانيين عما يدعى بتحرر المرأة ، ذلك الحدث الذي كانت الحكومة تحتفل به كل سنة في "يوم تحرير المرأة" والذي لم استطع مقاومة السؤال عنه . كان طه يبدو بالنسبة لخديجة التي اصبحت زوجة منذ اقل من سنة ، راغبا في اتخاذ فتاة اعجمية كزوجة اخرى له .

يبدو ان الرجال الاكراد ينظرون الى قوانين الزواج نفس نظرتهم الى الحدود الدولية ،على انها امور يمكن مخاتلتها. لقد اقرّت تشريعات في كل من تركيا وايران لتحديد تعددية الزواج والمكان الوحيد الذي يتم فيه خرق هذه القوانين في كلا البلدين على الاغلب هو القرى الكردية .

قدمت الى دستان في مطلع الصيف مرة ومعي مسجلتي ، وقد عزمت على ان يكون موضوع المقابلات التي سأجريها هو الزواج وصرحت سوسن خانم ، زوجة الحاج الأولى ،انها كانت في الثالثة عشرة من عمرها عندما وعد والدها بزواجها لرجل [illegible] . ولكن على نحو مختلف عن برواية ماسوا المسكينه . لم تسمح [illegible] بأن تلقى في النار . وقد هربت مع الحاج اسماعيل الذي كانت قد

رأته مرة في عرس محلي لتتجنب ذلك المصير الرهيب . بعد هروبها لم يتكلم معها والدها لفترة طويلة ، لأن قبيلتيهما كانتا عدوتين . حاولت ان اتخيل سوسن المريضة ذات الوزن المفرط وهي فتاة في الثالثة عشرة من عمرها ، ولكن خيالي لم يسعفني. تساءلت فيما اذا كان الحاج مع زوجاته اللاحقات قد فكر مرة بسوسن وهي قابعة دون حركة ساعة بعد ساعة في حجرتها . هل يشعر بأي عاطفة تجاهها او يسترجع بعضا من ذكريات الماضي ؟ ام انه كان مستغرقا كليا في زوجاته الجديدات الاكثر شبابا؟.

بما ان مريم زوجة الحاج الثانية كانت غائبة عن الحجرة لذا لم استطع ان أسأل عن زواجها ،وعبرت زينب ،الزوجة الاخرى المتحفظة عادة ، عن رأيها بغير تردد او خوف . فقالت وهي تهز رأسها وتضحك :

– لم ارغب في الزواج من الحاج . لقد كنت تعيسة جدا.
ولم تقل اكثر من ذلك .*

كالعادة لم تكن كلتا الزوجتين الحديثتين موجودتين في الحجرة. تساءلت اين كانتا تقضيان وقتهما . من الواضح ان الزوجات الثلاث الاوليات المنحدرات جميعا من اسر استقراطية كي يعتبرن الزوجتين الاخيرتين اقل منزلة منهن . لذلك ما كن يقمن علاقات اجتماعية معهن ، وقبل ان اغادر ايران تماما وفي وقت لاحق عندما عدت ، لمحت شريفة ، الزوجة الخامسة مرتين وكانت حاملا في اشهرها الاخيرة ومهملة قليلا في كلا المرتين وقد رمقتني بنظرات ساخرة ، واكدت لي النساء الاخريات بأنه ليس لدينا الشيء الكثير لنفعله معا .

طلبت من الحاج في اليوم الذى احضرت فيه مسجلتي ان يروي قصة هروبه مع سوسن خانم ، فنظر اليّ وقد ملأه الرعب ورفض بصراحة ان يتحدث عنها قائلا ان ذلك شيء معيب ومن ثم وعدني بأن يدلي بحديث مطول ومنوع عن مدى تدين عائلته .

حتى لو ان زينب وسوسن لم ترغبا في التحدث عن الماضي باسهاب او عن مشاعرهما تجاه الحاج اسماعيل ، فقد حدث شيء في دستان في ذلك اليوم جعلني أتأكد الى اي مدى كانت نساء القرية خارج حماية القانون المشرّع في طهران على بعد ستمائة ميل. فبينما كنا جالسات في حجرة الحريم بعد تناول الغذاء والميكرفون ينتقل على مهل من يد ليد ليضيف كل شخص طرفة او حكاية ، اذ بالمرأة ذات الملامح الحادة بوشمها الأزرق المنقط على حنكها تبدأ بالحديث . كانت تلك ، فاطمة نفس المرأة التي اشارت اليها خديجة قبل عدة اشهر على انها والدة احدى زوجتي الحاج الاخيرتين ، تلك المرأة التي لايحبها احد . كانت فاطمة تتحدث بصوت جاف وحاد عن مسألة عدم امتلاكها لسقف يأويها وعن سفرها باحثة عن مكان لها وعن عمرها المشارف على نهايته . لم أقو على متابعة ما كانت تقوله لسبب ما ، ولكن خيّل اليّ انه لامنزل لها . واخيرا وعندما توقفت عن الحديث لبرهة عن روايتها المثيرة للشفقة . سألت عما كانت تتحدث عنه . فخيم الصمت على الحجرة ، واخيرا اجابتني نسرين :

ـ لقد اتخذ زوجها ، زوجة جديدة .

راقبت النساء ملامحي ، بينما كنت استجمع في تفكيري احزان فاطمة بصمت ، من الواضح انها لم توافق زوجها على اتخاذ زوجة اخرى ، وان زوجها لم يكن غنيا او عادلا بما فيه الكفاية ليوءمن منزلين منفصلين للزوجتين . عند ذلك شعرت فاطمة باقصائها عن منزلها ، نظرت اليها متعاطفة ،ولكن الحجرة بدت وكأنها تمور باستهجان مريم . فقد شعرت وكأن مضيفتنا كانت ترغب في ان تخرس هذه المرأة او ان تمنعها من عرض مشاكلها في مسجلتي على الملأ . ولكني كنت ضيقة ، لذلك لم تقل مريم شيئا. هل كان ذلك لمجرد ان فاطمة هي والدة احدى زوجات الحاج المستخف بهن . ام انه ثمة سبب آخر لعدم وجود شعبية لها .

لم تكن قد مرت فترة طويلة على سرد فاطمة لحكايتها عندما

شرعنا بتوديع مضيفينا في ذلك اليوم ، حيث اتت فاطمة وسألت هامسة اذا كان بامكانها الذهاب معنا في سيارتنا الى المدينة فأجبتها :

ـ طبعا ٠

بدا من الطريقة التي كانت فاطمة ترشق فيها مريم بنظراتها والتي لم تكن قريبة على نحو كاف لتسمع مايدور من حديث ، بدا انها كانت تحاول ان تبقي طلبها سرا ٠ وبينما ذهبت الى منزل مريم لاحضار شيء ما ٠ حضرت خديجة وطه الى القرب من نافذة السيارة وتحدثت معي خديجة قائلة :

ـ مارغريت ، لن تأخذي تلك المرأة معك ، أليس كذلك ؟

ـ بلى ، ولم لا ؟

ـ بسبب وجود صدامات بينها وبين زوجها ، لايريدها ان تذهب الى ريزاي ٠ يجب الا تفعلي ماتقوله ٠

اوضحت خديجة ذلك وقد لاح عليها القلق ٠

ـ لن يسبب ذلك مشكلة لنا ٠ فهناك متسع كاف في السيارة ٠

قلت ذلك رافضة ان اتوصل الى النتيجة التي تودها خديجة وتابعت قائلة :

ـ اذا كانت على نزاع مع زوجها فهذا ليس من شأننا ٠

فقالت خديجة وهي تنظر بقلق الى مافوق الهضبة باتجاه مسكن والد زوجها :

ـ ولكن يامارغريت هذا من شأن الحاج ، فزوج هذه المرأة فرد من قبيلة الحاج ، وانت ضيفة الحاج ، واذا اخذت المرأة الى المدينة فان زوجها سيلوم الحاج وهذا سيتسبب في خلق مشكلة ٠

لمحت المرأة الموشومة من زاوية نظري وهي تتدرج ببطء نحو سيارتنا ، ولكننا عندما رأت خديجة وهي تتحدث اليّ توقفت متراخية ٠ ماكنت سأرفض طلبها صراحة ، على الاطلاق ، وكل ما كان عليّ ان افعله هو الاذعان لطلب خديجة ٠ ولدى عودتنا الى المنزل

راودني في الطريق شعور بالذنب وتساءلت عما كان يتوجب علي ان افعله ، هل آتسبب في ثورة غضب ؟ وهل احدث ضغينة اورط فيها الحاج اسماعيل الذي اظهر لنا كل اللطف والمودة في قريته ؟ ولكن ماذا عن فاطمة ؟ الى اي درجة بالغة من اليأس قد وصلت لتلجأ الى طلب المساعدة من اجنبيين باخراجها من قريتها ؟ ام انها كانت تحاول عن سابق تصميم وتصوران تريك الحاج اسماعيل؟ لماذا تكن لها مريم كل هذا الحقد ؟ هل كان ذلك ،لأنه توجب على مريم نفسها ان تعيش تجربة اتخاذ زوجة اخرى واحضارها الى منزلها ؟ لربما ان مريم لاتبد تعاطفا تجاه النساء اللواتي لايتحملن ما كانت تتحمله هي نفسها .

لقد شعرت في مريم ـ التي كانت اكثر المضيفات تهذيبا واكثر الامهات حنانا ـ قساوة ، اظهرت نفسها في تعاملها مع كنائنها . كانت مريم ، مثل الحاج اسماعيل تعتبر نفسها متدينة جدا فقد كانت تصلي خمس مرات في اليوم ،وتقرأ القرآن باطراد وانا متأكدة من انها وعلى الرغم من اعتدادها بنفسها واستقلالها قد قبلت القوانين الاسلامية المتعلقة بالمرأة . ومن المحتمل جدا ان مريم كانت تنظر الى فاطمة كامرأة شاكية ضعيفة تخلق المشاكل لنفسها وللبقية في دستان .

ولكن لم تكن الزوجات وحدهن مسجونات في دستان ، فقد كانت الفتيات غير المتزوجات اقل حرية بكثير . وعندما بدأنا انا وجيرد نسلّم بأن النساء الكرديات هن اقل ضيقا في افق التفكير من نظيراتهن الفارسيات والتركيات المتمدنات ،وقع حادث في دستان اظهر لنا مدى فهمنا الناقص . وبالطبع فان دستان لاتمثل كل قرية والحاج اسماعيل لايمثل كل اب .

لم تكن خديجة قد نشأت مثلما نشأت عليه بنات الحاج اسماعيل وكانت قريتها بعيدة جدا وطريقة والدها في الحياة كانت لاتزال نصف مترحلة . وعلى نحو مغاير عن سلفاتها المنفصلات

كانت خديجة قد قضت الكثير من الوقت فوق ظهر الفرس ومن الواضح ان عائلتها لم تكن تهتم بحماية عفتها لدرجة متناهية وكذلك كان واضحا ان فتيات زيلا ماكن قد نشأن مثل آمينة وآلال ولكن الحاج اسماعيل لم يرتكب اخطاء بقدر ما كان الموضوع يمت الى نسائه بصلة .

كان الوقت يصادف أواخر حزيران عندما سرنا صوب فناء دار الحاج اسماعيل ، حيث ظهرت اهرامات ضخمة من القش عند مدخل القرية . أوقفنا سيارتنا ونزلنا منها ، وتقدمنا نحو الامام باتجاه حجرة الحريم التي لم نر فيها ابدا ،ولم نبصر الحشد المألوف من الاطفال الرثي الملابس ،لا الخدم ولا الخادمات ، وحتى ولا كلب ، كانت سيارة الحاج اسماعيل اللاندروفر الخضراء غائبة، ولاح الفناء الخالي غريبا تحت اشعة الشمس المحرقة . وتماما عندما بدأ الشعور بالندم يراودنا لقرارانا التلقائي ، للقيام بهذه الرحلة القصيرة غير المعلن عنها ،ظهرت آمينة وآلال في الردهة فنادتاني قائلتين :

– أهلا مارغريت . كيف حالك ؟ اهلا وسهلا .

فأجبتهن :

– سلام آلال . سلام آمينة .

ومن ثم وبطريقة غير متقنة سألت عن مكان الحاج اسماعيل فأجابتني امينة :

– انه بعيد عن المنزل ، منشغل بالحصادة . هل تحتاجين لرؤيته .

تنامى شعوري بالانزعاج اكثر من ذي قبل.بالتأكيد نحن لانحتاج رؤية الحاج اسماعيل . وفي الحقيقة لايوجد سبب مقنع لوجودنا في دستان ،ولاداعي لمناداة الحاج اسماعيل من هذا البعد وصرفه عن عمله . سألت غير عالمة بما يمكن ان اقول غير ذلك :

– كيف يمكن ان نجده .

فأجابت امينة مشيرة باصبعها :

- ربما يكون هناك .

لم أر علامات على وجود بشر ولم ابصر سوى السهل الذهبي الواسع الممتد نحو الاسفل .

- لماذا لاتدخلان وتجلسان ،فالمكان هنا لطيف .

اقترحت امينة ذلك ولم تقل آلال شيئا . ووقفت تحدق فيّ بعينين واسعتين مشدوهتين .

ألقيت نظرة على جيرد الذي كان واقفا على مسافة قريبة، لم تكن الفتاتان قد خاطبتاه وماكنت اعلم انهما تعلمان بوجوده في هذا الموقف الغريب مع وجود امينة وآلال فقط في المنزل وعدم وجود احد في الديوانخانة خطر ببالي ان جيرد لم يدخل حجرة الحريم من قبل ابدا ،فاقترحت عليه قائلة :

- لماذا لا تنتظر في الخارج الى ان ارى ماذا يحدث ؟

أومأ جيرد برأسه تحت اشعة الشمس المبهرة . كانت درجة الحرارة مرتفعة جدا في الفناء الخالي من الظلال . تبعت الفتاتين الى حجرة جلوس النساء ذات البرودة الهادئة والجدران السميكة وجلسنا على الأرض .

- أين والد تاكما ؟

سألت الفتاتين متعجبة لعدم جلوس سوسن خانم في مكانها المعتاد وعكازتها بجانبها . فأجابت آلال وهي تفتح فمها لأول مرة منذ مجيئي :

- انهما في الخارج تحت الاشجار ،تحاولان ان تتلطفابالبرودة واضافت قائلة :

- لم تعرفا انكما قادمان .

فقلت وانا اهم بالنهوض :

- اذا لربما يتوجب علينا المغادرة . اظن ان هذا الوقت لم يكن مناسبا للمجيء .

فقالت امينة التي كانت تتمتع بكياسة اجتماعية اكثر من ابنة عمها :

ـ لا ،لا ،لا لن تستطيعي الذهاب . لقد وصلت للتو .

ومن ثم قالت لاحدى أخواتها :

ـ اذهبي الى البستان واخبري والدتي ان مارغريت وزوجها هنا .

عندما اشارت الى حضور جيرد ألقيت نظرة عليه عبر قضبان النافذة ورأيته واقفا تحت الشمس الحارة يتحرك مقتربا من النافذة ، فناديته :

ـ كيف الحال معك ياجيرد ؟

فحدق فيّ جيرد وقال :

ـ حقا ان الجو حار هنا . ماذا تفعلين هناك ؟ هل تظنين انه بامكاني المجيء الى الداخل ؟ ام ان هذا سيشكل تهديدا لسموهما ؟

لم تفهم امينة وآلال الجالستان في النهاية الاخرى من الغرفة الانكليزية ، ولكنهما أحستا بقلقي وبدأتا بالتهامس مع بعضهما وتجرأت امينة قائلة :

ـ لماذا لاتدعين زوجك للدخول ؟ .

فقلت لجيرد من خلال القضبان :

ـ انهما تدعوانك للدخول .

بعد لحظة كان جيرد واقفا عند مدخل حجرة الجلوس ولدى وصوله تراجعت امينة وآلال قليلا الى الزاوية وسحبتا غطائيهما على وجهيهما وبدأتا بالهمس بفزع . عندئذ جلست بين الفتاتين وزوجي المسيء . دأبت امينة وآلال على التحدث بانفعال بين الفينة والاخرى وكانتا احيانا تحاولان ان تكونا مهذبتين وذلك بأن تقوما بادلاء ملاحظة او باخرى اليّ . ولكنهما كانتا تتجاهلان جيرد عن عمد . وكنت اعلم ان جيرد كان متضايقا في نفسه على

الرغم من اظهاره الأدب . وكنت اعرف منشأ غضبه فقد كنت انا وجيرد نعتبر ولأشهر متتالية شخصين جنسيين منبوذين في شوارع ايران . فبينما كانوا يعتبرونني عاهرة ممكن بلوغها من قبل اي رجل ايراني عابر، فقد كانت النساء تترجل من الحافلات الريفية التي كن قد ركبنها مسبقا بدلا من الركوب في نفس وسيلة النقل مع جيرد . ولو حدث ان لمس جيرد امرأة ايرانية، لربما كانت نهايته السجن ، اذا لم تكن الموت المحتم . لقد كان موقفا لايطاق ولايمكن للمرء ان يهوّنه ليطيقه مع انقضاء الزمن ولكننا في دستان كنا نُعامل دائما كأناس عاديين . فقد جلس جيرد في حجرة مريم ، معها ومع ابنتها وكنتها ،ولم ينظر اليّ قط رجل نظرة فيها تساؤل . ولكني كنت اعرف منشأ قلق امينة وآلال ايضا ، فلكونهما فتاتين عذراوين ، فهما لن تحتملا أقل اشارة توجه اليهما . ابرز الموقف مشكلة كامنة لدى الاكراد. فمن جهة ، فان حسن استقبال الضيف امر الزامي ، ومن الجهة الاخرى من المفترض الا تظهر الفتيات امام رجل ، غير مصحوبات بفرد من العائلة .

لحسن الحظ ، عادت والدة آلال حالا من تحت الاشجار ورافقتنا الى المنزل الذي كان اخوها الحاج اسماعيل قد بناه لها في احد جوانب فناء دار الحريم . كانت گلاويژ خانم في اواخر الاربعينات من عمرها ولسنين خلت متزوجة من كردي عراقي ميال للتعددية الزوجية . ولكنه لدى اتخاذه زوجة اخرى انفصل هو وكلاويژ عن بعضهما وانت هي لتعيش مع اخيها في دستان . من الواضح ان جيرد لم يشكل تهديدا لسمعتها . ولم تكن مريم تخشى البقاء وحدها مع رجل اجنبي . ولكونها متزوجة ، فقد خلق هذا اختلافا علاوة على كبر سنها واستقلالها النسبي مع أولاد شبان. كانت مريم وگلاويژ تبدوان مرتاحتين مع جيرد اكثر من زينب بكثير . ولكن خارج كردستان فحتى النساء المتزوجات ماكن يغامرن بالبقاء وحدهن مع جيرد . فعلى الرغم من كل تعلمهن

وكل الفرص العصرية الملائمة ،فان النساء الفارسيات والتركيات ماكن يتحدثن او يتصرفن بسلوك متحرر مثل نظيراتهن الكرديات. فمثلا قام جيرد مرة بزيارة قصيرة الى جيراننا ليسلم رسالة للسيد امين زادة . وهو مدرس في الكلية . وقد اجابت زوجته شازي نفس شازي التي تخلت عني ونحن في طريقنا معا الى البازار قبل عدة اشهر بوساطة الاتصال الداخلي ان زوجها ليس في المنزل ولكنه سيعود حالا ، ومن ثم دعت جيرد للدخول قائلة :

-"بفرمايد" وتعني تفضل بالدخول . فانتظر جيرد معتقدا انها ستفتح الباب وان زوجها سيأتي ويسلم الرسالة له شخصيا وعندما لم يحدث شيء دق الجرس ثانية ، وكررت المرأة دعوتها " بفرمايد " وانتظر جيرد ثانية . ولم يحدث شيء ثانية ،عندها وقف هناك وقد غامره شعور بالغباء محاولا ان يفهم بماذا كانت منهمكة . اخيرا اكتشفت انها لاتنوي ادخاله ،فقد كانت دعوتها مجرد شكليات. كانت شازي تعمل خارج منزلها وهي خريجة كلية، متزوجة من استاذ رياضيات . ولكن كان من غير الوارد ان يخطو جيرد ويعبر الباب الخارجي في غياب زوجها ، حتى لو كان مقررا في برنامجه انه سيعود في خلال خمس دقائق .

حدث موقف شبه مماثل لهذا في يوم آخر ،عندما ذهب جيرد ليتحدث مع زوج امرأة مع ولديها ، كنت قد قضيت وقتا معها ،وهي امرأة كهلة ،ذات منزلة اجتماعية . مع ان السيدة جام تلك، لم تكن داخل منزلها ،بل كانت تشرف على الخدم في فناء الدار،فلم يسمح لجيرد بالدخول الى البوابة الامامية ليبلغ رسالة . فقد قالت السيدة جام بصراحة :

- عد عندما يكون زوجي في المنزل . وبعدئذ اغلقت البوابة. لم يكن توقف العمال في شارعنا عن وضع القرميد ،كي يحدقوا في نوافذنا مجرد دعابة ، عندما كان دارا يتردد على منزلنا. من الواضح انه لاتوجد امرأة محترمة اخرى في المدينة تغامر بعفتها على هذا النحو .

بلغت دراستنا لسلوك النساء في القرية وفي المدينة الحد الاقصى عندما لاحظنا ان الحاج اسماعيل كان يتأملنا عن كثب، فقد كنا في احدى فترات العصر نقوم بزيارة لدستان عندما قررت العودة الى المنزل ، فبعد ساعات من الجلوس في حجرة الحريم وانا اصغي الى القيل والقال الذي لاجدوى فيه ،هاجمني الشعور بالملل والاختناق ايضا من شمس الصيف الحارة . فالطبقات الموضوعة فوق بعضها البعض من الاقمشة المؤلفة لملابسي الكردية لم تكن تمتص العرق على الاطلاق .

وقفت فجأة وانا اعرف اني ارتكب زلة في سلوكي الاجتماعي واعلنت اني ذاهبة الى الديوانخانة ، حيث كان جيرد يتناول الغذاء مع الحاج ، حدقت النساء فيّ متحيرات عندما سرت الى خارج حجرة الحريم ،ورمقني خادم الحاج اسماعيل الطويل بنظرة عندما وصلت الى مدخل الردهة من مسكن الرجال .

عند مدخل الباب اوضحت لجيرد سبب مجيئي ، بينما كان الحاج اسماعيل يراقبنا . اجاب جيرد بأنه يريد البقاء لأن الحاج اسماعيل طلب منه ان يرافقه للصيد ولكني قلت بكلمات مضطربة اني اريد الذهاب . لم تكن لدي وسيلة لبقة لأنضم لحملة صيد مع الرجال وكنت ايضا قد امضيت وقتا كافيا مع الحريم في ذلك اليوم. كل ما كنت اريد ان اقوم به هو ان اذهب للمنزل وانزع ملابسي وآخذ حماما سريعا . سأل الحاج بفضول :

ـ ماذا تقولين ؟

فأوضح جيرد اني ارغب في المغادرة ، عند ذلك حث الحاج جيرد على البقاء وقد بدت عليه الخيبة ، واخيرا كان لرأيي الغلبة ،فنظر الينا الحاج كما لو أنه يحسب حسابا دقيقا وقال:

ـ انها هي التي تقرر ، أليس كذلك ؟

لم يكن ذلك اتهاما ، بل ملاحظة وقد احدثت وقفة للتفكير بأن الحاج اسماعيل كان يحاول فهمنا بقدر ما كنا نحن ايضا

تحاول فهمه . عند العودة الى مجلس الحريم لم ترغب النساء في ان يرينني اغادر ولكنهن افترض انها كانت رغبة زوجي . ولم اخبرهن بحقيقة الأمر .

على الرغم من انه كان امرا طبيعيا ان اعمم الاشياء ،نتيجة لتجاربي في دستان ، فقد كان علي ان اذكر نفسي ان الحاج لا يمثل كل الرجال وان دستان لاتمثل كل القرى الكردية . فقد بدت بعض الاماكن في كردستان اقرب الى ان تكون مثل ريزاي في معاملة الرجال لي ومعاملتهم لنسائهم . كانت مانوا هي احدى القرى التي لم يجلس فيها جيرد مع فتيات او نساء كرديات ابدا وقد حاول فيها الرجال ان يقنعوا جيرد باتخاذ زوجة ثانية .

حالما اتضحت لي روءية دستان اكثر ، اصبحت ذكرياتي عن مانوا اكثر ضبابية . فقد تراءى لي كما لو اني كنت قد سافرت الى تيرغاوار البعيدة منذ عدة سنوات وليس منذ عدة اشهر بمرافقة السيد خيلي وسائقه في الوقت الذي كنت فيه اكاد لا أتكلم الكردية ولم اكن اعرف بعد شيئا عن العادات الكردية ولم افهم على الاطلاق ان جميع نساء القرية كن بعيدات ينظمن عرس بروانة المسكينة ، تلك الفتاة التي ألقت بنفسها في النار. فكرت لفترة قصيرة بمصير بروانة ولكنها تلاشت عن تفكيري تدريجيا. كان العرس في زيلا لراشدين متفقين في الرأي على الأقل ، على الرغم من غرابته ، كان عمر العروس ثماني عشرة سنة ولم اقدر ان استسيغ انها قد هربت دون ان تحمل اي عاطفة نحو الرجل الذي تزوجته . لم اسمع عن فتيات شابات في دستان انهن القين بأنفسهن في النار على هذا النحو ،ولكن من كان سيذكر لي مثل هذه الاحداث ؟ .

ابدت شيرين وبروانة الود في ذلك اليوم الذي ظل في مانوا ولكنهما لم تحثاني على العودة الى قريتهما ولم يطلب مني السيد خيلي ابدا ان اذهب معه ثانية ، ولو لم تحدث زيارتي لمانوا بالصدفة ، ماكنت سأراها ابدا .

لقد خلصت الى نتيجة في وقت ما ، ان المجموعات الكردية التي التقيت بها متمايزة تماما ، بما فيهم اللاجئون العراقيون عائلة الحاج اسماعيل وحشد مانوا واكراد تركيا . ولكني عرفت تدريجيا انهم جميعا يشكلون جزءا من كل اكبر ، وان العديد منهم كانوا يعرفون بعضهم البعض.

كانت الحرب قد وضعت اوزارها وحل فصل الصيف ،ولكن مدرسة اللاجئين في ريزاي استمرت في دوامها . كانت سلطات الشاه قد نقلت مدرسة الاكراد الى مسكن آخر وقد ترك ذلك لدى انطباعا انهم كانوا يحاولون ان يخلقوا المضايقات قدر المستطاع للاجئين كي لايستمروا في ادارة مدرستهم . لقد كان موقفا محفوفا بالمخاطر بالنسبة لكل الاكراد اللاجئين الذين كانوا لايزالون في ايران . وعلى نحو ينذر بالسوء ،ادعت الحكومة الايرانية حينئذ انها على وفاق مع الحكومة العراقية ،وفي احسن الاحوال كان الاكراد العراقيون الذين ساعدتهم ايران ذات يوم يشكلون عائقا امامهما . وفي أسوأ الاحوال يعتبرون ذوي تأثير خطير على اكراد ايران ذاتها . كانت السلطات الايرانية تدرك جيدا ان الاكراد العراقيين الذين بقوا في ايران معرضون للهجوم لأنهم كانوا يخشون العودة الى بلدهم عندما طلبت منهم العراق ذلك . كان العديد منهم يأمل في الهجرة الى امريكا واوربا أو أي مكان آخر ،ولكن الحكومة الايرانية كانت في ذلك الحين ترفض مغادرتهم البلاد ،ولم تكن امريكا تبدي اي اهتمام في مسألة اخذهم ايضا . لقد خرجت فيتنام من يدها للتو، وعلى الرغم من ان هوءلاء الاكراد كانوا سيشكلون مجموعة ضئيلة بالمقارنة مع تدفق اللاجئين الفيتناميين الى الولايات المتحدة فان مسوءولا ما في واشنطن كان قد اصدر القرار برفض الاكراد.

كانت هيئة التدريس والادارة في مدرسة اللاجئين قد تغيرت بمجملها تقريبا . فبدلا من وجود خريجي كليات او مدرسين متمرسين كان هنالك الكثير من الشباب والعديد منهم كانوا في الجامعة عندما اندلعت الحرب الكردية ، كان هوءلاء المدرسون

ومعظمهم من الرجال – هم الاكثر كفاءة والممكن الاستفادة منهم في هذا الوقت . كان قواد اللاجئين قد قرروا ان يعلموا اطفالهم الكردية ، الى ان يمنعهم الايرانيون عن ذلك بالقوة وقد ابلغ الطلبة ان يواظبوا على المجيء خلال فترة الصيف للتعويض عن الوقت الذي تبدد لدى توقف الدراسة بعد هدنة وقف اطلاق النار . بدأت بالذهاب الى الصف الثاني وشرعت بتعليم الانكليزية للطلاب ذوي المستوى الاعلى . ولكني كنت اشعر بالضيق يزداد رويدا رويدا في المدرسة . كانت مجموعة المدرسين الجدد يعلّمون في ناغادة ، وهي مدينة تقع بالقرب من مهاباد الى الجنوب من ريزاي ،حيث كان البرزاني قد اتخذها مقرا للقيادة لم يكن احد من المدرسين يعرفني من قبل سوى مدرسة الرياضة ، الآشورية وقد اوضحوا لي انهم لم يصدقوا ولو ثانية ان هويتي هي كما اوضحتها لهم .

في احد الايام ذكر مسعود مدرس الصف الثاني ، وهو رجل فارع الطول يناهز التاسعة عشرة من عمره ،ذكر في حجرة المدرسين انه ذاهب الى مانوا في نهاية الاسبوع . فسألته بفضول :

– ماذا هنالك في مانوا ؟

رمقني بنظرة فيها من الشك الكثير وقال :

– ماذا تعرفين عن مانوا ؟

– لقد قمت بزيارة لها في الخريف الفائت .

قلت ذلك ، مع قبولي حقيقة انه سيكون من الصعب علي من الآن فصاعدا الحصول على جواب مباشر من لاجيء ،كانت الاسئلة تجاب دائما بالاسئلة . وبما ان المجموعة الجديدة كان معظمها من الرجال تقريبا ، فقد حزمت في تفكيري ان هذا يشكل جزءا من المشكلة . لقد رفضت حتى ولو مدرّسة واحدة ذات كفاءة عالية ، كانت في المدرسة قبل انتهاء الحرب ،ان تعود اليها الآن كان وجود عدد من المدرّسات الاناث وكذلك وجود مديرة المدرسة يخلق جوا مختلفا تماما وبذلك ازعجتني النبرة المتعجرفة التي

طلب فيها مسعود مني معرفة من الذي اخذني الى مانوا. فأجبته بنزق :

- لا أحد تعرفه .

عند ذلك شدّد بنظره اليّ ،فاستدركت ما قلته - فلو رغبت في العودة الى مانوا وقمت بذلك ، فلن اقدر ان اصرف نظري عن مسعود الذي يمكن ان يبرهن في النهاية انه شاهد لي هناك فأجبته طوعيا :

- لقد اخذني الى هناك السيد خيلي الذي يعمل في محطة الاذاعة ، عندما كان يقوم بتحقيق صحفي .

أومأ مسعود برأسه وقد نفذ صبره ، كما لو انه لم يهتم حقيقة بالمعلومات قط . وسألته :

- ولماذا انت ذاهب اليهناك ؟

فقال :

- عائلتي تسكن في مانوا .

- اذا فأنت هركي ؟

- نعم ،انا هركي .

تأملت وجه مسعود الممتلىء ببشرته الشاحبة وعينيه الرماديتين.لقد اوحى اليّ احدهم ولم اعد اذكر من هو،ان الهركيين لم يكونوا وراء البرزاني مئة بالمئة في النزاع الاخير الذي جرى في العراق . وربما كانت هذه مجرد اشاعة خلّفها انهيار جمهورية مهاباد . ولكني لم اكن أعلم قبل ذلك بوجود هركيين بين الطلاب في المدرسة . وفي الحقيقة كان العديد من هؤلاء الاكراد متمدنين لدرجة انهم ما كانوا يعترفون بانتمائهم بالسلالة والحسب والنسب الى اي قبيلة . كان مسعود هو المثال الأول الذي سمعت عنه ،على وجود رابطة بين لاجىء عراقي والاكراد في قرية ايرانية . وقد تساءلت كثيرا عن كيفية احتيال الحكومة الايرانية للسيطرة على هذه الضروب من العلاقات . فقد كان واضحا انهم يرغبون في الحد من التواصل ما أمكن بين الاكراد المحليين

واللاجئين وكانت هناك اشاعات منذ وقف اطلاق النار تقول ان الحكومة ستنقل جميع اللاجئين العراقيين بعيدا عن الحدود الغربية التي تمكنهم من ان يكونوا على اتصال مع الاكراد الايرانيين . ولكن حتى ذلك الحين لم يحدث شيء من هذا القبيل.
سألت مسعود :

- هل تظن انه بامكاني الذهاب معك ؟

وعندما احسست انه على وشك الرفض اضفت على نحو سريع :

- لدينا سيارة ، لدينا سيارة ،لذلك بامكاننا ان نأخذك الى هناك .

شرعنا انا وجيرد ومسعود في الجمعة التالية بالرحلة الى مانوا . وعندما وصلنا وتجمع الرجال ليرحبوا بنا ،اشار مسعود باصبعه باتجاه حجرة الحريم وقال لي :

- انت ،اذهبي مع النساء

رمقته بنظرة احتقار وفكرت في البقاء لفترة وجيزة مع الرجال لأزعجه.كان مسعود يرتدي دائما بذلة رمادية ذات تفصيلة حسنة . كان يتحدث القليل من الانكليزية . ومن الواضح انه كان قد انتقل للسنة الاخيرة في الكلية ضمن نظام الجامعة العراقية قبل ان يضطر للفرار ، لم تكن ملابسه وثقافته توحيان بشيء يمت بصلة للقرية . ولكن سلوكه معي كامرأة كان مزعجا وجنسيا اكثر من اي رجل كردي قبليّ التقيت به . عندما وصلت الى داخل احدى حجرات الحريم ،اقتربت مني فتاة نحيفة ، ذات شعر عسلي وقد جفلت عندما رأيتها . لقد كانت صورة طبق الأصل عن بروانه. ربما ان العرس لم يحدث قط ؟ ! ولكن لا . لقد كانت تلك اخت بروانة. كانتا تقريبا بنفس العمر وكانتا تبدوان مثل توأمين ، دهشت كيف كان لوالدهما ان يختار واحدة منهما ليلقيها في النار :

سألت اخت بروانة :

- اين هي بروانة ؟

- انها في العراق .

- العراق ؟ !

ـ نعم ،تحتم عليها ان تلحق زوجها الى هناك بعد ان انتهت الحرب . لقد بكت كثيرا ولكنهم اجبروها على الرحيل .

لم اكن اعلم ان عريس بروانة العجوز هو عراقي فضلا عن وجود علل اخرى فيه . فكرت في بروانة اللطيفة ، الخجولة وهي تنكر انها على وشك الزواج . وهاهي الآن قد اجبرت على ان تغادر ارضها الأم . ربما لن يحدث ان ترى اسرتها ثانية ابدا . فقد كان محتملا ان الهجرة الهركية السنوية لن تحدث ثانية قط مع نشوء العلاقة الجديدة المشتركة بين ايران والعراق واتخاذ اجراءات صارمة بشأن الاكراد .

اخرجت اخت بروانة ،ألبوم الصور وارتني صور عرس بروانة والصورة التي انطبعت في ذهني ، كانت بروانة وهي تتكأ على نافذة صغيرة في الطابق العلوي في مسكن ميرخان في المدينة ، وقد بدت الفتاة الصغيرة حبيسة ولاح عليها اليأس ،داخل ذلك المنزل الكبير ،مثل اميرة في حكايا الجان . ولكن لم تكن لهذه الحكاية نهاية سعيدة .

مضى بقية ذلك اليوم في سبيله ،وكان ذلك اليوم شبيها في ظاهره بيوم في دستان . حيث مكث جيرد مع الرجال ،بينما بقيت انا في دار الحريم مع النساء وقد خاطرت بالخروج في جولة برفقة اخت بروانة الشبيهة بها . و ميرخان نفسه كان غائبا عن مانوا تلك الليلة .

قبل ان نغادر في ساعة متأخرة من عصر ذلك اليوم ، ذهبت الى الخارج وسألت جيرد اذا كان بامكانه استخدام آلة تصويره في التقاط صور للنساء في الداخل . لأن الاضاءة هناك لم تكن كافية تماشيا لآلة التصوير التي بحوزتي . فأشار جيرد انه يجب عليّ ألا اطلب منه ذلك ،بل من السادة الذين حل عليهم ضيفا . وعندما اعدت طلبي ، موجهة اياه للرجال ، نظروا الى بعضهم وهم يتضاحكون .

- لم لا ،لم لا ؟
اجاب اكبرهم سنا متحمسا لذلك .

لقد كانوا جميعا مستعدين لبعض التسلية المنعشة ، مضت المجموعة محتشدة وهي تصعد السلالم الى دار الحريم ،وجيرد في مقدمتهم ، ولكن النساء انكمشن على انفسهن من الذعر عندما رأين جميع الرجال عند المدخل ، فقال الرجل الذي أعطانا الأذن بالتصوير :

- أترى ؟ ان الامر على مايرام بالنسبة لنا ،ولكن النساء هن اللواتي لايرغبن في ذلك .

التقط جيرد بعض الصور ومن ثم انسحب بسرعة والرجال يقهقهون وراءه .

عندما حان أوان الرحيل ،دعتني النساء لقضاء الليلة هناك وقد أغراني ذلك ولكن كان على مسعود العراقي ان يعود الى ريزاي ليمارس التعليم في اليوم التالي . لقد شعرت بالسعادة لتوفر هذه الحجة ، فقد بدا لي ان مير خان ليس ماضيا في جعلنا نخوض تجربة مطابقة لتجربتنا مع الحاج اسماعيل ، على الرغم من اني لم التق معه . كانت اشياء عديدة في مانوا منطوية على سمات متناقضة ، ابتداء بقصة زواج بروانة وانتهاء بالطريقة التي ترك فيها الرجال جيرد ليلتقط صور للنساء دون استئذانهن لم يحدث شيء من هذا القبيل مع الحاج اسماعيل قط .

قمنا برحلة اخرى الى مانوا ، وذلك لأن مسعود فضل سيارتنا اكثر بكثير على الحافلة الريفية وايضا لأن النساء كن قد رجونني كي اعود . ولكن لدى عودتي في التاريخ الذي حددناه لم ارهن . ان شيئا مثل هذا لم يكن وارد حدوثه على الاطلاق . ولو أنه حدث فان الحاج اسماعيل وابنه طه كانا سيحرصان اكثر منا على مراعاة المواعيد .

اظهر مسعود تزمته ثانية عندما اخذناه الى قرية اسرته

وهذه المرة لم يأمرني بالذهاب الى دار الحريم ،بل بدلا من ذلك تركز انتباهه على مسجلتي التي احضرتها معي حيث اثارت فزعه ، فسأل :

ـ ماذا تفعلين بتلك ؟

ـ سأسجل بها قصصا .

ـ كان عليك ألا تحضريها . يجب ان تتركيها في السيارة .

حاول جيرد التحدث ويمكنني ان اقول اننا كنا على وشك صدام شامل ،لقد تعب جيرد من تعجرف مسعود الشديد مثلي تماما، اخبرت مسعود ان تسجيل القصص هو من ضمن عملي وعزمت على ان اواكب التسجيل دون اخذ أي اعتبار لشكوكه . ولكن لعدم رغبتي في ان أتسبب في فورة غضب ،قررت ترك الآلة تحت مقعد السيارة لذلك الحين على ان استردها بعدئذ عندما يبتعد مسعود عن هذه الانحاء .

وجدت الأشياء في مسكن النساء كما كانت عليها في المرة الاولى التي زرت فيها فائوا . ومعظم النساء غائبات . وكانت الفتيات ، شيرين واخواتها قد ذهبن ايضا الى بحيرة ريزاي وبذلك اصبحت في عهدة احدى زوجات ميرخان ،وهي امرأة فارعة الطول ، ذات شعر اسود ، بسيطة في سلوكها . جلست معها في حجرة كبيرة . كان عدد من الخادمات يتناولن اللقم الاخيرة من الفطور المكون من الخبز واللبن ، رأيت امرأتين تجلسان امام قواعد طينية وتستخدمان مطارق صغيرة لتقطيع قطع السكر المخروطية الشكل الى كتل بحجم القضمة التي يحتاجها الشاي . قالت احدى المرأتين انها تعرف قصة سترويها ضمن مجموعتي ،فشرعت في مغادرة الحجرة لأحضر مسجلتي . فسألتني مضيفتي الى اين كنت ذاهبة ،فأجبتها :

ـ الى سيارتي .

ـ خانم ،سيارتك ليست هناك .

انها مخطئة بالتأكيد ،اسرعت الى النافذة ونظرت نحو

الاسفل الى الفناء . وجدت المكان الذي تقف فيه سيارتنا ارضا خالية . فسألت بصوت مرتعش .

ـ أين هي ؟

ـ لقد اخذها الرجال وذهبوا للصيد .

قالت ذلك المرأة ذات الشعر القاتم ،فلم اصدق ان جيرد قد مضى بمسجلتي دون قول اية كلمة ،انه يعرف جيدا اني كنت قد عزمت على استخدامها ذلك الصباح .

أجلت بنظري في الحجرة الممتلئة بنساء لم آرهن من قبل ابدا وشعرت اني قد وقعت في شرك . كنت قد تجاوزت مرحلة الجلوس والتحدث وعلى نحو خاص مع هوءلاء النساء . لقد اتيت لما نوا متوقعة ان اعمل بدأب ، وكم سيطول الوقت قبل ان يعود الرجال ؟ هب ان السمك والماء اصابا مسجلتي ! ؟ .

فقدت القصة التي كنت انوي تسجيلها سلفا ،لأنه توجب على المرأة التي تطوعت بأن تسردها ان تذهب خارجا وتخبز الخبز في التنور . ولكني كنت اعلم انه يمكنني الحصول على قصص اخرى لو ان المسجلة كانت معي فقط . ان الذي اقلقني هو الطريقة التي اخذت فيها السيارة ببساطة دون ارجاع مسجلتي. هل كان خطأ من التعاون معي وخداع مسعود امام ناظره ؟ حاولت ان اوضح سبب قلقي لهوءلاء النساء ،ولكنهن كن ينظرن الي باندهاش . فكيف لامرأة ان تناقش رغبة زوجها ؟ ولرغبة مضيفتي في تحسين مزاجي اخرجتني في جولة في القرية للقيام بزيارة الى زوجة الملأ .

في وقت لاحق من عصر ذلك اليوم وبعد ان عاد الرجال ، حيث كنت جالسة مع مضيفتي في حجرة نومها ،ومسجلتي تقبع بأمان الى جانبي، اقترحت عليها انه بامكاننا المضي في رحلة قصيرة الى النهر الذي ذهب اليه الرجال للصيد ،فسألت وهي تضحك :

ـ ولكن كيف ياخانم ؟

فأجبتها :

ـ بامكاني السير الى هناك ؟

سألتني وقد اتسعت عيناها :

ـ بدون زوجك ؟

فقلت :

ـ نعم

لكني حالما اقترحت القيام بهذه الرحلة ، ادركت اني لم اكن ارغب في الذهاب واني اردت فقط ان اظهر انه بامكاني آخذ السيارة انا ايضا . ولسوء الحظ لم يتوفر المجال لوضع هذه المسألة موضع نقاش ما او تسلية وفي مثل هذا التظاهر مع هذه المرأة . فقد اخبرتني مسبقا انها لاتسبح او تصيد السمك وانها تخشى السلاحف . كنت متأكدة من انها ستأخذ خمسة اشخاص آخرين معها للحفاظ على عفافها .

ابلغتها اني ماضية الى الديوانخانة متظاهرة اني احتاج الى استئذان زوجي ولكن رغبتي كانت ضئيلة في الذهاب الى النهر. أومأت المرأة برأسها ،وبدأت بهبوط الدرج حتى عبرت الفناء. قابلت ميرخان في حجرة الجلوس للمرة الاولى . وكما قال جيرد كان يشبه الى حد بعيد موظف تأمين من الغرب المتوسط في الولايات المتحدة بعينيه الزرقاوين ووجهه الناعم وجسمه الممتلىء . لم يظهر ميرخان شيء من الانفعال العصبي الذي كان يتميز به الحاج اسماعيل . كان الرجل يفج بالثقة وبرودة الاعصاب وينظر اليّ بامعان دون ان يبتسم .

كان في محفظتي صور شيرين وبروانة التي كنت قد التقطها خلال زيارتي الاولى لمانوا في الخريف الفائت . كنت قد اعطيت السيد خيلي مجموعة من هذه الصور منذ زمن مضى ليعطيها لشخص ما كان في طريقه الى تيرغاوار ولكنها كانت قد اختفت دون ان يثير ذلك دهشتي . وفي زيارتي الاخيرة قالت شيرين انها لم ترها ابدا . والآن لدي مجموعة اخرى لاعطيها لشيرين الغائبة عن القرية . ولعدم معرفتي النساء اللواتي يمتن بصلة قرابة الى

شيرين ترددت في تسليمهن الصور . وحيث انني واقفة وجها لوجه مع ميرخان ادركت انها فرصتي الاخيرة . ولكنني عندما سلمته الصور وطلبت منه ان يعطيها لشيرين شككت في انها ستراها يوما ما . وماذا يهم رجل ،كان قد زوّج ابنة ذات خمس عشرة سنة ؛ من رجل عجوز له زوجتان اخريان ، ولماذا يزعج نفسه بوصول او عدم وصول صور لابنته كان شخص ما قد تركها لها .

تماما عندما هممنا بالمغادرة ، بدأ ميرخان وعلى نحو مفاجئ يتصرف بعناية كمضيف مهتم وقدم لنا قطعا كبيرة من البطيخ .تناولناها ونحن واقفان في الخارج ومن ثم صعدنا السيارة تساءلت عن ماهية الرأي الذي كونه عنا اميرخان . هل كان مقتنعا مثل مسعود بأننا جواسيس ؟

كان من المحتمل جدا انه اعتبرنا شخصين غير مهمين ودون فائدة له اولأي شخص مهم آخر . كان ميرخان رجلا سياسيا محنكا وكما اخبرنا بنفسه كان قد طار لتوه الى طهران لحضور المؤتمر الأول لـ " رستاخيز " حزب الشاه السياسي الجديد .

كان واضحا تماما لي ولجيرد ،الاختلاف الجذري في اسلوب الحاج اسماعيل و ميرخان . كان الحاج يظهر ولاء كلاميا لحكومة الشاه للحفاظ على حياته . ولكنه لم يمض بعيدا لدرجة يصبح فيها مناصرا متحمسا لـ " رستاخيز " فضلا عن ذلك لم اسمع بزيجات مثل زواج بروانة في عائلته ،على الرغم من ان الحاج لم يكن يعامل بناته معاملة حسنة تماما . فكل صورة كنت قد ارسلتها مؤخرا من امريكا لخديجة ونسرين او مريم — وبحرص من الحاج كانت قد سلمت كما ينبغي . من الواضح ان ميرخان هو رجل الاعمال الهادئ الاعصاب المتميز في اية ظروف متغايرة . بينما كان الحاج اسماعيل انسانا عالما ،حاد الطبع ،مستبدا في احيان كثيرة ومحبا في احايين اخرى . ان الاختلافات من وجهة نظرنا بين الرجلين الكرديين ، ظهرت بوضوح من خلال تعاملهما معنا . لقد جعلنا اميرخان ندرك اكثر من قبل كم كنا محظوظين للقائنا مع الحاج اسماعيل .

الفصل الثامن عشر

عندما تستخدم النساء الكرديات تعبير " سرجاڤا " فانهن يلفظن هذا الترحيب التقليدي والوداعي بنبرات رصينة ورزينة وعيونهن مسدلة نحو الأرض ، عندما سمعت ورأيت هذا السلوك للمرة الاولى ، فزعت قليلا ، لماذا كن على هذه الدرجة من الجدية ؟ ولكني فهمت ذلك موءخرا عندما ترددت على البيوت الكردية ،وألفت هذه العبارة لتكرارها مئات المرات . لاتنطق " سرجاڤا " باستخفاف ، وتعني حرفيا ،على عيني . وتستخدم في ابرام الوعود وكذلك للدلالة على الحل والترحال . ولدى الفرس تعبير مشابه وهو " جشم " ،وكان قد اقصي نوعا ما ،مثل العديد من التعابير الفارسية القديمة . بينما تعني" جشم (بلغة سائقي سيارات الاجرة الغربية والخدم،حسنا،او انني موافق ياسيدي فان تعبير سرجاڤا يعتبر شيئا مختلفا تماما . وكلمة" سرجاڤا" بالنسبة للأكراد ليست مجرد زوج من الكلمات ،بل تشكل ايضا عهدا ، والعهود لاتحنث بسهولة في كردستان .

مهما كانت تحمل كلمة " سرجاڤا " من معاني بالنسبة لمضيفتي فقد كنت اسمعها بما تعنيه حرفيا ،وليس فقط ضمن الشكليات التقليدية ، وعندما شعرت بأن وقتي في كردستان يمضي بسرعة ،بدأت افهم ماتعنيه " سرجاڤا " ،عندما آن اوان سماعها من خديجة وعائشة والحاج اسماعيل والبقية في الوداع الاخير . " على عيني " سيبقى دائما منظر نسرين وخديجة وهما على الصخور قرب البحيرة وملابسهما تتلاطم على الامواج مثل نبات خشخاش عملاق ،وقد تلبست ضفيراتهما بقشرة مالحة ، وخديجة وهي تجلس القرفصاء بجانب كومة من لبوب المشمش التالف ،وتكسرها وترمي الثمرة . " على عيني " سيكون الحاج اسماعيل وهو يحدق

بنا بعينين مطرفتين تحت ضوء الشمس خارج ديوانخانته ،ملحّـــا في محاولته فهم لغتنا الانكليزية ،وذلك كي يفهم جيرد ويفهمني ويفهم علاقتنا ببعضنا البعض ويه ،سينطبع السيدخليلي بنحافتـه في ذاكرتي وهو جالس بجانبي فوق الكراسي المعدنية ،في محطـة الاذاعة ، بينما كنت اتابع قراءته المشوبة بالعواطف ،للملحمة الكردية العظيمة " مم وزين " . لن انسى ابدا الملابس القـوس قزحية في الينابيع الخالية المثلوجة وهي تسيل هزيلة من فـوق السفوح الجبلية ،مياه البحيرة الضارب في الزرقة ، زرقةالسمـاء الكردية الصافية ، وزرقة عيني الحاج اسماعيل ومريم . لـــن انساها ابدا .

كنت اعرف اني لن ابقى في كردستان دائما ،ومع ذلك فقـد تقلص بقية العالم امامي بقدر ما كنت افتقدها احيانا ،لم اعد افكر بالمغادرة الى امريكا كل اسبوع مثلما حصل معي خـــلال ايام الشتاء المعتمة بعد حادث المصباح الكهربائي . لم اعـد انتظر البريد يائسة من عدم وجود احد ما قريبا مني لأدعـــوه صديقي . لقد تمكنت من بلوغ كردستان . وكنت قد بدأت اشـــق بريزاي وبقية ايران وأسلّم بها جدلا . بدأ سلوك الناس يتبراءى لي اقل غرابة . كانت الحياة مؤلفة من آلاف الاشياء غيرالمريحة التي كانت قد بدأت بطريقة ما تعني لي شيئا ،مثل احتســاء الشاي وانتظار موظفي الجمارك لاعطائي احزمتي ، والمساومة فـي البازار والمضي الى عميد الكلية للتحدث معه والجلوس فـــي حجرة الانتظار لمدة ساعة مع امين السر . لم تعد القرى الكردية تبدو لي ملوثة لدرجة كبيرة ، واتخذت صفوف الوجوه المتسمـــة برسمية بالغة في البوم الصور معنى ما ، وعرفت الرد المناسب لتعبير " سرجاڤا " عندما كان احدهم يبادرني به .

ولكن حتى لو اننا اعتدنا على محيطنا ، ولو بعد طـــول انتظار ، كنا نعرف انهم لاينتمون الينا ونحن لاننتمي اليهـــم وكنا نعرف اننا سنشكل جزءا من الحضور الامريكي الاكبر فـــي ايران طوال مدة اقامتنا . لم يقدم لنا طلابنا الدعوات،وتمنوا

لو اننا لم نأت على الاطلاق . ولدى اطلاعنا على الحالة غير السوّية للجامعات ، لم نقدر ان نأمل بتعليم احد الشيء الكثير من العلم . فتح هذا المجال امامنا لممارسة بعض الفعاليات الخاصة ،مثل تجميع وسحب اموالنا ،وكان هذا نشاطا مقبولا لدى العديد من الموظفين الاجانب ولكنه لم يكن يعود علينا بالفائدة المرجوة .

كان جيرد مستعدا للمغادرة ، ولكنني كنت لا ازال مترددة كنت اريد معرفة المزيد عن الناس هنا . أردت تعلم جميع اللغات فهنالك لغات محكية حول ريزاي تستغرق دراستها اضعاف من حياة المرء . ولكن جيراني كانوا يوهنون عزيمتي اكثر فاكثر حتى مع مقاومتي الرحيل . فقد كان الايرانيون المتمدنون ،الغربيون ظاهريا وعلى نحو مخادع ،ينظرون الينا كأجانب ميئوس منهم ، بغض النظر عن مدى محاولاتنا لتغيير ذلك .

والامر الاكثر تثبيطا لعزيمتنا كانت علاقتنا بالجعفريين، ولم يكن سهلا تسميتها بـ " رهاب " الاجانب وكرههم . كان ايرانيون آخرون يعتقدون ان اعتراض جيراننا علينا منطقي، لأننا اجانب . ولكن الجعفريون كانوا قد قاموا باشياء اكثر من مجرد التسامح معنا . لقد رحبوا بنا وبابهم مفتوح لنا ، اخذونا الى انحاء ريفية عديدة ،قدموا لنا وجبات الطعام واعارونا اثاث المنزل . ومع ذلك فقد فسدت العلاقة بيننا شيئا فشيئا .

كان شعورنا الودي الاولي يتناقض مع موقف بقية الجيران الذين كانوا يرتابون فينا منذ البداية . كان السلك الهوائي الذي مدّه لنا صديق امريكي لمذياعي ذي الموجات القصيرة مصدر قلق مبكر ،وعندما ظهر ،اتانا حالا رجل جار من منزل في احد الجوانب وقال ان السلك يسبب له صدمة كهربائية عن طريق انبوب التصريف ،وفي اشهر لاحقة إدعّى جار لنا في الجانب الآخر ان السلك يسبب صدمات لزوجته الحامل عن طريق السياج المحيط بدرج

مسكنهم في الطابق الثاني . كانت ايضاحاتنا بأن هذا الهوائي خال من التيارتقابل بعدم التصديق ،وبدأت اشعر ان الكهرباء كانت حقا شكلا من اشكال السحر الأسود بالنسبة لهوءلاء الناس المتعلمين ظاهريا وان لدى الاجانب اشباح تسبب الصدمات للناس .

ألقيت باللائمة على نفسي وعلى شهرزاد للطريقة التي انتهت فيها علاقتنا ،وفكرت في نفسي انه لولا دأبي ومثابرتي لهذه الدرجة على لقائي بالاكراد لربما كان الامر مختلفا. ولكن كان هنالك اناس ألقيت اللوم برمته على كاهلهم لهدم الثقة والاحترام بيننا . والسيدة جام هي احدى هوءلاء الناس. انها المرآة ذات الثمانية والثلاثين عاما والتي لم ترغب فيادخال جيرد الى فناء دارها عندما كان زوجها غائبا . لقد تحملت لساعات وساعات اشاعات السيدة جام وأقوالها المثيرة للبغضاء عن الجميع من اجانب ومحليين وعلى نحو خاص عن شهرزاد وحتى عن اقاربها هي نفسها . كنت اعتقد انها تتسلى وقد ثمنّت المرات التي دعتنا فيها انا وجيرد لتناول الغذاء عندها . وعرفانا بهذا الجميل ،ارتكبت خطأ باعطاء عنوان ورقم هاتف اختي لابنها ذي الثلاثة والعشرين عاما الذي كان في طريقه للولايات المتحدة . حتى انني كتبت لأختي احثها على تقديم المساعدة لهذا الشاب على نحو خاص ،حيث تراءى لي متعلقا بوالدته لدى مشاهدتي اياه في ايران . وفكرت في احتمال مواجهته صعوبات بمفرده في امريكا فلم تكن بعد لدى تجربة كبيرة مع ثنائيايراني مكون من ام وابنها .

بعد عدة اسابيع من ذلك نقل الشاب لوألدته رسالة نقدية تتعلق بحياة اختي الاجتماعية والجنسية ، حيث اتت الام بعدها الى منزلي تريد معرفة متى ستتزوج اختي . اخبرتني هذه الأم الخرفة تقريبا ان ابنها كان يتوقع من اختي ان تصبح صديقة له . وبعد ذكر هذا الموضوع مرات عديدة خلصت الى نتيجة حاسمة وهي ان الصديقة بالنسبة للسيدة جام وابنها تعني " عاهرة " بعدئذ

كتبت لي اختي وطلبت مني ألا أرسل اي شباب آخرين اليهـا ، لأن هذا الابن لم يتوقف عن ازعاج صديق لها .

اتفقنا انا وجيرد ان نغادر ايران اخيرا في نهاية الصيف وحددنا موعدا لاخبار العميد بذلك ليكون بامكانه البدء في ترتيب من سيحل محلنا ، ومن الواضح انها لم تكن مهمة سهلة بما أن اجرتنا كانت مليئة بالتأخيرات والوعود المحنث بها حيث كان من المحتمل ألا يأتي بسببها احد ،أقل تصميما منا الى ريزاي قط . كان رد فعل العميد لسماع اخبارنا عبارة عن غضب مكبوح ، وازداد اشارة باطراد . وذلك بأن هددنا بقطع راتبنا الصيفي الذي كنا نحسبه ضمن ما سنستلمه ، لقد صعقنا لذلك، وبرر العميد ايماءاته تلك بقوله اننا قد تعهدنا بالبقاء لمدة سنتين على الأقل ؛ ولكن عقدنا حدد سنة واحدة فقط وحتى انه لم يطالبنا بأن ننوه الى اننا عازمين على البقاء خارجا، تلك السنة . وهذه ايضا نهاية اخرى سيئة وغير متوقعة لعلاقتنا مع العميد .

لم يكن ثمة انصاف قانوني للطريقة التي انهى بها العميد عقودنا . كان العميد من ابناء نفس المدينة الايرانية الواقعة في الشمال الشرقي التي اتى منها رئيس الوزراء . وكان الناس يقولون ان ذلك جعله اقوى من حاكم اذربيجان نفسه . لم تكن تلك هي المرة الاولى التي شعرنا فيها بالعجز في ايران . ولم يبال زملاؤنا في الكلية ولا جيراننا بنا ، عندما اخبرناهم بذلك ، ألم نكن نعرف أن نتعامل مع العميد بطريقة افضل من هذا الاسلوب المباشر ؟ وكالعادة كان رد فعل الاكراد مختلفا فهم ايضا يمثلون " الآخرين " في ايران . كانوا يفهمون اساليب العجم المثيرة للجنون وكانوا قد سئموا من الشاه حتى قبل ان نولد بأمد بعيد . اصغى الأكراد الى قصة العميد بغضب متعاطف معنا ،ولكني ادركت انهم كانوا قد فهموها على نحو مختلف تماما عما كانت عليه . وذلك عندما اخبرتهم بها . فبغير قصد مني

ولعدم رغبتي بالاعتراف بأني قد اخترت طوعيا مغادرة كردستان جعلتها تبدو كما لو أن العميد قد اقالنا دون ان يبلغنا بذلك. لم أقو على مواجهة الحاج اسماعيل ، الحاج الذي غالبا ما كان يردد ان القرية هي قريتي ،وان اخبره اننا قد قررنا ـ وعلى نحو يعوزه الحماس ـ المغادرة بعد اجل قصير .

ـ ولكن لماذا ؟

سأل الشيخ عبدالله . كان قد استوعب سلسلة الاحداث كما هي ، وحقيقة اننا كنا قد توقفنا عن العمل فعليا . وكان يعرف ايضا انه توجد مشكلة بطالة جدية في الولايات المتحدة . فسأل بطريقته التي تنم عن نضوج فكري :

ـ ماذا ستفعلان عندما تعودان الى هناك ؟ ألن يكون من الأفضل لكما البقاء هنا ؟

سأل الحاج اسماعيل عن رحيلنا هو ايضا ،ولكن ليس على اسس ما هو مفيد لنا . فهو كسيد اقطاعي ،قَبِل تفوق الغرب .وإنه من الطبيعي ان نرغب في العودة الى وطننا ،ولكن هل ثمة مايدعو للعودة بهذه العجلة ؟. ترك الحاج الحصادة لحين ليرانا قبل ان نغادر لأنه قد بقي لنا بضعة ايام فقط للمكوث هنا .

خرجنا في أحد الايام الى الموقع الذي كانت تقف فيه سيارة اللاندروفر بجانب ميزان وكومة من اكياس القمح . وجدنا الحاج يناور بتحريك حصادته العملاقة تحت اشعة الشمس الساطعة فوق حقل القمح .

ـ اصعد الى هنا ياجيرد .

قال ذلك ساعيا للفت الانظار الى آلته الضخمة .

ـ هلا التقطت لنا صورة يامارغريت خانم ؟

كانت هذه هي المرة الاولى والوحيدة التي طلب فيها الحاج ان التقط له صورة . كان قد سمح بأخذ صور له في القرية امام ديوانخانته ،ولكن هذه هي الطريقة التي ارادنا ان نتذكره بها في امريكا ، على انه مزارع عصري .

كانت خديجة تخشى دائما على المجيء وقضاء جل ايامي معها في منزل الحاج في المدينة . ولكن لم يكن باستطاعتي الذهاب كلما رغبت في ذلك . فقد كنت مشغولة ببيع المقتنيات التي جمعناها خلال اقامتنا لتأثيث شقتنا الجرداء. كان من الصعب التمييز بين المشترين الحقيقيين والاشخاص غير الجادين وكما تبين لي فان بلوغ السعر النهائي للمبيعات والمشتريات في عملية البيع الجارية في ايران كانت مثبطة لعزيمة المرء. اتت احدى النساء وتنبأت ان يصيب النحس مجموعة من الاطباق لم نكن نرغب في بيعها بسعر بخس زاعمة انها ستنكسر حالما تغادر.

كانت خديجة تود ان ابقى معها ،لأنها لن تكون في ريزاي او دستان عندما يحين اوان رحيلنا . كانت تخطط منذ شهر تقريبا للعودة الى قرية طفولتها ، لتقوم بزيارتها الاولى منذ زواجها في الصيف الفائت . ستحملها الى هناك سيارة اللاندروفر برفقة اخي طه ، والقابلة گلبهار واشخاص آخرين عديدين. لم يكن مسموحا لطه نفسه الذهاب ، وذلك بموجب الاعراف والتقاليد ولكنه هو ومريم قد عزما على ارسال خديجة مع جبل من الهدايا وعلب الحلوى واثواب من القماش ، ليعرّفا اعمام خديجة العشرة مدى تقدير الاسرة الجديدة لعروسها .

كانت خديجة تحاول ان تبدو رزينة في يوم وصولها الى منزل الحاج اسماعيل لترحل منه لقريتها . فهذه لم تكن مناسبة تستلزم الجدية فحسب بما انها الزيارة الاولى لعروس بعد زواجها بل ايضا لأن احد اقارب خديجة قد توفي حديثا . وقد فسر ذلك، لون فستانها الاخضر الداكن والنقص الواضح في الذهب الذي كانت ترتديه فوق مئزرها . وهناك رحيلي ايضا الذي يسبب لها الحزن . جلسنا معا وقد مسكت الواحدة منا بيد الاخرى نراقب الصخب حولنا ، بينما احضر المزيد من علب الحلوى والاقمشة من البازار وايضا سيارة اجرة ريفية لتحمل كل هذه الهدايا. لم يكن في وسعنا كلينا ان نستجمع الحزن الذي كانت تتطلبه المناسبة

على الرغم من محاولاتنا الحثيثة لذلك . فرحلة خديجة المتوقع لها التيسير كانت مبهجة جدا اما رحيلي فكان لإيزال بعد عدة اسابيع ،ولااعتقد ان اخذانا كانت تضدق ما افضت اليه الأمور

– مارغريت ،انا حزينة جدا لرحيلك لاترحلي ،امكثي هنا.

قالت ذلك وهي تبتسم وتشد على يدي :

– ساعود وسأزوركم .

قلت ذلك بمرح ،غير راغبة في التركيز على حقيقة ان العودة لن تكون مثل الاقامة هنا بحد ذاتها .

مشى الجميع بما فيهم طه وجيرد وخديجة هابطين الدرج الى خارج الباب الامامي حيث كانت علب الهدايا قد حملت في سيارة فولكا حمراء وبيضاء . صعد اخو طه إلى جانب سائق سيارة اللاندروفر وخديجة الى يمينه وعباءتها السوداء المخرّمة مستقرة على رأسها . وجلس بقية المرافقين في خلفية اللاندروفر. لوّحنا جميعا بأيدينا عندما انطلقوا في سيرهم. ومن ثم وقفنا انا وجيردوطه في الشارع المغبر نحدق في منزل الحاج اسماعيل. لقد فرغ الآن تماما . فقد كانت زينب والأولاد والخدم والقرويون جميعهم في دستان لقضاء فترة الصيف هناك .

سيستيقظ طه وحده كل صباح ويمضي الى عمله في المدينة ويعود كل عصر وحده ليحضر غداءه . لم تكن هذه حياة بالنسبة لكردي .

– هل تظنون اني قد فعلت الصواب لسماحي لها بالعودة ، فالثلاثة اسابيع هي مدة طويلة ؟

سأل ذلك بين الهزل والجد .

– طبعا لقد فعلت الصواب .

قلت ذلك لأعيد اليه الطمأنينة ولرغبتي في ان احييه لأنه قد اصبح زوجا مهتما اكثر مما كان عليه من قبل .

لقد آن اوان رحلتنا الاخيرة الى دستان ،لنودع الحاج

اسماعيل وحريمه ونسرين ووالدتها . ذهبنا بالحافلة لأننا كنا قد بعنا سيارتنا . كانت هذه الرحلة تجربة بحد ذاتها . لأننا ركبنا احدى الحافلات المعطوبة التي كنا نراها تحمل الركاب الى ميرغاوار ،مارّة بالكلية عدة مرات في اليوم ،تميل على نحو خطر الى احد الجانبين بسبب الثقل وبسبب حاجتها الى الصيانة، بعد وصولنا الى موقف حافلة تيرغاوار كان علينا ان نمشي عدة مئات من الياردات عبر ساحة ممتلئة بالنباتات الشائكة والاشجار الصغيرة لنصل منزل مريم .

لامتني مضيفتي لعدم اخبارنا اياهم بأننا كنا بدون سيارة لكي يأتي احدهم الى المدينة ويأخذنا معه ،عندما جلست مع مريم ونسرين اخذتا تحثاني باصرار على ان اعيد النظر في قرار المغادرة . قالت مريم :

- لو أنك تمكثين سنة اخرى يامارغريت ،فانك ستتقنين لغتنا وستصبحين كردية بحق .

وارادت نسرين ان تعرف اشياء ، فسألتني :

- كيف ستواظبين على عدم نسيانك الكردية في امريكا ؟

فقلت معترفة :

- ربما سأنسى القليل .

فقالت امينة ،حيث كانت قد حضرت لمنزل مريم لرؤيتي :

- اذا ،علّمي لغتنا لوالدتك ووالدك ،وبذلك يمكنك ان تمارسي التحدث بها معهما .

وابدت نسرين اقتراحا :

- نعم والبسي ملابسك الكردية ليرى الامريكان كم هي جميلة .

خامرني شعور غريب لدى التحدث عما سأفعله في امريكا ،فقد تراءى لي الاكراد ودستان منفصلين تماما عن بقية حياتي . ولم افكر بما سأفعله باللغة الكردية لدى عودتي الى امريكا بعد استخدامها كموضوع للاطروحة . لقد هالني التفكير بأن الكردية لن تكون ذات نفع كبير في المحادثات اليومية ، ماذا سأفعل بملابسي

الكردية ؟ خطر ببالي ان اقفل عليها في صندوق الثياب لأريها لاحفادي . لن ارتديها ثانية ابدا كملابس مناسبة ،لأنها ستشكل مجرد عادة دخيلة وغريبة .

خلال وجودي في دستان في يومنا الاخير اقترنت اشياء عديدة ببعضها في فكري ،منها والدتي ومعرفتي للكردية ، اخلاقيات المرأة الغربية واللاجئين .

لم اسمع الاكراد قط يبدون آراءهم في لا أخلاقيات المرأة الغربية مثل السيدة جام . وعلى الأقل لم يتحدث اكراد دستان عن هذا الموضوع ابدا . اما اليوم فقد حضرت من طهران ابنة سوسن الوسطى في زيارة لدستان ،حيث تقيم مع زوجها الطالب هناك.كانت تعرف كل شيء عن الغربيات ،عن كيفية تقبيلهن الرجال الآخرين امام ازواجهن . لم تسألني مثلما فعلت السيدة جام فيما اذا كنت قد قمت بمثل هذه الاشياء ،بما انها كانت قد سمعت من عائلتها مسبقا ان سلوكي هو على مايرام ،ولكن شجبها العفوي لنساء اجنبيات اخريات جعلني اكثر ادراكا من قبل لشعورالقرويين الودي المتقلقل ، ولو انهم كانوا متمدنين على نحو مشابه للاتراك لربما انعدم مكان في ايران يمكن لمرأة اجنبية ان تشعر فيه بالراحة .

لم اتوقع ان ارى المزيد من اللاجئين بقدر عدم توقعي المحادثة عن تقبيل الرجال الآخرين . فبعد ظهورهم في الأفق تماما ذكرت امينة ونسرين عرضيا ان مجموعات من العراقيين قد أتت مشيا الى دستان منذ اسابيع مضت . كانت الحكومة العراقية قد طردت هؤلاء القبليين البائسين من قراهم الواقعة في اقصى الشمال الغربي . لقد استمرت الحكومة العراقية باتباع سياستها التي بدأتها قبل الحرب على الرغم من انها كانت قد وعدت بالعفو العام لجميع الاكراد في نهاية الحرب وذلك بنقلهم عنوة من اراضيهم في الجبال الشمالية وتوطينهم في معسكرات في صحراء جنوب العراق . وبعدئذ تعطى الاراضي الكردية الخصبة للعرب ومن

المفترض ان كل هذه الاجراءات تتخذ للتأكد من ان يوما ما لن يكون ثمة تمركز للأكراد في اي مكان قريب من النفط العراقي وبذلك لن يتمكن الاكراد ابدا من المطالبة بأي من الفوائد التي يجنيها العراق من الثروات الكامنة في باطن كردستان .

اثار وصول اللاجئين بعض الاهتياج في دستان . فقد سار اللاجئون في الجبال لمدة اثني عشر يوما ،يتجنبون الجنود والاراضي الملغوفة بطريقة ما على طول الحدود العراقية والتركية والايرانية . قدم لهم خدم مريم الشاي والسجائر وارسل لهم الحاج اسماعيل شاحنة مباشرة لتحملهم الى معسكر اللاجئين. ولكن لم يول احد اهتماما كبيرا بمعاناتهم . ونسرين التي بدت متأثرة ومهتاجة في تصرفاتها لوصولهم في البداية لم تتحدث معهم ابدا ،بل وقفت معي ومع امينة تحدق فيهم من على بعد، وهم يجلسون تحت اشجار بستان المشمش ، تساءلت عن سبب توقعي توجيه المزيد من التعاطف نحو هؤلاء اللاجئين المنهوكي القوى وقد لوّحت الشمس وجوههم وعلى ظهورهم الالبسة الرثة ، والاطفال الرضع في احضانهم ،حيث كان ذلك كل مايملكون في العالم ، من دون ريب كنت افكر بمكان غير كردستان لدى شعوري بالخيبة لأن كل مافعلته نسرين كان مجرد التحديق فيهم ،ولأن احدا لم يعانقهم او يواسيهم او حتى يفكر بعدم تحويلهم مباشرة الى معسكر اللاجئين المغزو من قبل السافاك ، دون شك كنت افكر بكردستان مثالية ،لايشكل فيها الفارق الطبقي او القبلي عائقا ولايعتبر فيها الزيباريون ،المساكين غرباء بالنسبة لأكراد دستان في كر دستان يستقبل فيها الاكراد بأنفسهم الاكراد اللاجئين بدلا من السافاك .

وقفت مضطربة قليلا وانا اراقب المشهد امامي ، كانت مريم بلفاعها الملتف باحكام حول رأسها على سجادة الصلاة المفروشة امام منزلها ، كانت نسرين وامينة واقفتين في احد الجوانب تحدقان من بعيد ، واللاجئون يتحركون هنا وهناك بصورة عشوائية

ينظرون بقلق الى الدستانيين . نظرت الى ساعتي وساورني قلق حول امكانية عدم لحاقنا بالحافلة ، لقد آن أوان المضي الى دار الحريم لتوديعهن . كانت مصافحاتنا هناك فاترة على نحو مثير للفضول والتساؤل . كنت اعرف أني غير مصدقة بأني راحلة حقا ، اظن ان شعوري قد ترجم نفسه . شعرت بالخزي ،ودون شك كان ذلك نابعا من ذاتي لاعتقادي اني لااستحق حقيقة توديعا افضل لأنني انا نفسي اخترت الرحيل ، اختلفت الامور نوعا ما عند مريم ، فقد قبّلت نسرين وجهي وبدأت بالنشيج ،وقبلتني مريم ايضا ومن ثم التفتت الى ابنتها لتهدئها ، حضر الحاج اسماعيل ليعيدنا الى المدينة وبدا هو ايضا حزينا ، صعدت سيارة اللاندروفر وقد خامرني شعور بالخدر .

تأملت المنحنيات الظليلة للجبال عند الشفق ،وتدفق مياه النهر ،والطريقة التي يمشي فيها الرعاة جنبا الى جنب ،لأننا سرنا هذه المرة خلال الممر من ميرغاوار الى سهل ريزاي ، كان محتملا ألا اعود الى المكان النائي ابدا ،وألا ابصر هذه الجبال ثانية وألا اركب مع الحاج اسماعيل بعد هذا قط ،وربما هذه آخر مرة ارى فيها نسرين ،تلك الفتاة القروية العاطفية الحالمة بالفرار مع رجل قبلي برزاني ، لأني كنت وسيلة اتصال بالمدينة وبالعالم الواسع الذي كانت ترغب في امضاء حياتها فيه .

تأملت كل شيء بابتهاج محاولة ان اطبعه في ذاكرتي بحيث يتعذر محوه ،لم اصدق ان ايران ستبقى هنا دائما تنتظرني كي اعود اليها ، على الرغم من اعتقاد الحكومة الامريكية ان حكم الشاه سيدوم لمئات السنين . ومع ان دستان نفسها قد شيدت منذ اقل من قرن خلا ،فان الاكراد كانوا يجوبون المنطقة ولايزالون منذ آلاف السنين . لم يكن ثمة سبب معقول للاعتقاد بأنهم لن يكونوا هنا . ومع ذلك فقد افضى اسلوب حياتي المؤقت الى الاعتقاد بأن لاشيء سيبقى كما كان .

يبعد مطار ريزاي عن كردستان مليون ميل في القلب والقالب.

فهو يقع على بعد عدة اميال الى الشمال الشرقي من المدينة وبذلك يشكل جزءا من بلاد العجم جغرافيا وكذلك ثقافيا واقتصاديا . عندما اندفعت انا وطه وجيرد فاتحين الابواب الزجاجية لقاعة الانتظار ذات الجدران الرخامية التي تعتبر احدى روائع الشاه المحلية ، كان علينا ان نتخذ سبيلا ملتويا بين حشد ضخم لاييّسر العبور ، لم تكن هنالك ارتال حقيقية امام طاولة تسجيل الاسماء ، بل مجرد كتل متدافعة ،كان الموظف يحاول خدمتها كلها دفعة واحدة . كنت بعيدة بتفكيري عن هذا المكان حتى قبل جلوسي ،متقاسمة زاوية ذات مقعد اسود بلاستيكي مع جيرد والحشد يتحرك على نحو عشوائي حولنا ،كان زمن الاقلاع قد انقضى منذ مدة قصيرة والناس لايزالون يتدافعون لدى دخولهم قاعة الانتظار ،بعضهم يذهب مباشرة الى مطعم المطار لطلب الفراخ المشوية على فحم الكوك او الهمبرغر ، وآخرون يسجلون اسماءهم بينما يقف هؤلاء الذين يلتقون بأناس او يرونهم صدفة وهم في طريق سفرهم فيتحدثون مع بعضهم بأصوات عالية ،كان المشهد امامي اقرب ما يكون الى حفلة كوكتيل ضخمة خالية من الشراب .

كان جيرد وطه قد استغرقا في محادثة لم اقدر على سماعها بسبب الضجيج الذي كان يصم الآذان ،كنت افكر بكل الامور التي يجب القيام بها في طهران وفي انكلترا ، حيث كنا ذاهبين لحضور موءتمر اكاديمي هناك ، شعرت كما لو اني كنت قد غادرت ريزاي من قبل ،على الرغم من تواصل الاعلانات بأن طائرتنا ستصل في اية لحظة . واخيرا كنت قد تحولت الى ايرانية تماما لاعتقادي انها ستأتي في آخر الأمر .

بينما كنت انتظر ،نظرت حولي وشعرت بالذهول الذي ينتاب المرء لدى ادراكه كنه الشيء ،لقد كنت اعرف العديد من هوءلاء الناس . لم يكونوا الغرباء الذين رأيتهم لدى وصولي الى ريزاي في مطلع العام ،ولا الاشخاص المجهولين المنتمين الى الطبقة الوسطى والعليا في طهران . كان هوءلاء جيراني وزملائي الذين

قضيت سنتي معهم ، كانوا اشخاصا تناولت وجبات غذاء معهم وتحادثت معهم كثيرا ، انتابني شعور بالكآبة ومع ذلك فقد كنت قد سحرت وتسمّرت في مكاني وظللت أتأملهم ، وهم يحدقون فيّ وينتظرونني كي الاحظهم .

قدمت شهرزاد من احد الجوانب وقد برزت شفتاها الملونتان بمستحضرات التجميل بابتسامتها المترفعة ، تلك التي كنت الاحظها مرتسمة على وجهها دوما في الفترة الاخيرة ، اندفعت واقفة على قدمي بينما كان جيرد وطه غافلين مستغرقين في محادثتهما ويد احدهما بيد الآخر .

ـ اتمنى لك رحلة سالمة .

قالت شهرزاد ذلك بابتسامة متكلفة ، رافضة النظر في عيني بما ان نبرتها كانت تنم عن سلوك تقليدي شكلي ، اعربت لها عن شكري ، ثم ابتعدت بخطوات متكلفة الاناقة ، وتساءلت في نفسي هل سيبادر آخر بالتحدث معي . وبعد برهة وصلت السيدة جام ،

ـ مارغريت ، لماذا لم تحضري الى منزلي لتوديعي؟ وددت لو تأخذي بعض الاغراض لولدي في الولايات المتحدة .

لم يعد توبيخ السيدة جام يباغتني ، فقد كنت متيقظة له وقلت :

ـ أنا آسفة ، لم يكن هناك متسع في حقيبتي ، وكما تعلمين نحن راحلون عن ايران .

بعد ان جلت بنظري حولي اكثر ، رأيت ضابطين من جيش الولايات المتحدة ، والجواهري الذي افسد مفاجأة جيرد في عيد الميلاد ، ووالد الصبي ـ الذي اتمنى ان لايرى شرا ـ الذي كان قد شهد حادثة المصباح الكهربائي . وعميد الكلية وأعضاء عديدين من الكلية وشخص آخر كنت اعرفه . ولم ارغب في التحدث معه .

اخيرا ، نهضنا انا وجيرد لدى الاعلان عن موعد الطيران .

نظرت الى طه كما لو اني لم أره من قبل ٠ كان قد انتظرنا خلال معظم فترة العصر ،على الرغم من انه كان من المفترض ان يكون في مكتبه طوال اليوم ٠ كنت قد سمحت لنفسي بأن اتسمّر مندهشة بهذا الحشد من العجم ، بدلا من التفكير في اخلاص طه غير المتذبذب وفي التوديعات في دستان ٠

ــ وداعا طه ،شكرا ٠

قلت ذلك وانا انظر في عينيه الزرقاوين الضاربتين الى الخضرة ٠ أردت قول المزيد ،لأعبر عن ذلك الشعور الذي يتصاعد متفجرا ،فيّ ،وعن حقيقة ان هذا الرجل وعائلته لم يطلبوا منا شيئا سوى ان نكون اصدقاء لهم ٠ تصافحنا ،ومشينا انا وجيرد نحو الطائرة ،وبينما كنت اصعد على متنها، نظرت ورائي للحظة فرأيت ان طه كان لايزال ينتظر هناك وسط حشد العجم ليشهد اقلاع الطائرة بأمان وسلام ٠

سيكون من السهل افتقاد اثر الاكراد ،لدى العودة الى امريكا، وكتابة اطروحة عن اللغة الكردية جعلتهم يتراوءون لي اقل حقيقة ٠ بدلا من ان يبدو حقيقة مكثفة امامي ٠ كان لابد للتجربة برمتها وللعاطفة ان ينجليا لأتمكن من التركيز على الاصوات التى دونتها على الورق وسجلتها في المسجلة ٠ كنت أتساءل في نفسي احيانا كثيرة ، فيما اذا كان ثمة حاج اسماعيل او دارا أو خديجة حقيقيون ٠ كانت أصواتهم مسجلة ولكن أين هم الآن ؟ انهم في ذهني ، الذي أمضى وقتا صعبا في التسوية بين جو الجامعة العقيم وحضور كردستان المكثف ٠

يوجد أكراد في الولايات المتحدة ،وكنت أعرف أن حوالي خمسين من الرجال الاكراد قد قدموا دفعة واحدة ومكثوا هنا، أما بالنسبة لآلاف اللاجئين في ايران ،الذين كانوا يرغبون في المجيء الى الولايات المتحدة ،فقد عرفت انه سمح لمجموعة ضئيلة منهم بالدخول الى أمريكا ٠ كان الطبيب المتعاون مع السافاك

هنا . وكان أناس آخرون عديدون قد نجحوا بوسائل مختلفة في المرور عن طريق دائرة الهجرة التابعة للولايات المتحدة .

قبض على رجل كنت قد التقيت به في ايران في مطار كينيدي لاستخدامه جواز سفر مزيف والى جانبه زوجته الشاحبة المفزوعة وفي حضنها طفل ذو ستة أشهر . تلقيت مكالمة من حجرة في فندق نيويورك الذي كانوا فيه ،خائفين من أن يبت القرار في وضعهم . هل ستسمح لهم حكومة الولايات المتحدة بالبقاء ؟ لم يكن قد صرح رسميا ابدا باعتبار الاكراد لاجئين ،وعندما حاول هذا الرجل أن يتصل بأشخاص من الولايات المتحدة كان قد التقى بهم في العراق ،اصروا على عدم معرفتهم به . كانت ثمة ضغوط غامضة من مواقع عدة مبهمة في واشنطن تصر على عدم قبول هذا الرجل داخل الولايات المتحدة .

في غضون ذلك ،كنت أكتب اطروحتي مع معرفتي بأنني عاجزة عن فعل الكثير . بدا أن لاأحد في امريكا يعرف شيئا عن دور السي.آي. اى في مكان لم يسمع به يدعى كردستان. بدأت الرسائل تصل الواحدة تلو الاخرى من الحاج اسماعيل ،دارا والشيخ عبدالله وهم يبعثون بتحياتهم الحارة ،ويسألون عن موعد عودتي .عند المساء سمعت الأخبار من اذاعة محلية ،وقد نقلت ان الحكومة الامريكية كانت على وشك تلقي صدمة بسبب التقرير الصادر عن لجنة بايك التابعة للكونغرس ،والذي يبحث في دور المخابرات المركزية الامريكية بطريقة سرية في الوقت الراهن، ليس في أماكن معروفة جيدا مثل انغولا ، وايطاليا ،فحسب بل ايضا بين مجموعة عرقية مناهضة لسياسة الدولة المسيطرة عليها وتدعى الاكراد ،في النهاية ظهر تقرير بايك واقيم الدليل على ادعاءات الطبيب الكردي المتذبذبة اخيرا . عندئذ تساءلت عن مدى معرفة الحاج اسماعيل والشيخ عبدالله والبقية بالاوضاع، هل سيرحب بالامريكان يوما ما ثانية في كردستان .

يتألف الجزء المتعلق بالاكراد من تقرير لجنة بايك فقط من عمودين موجزين من صفحة مطبوعة ،ويصف التقرير في تعابير محددة كيف ان الولايات المتحدة والتي تعمل بتوجيهات من الشاه شجعت الاكراد لبدء ثورتهم سنة ١٩٧٤ لأن ايران ارادت ان تربك العراق . وتصف ايضا هنري كيسنجر وهو يوجه القيادة الكردية ضد المصالح الكردية لصالح الشاه ويستمر هذان العمودان في سرد كيفية ان الولايات المتحدة ادارت ظهرها ببساطة عن ثلاثة ملايين من الاكراد المعاقين في العراق ومئتي ألف من اللاجئين المحجوزين داخل الحدود الايرانية عندما قامت العراق باعطاء " امتيازين" لا وزن لهما على سبيل التهدئة والوصول الى اتفاق . وحسب أقوال اللجنة المنبثقة عن الهيئة التشريعية العليا ،الكونغرس " فان ماقمنابه كان مشروعا تابعا من سلوك تهيمن عليه مصالحنا الذاتية وحدها حتى لو كان ضمن محيط العمل السري " .

لم أكن مستعدة بعد لتصديق ماهو أسوأ ،وكذلك كان صديق لي كردي قد هاجر الى امريكا منذ اكثر من عقد مضى،أخذنا معنا نسخة من تقرير بايك وذهبنا الى محاضرة كان يلقيها موظف ذو رتبة عالية متخصص في قسم الشرق الاوسط التابع لادارة حكومية. انتظرنا بصبر الى أن انتهت المحاضرة وأعيدت افكار متسمة بالتكرار عن الحرب العربية الاسرائيلية على نحو شامل . بعد بعد ذلك رفع أسد ،الكردي يده وسأل بلغته الإنكليزية المشددة :

ـ ماذا بشأن تورط الامريكان مع الاكراد ؟

حدق موظف الادارة الحكومية فينا ، بينما التفت الحشد الاكاديمي ليرى الشخص الذي طرح هذا السؤال .

ـ الأكراد ؟

قال الموظف باندهاش . عند ذلك تذكرت الموقف لدى ذهابي لرؤية العميد بشأن دارا .

ـ ماذا عنهم ؟ ماذا لديك لتقوله حول الطريقة التي عاملتهم بها امريكا ، باستخدامها لهم ومن ثم تركهم يواجهون مصيرا فظيعا ؟ .

كان تنفس الموظف مسموعا في مكبر الصوت .

ـ لا أعرف بماذا تنوه ،ليس لأمريكا علاقات مباشرة مع الأكراد.

رفع أسد نسخة تقرير بايك لرجل الادارة الامريكية ليراه. فصرف الحاضرون انظارهم عنه . كنت اعرف ماكانوا يفكرون فيه. فقد كانوا يعتبرونه مجرد مجنون شرق أوسطي آخر . وكذلك هو ليس فلسطينيا ذا علاقات مع الطبقات الاجتماعية العليا .

صرخ أسد بصوت عال وقد دكن وجهه من الغضب :

ـ ماذا عن تقرير بايك ؟

ـ ان تقرير بايك مليء بأمور غير دقيقة .

ولم يحسم بعد او يسمح له بالنشر بالمعنى الضيق للكلمة ولاشيء فيه يمكن ان يوءخذ على انه حقيقي على نحو موءكد .

اجاب الرجل على سوءال طرحه شخص آخر ،جلس أسد بعدئذ بهدوء وهمس باتجاهنا من بعيد احد الحضور ،وهو واحد من خبراء الجامعة في شوءون الشرق الأوسط غير الناضجين وقال :

ـ ما حدث للأكراد هو نتيجة خطئهم تماما . لقد سمحوا لانفسهم بأن يستغلهم الآخرون .

حلمت بعاشة وهي تعذب بعد هذا بمدة وجيزة ،حاولت ان ابعد الاكراد عن تفكيري وان اركز على اطروحتي ولكن ذلك كان صعبا

هتف لي اللاجيء الموجود في نيويورك ثانية وقال إنه قد منح حق اللجوء السياسي . ونقل اليّ مقتطفات من اخبار طيبة محدودة ، حيث قال انه سيسمح لسبعمائة من اللاجئين الاكراد بالمجيء من ايران الى امريكا . سبعمائة لاجيء من أصل ٢٠٠,٠٠٠ ومايقارب من ١٠٠,٠٠٠ لاجيء فييتنامي و ٧٠٠ كردي ،تمنيت لو تنقل مسألة الاكراد كاملة في اخبار الـ C.B.S سي . بي . اس. هيئة الاذاعة الامريكية .

ذهبت في يوم شتوي قارس جدا لزيارة الرجل الذي كان قد جاء بجواز سفر مزور وأبعد تقريبا ،لأن الاكراد لم يكونوا

لاجئين رسميين . كانت زوجته قد نجحت في ايجاد كل اساسيات طبخة لتعد وجبة كردية مشكلة من الارز والمعكرونة والخبز والشاي والفاكهة . تناولنا غذاءنا ونحن جالسون على أرضية حجرة الفندق في مكان ضيق عند نهايات الاسرة ، ووضع الطعام فوق اعداد قديمة من جريدة النيويورك تايمز ، أبلغني الرجل انه كان يتفحص بدقة وقلق الجرائد بحثا عن اخبار عن الاكراد .

كان وجه الرجل غير حليق وملفتا للانظار بدا هو وزوجته مبتهجين لرؤية شخص يعرفانه مسبقا ،قبل التغيير الذي طرأ على حياتهما التي كانت اكثر سعادة . سألتهما :

— ماذا ستفعلان الآن ؟

ابتسم الرجل بحزن وقال :

— لانعرف .

شعرت انهما كانا ينتظرانني لأقدم لهما اقتراحا مساعدا أو عرضاما . ولكنني كنت اقتني شقة صغيرة ولم تكن لدى اتصالات لاساعد هذا الرجل ليحصل على عمل . حاولت ان اوضح هذه الحقائق له ولكن ابتسامته اتسعت اكثر ،وقال :

— نعم ،انا افهمك ، حسنا ، لابأس في ذلك .

مضت ثلاث سنوات قبل عودتي الى كردستان . كان صيف سنة ١٩٧٨ فترة تصفية حسابات بالنسبة لايران.فترة لتسوية الحسابات مع الشاه ووالده الذي سلب ثروات الأمة بقدر ما يمكن ان تتذكره أغلبية الشعب . تلاشت الحواجز وسمعنا انا وجيرد اصدقاء لنا في طهران يتحدثون بعلنية اكثر ضد حكومتهم اكثر مما كانوا يجرؤون عليه في أي وقت مضى حتى في الولايات المتحدة . وبقدر مايتعلق بهذه الحواجز ، فان افواه الاكراد الذين كنا نعرفهم جيدا لم تتوقف عن الحديث بشأنها ابدا . لقد افصحوا عما يجيش في صدورهم من مشاعر الحقد تجاه الشاه ووالده ولم يبق شيء منها خفيا .

كانت لغتي الكردية قد تحسنت فعلا بعد كل هذه الأشهر من

الاصغاء الى الاشرطة التي سجلتها والرجوع للتدقيق في القاموس الذي كانت ابنة نانا على وشك اتلافه. كان عليّ ان اتعلم ان حسن الاستقبال والحماسة التي شعرنا بها لدى وجودنا موءخرا فيدستان لم تكن شيئا مختلقا من خيالنا . كان لايزال ثمة ترحيب ينتظر عودتنا وحتى يمكن ان يكون اكثر حرارة .

كان رأسي لايزال يضج من الرحلة الطويلة التي قمنا بها في الحافلة الى ريزاي ، الى ان انعطفت سيارة الاجرة البرتقالية نحو قرية الحاج اسماعيل . التغيير الأول الذي لاحظته هو وجود اعمدة كهرباء . وكانت تتفرع على نحو منحرف من خطوط الاسلاك الكهربائية الممتدة على طول الطريق الموءدي الى الحدود العراقية . لقد بات يوم الكهرباء قريبا ،على الرغم من عدم وجود اسلاك على هذه الاعمدة الممتدة الى دستان . والتغيير الثاني الواضح والمباشر في دستان كان انجاب خديجة وطه ولدا ،بحيث قد ولد بعد فترة وجيزة من مغادرتنا كردستان وهو الآن طفل ذو سنتين ،مدلل جدا وحبيب جدته . كان طه اخيرا قد تخلى عن كليته ،ظننا انه كان قد حل مسألة الاختيار بين كونه طالبا ذا خمسة وعشرين عاما في السنة الاخيرة في المدرسة العليا ،وبين اتخاذه مكانه كسيد مأمول لاحدى اغنى القرى في كردستان الايرانية . اما خديجة فهي فيالوقت الراهن تحت اشراف حماتها لأن زوجها قد انتقل الى القرية . لم تكن تلك خديجة الخالية من الهم التي اتذكرها ، وذلك بسبب ضغط واجباتها المنزلية وواجباتها تجاه طفلها.كانت في حالة نزق دائم وتشكو من الصداع ،ولكن بالطبع ،كل ذلك كان دون ما هو ظاهر ،ولم ألحظه في البداية ،اخفت دوامة حسن الاستقبال كل شيء سوى الابتهاج الواضح على مضيفينا لوصولنا. وكما يقول المثل الايراني : الضيوف احباب الله . كان الاكراد يجعلوننا نشعر بالمودة اكثر من أي مضيفين آخرين التقينا بهم.

رافقنا الحاج اسماعيل الى " درمان آقا "بسيارتهالتويوتا واقيمت ولائم في ديوانخانته ،حيث احضر الحاج اسماعيل آلةالتصوير

الفوري واظهرني في صور عديدة كان التركيز فيها عليّ فشيلا ، ليحتفي بهذه المناسبة الخاصة . فعلت اكثر مما كنت أريد في دستان ،ربما لأن هذه كانت رحلتي الثانية ،وكنت اشعر بالثقة اكثر في نفسي مع الاكراد ،فقد شعرت بحرية اكثر في مداعبة مضيفاتي عندما كن هن أيضا يفعلن ذلك وقررت ان اتسلق الجبل الذي يرتفع خلف دستان على طول الطريق ،حتى الحدود التركية ،وقد شكل هذا صدمة للحاج اسماعيل ومريم .

كنت الانثى الوحيدة في فريق مؤلف من ثمانية من أولاد الحاج اسماعيل وأولاد اخته وجيرد . لقد كان الاكراد لطفاء معي بقدر ما يستطيعون . فقد حملوا كامرتي بدلا عني وعندما ظهر رجلان كهلان بجانب الممر الضيق يقودان احصنة في الاتجاه الذي كنا نسير فيه ، طلب مضيفونا حصانين لنركبهما انا وجيرد . وبفضل عنايتهم المفرطة كنت قد انهكت فقط ولم امت ،لدى بلوغنا الثلج والمعسكر الصيفي للقرية الذي يقضي الشتاءات في سهل ميرغاوارقرب دستان . عرفت سبب عدم اعتبار الحاج هذا التسلق رياضة ولماذا حاول بشدة ان يقنعنا بالتخلي عنه . ان التسلق عمل مطلوب من الرعاة واسرهم ،الذين يأخذون الاغنام الى مراعي تقع في اماكن اعلى ،بعيدا عن عشب السهل الجاف ،انه ليس امرا يفعله معظم الناس للتسلية . ومع ذلك ،وكالعادة ،فقد تفضل علينا الاكراد بتحقيق رغباتنا واخذونا الى حيث كنا نريد .

اصبح التسلق اكثر امتاعا برفقة محمد ،كنت اسمع منذ زيارتي الاولى لدستان عن محمد ،عندما اخبرتني والدته واخت الحاج اسماعيل ،ان لها ابنا يتحدث الانكليزية بطلاقة وانه يدرس العلوم في احدى الجامعات الايرانية ،وبالنظر الى بيئة دستان بدا ذلك غير ممكن الى حد بعيد ،حتى اني تساءلت اذا لم تكن تبالغ قليلا ، وعلى كل حال ألم تظن خديجة ان روسيا الشيخ عبد الله وامريكتي كانتا نفس المكان ؟ .

ولكن محمدا كان حقيقيا تماما وتقريبا افضل من الحقيقة

بكثير . كانت انكليزته ظاهرة غريبة بالنسبة لشخص لم يخرج من ايران ابدا . على الرغم - وبالتأكيد- من انه لم يكن ابرع من الحاج اسماعيل فقد كان من المدهش ان ترى اهتمام كردي مولود في القرية موجها نحو علم الاحياء ودراسة اللغات على نحو رسمي بدلا من ان يوجه نحو الزراعة وصيد الغزلان والسياسات القبلية . ان وجود محمد في القرية احدث اختلافا كبيرا في أمر بقائنا . فلم يكن ثمة شخص في دستان يمكننا التحدث معه بالانكليزية قط . ولكن اللغة لم تكن السبب الرئيسي والفعلي ، بما اننا كنا نتقدم جيدا في الكردية والفارسية ،ولم نكن نحتاج لمساعدته في الترجمة. ان المظهر الثقافي هو الذي احدث هذا الاختلاف بالتعليقات التي كان يبديها والاجوبة الجوهرية التي يجيبها عن القرية وعن اسرة كان قد اقام معها لمدة عشر سنوات ومن ثم غادرها الى عدة اميال عنها . لقد كان من نواح عدة شخصا مريحا ،ومن نواح اخرى كان وجوده هنا بيّنة تثير المصادمات . ولكن في النهاية كان حضوره يثير التساؤلات اكثر مما يجيب عليها .

اثناء عودتي الى ايران تحدث اليّ شخصان فقط حول تورط امريكا في الحرب الكردية الاخيرة . كان احدهما الشيخ عبدالله الذي اشار الى السي . آي . اي . على نحو غير مباشر . لقد اتضح لي الآن ان الشيخ عبدالله يعرف وكان قد عرف كل شيء جار ،على الرغم من انسحابه الرسمي الاضطراري ،اما الشخص الآخر الذي كان يعرف السي ،آي ،اي . والذي لم يترك مجال العفو ابدا ،هو السيد خليلي ،صديقي في محطة الاذاعة والذي كان قد قدمني اصلا الى عائلة الحاج اسماعيل .

فحسب رؤية السيد خليلي فان السي . آي . اي . لم تكن مسؤولة عن قتلى الاكراد العراقيين الذين اشتركوا في القتال فحسب ،بل عن جميع الاكراد الذين طوقتهم الحكومتان في ايران وتركيا . وفي الحقيقة بدا انه ليس هناك حدود لقوة وقدرة امريكا في نظر السيد خليلي . التقينا انا والسيد خليلي وجيرد في احدى الليالي وجلسنا على مقعد في احدى الحدائق . بدت الحديقة مثل

اماكن عديدة جميلة في ايران ،وكأنها قد تحولت الى موقف للسيارات ،التي كانت تسير بمحاذاتنا تماما في ممر ضيق مخصص للمشي • وعندما ابديت استيائي من ذلك للسيد خيلي قال بما معناه ان دمار هذه الحديقة هو خطأ الولايات المتحدة كما كانت وبنفس القدر هي السبب في خراب الزراعة الايرانية ايضا •

كان بعضمما يقوله السيد خيلي صحيحا على نحو مطلق ،ولكن تذمره بصورة عامة كان شبيها بالمسؤولية المتعذر السيطرة عليها والتي كان العديد من الايرانيين يرغبون في رمي شقلها على كاهل امريكا • فحتى الآن يظن العديد من الايرانيين الليبراليين ان الولايات المتحدة هي التي كانت وراء تسلّم آية الله الخميني السلطة ، ان كل امر سيء يمكن ان يحدث في ايران ،ولو في حدائقها ،يمكن ان يلقى امام عتبة امريكا •

جلت بنظري نحو البدر بعيدا عن وجه السيد خيلي المنفعل، شعرت بالانزعاج لتسلط هذه الفكرة على السيد خيلي ومن ثم انتابني شعور بالخجل من نفسي لاحساسي بالانزعاج ، ماذا يريد منا السيد خيلي ؟ ماذا نريد منه نحن ايضا ؟ كان السيد خيلي يثير قلقي اكثر من اي شخص آخر التقيت به في ايران ، عندما غادرنا ريزاي بعد اقامتنا فيها ، كانت صحته الجسدية والنفسية في حالة واهنة لدرجة اني تساءلت فيما اذا كنت سأراه حيا في زيارة اخرى • لقد تراءى لي مجسدا وعي كردستان وضميرها ،والآن وبعد ان قضيت فترة مع اللاجئين في امريكا لاحظت كم يشبههم السيد خيلي في طريقة تفكيرهم وحديثهم • لقد كان لاجئا في ارضه الأم • ولم يقدر السيد خيلي ان يتأكد ابدا من آننا لسنا عناصر من السي آي • اي • فعلا ،على نحو مغاير عن الشيخ عبدالله •

كان تقبل انتقاد السيد خيلي اكثر صعوبة من انتقاد كردي آخر ، قومي متحدث وهو محمد ابن اخت الحاج اسماعيل • وقد قضيت معظم وقتي في دستان برفقة محمد • اتحدث عن كل شيء تقريبا، بدا انه لاتوجد محظورات عند محمد ،وفي جو الروح الحرة الجديدة السائدة في اب ان والروح الحرة الكردية التقليدية ،ان خوضنا

مناقشة طويلة حول عزمه على السفر الى تركيا والى جميع انحاء كردستان في مهمة لتثقيف وتنظيم إخوانه الاكراد سياسيا لم تثر في تفكيري الا بعض الاستغراب . لم يتحدث اليّ احد ابدا بتلك الحرية ولكن من ناحية لم يكن ثمة شبيه لمحمد .

هدم عبدالله كل ما كوناه من آراء حول محمد في احد الايام بعد مضيه الى عمله في طهران ،فقد سألني :

ـ انك تتحدثين مع محمد كثيرا ، أليس كذلك ؟

تأملت وجهه متسائلة فيما .إذا كان قلقا مثل خديجة حول مسألة ملاءمة قضاء الكثير من الوقت مع رجل هو ليس بزوجي .وأردف قائلا وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة خفيفة :

ـ أتعلمين ان بعض الناس يقولون ان محمدا يكتب تقارير للسافاك ؟

انتابتني فورة من الغضب لهول المفاجأة ،ثمة اناس آخرون يوجهون ضروب الاتهامات هذه بسهولة ولكن ليس الشيخ عبدالله ويأمر يمس قريبه . سألت بحدة متمسكة ـ على نحو يائس ـ بثقة وود يتلاشيان بسرعة رهيبة . انقلبت الحقيقة في لحظة رأسا على عقب ولن تعود الصداقة مثلما كانت ابدا . لقد ادركت لتوي من الشعور المرضي في معدتي انني حقا في ايران ثانية . واضاف الشيخ عبدالله غير مبال :

ـ لا أعرف . ولكني ظننت انه لزام عليّ اخبارك بذلك .

عندما عدنا الى طهران من زيارتنا الى كردستان ، ترددت ولكني بعدئذ هتفت لمحمد في مكان عمله ،نزولا عند طلبه. قال انه متلهف ليرينا انحاء المدينة أو أن يساعدنا بأي طريقة ممكنة . تعطلت فعاليتي لدى سماع صوته ثانية . كان محمد يذكرني بالحاج اسماعيل من نواح عدة ، وفي الحقيقة كان محمد قد حدثني عن مدى حبه واحترامه لخاله على الرغم من كل اساليب الحاج المتحفظة .

التقينا بمحمد في المتحف الايراني للفن الحديث ،وهو مؤسسة

بدت انها تعكس اهتمام الامبراطورة فرح في الرسم الفرنسي. كان محمد برفقة امرأة زميلة له في العمل . وتساءلت فيما اذا كان كلاهما يعملان للسافاك، في وقت لاحق وبعد ان تأملنا مجموعة الفن بامعان ، اخذنا محمد الى منزل احد اقاربه في شمال طهران. لقد اثار زواج محمد من زميلة له في الجامعة بدلا من زواجه من كردية، اثار انطباعا غامضا لدي .

بدأ الشك يراودني ثانية ،عندما قادنا عبر الفناء ومن ثم الى قاعة الاستقبال الايرانية المؤثثة على نحو فاخر ،كان جميع افراد اسرة زوجته ينادونه بمحمد خان . وقد بدا ذلك غريبا للغاية ،بما انهم ليسوا أكراد . لماذا يكنّون هذا الاحترام البالغ لابن قائد قبلي ،مولود في القرية ؟ في غضون ذلك المساء قدم لي محمد زوجا من الصنادل البلوجية ،المصنوعة من الياف شجر النخيل . عند العودة الى دستان روى لي كيف ان عمله قد اخذه الى جميع انحاء ايران. كان محمد قد قام بزيارات لأماكن فقيرة ومتخلفة الى حد لايصدق ، اماكن كانت تجعل القرى الكردية تبدو مثل ضواحي ويستجستر ،كانت الحالة المتأزمة للبلوجيين في الجنوب الشرقي من ايران قد اثرت في محمد بشدة ،ربما لأن بلوجستان هي مثل كردستان ،مجزأة بين بلدان عدة ، مع كل المحاولات الايرانية والباكستانية للقيام ما باستطاعتهما لاعاقة القومية البلوجية .

ـ تفضلي هذا الصندل .

قال ذلك محمد وهو يناولني اياه ،اخبرني في دستان انه عازم على تقديم هذه الذكرى لي من بلوجستان . ومع ذلك فقد حزمت في نفسي في طهران ،انه قد اعطاني اياه على سبيل الشكليات فحسب . لذلك تركته قابعا على طاولةالمقهى عندما مضيت الى المنزل

رأينا محمد ثانية في احد الايام ،ولفت نظري كيفية تدبره امره في الذهاب والاياب من عمله بهذه السهولة ،ولكن محمدا كان متحمسا كما هو دوما . وتبعنا الى مكتبة روسية تقع في الجانب الآخر من جامعة طهران ،حيث تصفحت كتبا بحثا عن بعض الكتب الروسية

عن الاكراد . وطبعا لم نعثر على اي شيء . وكنا قد قمنابزيارات عديدة اليها ولم نجد شيئا قط .

التقى بنا محمد مرة اخرى ليودعنا . وكان في يده الصندل المصنوع من الياف النخيل . وقال متحيرا :

ــ لم تأخذيه . لقد اهديتك اياه ،ألا تريدينه ؟

شعرت بالاضطراب لذلك ،لماذا كنت متأكدة انه لم يكن يقصد اعطائي اياه ؟ لم يكن هناك شيء ينم عن سلوك شكلي وتقليدي في عاداته . ربما كان ذلك ماتمنيته فعلا. فعلى الأقل لخلقت الرسميات لديّ مبررا لأكرهه .

تساءلت حينئذ ،كما أتساءل الآن ،فيما اذا كان محمد قد احس بفتورنا الغريب . وقد فتحت فمي اكثر من مرة لأتكلم وأوضح الموقف ولكن ارادتي خانتني فالذي ابلغنا عن محمد هو الشيخ عبدالله .

ذكرني محمد عندما وقفنا في الشارع في طهران نتصافح بأنه عازم علي المجيء الى امريكا وانه ينوي الحصول على الجنسية هناك واضاف :

ــ انها الطريقة الوحيدة كي أكون حرا في مساعدة أبناء جلدتي . فقلت له موحية :

ــ ولكنك ستنسى الأكراد ، عندما تذهب الى أمريكا ، لن تفكر في العودة الى كردستان ، فنظر الي بوجه صارم وقال :

ــ ان والدى ووالده وجده قد كرسوا حياتهم لقضية كردستان فتساءلت في نفسي ، هل يمكن أن تكون هذه كلمات عميل للسافاك .

انتهينا من المصافحة ومضى هو بخطوات واسعة سريعة نحو الشارع .

ــ انتظر ، انتظر يامحمد .

قلت ذلك وأنا أصرخ وراءه تقريبا ، بعدئذ لفني الصمت ولم أتفوه بكلمة ، ووقفت أراقبه بحزن وهو يحيد عن الطريق .

كلمة اخيرة

كنت خائفة في البداية ، لدى شروعي في تدوين تجاربي في كردستان ، فلم يكن قد مضى شهر بعد على عودتي من ايران حتى بدأت أشعر بعيون السافاك السرية ، تثقل كاهلي ، حتى في أمريكا وارتأيت بعدئذ ، انه ليس من الحكمة الكشف عن الحقائق الواقعية والممتعة ، ووضع أصدقائي الاكراد في خطر . لذلك فقد غيرت الاسماء والأماكن وبعض التفاصيل ، لاخفاء هوية كل شخص ورد ذكره في الكتاب ، منذ البداية تقريبا .

عندما أكره الشاه على الخروج من ايران ، شعرت بانزياح هذا الثقل ، اذ لم يعد هناك ما يسمى بالسافاك على الأقل ، كان من الصعب علي أن ابدي حماسا تجاه مفهوم دولة خاضعة لحكم رجال الدين الشيعة ، على الرغم من ميلي المتعاطف مع الأقليات العرقية والدينية في ايران ، ولكنني أملت مع آخرين عديدين ، أن البوليس السري ومراقبة المطبوعات ، وتوجيه الاتهامات ـ حتى بالشك فقط ـ ستصبح ذكريات من ماض وحشي مرعب . لم أعرف أبدا رأي أصدقائي الاكراد بآية الله الخميني ، اذ بعد مغادرتي ايران صيف ١٩٧٨ أصبحت الاضرابات في مراكز البريد مستمرة و اشتدت عمليات الاخلال بالأمن مما جعل المراسلات المتبادلة داخل وحول ريزاي مستحيلة . وبالاضافة الى ذلك لم أكن قادرة على معرفة ما حدث لهم في هذه السنة من العنف المتجدد .

انه لمن السخرية المريرة ،أن يحظى الاكراد الآن فقط بتغطية في الصفحات الاولى من الصحف الامريكية . ففي حرب سنة ١٩٧٤ في العراق التي ذهب ضحيتها آلاف لا تحصى من الاكراد لم تتلق قضيتهم وكفاحهم القدر المماثل من الاعلان والدعاية المتدفقة عنهم عن ايران يوميا في الوقت الراهن . سيعلم القليل القليل ، ذلك

الذي يقرأ التقارير عن المعارك ويتفحص بدقة صور الأكـــــراد المعطفين لينفذ حكم الاعدام فيهم ،وتبدو الصحافة الأمريكية متلهفة لنقل ان احدا ما يقاوم آية الله الخميني ،حتى ولو أنه واحد مـــن المجموعات القبلية ،ألا وهم "الاكراد"،ومعظم التقارير الاخبارية تتجاهل او تشوش حقيقة وجود امة كبيرة ومتماسكة في ارض كردستان المجزأة والخاضعة للحكومات في انقرة وبغداد وطهران •

هناك روءية نامية حول كردستان موحدة في الشرق الأوسط هذه السنة اكثر من اي سنة اخرى في الذاكرة القريبة ،والحدود التـــي تفصل الاكراد عن بعضهم غير مسيطر عليها ، لأن الحكومات فـــي ايران والعراق وتركيا كلها مزعزعة • لا أحد يعرف اذا كـــان الخميني سيقدر على حشد جيش وترسيخ حكومة ،لتسيطر على تلـــك الأرض الواسعة بشعوبها المتباينة • كانت العراق حديثا قد شهدت محاولة انقلاب ثانية وكان قد اعدم فريق ضخم آخر من المسوءولين في حزب البعث ، وتبدو تركيا دوما على حافة الافلاس ويتولى الجيش والقوات المسلحة السلطة فيها •

أتساءل فيما اذا كان لدى الاكراد الذين ودعتهم سنـــة ١٩٧٨ معرفة طفيفة او حس داخلي باحتمال توفر مناخ جديد لهم،وانفتاح مجال واسع امامهم ،جاء رحيلي الأول عن ايران في غضون الآثـــار الكارثية لحرب ١٩٧٤ المشوءومة • بدا كل شخص حزينا ،ليس الاكراد اللاجئون الذين كانوا يدرسون القرار للبقاء في المنفى أو العودة الى تعذيب وموت ممكن في العراق فحسب ،بل جميع الاكراد فـــي ايران ، في تركيا وفي جميع انحاء العالم • سارت الحيـــاة واستمرت على ما كانت عليه في ايران وتركيا التي لم يكن فيهـا للأكراد ضمان للحقوق الثقافية ،اما في العراق فلم يعد هنـــاك سبب كي يقدم النظام تنازلات للأكراد ، بما ان كيسنجر والشاه قد قطعا عنهم الدعم من الخلف ،نُظمت اعدامات جماعية ،وشلـــت الممثلية الكردية في الحكومة العراقية واقصيت اللغة الكرديـة كوسيط للتعليم في المدارس والجامعات في كردستان العراق •

وعلاوة على ذلك نتجت آثار غير مباشرة ايضا بالنسبة للأكراد بسبب احداث سنتي ٧٤-٧٥،فالعالم لم يكن متعاطفا مع القضية الكردية ابدا • وقد تقدم التقدميون الاكراد بطلب رسمي سنة ١٩٦٠ لعبد الناصر ،كي يرفع قضيتهم مع العراقيين الى هيئات دولية وقد اعتذر عبدالناصر عن ذلك ،لا أحد في القاهرة او في اي بلد آخر حينذاك وفي الوقت الجاري ، قدر أو يقدر ان يفهم اية نزاعات يمكن ان تحدث في المنطقة • ان صداقات الاكراد ذات الاختيار السيء مع امريكا وشاه ايران ،خنقت اي ومضة ضئيلة من التعاطف ، كان من الممكن ان يجدها الاكراد بين اليساريين، والمسلمين او القوميين العرب • على الرغم من انه شيء قابل للجدل ان تقول : ما كان لغير هذا ان يحدث اي تغيير في الموقف – حيث لم يقدم احد من هذه الجماعات الدعم للأكراد علنيا ابدا – فقد قدم هذا الأمر التسهيلات للحكومة العراقية كثيرا كي تقوم بالابادات الجماعية ، حيث اجبر في الوقت الجاري حوالي ٥٠٠,٠٠٠ الى ١٠٠,٠٠٠ من الاكراد قسرا على الاقامة في المعسكرات في الصحراء الجنوبية العراقية ،بعد ان أجلوا تحت ضغط فوهة البندقية من قراهم في كردستان العراق • ويفرغ العراقيون رقعة من الارض يبلغ اتساعها ما يقارب عشرين الى ثلاثين كيلومترا على طول حدودهم مع ايران وتركيا وبذلك يحدثون ارضا بلا شعب ، فقد ابيدت الاشجار والمنازل والمحاصيل عن بكرة ابيها • ان الجزء الاكثر اخضرارا وخصوبة في كردستان يقع ضمن حدود العراق ولكن الينابيع الجبلية قد سدت بالاسمنت المسلح وصبت السوائل الكيميائية على النباتات الطبيعية •

ومع كل هذا فان الحكومة العراقية غير قادرة على قتل كل الاكراد في العراق ، كما لم يستطع الشاه ان يجعل من نفسه شخصا لايقهر بقتل كل ايراني • ان جيل الاكراد الذين عرفتهم في مدرسة اللاجئين عند العودة الى ريزاي ،ليس مستعدا للعودة الى عراق يحكمه نظام عنصري ،لقد نشؤوا في كردستان ،حيث كانت لغة الكتاب الأول لتعلم القراءة والكتابة ونصوص الفيزياء بالكردية وليس بالعربية •

لايزال القتال مستمرا في العراق ولكن القليل منه مـــا يلفت الانتباه في الصحف الامريكية ،وقبل عدة اشهر وافت المنية الملا مصطفى البرزاني ، رجل الثورة الكردية المتمرس بعدمعركة دامت خمس سنوات مع السرطان ،لقد مضى مسعود البرزاني ذو الخمس والثلاثين سنة لتوه الى ايران ،بعد ان شهد احتضار والده علـــى فراش الموت في واشنطن في امريكا ، حيث جمع القوات القديمـــة التابعة لوالده ، من البرزانيين ،وقادهم عائدا الى العراق عبر الحدود وقد نقل ان مسعود اصبح الامين العام للحزب الديمقراطي الكردستاني ،تلك المنظمـة التي تلقت المساعدة من امريكـــا وايران . ان اسم "أوك" الاتحاد الوطني الكردستاني ليس معروفـــا في امريكا ،ومع ذلك فقد شرع في القتال وحده منذ الوقت الـــذي امر فيه البرزاني وجنرالاته رجالهم بوضع السلاح سنة ١٩٧٥. وقـــد عاد الى العراق جلال الطالباني وآخرون من الذين كانوا قـــد اقصوا عن ح.د.ك. مابين سنوات١٩٦٦ و ١٩٧٠ . اني افكر بالشيـخ عبدالله وأتساءل فيما اذا كانت هذه الاحداث قد خطرت ببالـــه لاحقا ام لا .

ابلغني اصدقاء لي في امريكا انهم عرفوا اكرادا عراقيين ظهروا على شاشات التلفزيون وعلى صفحات الصحف الواردة مـــن كردستان الايرانية ، حيث ان سياسة الارض المحروقة الجارية فـي كردستان العراق لاتزال قائمة . كان الاكراد قد عادوا الـــى ادارة بلادهم مع مطلع حكم الشاه ،تماما كما بسطوا سيطرتهـــم عليها خلال الحرب العالمية الثانية ،عندما كان الجيش الفارسي منشغلا في مكان آخر . وكما كان من قبل في جنوب ريزاي ، فـــان هذا الحكم يبدو شرعيا تماما ،اكرادا يحكمون اكرادا . ولكـــن تدفقا من تقارير مشوشة عن اتراك " أي اتراك؟" يقاتلـــون اكرادا في منطقة ريزاي ـ ناغادة ، خلقت مفهوما معينا لـــدى معظم الامريكان ،كما فعلته مع مراسلي الصحف الذين كانـــوا يقومون بتغطيتها . من على هذا البعد ليس باستطاعتي الان افضى

الى هذا الافتراض وهو أن الدائرة القديمة من النزاع والانتقام بين العجم والكرد قد استؤنفت في غياب القمع الحكومي ، أو ربما صعدت في وجه الخميني لحضه للاغلبية الشيعية في ايران لحل الأزمة الكردية بالدم اذا اقتضى الأمر .

لا يستطيع الاكراد أن يبسطوا سيطرتهم على ريزاى ، لأنها مدينة تركية ، ولكن تقارير نشرت أن " الغارديان " نقلت أن الاكراد استولوا على مخفر الشرطة في سيرو ، التي عبرناها الى مقاطعة هكارى في كردستان تركيا قبل أربع سنوات ونصف خلت . وفي الوقت الراهن من الممكن ألا نقدر على الذهاب الى تركيا الشرقية على الاطلاق ، بسبب الاحكام العرفية السارية هناك . ومن ناحية أخرى يمكن أن تكون سهلة . فربما يستطيع طه أخذنا الى هناك بسيارته اللاندروفر بدون مضايقات جوازات السفر أو التأشيرات . وتقول الاشاعات أن الاكراد في تركيا قد حرروا مناطق بأكملها ، وأنهم يعبرون الحدود بالآلاف ليأتوا لمساعدة اخوانهم الايرانيين .

وقد نعت مسؤول ايراني الاكراد - وعلى نحو رسمي - بأنهم شعب رديء وبأنهم أدوات للشيطان . وكان قد أرسل آية الله خلخالي ليتعهد باحقاق الحق في كردستان . ويحتل الجيش الايراني مدن كردستان مدينة مدينة ابتداء من سنندج وساقز ومهاباد وبوكان وبيرانشهر ، وصولا الى بانة ، وقد نقل أن معظمهم قد لاذوا بالفرار، فالأكراد كما يتعين على الايرانيين اكتشافه - ليسوا ، طهرانيين ويأمل الاكراد أن يصمدوا في الجبال لأمد طويل ، كما حدث في حرب ١٩٦١ في العراق .

ثمة تهديد وهو موجود دوما ، بأن الفرصة المناسبة للأكراد ستنقضي . وحكومة الولايات المتحدة بحاجة شديدة - بشكل يثير الفضول - لبيع السلاح لجهة ما ، لذلك ربما يكون الايرانيون قادرين على استكمال المخزون الذى ورثوه عن الشاه ، ليصبوا المزيد من السم والنار على كردستان .

تحدث الرئيس التركي الحالي على نحو فظ ، مدينا الأكراد، اذ يندر أن يفعل الأتراك ذلك ، عندما يتعلق الأمر بالأكراد، وذلك في كلمة له ألقاها في الذكرى السنوية للانتصار التركي على اليونان سنة ١٩٢٢ ، وصرح قائلا : " ليس هناك حيز للمناطق وضروب النشاطات التحررية التي تستهدف الاختلافات اللغوية ، العرقية ،الطبقية أو الطائفية في وطننا ، وستوقع الحكومة الهزيمة بهذا الداء وستسحق رؤوس بعضهم " .

لو لم أكن مؤيدة للأكراد ، لما خلقت مضايقات لنفسي بالكتابة عنهم ، ولكن لو حدث وعرف مزيد من الناس عن وضع الاكراد فانهم سيولون عناية كافية للتعبير عن آرائهم بحرية في الوقت الذى يحول فيه النظام العراقي كردستان الى أرض خراب ، وسيهتمون بمساعدة الأكراد لاسماع صوتهم في الأمم المتحدة الى جانب منظمة التحرير الفلسطينية ، وسيهتمون كذلك بالاحتجاج والادانة ، عندما تستخدم الأسلحة الامريكية ضد الأكراد في ايران والعراق وتركيا .

ليس للأكراد أصدقاء ، هو مثل أستشهد به أحيانا كثيرة للزوار الذين كانوا قد وصلوا الى كردستان أثناء المعارك . ولكن موقفا جديدا قد نشأ في كردستان في الوقت الراهن ، بعد درس سنة ١٩٧٤ وهو : أن الاكراد لا يحتاجون الى أصدقاء . فهم بقدرتهم على البقاء والاستمرار قد تفوقوا على اليونانيين والرومان والمنغوليين والعثمانيين والآن على الأمريكيين ، لذلك ربما يكون موقفهم صائبا .

كاليفورنيا ، أيلول ١٩٧٩

بعض ما قيل في الكتاب

"ان ابناء الجن ،هو مقدمة ضرورية جدا عن شعب شجاع وجدير بالاهتمام "

ـ وليم سيفر

لا أظن ان احدا قد مسرح" أفرغ في قالب مسرحي " فجوة الجهل والتشوش وسوء الفهم بين شعوب من الغرب ،حيث المجتمعات الصناعية ،وشعوب من المجتمعات الاسلامية على نحو افضل من هذا. فالمرء هنا لايرى الاكراد فحسب ،بل ايضا امبراطورية ايران الشاه المقسمة المتداعية للسقوط ،تنجح السيدة كان ،في الاحتفاظ بعنفوان وتوهج دهشتها الأصلية بهوءلاء الناس وبتلك المناظر الطبيعية على نحو لم يمسهما أي تغيير في كتاب مفعم باهتياج الثورة والحرب الاهلية كتاب مُتعقب خلسة وخفية نشاطات السافاك والمخابرات المركزية الامريكية ،انها قصة تتوزع بين الرومانسية والرعب ، قصة تزيد من معرفتنا وتنورنا اكثر ،وهي مقروءة والاقبال عليها شديد .

ـ جوناثان رابان

موءلف : رحلة في المتاهة

الفهرس

لقد كانت الجبال للأكراد، كالصحارى للعرب تماماً. فهي مأواهم ومعاشهم في السلم، وهي ملجؤهم في الحرب إذا مالت عليهم الحرب. بها يحتمون وفي شعابها يختفون. وكثيراً ما تحدث الرواة في كتب التاريخ عن الغزوات التي كانت تجتاح كردستان قديماً فيروون أن الأكراد كانوا يكمنون في بطون جبالهم، يترصدون غزاتهم، حتى إذا صاروا في المرامي فاجؤوهم كالجن من شقوق الجبال، وانقضوا عليهم خفافاً.

لعل اختفاء الجن عن أنظار الناس، وعزلة الأكراد الطويلة في جبالهم، واختفاءهم في بطونها عن أنظار مهاجميهم، . لعل هذا القاسم المشترك بين الجن والأكراد هو الذي شد الأكراد إلى الجن . . شدهم إلى حد الالتصاق بل إلى حد الانتساب.

ولعل هذا القاسم المشترك، إضافة إلى بعض الصفات السلوكية والخلقية مجتمعة، هي التي دفعت الرواة آنذاك أن يتوهموا في الأكراد ما توهموا، وأن ينسجوا حول أصلهم الخرافات والأساطير، فيعتقدون أنهم من الجن أو فيهم بعض ما في الجن وإلا فمن أين للأكراد أن يكونوا «أبناء الجن»؟ ومن أين انتقلت إليهم مورثات الحسناوات الأوربيات اللاتي اختارهن جان سليمان ـ كما تعقب الباحثة على الأسطورة، عاقدة وجوه الشبه بين ملامح النساء الكرديات والأوربيات؟

دحام عبد ال